ترجمة حقيقية لأكثر من ١٠٠ صحابي

أصحاب الرسول ﷺ

جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

قدم له

فضيلة الشيخ/ محمد حسان — فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود

فضيلة الشيخ/ زكي محمد أبو سريع — فضيلة الدكتور/ سيد حسين العفاني

دار التقوى
٦ ش فايد - المنشية الجديدة - شبرا الخيمة
ت: ٢٢٢٩٩١٨٠

إهـــــداء ٢٠٠٦

مرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

أصحاب الرسول ﷺ

المجلد الأول

جمع وترتيب
محمود المصرى
(أبو عمار)

مراجعة وتقديم
فضيلة الدكتور/ زكى محمد أبو سريع
فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود
فضيلة الشيخ/ محمد حسان
فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العفانى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار التقوى للإنتاج والتوزيع

ت: ٢٢٢٩٩١٨

٦ ش فايد - المنشية الجديدة - شبرا الخيمة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٩ / ١٨١٧٨

إهداءٌ واعترافٌ لأصحاب الفضل

قال ﷺ : «مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله»(١).

ومن هذا المنطلق فإننى أتوجه بالشكر لأصحاب الفضل الذين أُحبهم من أعماق قلبى.

* إلى أمى الحبيبة وأبى الحبيب

جزاكما الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وجعل هذا الكتاب، بل وكل كتاب فى ميزان حسناتكما.

وأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجعلنى ابنًا بارًا بكما فى الدنيا والآخرة، وأن يجمعنى بكما فى جنته ودار كرامته.

* فضيلة الدكتور/ زكى محمد أبو سريع

لقد ظننت فى لحظة أن الرحمة لم يعد لها مكانًا فى هذا الكون إلى أن رأيت ينابيع الرحمة تتدفق من قلبك الرحيم، فتعلمت منك أن الرحمة هى مفتاح كل خير.. فجزاك الله عنى خير الجزاء، فكم تعلمت على يديك واقتبست من أخلاقك العذبة.

فأسأل الله أن يجمعنى وإياك مع الحبيب ﷺ فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ إخوانًا على سُرٍر متقابلين.

---

(١) رواه أحمد والترمذى والضياء عن أبى سعيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٤١).

❊ فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود

إلى الجبل المتواضع . . العالم الربَّانى الذى ملأ الدنيا علمًا وفقهًا وتواضعًا.

تالله إنى أحبك فى الله . . . وأسأله تعالى أن يزيدك علمًا وتواضعًا، وأن يُسبغ عليك نعمة الصحة والعافية والستر، وأن يجمعنى بك فى جنته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

❊ فضيلة الشيخ/ محمد حسان

إلى بقية السلف الذى جعل الله له فى قلوب المؤمنين وُدًّا.

جزاك الله عنى خير الجزاء، فالله يعلم أننى ما كتبت كتابًا إلا وسألته أن يجعله فى ميزان حسناتك.

وما تمنيت أن ألقَى الله إلا بمثل عملك . . فأسأله تعالى أن يجمعنى بك فى جنته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

❊ فضيلة الشيخ/ أبى إسحاق الحوينى

(الألبانى) المصرى الذى أسأل الله أن يجعله من أطول هذه الأمة أعمارًا ومن أحسنهم أعمالاً.

جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فلقد ملأت الدنيا بعطر أهل الحديث فامتلأت قلوبنا بكلامك العذب الذى تنفتح له القلوب من أول وهلة.

فأسأل الله أن يجمعنى وإياك فى الجنة إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

❊ فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العفانى

إلى صاحب الهمة العالية الذى ملأ الساحة بتصانيفه النادرة الغالية النافعة.

إلى جبل التواضع الذى ملأ الدنيا بتواضعه وأخلاقه العذبة.

زادك الله همة إلى همتك ورزقك البركة فى الوقت والصحة ونفع الله

المسلمين بكتاباتك فى كل زمان ومكان وجعلها فى ميزان حسناتك ورفعك الله بتواضعك إلى أعلى درجات الجنة وجمعنى وإياك فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُرِرٍ متقابلين.

* إلى الأخوين الكريمين/ أسامة هريدى وهشام الدسوقى

لقد جمعنا الله فى هذه الدنيا على المحبة الخالصة التى لا تشوبها الشوائب، وهو القادر على أن يجمعنا فى الآخرة فى زُمرة المتحابين فيه ـ الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ.

جزاكما الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* إلى زوجتى/ أم عمار

التى ضحَّت بوقتها من أجل الله.

جزاكِ الله خير الجزاء.. وأسأله تعالى أن يعوضك فى جنته بالنعيم الدائم الذى لا يفنى أبدًا.

* إلى أبنائى/ عمار وهاجر

أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يبارك فيكما، وأن يجعلكما من عباده الصالحين المتقين الذين يبذلون النفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى.

* إلى كل مسلمٍ ومسلمة

لا تبخلوا على أخيكم (محمود) بالدعاء.. فوالله ما نسيت الدعاء للمسلمين والمسلمات فى أى صلاة ـ وأنا ساجد بين يدى الله ـ وجزاكم الله عنى خير الجزاء.

الفقير إلى عفو ربه

محمود المصرى

(أبو عمار)

مقدمة فضيلة الدكتور/ زكى محمد أبو سريع حفظه الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى الآل والصحب والأتباع إلى يوم الجزاء.. وبعد:

فإن الله ــ جلت حكمته ــ أرسل محمدًا ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ رحمة للثقلين فقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

يلمس هذا كل مَنْ أُوتى حظًا من تعقل بعد أن يقف على ما وصلت إليه الخليقة فى جاهليتهم قبل الإسلام...

فما من خطيئة تُسمع إلا وقد أخذوا منها بحظ وافر؛ ولولا حلم الله وعفوه لخرت الجبال هدًا؛ وسقطت السموات على الأرض من هول ما ألمَّ بالخليقة كلها من ظلم وظلام حالكين حتى إذا أخرج البصير يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور...

وعالمنا هذا كله محكوم عليه بالفناء؛ والأيام دول، ولابد لليلٍ طال أمده أن يحول ولظلم كثر أهله أن يزول ﴿كل مَنْ عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

وتعاقب الليل والنهار يأتى بالعجائب، وتصاريف القدر محيطة بها كلها، فبنو إسرائيل الذين مكثت فيهم النبوات والرسالات حينًا من الدهر، بل قرونًا كثيرة، لم يقفوا عند آداب الدين وتوجيهات الوحى... بل حرفوا الكلم عن مواضعه، وتنكبوا لنداءات الفطرة، فكانت شمسهم كاسفة، وقمرهم فى خسوف!!! وكانت عاقبة أمرهم خسراً.

ولو قرأنا عن أحوالهم وآثارهم وأجداثهم لسمعنا ناطقًا يتلو قول الحكم

العدل: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون﴾.

إنها الآيات الكونية التى لا مبدل لها، فالظلم وأهله إلى بوار وهلكة، والعدل والمتمسكون به إلى فوز ونجاة ﴿سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ لقد رَحَل الظلام بجحافله، وتنفس الصبح لذى عينين، وأشرقت شمس الإسلام من جديد، ولم يعد للملل الباطلة مجال أو وجود...

بعث الخاتم بالملة الحنيفية السمحة ـ على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم ـ فغيّر مسيرة التاريخ واتجاه الكون من وثنية عمياء بغيضة إلى توحيد مشرق ناطق بأحديّة القائم على الأكوان خلقًا وإحاطة وتدبيراً...

إنه الدين القائم على العقل السوى والفطرة النقية؛ لا يقر الطلاسم ولا اللاهوتية المتناقضة، بل سار على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك...

لقد حمل المشعل ـ محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ومعه نفر قليل ـ بادئ الأمر ـ ثم لم يلبثوا أن ازدادوا يومًا بعد يوم، ولم ينكص واحد منهم على عقبيه سخطًا لدينه بعد أن شُرحت صدورهم له... ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾.

لقد سارت قافلة النور والتوحيد لا تلوى على شىء إلا أن تُرضى مَنْ بيده الخلق والأمر، والنفع والضر: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.

لقد سار أصحاب محمد ﷺ معه وقد ملأ الإيمان كل دروب الحياة، وخالطت بشاشته قلوبهم، وشرحت له صدورهم ووجدوا محبته غالبة على محابهم ومواجيدهم حتى قال أبو سفيان ـ رضى الله عنه ـ وقد كان وقتئذ على الكفر: «ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً».

الله أكبر!!!

إنها القلوب العامرة بالإيمان، والأبصار التى تنظر إلى الأفق البعيد حيث الفردوس الأعلى وجنات النعيم.

وإذا كان اجتماع الضدين ـ فى محيط العقل ـ مُحالاً، إلا أنه فى مجال الشرع جائزاً، فقد جعل الحق ـ عز وجل ـ قلوب الصحابة فى غاية الرحمة فيما بينهم وغاية فى الشدة على أعداء الدين... يقول ـ عز وجل ـ: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...﴾.

﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

لقد ذهبوا إلى المشارق والمغارب يحملون لواء الحق والجهاد فدكوا عروش الأكاسرة والقياصرة، قلوبهم كالجبال رسوخًا وعزة وصلابة فى الحق، يصومون النهار مجاهدين، ويقومون الليل تالين كتاب الله وقَّافين عند حدوده وآدابه فأعز الله بهم دينه ورفع بهم لواءه وأعلا بهم كلمته...

إن الفتوحات الإسلامية الباهرة لم تكن بخطب نارية أو شرائط صوتية أو بتقمص لشخصيات فى ذمة الله أصحابه، ولكن كان ذلك بالعمل الشرعى الذى لا يخشى صاحبه فى الله لومة لائم...

والآن ـ بعد أن صارت الأمة إلى حالة لا تفرح الحبيب ولا تحزن العدوّ تملك رصيداً من الكلام لا يقارن بما تقدمه من عمل، حتى تحرش بها أجناس الكفر... وغاية الكثيرين ممن يتقمصون شخصية «صلاح الدين» رحمه الله تعالى ـ أن يُعربوا عن الأسى والحزن لما يجرى ويشجبوا العدوان وأهله!!!

ويزدادون جرأة فيُحملون العدو عواقب العدوان!!!

والأعداء قد خبروا شهامة المسلمين ونجدتهم المفتقدة فأخرجوا لهم الألسنة هزءًا وسُخرية... وأمعنوا فى إذلالهم لهذه الأمة حتى تنقَّصوها من أطرافها.. وبين الحين والحين تختفى دويلات من خارطة الأمة المهيضة الجناح.. وطعام الأمة وشرابها يزيد ولا ينقص؛ والضحك ملء الأفواه، والنوم ملء الجفون.. وتحقق فينا قول الشاعر:

لقد أسمعت إذا ناديت حيًا ... ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادى

وقول الآخر:

مَنْ يهن يسهل الهوان عليه ... مـا لجـرح بميـت إيـلام

مَنْ لنا بالفاروق أو سعد أو أبى عبيدة أو خالد أو المعتصم أو صلاح الدين؟!! مَنْ لنا بهم حتى يعيدوا إلى الأمة تماسكها بعد أن تهاوت وتردَّت فى واد سحيق؟!!!

والكتاب الذى بين أيدينا بعنوان «أصحاب الرسول ﷺ» يعود بنا إلى حياة هؤلاء الأعلام والأعزة المغاوير الذيْن أحبوا الموت والشهادة أكثر من محبة الكثيرين للترف وذليل الحياة...

يجسد حياتهم الوضاءة المشرقة إذْ كان الواحد منهم إسلامًا يمشى على الأرض مُؤتمرًا بجميع الأوامر مُنتهيًا عن جميع النواهى شديد الخشية لرب الأرباب. يعملون فى الخفاء ابتغاء مرضاة الله ــ تعالى ــ ولا يحبون أن يُحْمدوا بما لم يفعلوا... فكانوا حزب الله المفلحين... ولا مقارنة بينهم وبين مَنْ يزعم أنه يعمل عملهم فهم عند الثريا وغيرهم فى طبقات الثرى التى توطأ بالنعال!!!

وصاحب الكتاب غنى عن تعريفى به . . .

فهو الشاب الشيخ «**محمود المصرى**» (**أبو عمار**) البحاثة الدءوب فى تمييزه للسمين من الغث أثناء تعرضه للكم الهائل من تراث أمتنا فى مجالات علمية متعددة . .

نسأل الله الحى القيوم ذا الجلال والإكرام أن يجزل له العطاء فى الدارين وأن ينفع بالكتاب كما نفع بأصوله، وأن يلحقنا بسلفنا الصالح على خير حال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيد المعلمين والقادة المربين وعلى آله وصحبه.

العبد الفقير

إلى عفو مولاه القدير

زكى محمد أبو سريع

يوم الجمعة الموافق: ١١ من شعبان ١٤٢٠هـ

١٩ من نوفمبر ١٩٩٩م

مقدمة فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود حفظه الله

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشرَّ الأمور مُحدثاتها وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

إن دراسة التاريخ الإسلامى عامة.. وتاريخ الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة (خاصة) يمثل خطوة عظيمة فى طريق بعث الأمة؛ لأنه يدفع الأمة المسلمة لأن تقوم مرة أخرى وتنفض غبار الغفلة فتستعيد أمجادها وتعود مرة أخرى لتقود العالم كله إلى خيرى الدنيا والآخرة.

فأصحاب النبى ﷺ هم خير جيل عرفته البشرية كلها وهم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ـ صلوات ربى وسلامه عليهم ـ قوم اختارهم الله لصحبة

نبيه أبرّهم قلوبًا وأعمقها فكرًا وأقلها تكلفًا، ولابد للمتأخِّر أن يعرف فضل المتقدِّم، وذلك لأننا نعيش زمانًا نفتقد فيه إلى القدوات الصالحة.

ولذلك فإن الكتابة عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات الناصعة التى سطّروها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور لهى من الواجب الذى يحتمه علينا هذا العصر الذى نعيش فيه معمعة الأفكار واضطراب الموازين وموالاة الكافرين.

وكل ذلك لأن الأمة قد ابتعدت كثيرًا عن مصدر عزها ونبع شرفها ومعين كرامتها فأذلها الله لأذل الأمم.. فى الوقت الذى أعزَّ الله فيه أصحاب الحبيب ﷺ لما ساروا على منهج الله واهتدوا بهدى رسول الله ﷺ.

فسخَّر الله لهم الكون كله. بل لقد تنزلت الملائكة لتؤيدهم فى غزوة بدر وغيرها... ولقد أثنى الله عليهم فى كتابه أبلغ الثناء

فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهم المخاطَبون ابتداءً بتلك الآيات.

لقد خرجوا من أموالهم وديارهم وبذلوا النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) فدانت لهم الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وكانت راية الإسلام خفاقة عالية.

ومن أجل ذلك جاءت الحاجة إلى معرفة أحوال هؤلاء الصحب الكرام الذى تربَّوا بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الحق ــ جل جلاله ــ ليربى به

الأمم والأجيال فى كل زمان، بل وفى كل مكان.

وما أجمل ما قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون علىٰ دينه، فما رأى المسلمون حَسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيء»[1].

وهذا الكتاب الذى سطَّره قلم الأخ الكريم/ **محمود المصرى (أبو عمار)** فيه فيضٌ نافع وخيرٌ كثير، وجهدٌ يُشكَر عليه حيث بدأه بمقدمة بيَّن فيها فضائل الأمة المحمدية على وجه العموم، وفضائل الصحابة والأنصار ـ على وجه الخصوص ـ.

وثنَّى بذكر الأدلة القاطعة على تحريم سَبِّ الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ثم بدأ الكتاب بذكر العشرة المبشَرين بالجنة، وأتبعهم بذكر تسعين صحابيًا ليكون ذلك تمام المائة.

فجاء الكتاب حاويًا لمئة شخصية فريدة من صفوة الأمة من الرعيل الأول.

وكل ذلك جاء بأسلوبٍ سهلٍ يسير.

فلنحرص على اقتناء هذه السلسلة الفريدة لما فيها من فرائد الفوائد وقلائد الحِكَم والمناقب.. مُحققة تحقيقًا علميًا دون حشوٍ أو تعقيد.

فجزاه الله خير الجزاء ونفع به.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

(أبو عبد الرحمن)

محمد بن عبد المقصود العفيفى

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

مقدمة فضيلة الشيخ/ محمد حسان حفظه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. هو الواحد الذى لا ضد له، وهو الصمد الذى لا منازع له.. وهو الغنى الذى لا حاجة له... وهو القوى الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.. وهو جبار السموات والأرض؛ لا راد لحكمه ولا مُعقب لأمره.

هو الأول فلا شىء قبله، وهو الآخر فلا شىء بعده.. وهو الظاهر فلا شىء فوقه... وهو الباطن فلا شىء دونه، وهو على كل شىء قدير.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.. وصفيه من خلقه وخليله أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغُمَّة، وعَبَدَ ربه حتى لبَّى داعيه، وجاهد فى سبيله حتى أجاب مناديه، وعاش طوال أيامه ولياليه.. يمشى على شوك الأسى ويخطو على جمر الكيد والعنت، يلتمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين.. حتى علَّم الجاهل.. وقوَّم المعوج، وأمَّن الخائف.. وطمأن القَلِق.. ونشر أضواء الحق والخير والإيمان والتوحيد كما تنشر الشمس ضياءها فى رابعة النهار، فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيًا عن أمته، ورسولاً عن دعوته ورسالته.

اللهم صلِّ وسلم وزد وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

أخي الكريم:

إن هذا الكتاب الذى بين يديك رحلة فى حديقة الإسلام نطوف بين

رياضها العطرة الذى يفوح أريجها معطراً بشذا الجنان الفيحاء.

نتنقل فى هذه الحديقة الغنَّاء التى حوت من الأزهار أجملها ومن الرياحين أطيبها ومن المياه أعذبها لنتعرف على رجال تربوا على مائدة القرآن وكان معلمهم إمام الأنبياء وخير الأنام محمد ﷺ.

وهو محاولة لإبراز هِمم هؤلاء الرجال العالية فى الدعوة والجهاد والعلم والفهم والصبر والزهد والتواضع والورع.. إلى آخر هذه المثاليات التى لن تجد لها فى تاريخ العالمين نظير.

إن دراسة التاريخ الإسلامى ـ وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء والمجاهدين والقادة من سلفنا الصالح ـ إذا أُحسن عرضها وأُبرزت خصائصها، وبطولات رجالها الذين كانوا رعاة للغنم، فجعلهم الإسلام سادة وقادة للأمم، فإنه حتمًا ينمى فى شباب الإسلام ويبعث فيهم روح الولاء لله ورسوله، ويدفع هممهم إلى معالى الأمور، ويكشف عن طاقاتهم المذخورة ويستثمرها حتى ننهض بهذه الأمة المكلومة التى بعدت كثيراً كثيراً.

أخى القارئ الكريم:

إن دراسة سير الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء العاملين من الأهمية بمكان، خاصة إذا اعتمدت على منهج المحدثين فى نقد الروايات والأخبار.

إنك ـ أخى الكريم ـ إذا ما وقفت على كتب التاريخ والسير بدراسة واعية متأنية تشعر بضخامة الانحراف والخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين ـ قدامى ومعاصرين ـ فالقدامى جمعوا الآثار والأخبار صحيحها وسقيمها ودَوَّنُوها فى كتبهم، ومنهم ذو ميول وأهواء، ومنهم ثقات وعدول، ولكنهم

فى هذا الطور كما قال يحيى بن معين: «إذا كتبت فقمِّش، وإذا حدثت ففتِّش».

أما المعاصرون فحدِّث ولا حرج فقلما تجد من يلتزم التحقيق العلمى المعتمد على المقاييس الشرعية.

لذلك فإن التاريخ الإسلامى اعتراه كثير من التشويه والدس والنسيان، ولم يجد من يحميه ويصونه مثل الحديث النبوى الذى نشأت له علوم لا تدرك نهايتها الكتب والأقلام.

كما أنك تجد أن السيرة النبوية ــ ولله الحمد والمنة ــ قد لقيت عناية فائقة فى التدوين والتأليف، وفى النقد والتحقيق على يد علماء الحديث، بينما لم يجد التاريخ علومًا تسهم فى حفظه على وجه التمام والكمال، ولا جهودًا تميز غثه من سمينه، وخبيثه من طيبه، وأصيله من دخيله، وصحيحه من ضعيفه.

ونحن ــ والذى رفع السماء ــ لفى مسيس الحاجة ــ فى هذه الأزمان ــ لقراءة سير السلف الصالح فما أحوجنا إلى القدوة الحسنة، ولذا فنحن نهيب بإخواننا الآباء والمربين أن يقرءوا على أبناءهم وطلابهم سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين.

فلا شك أن إبراز تاريخ هذه الأجيال والتركيز على ما قاموا به فى تحملهم أمانة الدعوة إلى الله، وما أصابهم فى سبيلها من الأذى والعنت يكون له أعظم الأثر فى أن نعرف لهم قدرهم وفضلهم ونحبب أبناءنا فى التأسى بهم والاعتزاز بالانتساب إليهم ليرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق ذى التاريخ المشرق المنير فى الدعوة ونشر العلم والتوحيد، وقيادة البشرية قيادة راشدة إلى مراقى الفلاح.

فهيا إلى هذه الواحة اليانعة الممتعة لنعيش فى رحاب الصادقين الأبرار ولنستنشق عبير الصدق.. عسى الله أن يُلحقنا بهم فى جنته ومستقر رحمته. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

جزى الله أخانا الحبيب/ محمود المصرى (أبو عمار) على هذا الجمع الطيب المبارك وجعله فى ميزان حسناته وزاده توفيقًا وتسديدًا ورشادًا، وجعلنا جميعًا من الصادقين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

(أبو أحمد)

محمد حسان

مقدمة فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العفانى حفظه الله

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.. وبعد.

فعلى استحياء منى أقدم للشيخ الحبيب الغالى/

محمود المصرى «أبو عمار» جعل الله أيامه عامرة بالعطاء لدينه.. والشيخ يُحسن الظن بى، وإنما نحن قوم مساكين، ليس هذا مقامنا.. وهذا الغالى الداعية الخيِّر عالى الهمة يكتب عن السادة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قال فيهم النبى ﷺ:

«خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»[1].

ويقول فيهم الشاعر:

تركنـا البحـار الزاخـرات وراءنـا فمن أين يدرى الناس أنَّا توجهنا

فبارك الله له فى سعيه وقلمه الطيب العَطِر الفوّاح وجعل هذا الكتاب القيم فى ميزان حسناته ووفّاه أجره كاملاً ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه الفقير إلى رحمة ربه

سيد بن حسين العفانى

شعبان ١٤٢٠هـ

(١) متفق عليه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣٢٩٥).

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١).

أما بعد:

إن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح عليه أمر أولها.

ولا يشك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر أن أصحاب النبى ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ـ عليهم أفضل الصلاة والتسليم ـ وأنه ﷺ سيد ولد آدم.. وصحابته هم خير قرنٍ وأُمة وُجدت على وجه الأرض.

وإن معرفة أحوالهم وأخلاقهم وسيرهم لَتضىء الطريق أمام المؤمن الذى يريد أن يعيش أُسوة محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١).

فالصحابة (رضى الله عنهم) هم حَمَلة الإسلام وحَفَظته بعد رسول الله ﷺ .

اختارهم الله واصطفاهم لصُحبة نبيه ﷺ ونشر رسالته من بعده.

عدَّلهم وزكاهم ووصفهم بأوصاف الكمال فى غير ما آية من كتاب الله.

فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

إنهم نوعٌ فريدٌ من الرجال لم تعرف البشرية لهم نظيرًا فى تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن.

لقد حاز أصحاب محمد ﷺ قَصَب السبق فى كل شىء فهم قمة فى التقوى والورع وآية فى التجرد والإخلاص ومشعل فى العلم والعمل ونبراس

فى الدعوة والحركة.

«فأى خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأى خطة رشدٍ لم يستولوا عليها؟!

تالله لقد وردوا الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زُلالاً وأيَّدوا قواعد الإسلام فلم يَدَعوا لأحدٍ بعدهم مقالاً.

فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان.. والقرى بالجهاد والسنان(١)».

هم أنصار الدين فى مبتدئ نشأته

بذلوا المُهج يوم بَخِل أهل الدراهم بدراهمهم.

رجال المغارم يوم يندسّ المغمورون فى ثيابهم.

هم لله ــ عز وجل ــ قلوبًا وأبدانًا ودماءً وأموالاً.

لم يجعلوا هَمهم حشو البطون ولا لُبس الحرير ولا الإغراق فى النِعم.

حفظوا الشرع من أهواء الزائغين.. وحَمَوا الملة من زحف المناوئين.. شهدوا التنزيل وعملوا بما فيه طائعين... حملوا الوحيين وحضروا البيعتين.. وصلَّى أكثرهم إلى القبلتين.

كلٌ له همٌ.. وهَمّهم رفعة (لا إله إلا الله) كلٌ له قصدٌ.. وقصدهم الجليل فى عُلاه.

خرجوا من أموالهم لله ولرسوله ﷺ فما شفى ذلك لهم غليلاً. فأبوا إلا أن يقدموا الأرواح ويسيلوا الدماء ويستعذبوا العذاب فى سبيل الله.

فرضى الله عنهم وأرضاهم وأكرم فى جنات الخلد مثواهم(٢).

من كان متأسيًا فليتأس بهم فإنهم أبرّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن القيم (١/ ٥ ــ ٦).

(٢) من مقدمة الشيخ عائض القرنى (صور من سير الصحابة) (ص ٣ ــ ٤) بتصرف.

تكلفًا وأقومها هَديًا وأحسنها حالاً.

هُـم الرجـال بأفيـاء الجهـاد نَمَـوا
وتحت سقف المعالى والندى وُلدوا
جباههـم مـا انحنـت إلا لخالقهـا
وغير من أبدع الأكـوان ما عبـدوا
الخاطبـون مـن الغايـات أكرمهـا
والسابقـون وغير الله ما قصـدوا

ومن هنا كان لزامًا علينا معرفة أخبارهم وسيرهم ونشرها بين المسلمين... عِظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد.

وذلك لأنهم نَقَلَةُ الإسلام إلينا نقلاً صحيحًا... ولأن المحافظة على الإسلام تستوجب العناية بتاريخهم لئلا يجد أعداء الإسلام سبيلاً للطعن فى الإسلام عن طريق الطعن فى نَقَلته.

ولذلك فإن الكلام عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات التى سطّروها واجبٌ مُحتَّم علينا فى هذا العصر الذى نعيش فيه اضطراب الموازين والوقوع فى الصحابة الأبرار. إنه واجبٌ لردع أهل الهوى من الزنادقة والملاحدة وأهل الكفر والابتداع الذين انتقصوا وسَبُّوا خير جيلٍ وطائفة وُجدت على وجه الأرض!!!.

لا لشىء إلا لأنهم حَمَلَةُ الإسلام ورُواة الأحاديث التى تهدم بِدعهم وتُظهر ضلالهم وتُبرز خُبث طويتهم.

ولعل ديننا القويم قد تميز عما سبقه من الأديان بمعجزة تتجدد فى كل وقتٍ

وآن.. ألا وهى معجزة الرجال الذين عاشوا حياتهم للإسلام ولم يعرفوا للراحة طعمًا ولم يعرف الخُمول إلى نفوسهم طريقًا فكانوا حركة مشبوبة لا تهدأ ولا تفترُ ولا تكلّ ولا تملّ.

لا يهمُها من الحياة مالٌ ولا متاع ولا تشغلها دون غاياتها زخارف الدنيا وبهجتها.

وحّدوا همِتهم فى إرضاء الله... محققوا من بواطنهم كل نية تشوبها الشوائب فكانوا خالصين لله.. فأكرمهم الله بأن جعلهم معجزة من معجزات نبيه الكريمﷺ .

يُثبتون للدنيا كلها أن دين الله تامٌ مُكمل، وأن شرع الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأن الله مُتم نوره ولو كَرِه الكافرون.. ولو كره المنافقون والظالمون والفاسقون.

إن أخبار هؤلاء الأخيار دواءٌ للقلوب وجلاءٌ للألباب من الدنَس والعيوب.. وقدوة فى زمنٍ كادت القدوات فيه أن تغيب.

فهم مثالٌ يُحتذَى ونبراسٌ يُقتدَى.. ليعرف المتأخِر للمتقدم فضله ويسعى على دربه ونهجه.

بالوقوف على أخبار هؤلاء الأخيار تحيا القلوب.. وباقتفاء آثارهم تحصل السعادة... وبمعرفة سيرهم ومناقبهم تكون القدوة بجميل الخصال ونبيل المآثر والفِعال.

وإنى لأستغفر الله على تقصيرى فى تلك الصفحات التى سطّرتها بمداد قلبى للوقوف على سيرة هؤلاء الأطهار الذين عشت فى رحاب سيرتهم شهورًا طويلة لم يتسرب فيها الملَل إلى نفسى لحظة واحدة لأننى كنت أشعر

بأننى أعيش فى جنة الدنيا.

فهيا بنا أيها الإخوة الأعزاء وأيتها الأخوات الفُضليات لنعيش سويًا فى رحاب مائة صحابى من أصحاب الحبيب ﷺ الذين سطَّروا على جبين التاريخ سطوراً من النور. . . راجيًا من الله ــ عز وجل ــ أن ينفع بهذا الكتاب كل مسلمٍ ومسلمةٍ فى هذا الكون، وأن يكتب له القَبول بين المسلمين وأن يرزقنى فيه الصدق والإخلاص وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم أُدرج فى أكفانى.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

محمود المصرى

(أبو عمار)

فضائل الأمة المحمدية
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

سبحان مَن قدّمنا على جميع الناس وسقانا من معرفته أروى كاس، وجعل نبينا أفضل نبى رعَى وساس، فلما فضّله على الأمة وأنعم علينا بعُلو الهمة قال لنا: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس﴾(١).

إننا أمة رسالة ولا يجب أبدًا أن نتخلى عن تلك الرسالة فلقد أخرج الله أمة الإسلام لتكون بمثابة المشعل الذى يضىء الطريق لكل الأمم كى تسير على النهج الذى اختاره الله للبشرية جميعًا. ففى الوقت الذى كلف الله فيه الأمم السابقة بأن تستقيم فى ذاتها لله ــ جل وعلا ــ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، كلَّف الله أمة الإسلام بتكليفين عظيمين:

١ ــ كلفها بعبوديتها لله ــ جل وعلا ــ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

٢ ــ ثم كلفها بأن تكون أمة هادية لكل البشرية وشاهدة على كل البشرية فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذا هو السر فى خيرية تلك الأمة المسلمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

(١) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٥٨٥).

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠][1].

وعن أبى سعيد الخدرى أن الحبيب ﷺ قال: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلَّغت؟ ـ أى الرسالة ـ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][2].

وعن أُبىّ بن كعب فى هذه الآية قال: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلَّغتهم وأنهم كذَّبوا رسلهم، قال أبو العالية: وهى قراءة أُبىّ: «لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة». ومن حديث جابر عن النبى ﷺ: «ما من رجل من الأمم إلا وَدَّ أنه منّا أيتها الأمة، ما من نبى كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة، أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم»[3].

بل قال ﷺ: «أنتم شهداء الله فى الأرض والملائكة شهداء الله فى السماء»[4].

وإليكم جميعًا أيها الإخوة الكرام وأيتها الأخوات الفُضليات تلك الباقة العطرة من فضائل أمة الحبيب ﷺ قبل أن نتحدث عن فضائل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على وجه الخصوص.

---

(١) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٦) ط. دار الفردوس.

(٢) أخرجه البخارى (٤٤٨٧) التفسير ـ باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا....» الآية.

(٣) قال الحافظ فى الفتح (٨/ ٢١٨): أخرجه ابن أبى حاتم بسند جيد عن أبى العالية عن أبى بن كعب.

(٤) رواه الطبرانى عن سلمة بن الأكوع وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٩٠).

* قال ﷺ : «إنكم تُتمون سبعين أُمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»(١).

* وقال ﷺ : «مَثلُ أمتى مَثلُ المطر لا يُدرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخره»(٢).

* وقال ﷺ : «أُمتى هذه أُمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة إنما عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا»(٣).

* وقال ﷺ : «إنَّ الله تعالى إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده قبض نبيها قبلها؛ فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذَّبها ونبيها حيٌ فأهلكها وهو ينظرُ فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمرهُ»(٤).

بل لقد اجتمعت من رحمات الله لهذه الأمة ما لم تجتمع لغيرها.

* قال ﷺ : «إن الله تجاوز لأمتى عما توسوس به صدورهم ما لم تعمل أو تتكلم به وما استُكرهوا عليه»(٥).

* وقال ﷺ : «إن الله تعالى قد أجار أمتى أن تجتمع على ضلالة»(٦).

* وقال ﷺ : «إن الله تعالى: يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٧).

* وقال ﷺ : «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعلت تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء، وأُعطيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش لم

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).
(٢) رواه أحمد والترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٥٤).
(٣) رواه أبو داود والطبرانى فى الكبير والحاكم عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (١٣٩٦).
(٤) اخرجه مسلم عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (١٧٠٧).
(٥) رواه ابن ماجة والبيهقى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٢٩).
(٦) رواه ابن أبى عاصم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٨٦).
(٧) رواه أبو داود والبيهقى فى «المعرفة» عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٧٤).

يُعطها نبيٌّ قبلى»(١).

* وقال ﷺ : «لم تَحلّ الغنائم لأحدٍ سودِ الرؤوس من قبلكم. كانت تُجمع وتنزل نار من السماء فتأكلها»(٢).

ـ ونظرًا لقصر أعمار هذه الأمة المباركة فلقد أكرمها الخالق (جل جلاله) بمضاعفة الأجر على سائر الأمم من قبلها.

* قال ﷺ : «إنما أجلكم فيما خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر أُجراء فقال: مَنْ يعمل من غُدوةٍ إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقلّ عطاءً؟ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أُوتيه من أشاء»(٣).

* وقال ﷺ : «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا لك، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه، فاستأجر أجراء بعدهم، فقال: اعملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقى من النهار شىء يسير، فأبوا،

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن حذيفة ـ صحيح الجامع (٤٢٢٣).

(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٩٦).

(٣) أخرجه البخارى وأحمد ومالك والترمذى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٢٣١٥).

فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور»(١).

بل إنه فى آخر الزمان عندما ينزل عيسى ـ عليه السلام ـ مرة أخرى فإن الله يجعله يصلى خلف رجلٍ من أمة الحبيب ﷺ تكرمة لهذه الأمة الميمونة المباركة.

* قال ﷺ : «منّا الذى يصلى عيسى بن مريم خلفه»(٢).

بل لقد وصف النبى ﷺ أمته وكيف يكون حالها يوم القيامة وكيف يكون حسابها وأخبر أنهم أكثر أهل الجنة.

* قال ﷺ : «إن أمتى يُدعون يوم القيامة غُرًا مُحجّلين من آثار الوضوء»(٣).

* وقال ﷺ : «نحن آخر الأمم وأول من يحاسَب يقال: أين الأمة الأمّية نبيها فنحن الآخرون الأولون»(٤).

* وقال ﷺ : «ليدخلنّ الجنة من أمتى سبعون ألفًا أو سبعمائة ألفٍ متماسكون آخذٌ بعضهم بيد بعض لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(٥).

* وقال ﷺ : «أُعطيت سبعين ألفًا من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب

---

(١) اخرجه البخارى عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (٢٨٥٢).
(٢) رواه أبو نعيم فى كتاب «المهدى» عن أبى سعيد ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٢٠).
(٣) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٠٠٥).
(٤) رواه ابن ماجة عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٤٩).
(٥) متفق عليه عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٥٣٦٥).

وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ فاستزدت ربى ــ عز وجل ــ فزادنى مع كل واحدٍ سبعين ألفًا»(١).

وفى رواية قال ﷺ : «وعدنى ربى أن يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثياتٍ من حثيات ربى»(٢).

* وقال ﷺ : «ما من أمةٍ إلا وبعضها فى النار وبعضها فى الجنة إلا أمتى فإنها كلها فى الجنة»(٣).

أى من مات على التوحيد ولو كان من أهل الكبائر فإن مصيره فى النهاية إلى الجنة ــ خلافًا لما عليه المعتزلة من أن أهل الكبائر سيُخلَّدون فى النار ــ ولذلك خصص النبى ﷺ ذلك بقوله «إلا أمتى». . ومعلوم أن المشرك والمرتد ليس من أمته.

* وقال ﷺ : «أهل الجنة عشرون ومائة صفٍ، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»(٤).

فيا ليتنا نستشعر قدر نعمة الإسلام كما عرفها الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ فملكوا الدنيا بأسرها وأعزهم الله فى كل بقعة من بقاع الأرض.

وها هو الخالق ــ جل جلاله ــ يدعونا لكى نشعر بتلك النعمة ونثبت عليها ونموت عليها. . . قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

---

(١) رواه أحمد عن أبى بكر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٧).
(٢) رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١١١).
(٣) رواه الخطيب البغدادى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٣).
(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة عن بريدة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

وصدق من قال:

مَلَكنا هذه الدُّنيا القُرونا ... وأخضعها جدودٌ خالدونا
وسطرنا صحائفَ من ضياء ... فما نسيَ الزمانُ ولا نسينا
وكُنَّا حين يأخذنا وليٌّ ... بطغيان نَدُوسُ له الجبينا
تفيض قلوبنا بالهدى بأسًا ... فمتى نغضى عن الظلم الجفونا
بنينا حُقبة فى الأرض مُلكًا ... يُدعِّمه شباب طامحونا
شبابٌ ذللَّوا سُبُلَ المعالى ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهُم فأنبتهم نباتًا ... كريمًا طاب فى الدنيا غُصُونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُماةً ... يدُكُّون المعاقد والحُصونا
شبابٌ لم تحطمه الليالى ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينا
وإن جنَّ المساءُ فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينا
كذلك أخرج الإسلامُ قومى ... شبابًا مُخلصًا حُرًا أمينا
وعلَّمه الكرامة كيف تُبنى ... فيأبى أن يُقيَّد أو يهُونا
وما فتئَ الزمانُ يدور حتى ... مضى بالمجد قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى فى الرَّكب قومى ... وقد عاشوا أئمَّتهُ سنينا
وآلمنى وآلم كلَّ حُرٍ ... سؤالُ الدهر أين المسلمونا
ترى هل يرجع الماضى فإنى ... أذوبُ لذلك الماضى حنينا
دعونى من أمان كاذبات ... فلم أجدِ المُنَى إلا ظُنونا
وهاتوا لى من الإيمان نوراً ... وقوُّوا بين جنبىَّ اليقينا
أمُدُّ يدى فأنتزعُ الرواسى ... وأبنى المجد مؤتلفًا مكينًا[1]

فالحمد لله أولاً وآخراً على نعمة الإسلام.

❋ ❋ ❋

(١) ديوان هاشم الرفاعى ــ نقلاً من صلاح الأمة (٣/ ٤٩٧ ــ ٤٩٨).

بعض فضائل الصحابة
(رضى الله عنهم)

لله دَر أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلّصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها، فعن إبعاد مثلهم وقع نهى النبى ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾.

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس فى أخلاط والقوم فى عافية، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشى ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾.

دموعهم بالأحداق محدقة ورؤوسهم فى الأسحار مُطرقة، وأكُفُّهم بما تسكبه فى الخير منفقة، ونفوسهم بعد الجد من اللوم مشفقة، يردون من حياض المصافاة على أوفى الرى ﴿**يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾.

خلصوا الأعمال من الأكدار نفلاً وفرضًا واجتهدوا فى طاعة مولاهم ليرضى، وحضوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظ حضًا، وغضوا أبصارهم عن غض الشهوات غضًا، فإذا أبصرتهم رأيت أجسادًا مرضى وعيونًا قد ألفت السهر فما تكاد تطعم غمضًا، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضّى فأمدهم بالعون السرمدى ﴿**يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾.

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا وشكروا، وجاءوا بكل ما

يرضى ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو[1] فما انقشعت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان فى المكان العلى ﴿**يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾[2].

كانت قلوبهم بالحق متعلقة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هدلت حمائم نوحهم هطلت غمائم شجوهم، دموعهم فى الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف، خوفهم شديد وما فيهم مخالف، إذا جَنَّ الليل فالقدم واقف، يحنون إلى الحبيب حنين شارف[3] الدمع مساعد والحزن مساعف.

علموا أن الدنيا متاع يفنى فعبروها وما عمروها للسكنى، واشتغلوا بدار كلما نقضت هذه تبنى، طرق الوعظ أسماعهم فتلمحوا المعنى، يأخذون أهبة الرحيل «ولا يأخذون عَرَض هذا الأدنى» لا كبر عندهم تراهم بين المساكين والزَمنى، لو تأملتهم رأيت ضلوعًا على المحبة تحنى، حلف صادقهم على هجر الهوى والله ما استثنى، وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم أغنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لبنى.

قال النبى ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمّار وسلمان»[4].[5]

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض فضائل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فعلينا أن نذكر أولاً تزكية الخالق ـ جل وعلا ـ لهم فى كتابه الكريم.

فهم الذين قال الله فى حقهم: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) جاهدوا الشيطان وأنفسهم فإن أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه.

(٢) التبصرة للإمام ابن الجوزى (١/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨) بتصرف ـ ط. دار ابن خلدون.

(٣) الشارف: الناقة المسنّة.

(٤) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٥) التبصرة للإمام ابن الجوزى (١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣) بتصرف.

وقال تعالى عنهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [البينة: ٨].

وقال- عز وجل- فى حقهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وزكّاهم الله ــ جل وعلا ــ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال ــ عز وجل ــ فى حقهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ ــ ٩].

وقال تعالى فى حقهم: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨: ٨٩].

وقال تعالى فى حقهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى في حقهم: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وأمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه معهم، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

بل هم المخاطَبون ابتداءً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وبقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

[آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤]

ما قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن أصحاب الحبيب ﷺ

وما أجمل ما قاله ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيء»[1].

وقال أيضًا: «من كان مستنًا بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، فأولئك أصحاب محمد ﷺ أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا قد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم على الهدى المستقيم»[2].

الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ

وها هى أوسمة الشرف التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه ــ رضى الله عنهم ــ ونظرًا لكثرتها فسوف نكتفى بذكر بعضها ــ فالقليل منها كثير ــ.

فعن عمران بن حصين ــ رضى الله عنهما ــ يقول: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتى قَرنِى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا، «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذُرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمن»[3].

وعن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧) والهروى ورقمه (٨٦)، وفيه من طريق قتادة عنه فهو منقطع (قاله الألبانى فى تخريج المشكاة ص ١٩٣).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

قال: «خيرُ الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىءُ قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» قال: قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار(١).

وفى الصحيحين من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: مُرَّ بجنازة فأثنى عليها خيرًا. فقال النبى ﷺ : «وجبت، وجبت وجبت»، ومُرَّ بجنازة فأثنى عليها شرًا. فقال نبى الله ﷺ : «وجبت، وجبت، وجبت». قال عمر: فدى لك أبى وأمى، مُر بجنازة فأُثنى عليها خيرًا فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرًا، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟

فقال رسول الله ﷺ : «من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض»(٢).

وعن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخى!»(٣).

وعن سعيد بن أبى بُردة عن أبيه. قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زلتُم ها هنا» قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلى معك العشاء قال: «أحسنتم، أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا مما يرفعُ رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء

(١) أخرجه البخارى (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٧) الجنائز ـ ومسلم (٩٤٩) الجنائز.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) فضائل الصحابة.

فإذا ذهبت النجومُ أتى السماء ما توعدُ، وأنا أمَنَةٌ لأصحابى فإذا ذهبتُ أتى أصحابى ما يُوعدون، وأصحابى أمَنَةٌ لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون»(١).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ(٢) من الناس فيقولون: فيكم من صاحبَ(٣) رسول الله ﷺ ؟(٤) فيقولون لهم: نعم، فيُفتحُ لهم(٥). ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم. ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»(٦).

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تزالون بخيرٍ ما دام فيكم من رآنى وصاحبنى، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآنى وصاحب من صاحبنى»(٧).



(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) وأحمد (٤/ ٣٩٨ ــ ٣٩٩). قال النووى ــ رحمه الله ــ (شرح مسلم ص: ٣٩١): «وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون»: معناه من ظهور البدع والحوادث فى الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

(٢) الفئام: الجماعة، وقيل: الجماعة الكثيرة (انظر لسان العرب ٣٣٣٦ فقد أورد هناك معان أخر بالإضافة إلى ما ذكرنا).

(٣) فى رواية مسلم (من رأى).

(٤) وهذا السؤال عن أصحاب النبى ﷺ ومن رآهم ومن رأى من رآهم للاستنصار والتبرك بهم وبدعائهم، وقد أورد البخارى ــ رحمه الله ــ هذا الحديث أيضًا فى كتاب الجهاد باب «من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب» وقال الحافظ ابن حجر هناك: أى ببركتهم ودعائهم.

(٥) قال الحافظ فى الفتح (٦/ ٨٩): يفتح للصحابة لفضلهم ثم للتابعين لفضلهم ثم لتابعيهم لفضلهم، قال: ولذلك كان الصلاح والفضل والنصر للطبقة الرابعة أقل فكيف بمن بعدهم، والله المستعان.

(٦) أخرجه البخارى (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢) وأحمد (٣/ ٧).

(٧) رواه ابن أبى شيبة (المصنف ١٢/ ١٧٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٥): إسناده حسن.

فضائل الأنصار
(رضى الله عنهم)

إن فضائل الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ لا تُعد ولا تُحصى، ولكن حسبنا أن نذكر بعض فضائلهم سائلين الحق ـ جل وعلا ـ أن يجمعنا بهم فى جنته ومستقر رحمته.

الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أى: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضَّلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة(١).

وقال القرطبى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، أى يؤثرون على أنفسهم بأموالهم

(١) تفسير القرآن لابن كثير (٤/ ٣٣٧) دار المعرفة ببيروت.

ومنازلهم، لا عن غِنى، بل مع احتياجهم إليها[١].

وها هو موقف سعد بن الربيع الأنصارى مع عبد الرحمن بن عوف المهاجرى ـ رضى الله عنهما ـ ذلكم الموقف الذى لا ننساه أبدًا ما دامت أرواحنا فى أجسادنا.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قَدِم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك[٢].

وعن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدوَّ يومًا، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفرة. فقال النبى ﷺ: «مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت. قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب ـ أو وزن نواة من ذهب ـ[٣].

بل هذا موقف عظيم لأبى طلحة ـ رضى الله عنه ـ.

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: من يضم ـ أو يضيِّف هذا ـ فقال رجل من الأنصار[٤]: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمى

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٥٠٥) ط. دار الشعب.
(٢) رواه البخارى (٧/ ٣١٧) مناقب الأنصار.
(٣) رواه البخارى (٧/ ١٤٠) مناقب الأنصار.
(٤) فى رواية ابن فضيل عن أبيه عند مسلم (ص ١٦٢٥): فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة.

ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى فقال: هيئى طعامك وأصبحى سراجك ونوِّمى صبيانك إذا أرادوا عَشَاءً. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين ـ جائعين ـ فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة ـ أو عَجب ـ من فعلكما فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾»[1].

ولم يكن هذا الكرم والإيثار موقفًا فرديًا، بل كان موقفًا جماعيًا من الأنصار نحو المهاجرين ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ.

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قالت الأنصار للنبى ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». فقالوا: تكفونا المؤونة ونُشرككم فى الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا[2].

الله ـ عز وجل ـ سمّى الأنصار أنصارًا

عن غيلان بن جرير قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار كنتم تُسمَّون به أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمانا الله. كنا ندخل على أنس فيحدثنا بمناقب الأنصار ومشاهدهم ويُقبل علىَّ أو على رجل من الأزد فيقول: فعل قومك يوم كذا وكذا كذا وكذا[3].

مَن أحب الأنصار أحبه الله ـ جل وعلا ـ

قال ﷺ : «من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه

(١) أخرجه البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) والترمذى (٣٣٠٤).
(٢) أخرجه البخارى (٢٣٢٥) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ.
(٣) أخرجه البخارى (٣٧٧٦).

الله»(١).

وقال ﷺ : «إن الناس يهاجرون إليكم ولا تهاجرون إليهم، والذى نفسى بيده، لا يحبُّ الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله؛ إلا لقى الله وهو يحبه، ولا يبغضُ الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله، إلا لقى الله وهو يبغضه»(٢).

آية الإيمان حب الأنصار

قال ﷺ : «آية الإيمان حُب الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»(٣).

وقال ﷺ : «لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر»(٤).

النبي ﷺ يوصي بالأنصار خيرا

قال ﷺ : «إن الأنصار قد قضوا الذى عليهم وبقى الذى عليكم فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم»(٥).

وقال ﷺ : «استوصوا بالأنصار خيرًا»(٦).

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفًا بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس إن الناس يكثرون وتقلّ الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام، فمن ولى منكم أمرًا يضرُّ فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»(٧).

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه عن معاوية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٣).
(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن الحارث بن زياد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٧٩).
(٣) متفق عليه عن أنس ــ صحيح الجامع (١٥).
(٤) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ــ وأحمد والترمذى والنسائى عن ابن عباس ــ صحيح الجامع (٧٥٩٢).
(٥) رواه الشافعى والبيهقى فى «المعرفة» عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٨٧).
(٦) رواه أحمد عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٥٩).
(٧) أخرجه البخارى (٣٨٠٠) عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ.

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: مرَّ أبو بكر والعباس ــ رضى الله عنهما ــ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا[1]. فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرد قال: فصعد المنبر ــ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ــ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعيبتى[2]، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

الأنصار أكثر الناس شهيدًا

قال ابن عبد ربه فى «العقد الفريد» (١/ ١١٨): «رجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استُلَّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة، (يعنى الأوس والخزرج) وهما الأنصار من بنى عمرو بن عامر، من الأزد».

وفى البخارى عن قتادة قال: «ما نعلم حيًا من أحياء العرب أكثر شهيدًا، أغرَّ يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحدٍ سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ، ويوم اليمامة على عهد أبى بكر يوم مسيلمة الكذاب».

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٩٩) والنسائى فى الفضائل (٢٤١). قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٢١) قوله: (ذكرنا مجلس النبى ﷺ) أى الذى كانوا يجلسونه معه، وكان ذلك فى مرض النبى ﷺ فخشوا أن يموت من مرضه فيفقدوا مجلسه فبكوا حزنًا على فوات ذلك.

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٢١): قوله (كرشى وعيبتى) أى بطانتى وخاصتى.

قال القزاز: ضرب المثل بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذى يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرشى منثورة أى عيال كثيرة، والعيبة بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، يريد أنهم موضع سره وأمانته.

وعن أنس أنه كان يقول: يارب، سبعين من الأنصار يوم أُحد، وسبعين يوم بئر معونة، وسبعين يوم مسيلمة الكذاب، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة[١].

الأنصار من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ قال حسبت أنه قال من عُرس ـ فقال النبي ﷺ مُمثلاً فقال: «اللهم أنتم من أحبِّ الناس إليَّ» قالها ثلاث مرار[٢].

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها فكلمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ... مرتين»[٣].

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم ويمسح برءوسهم ويدعو لهم»[٤].

اصبروا حتى تلقوني على الحوض

إنها كلمات قالها الحبيب ﷺ للأنصار.. فيا لها من منقبة عظيمة، ويا له من موعدٍ تتضاءل أمامه الدنيا بمتاعها الزائل، ويا له من لقاءٍ مع الحبيب ﷺ في هذا المكان الذي يأتيه الماء من نهر الكوثر ـ وهو نهر من أنهار الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ تكرمة له ـ.

عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطِعَ لهم البحرين،

---

(١) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٥) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٦) ومسلم (٢٥٠٩) والنسائي في الفضائل (٢٢٧).

(٤) رواه النسائي (الفضائل ٢٤٤) (الكبرى ٥/ ٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٧).

فقالوا: لا إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إما لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم بعدى أَثَرة[١].

وعن أُسيد بن حُضير ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله ألا تستعملنى كما استعملت فلانًا؟ قال: «ستلقون بعدى أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»[٢].

النبى ﷺ يدعو بالمغفرة للأنصار والمهاجرة

عن حميد الطويل قال: سمعت أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما حَيينَا أبدا

فأجابهم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار[٣] والمهاجرة»[٤].

وعن سهل قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتادنا فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار»[٥].

الأنصار تركة النبى ﷺ

قال ﷺ: «لكل نبيٍ تَرِكةٌ (وضيعةٌ) وإن تركتى وضيعتى الأنصار فاحفظونى فيهم»[٦].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٩٤) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٩٢) ومسلم (١٨٤٥) والترمذى (٢١٨٩).

(٣) وفى رواية عند البخارى (٣٧٩٥): «فأصلح الأنصار والمهاجرة» وفى أخرى «فاغفر للأنصار».

(٤) أخرجه البخارى (٣٧٩٦) وأحمد (٣/ ١٧٠) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢١٢).

(٥) أخرجه البخارى (٣٧٩٧) ومسلم (١٨٠٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢٠٧).

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٧٣).

الأنصار مولاهم الله ورسوله ﷺ

عن أبى أيوب قال: قال رسول الله ﷺ : «الأنصار ومزينة وجُهينة وغفار وأشجع، ومن كان من بنى عبد الله مواليَّ دون الناس، والله ورسوله مولاهم»(١).

لولا الهجرة لكنت امرءً من الأنصار

قال ﷺ : «الأنصارُ شعارٌ، والناسُ دثارٌ، ولو أنَّ الناس استقبلوا واديًا أو شِعبًا، واستقبلت الأنصارُ واديًا، لسلكت وادى الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار»(٢).

مواقف تاريخية للأنصار ـ رضى الله عنهم ـ

ولقد وقف الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ مواقف تاريخية، وإليكم بعض تلك المواقف التى تتألق روعة وجمالاً.

موقف الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: صحبت جرير بن عبد الله فكان يخدمنى(٣) ـ وهو أكبر من أنس. قال جرير: إنى رأيت الأنصار يصنعون شيئًا لا أجد أحدًا منهم إلا أكرمته(٤).

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم وبمَجَنَّة وبعكاظ وبمنازلهم بمنى: «من يؤوينى، من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى ـ عز وجل ـ وله الجنة» فلا يجد أحدًا ينصره

(١) أخرجه مسلم (٢٥١٩) والترمذي (٣٩٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) رواه ابن ماجة عن سهل بن سعد ـ متفق عليه عن عبد الله بن زيد ـ صحيح الجامع (٢٧٩١).
(٣) عند مسلم: فقلت له: لا تفعل. قال: . . . . . فذكره.
(٤) أخرجه البخارى (٢٨٨٨) ـ ومسلم (٢٥١٣).

ويؤويه حتى إن الرجل يرحل من مُضر أو من اليمن أو زَوْر صَمْد فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ يشيروا إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله ـ عز وجل ـ له من يثرب فيأتيه الرجل فيؤمن به فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يُظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله ـ عز وجل ـ فائتمرنا واجتمعنا سبعون رجلاً منا، فقلنا حتى متى نذر ـ نترك ـ رسول الله ﷺ يُطرد فى جبال مكة ويخاف؟ فدخلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم فواعدناه شِعب العقبة فقال عمه العباس: يا ابن أخى إنى لا أدرى ما هؤلاء القوم جاءوك؟ إنى ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس ـ رضى الله عنه ـ فى وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله! علام نبايعك؟ قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت يثرب فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين فقال: رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله ـ عز وجل ـ وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه فهو أعذر عند الله قالوا: يا أسعد بن زرارة أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها. فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا بشرطه العباس ويعطينا على ذلك الجنة[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٩)، وصححه الشيخ الألبانى فى تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ الغزالى.

موقف الأنصار يوم بدر

وفى يوم بدر وقف الأنصار موقفًا عظيمًا من أعظم المواقف، فإنه عندما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علىّ أيها الناس». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عددُ الناس ـ أى أكثر عددًا من المهاجرين ـ وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله! إنا برآءُ من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنت فى ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»؛ قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخُضته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ فى الحرب، صُدُقٌ فى اللقاء، ولعل الله يُريك منا ما تقرّ به عينُك، فسرْ بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك؛ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم»[١].

موقف الأنصار بعد غزوة حنين

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى

(١) هكذا أورده ابن هشام من غير سند هنا، ولعله اعتمد على إسناده فى أول الغزوة والله اعلم. وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧٢) بنحوه ونسبه إلى ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده مرسلاً وعزاه ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٣٦) من مرسل علقمة بن وقاص، عن ابن أبى شيبة. وللحديث شواهد منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود (٧/ ح ٣٩٥٢/ فتح).

الأنصار منها شيءٌ، وجد هذا الحيُّ من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم: لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحىّ من الأنصار منها شىء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» ـ يعنى ما رأيك ـ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى. قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة»، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة. قال: فجاء رجل من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم، وجَدَةٌ وجدتموها [علىَّ] فى أنفسكم؟ ألم آتِكُم ضُلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم!» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضلُ. ثم قال: «ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فَلَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَةٍ من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شِعبًا، لسلكتُ شِعبَ الأنصارِ. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[١].

ولم تكن مواقف الأنصار فى تلك المواضع فحسب.. بل لقد كان للأنصار مواقف ومواقف فى كل غزوة، بل فى كل لحظة مرت على الإسلام والمسلمين، ولكنى ذكرت بعضها فقط خشية الإطالة. وإلا فمواقف الأنصار تحتاج إلى مجلدات لكى نذكر مناقبهم ومآثرهم ومواقفهم الخالدة ــ فرضى الله عنهم وأرضاهم ــ.

ولا أستطيع أبدًا أن أنسى مقالة أمنا عائشة ــ رضى الله عنها ــ حينما قالت: «نعم النساءُ نساءُ الأنصار لم يكن يمنعهن الحياءُ أن يتفقهن فى الدين»[٢]. [٣]

فرضى الله عن المهاجرين والأنصار وعن سائر الصحابة أجمعين



---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٧٦، ٧٧) من طريق ابن إسحاق، وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٩) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع.

(٢) أخرجه مسلم (ص: ٢٦١) وأبو داود (٣١٦) وابن ماجة (٦٤٢).

(٣) بعض العناوين فى فضائل الأنصار اقتبستها من كتاب فضائل الصحابة لمصطفى العدوى.

تحريم سبّ الصحابة

(رضى الله عنهم)

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال: قال النبى ﷺ : «لا تسبُّوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ(١) أحدهم ولا نصيفه»(٢).

---

(١) المد: قال فى لسان العرب: المُدُّ ضرب من المكاييل وهو ربع صاع وهو قدر مُد النبى ﷺ ، وذكر أقوالاً أخرى وقال: وقيل: إن أصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعامًا. ونقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٤) عن البيضاوى قوله: معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أُحد ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مُد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية، قلت (القائل الحافظ): وأعظم من ذلك فى سبب الأفضلية عظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلى الأفضلية بسبب القتال كما وقع فى الآية: ﴿من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ فإن فيها إشارة إلى موقع السبب الذى ذكرته، وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا لشدة الحاجة إليه وقلة المعتنى به بخلاف ما وقع بعد ذلك؛ لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجًا فإنه لا يقع ذلك الموقع المتقدم. والله أعلم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) عن أبى سعيد الخدرى. قوله: «نصيفه» قال الترمذى: ومعنى قوله «نصيفه» أى نصف المد. أما حكم من سب أصحاب النبى ﷺ فننقل هنا بعض أقوال أهل العلم:

قال النووى ــ رحمه الله ــ (شرح مسلم ٥/ ٤٠٠): واعلم أن سب الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون فى تلك الحروب متأولون كما أوضحناه فى أول فضائل الصحابة من هذا الشرح، قال القاضى: وسب أحدهم من المعاصى الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يُعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يُقتل.

وقال الحافظ ابن حجر (فتح البارى ٧/ ٣٦): اختلف فى ساب الصحابى فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يُعزر، وعن بعض المالكية يُقتل، وخص بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين، فحكى القاضى حسين فى ذلك وجهين، وقواه السبكى فى حق من كفَّر الشيخين، وكذا من كفر من صرح النبى ﷺ بإيمانه أو تبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه لما تضمن من تكذيب رسول الله ﷺ .

وعن عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ قال: «الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى لهم أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه»(١).

وقال رسول الله ﷺ : «إن الله تبارك وتعالى اختارنى، واختار لى أصحابًا، فجعل لى منهم وزراء وأنصارًا وأصهارًا، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل»(٢). الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة.

وقال الإمام الذهبى ــ رحمه الله ــ: «إنما يعرف فضائل الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم فى حياة رسول الله ﷺ ، وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه، وسُنَنه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سُنَّة ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا.

فمن طعن فيهم، أو سبَّهم، فقد خرج من الدين، ومَرَق من مِلة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبِّهم.

ولأنهم أرضى الوسائل المأثورة، والوسائط من المنقول، والطعن فى الوسائط طعن فى الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٨٧)، (٥/ ٥٤، ٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن، ورواه أيضًا الترمذى رقم (٣٨٦٢) وغيره.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

تدبره وسَلَمَ من النفاق والزندقة والإلحاد فى عقيدته»[١]. ا.هـ.

وقال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساويهم، والخلاف الذى شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو واحدًا منهم أو تنقَّص أو طعن عليهم، أو عرَّض بعيبهم أو عاب أحدًا منهم فهو مبتدع رافضى خبيث، مخالف لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، بل حُبهم سُنة والدعاء لهم قُربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم خير الناس، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص[٢].

وقال ﷺ : «احفظونى فى أصحابى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. . .»[٣].

وقال ﷺ : «إذا ذُكر أصحابى فأمسِكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسِكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»[٤].

وقال ﷺ : «لعن الله من سبَّ أصحابى»[٥].

وفى رواية قال ﷺ : «من سبَّ أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٦].

فيا ليتنا نعرف قدر أصحاب النبى ﷺ ونعيش، بل ونتعايش مع كل لحظة

(١) الكبائر للإمام الذهبى (ص: ٢٧٦) ـ كبيرة سبّ الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.

(٢) السنة للإمام أحمد (ص: ٧٨).

(٣) رواه ابن ماجة عن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٦).

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٥).

(٥) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١١١).

(٦) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٥).

عاشوها فى البذل والتضحية والفداء بالنفس والمال والولد لنعلم أنهم استحقوا أن ينالوا رضوان الله ومحبته وجنته ونسير على خُطاهم فنبذل الغالى والنفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله» فى الكون كله.

ونكون بذلك قد صدقنا مع الله ــ جل وعلا ــ الذى قال فى حق الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فنكون ممن ينتظر.. فيفتح الله لنا القلوب والأسماع وينشر بنا الخير والإيمان فى أرجاء الكون، ويتحقق موعود الله ــ عز وجل ــ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فهيا بنا نطوف سويًا فى بساتين الصادقين ــ اليانعة ــ لنرى ونعلم كيف صدقوا مع الله فأعزهم الله وأعز بهم الإسلام فى كل مكان.

فنسأل الله ــ جل وعلا ــ أن يجمعنا بالحبيب ﷺ وبأصحابه ــ رضى الله عنهم ــ فى جنته ومستقر رحمته. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

محمود المصرى

(أبو عمار)

أبو بكر الصديق

«ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة وما نفعنى مالُ أحدٍ قط ما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»

محمد رسول الله ﷺ

إنه رجلٌ عظيم القدر. رفيع المنزلة.. عَبَد الله متأسيًا برسول الله ﷺ.. وجاهد فى الله وأنفق كل ماله فى سبيل الله.

نَصَر الرسول ﷺ يوم خَذَله الناس وآمن به يوم كَفَر به الناس وصدَّقه يوم كذّبه الناس.

جهل فِعله الكثير من أبناء المسلمين وبخسوه حقه وهضموه منزلته ولم يقدروه قدره.

لم يتجاهله العامة فحسب!! بل تجاهله الخاصة من الخطباء والوعّاظ والدعاة والكُتّاب!!!.

ربما لأنه عظيم بجوار مَن هو أعظم.. وكريم بجوار مَن هو أكرم.. فطغت عظمةُ صاحبه ﷺ وقدره ومنزلته على عظمته وقدره ومنزلته.

إنه أفضل الصحابة بلا خلافٍ.. ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجلٍ خيرٍ منه.

إنه أول مَن آمن من الرجال على الصحيح... إنه مَن وُزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح إيمانه.

إنه الورع الحيي.. الحازم الرحيم.. التاجر الكريم.. صاحب الفطرة السليمة من أدران الظلام والجاهلية.

كان شبيهًا بالرسول ﷺ.. وأنعِم به من شَبه.

إنه رجلٌ لا كالرجال.. وسيرة لا كالسير.

إنه من دُعي إلى الإسلام فما كَبَا ولا نَبَا ولا تردد.

وإنما بادر إلى الإسلام وما تلعثم.

وما كان لأصحاب الفِطر السليمة أن يتلعثموا عن خيرٍ دُعوا إليه.

وكيف لا يبادر إلى الإسلام وقد صَحِب رسول الله ﷺ قبل البعثة وعَلِم صِدقه وأمانته وحُسن سجاياه وكرم خُلقه.

عَلِم أنه لا يكذب على الخلق فكيف يكذب ﷺ على الخالق ـ جل وعلا ـ لذا كان لسان حاله يوم دُعي إلى الله من جانب رسول الله ﷺ:

ما جربت عليك كذبًا قَط.

أما لسان مقاله: فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فتمتد يده إلى المصطفى ﷺ لتبايعه فتكون أول يدٍ تمتد إلى الحبيب ﷺ(١).

وها نحن من خلال تلك السطور على موعدٍ مع نبذة صغيرة من فضائله ومواقفه التي سطَّرها على جبين التاريخ بسطورٍ من نور.

---

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ/ علي القرني.

من هو الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ

هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة بن كعب بن لؤى القرشى التيمى أبو بكر الصديق بن أبى قحافة[١].

(وُلد بمنى) وهو يلتقى فى النسب مع رسول الله ﷺ فى (مُرة).

تزوج فى الجاهلية امرأتين - قتيلة بنت عبد العُزى وأم رومان بنت عامر-.

وتزوج فى الإسلام امرأتين ــ أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة بن زيد ــ.

كان مثاليًا حتى فى أيام الـ

لقد كان الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ مثاليًا فى كل شىء ــ حتى فى أيام الجاهلية ــ فلا عجب أن تراه بعد إسلامه أفضل رجلٍ بعد رسول الله ﷺ. فقد قال ﷺ: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»[٢].

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكرٍ رجلاً مألفًا لقومه مُحببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً ذا خُلق ومعروفٍ، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه[٣].

وها هو ــ رضى الله عنه ــ تراه قد حرَّم على نفسه الخمر فى الجاهلية فلم يشربها قط لا فى الجاهلية، ولا فى الإسلام، وذلك أنه مَرّ وهو فى الجاهلية برجل سكران يضع يده فى العذرة ــ الغائط ــ يدنيها من فيه، فإذا وجد

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٥ ــ ١٢٦) والاستيعاب (٣/ ٩٦٣) والإصابة (٢/ ٤١٧).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ــ صحيح الجامع (٣٢٦٧).

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٢١١).

ريحها صدف عنها، فحرَّمها أبو بكر على نفسه.

ولم يسجد ــ رضى الله عنه ــ لصنم قط.

قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ فى مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لى: هذه آلهتك الشُمّ العوالى، وخلانى وذهب، فدنوت من الصنم، وقلت: إنى جائع فأطعمنى فلم يُجبنى، فقلت: إنى عارٍ فاكسني، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة فخرَّ لوجهه(١).

إسلامه ـ رضى الله عنه ـ

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال: «قال أبو بكر: ألستُ أحقَّ الناس بها؟ أى الخلافة، ألستُ أول من أسلم؟ ألستُ صاحب كذا. ألستُ صاحب كذا؟»(٢).

قال الإمام السيوطى: وقيل: أول من أسلم (علىٌّ) وقيل: خديجة، وجُمع بين الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، (وعلىٌّ) أول من أسلم من الصبيان، وخديجة أول من أسلمت من النساء.

وأول من ذكر هذا الجمع الإمام أبو حنيفة، رحمه الله(٣).

وما إن أسلم أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ حتى حمل أمانة الدين على أعناقه وخرج يدعو الناس إلى دين الله ــ جل وعلا ــ فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشّرهم النبى ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتى الصدّيق ــ رضى الله عنه ــ يوم القيامة وهم فى ميزان حسناته.

(١) التاريخ الإسلامى/ لمحمود شاكر (٣١/ ٣) ط. المكتب الإسلامى.
(٢) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٨).
(٣) تاريخ الخلفاء (ص ٣٤).

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته.

النبي ﷺ لقّبه «عتيقاً»

ومن المناقب الجميلة أن الذى لقَّب أبا بكرٍ (عتيقًا) هو الحبيب المصطفى الصادق المصدوق ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إنى لفى بيت رسول الله ﷺ وأصحابه فى الفناء، وبينى وبينهم الستر إذ أقبل أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى هذا» وإن اسمه الذى سماه به أهله لعبد الله بن عثمان بن عامر، ولكن غلب عليه عتيق(١).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فأنت عتيق الله من النار» قلت: فمن يومئذ سُمى عتيقًا(٢).

أبو بكرٍ خيرٌ من مؤمن آل فرعون

قال الإمام ابن القيم- رحمه الله- عن فضائل الصدِّيق- رضى الله عنه-: فهو خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصدِّيق أعلن به. وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصدِّيق جاهد سنين.

عايَن طائر الفاقة يحوم حول حَبّ الإيثار ويصيح: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ

---

(١) رواه الترمذى رقم (٣٦٧٩)، والطبرانى فى الكبير (٩)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١٥)، وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٤٠)، وقال: رجالهما ثقات، وحكى السيوطى فى الجامع الكبير (٤٣٨): أن ابن كثير نسبه لأبى نعيم، وقال: قال ابن كثير: إسناده جيد.

(٢) رواه الترمذى رقم (٣٦٧٩) فى المناقب، باب مناقب أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، وصححه شيخنا الألبانى فى الصحيحة.

قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فألقى له حَب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحَب إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرِّد بفنون المدح، ثم قام فى محاريب الإسلام يتلو: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار (فيا مبغضيه) فى قلوبكم من ذكره نار، كلما تُليت فضائله علا عليهم الصَغار.

أترى لم يسمع الروافض الكفار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]؟.

دُعى إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زلَّ ولا كَبا، وصبر فى مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر فى الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا - أى حتى تُوفى - تالله لقد زاد على السبك فى كل دينار دينار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

مَن كان قرين النبى فى شبابه؟

مَن ذا الذى سبق إلى الإيمان من أصحابه؟.

مَن الذى أفتى بحضرته سريعًا فى جوابه؟.

مَن أول مَن صلى معه؟

مَن آخر من صلى به؟

مَن الذى ضاجعه بعد الموت فى ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الألحاظ.

فالمحب يفرح بفضائله، والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضى أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟.

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به فى حياته وهو ضجيعه فى الرمس(١). فضائله جلية، وهى خلية عن اللبس.

يا عجبًا! من يغطى عين ضوء الشمس فى نصف النهار، لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول: ما ظنك باثنين والله الثالث؛ فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث. فزال القلق، وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادى على رؤوس منابر الأمصار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

حُبُّه والله رأسُ الحنيفية، وبُغضه يدلُّ على خُبث الطوية. فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية. مهلاً مهلاً، فإن دم الروافض قد فار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد فى غيره هوانا، ولكن أخذنا بقول (علىّ) وكفانا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا». تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر، تالله لقد وجب حق الصدِّيق علينا؛ فنحن نقضى بمدائحه، ونقرُّ بما نقرُّ به من السَنى(٢) عينًا، فمن كان رافضيًا فلا يعد إلينا(٣).

وعن ابن عباس قال: أول من صلى: أبو بكر ـ رحمه الله ـ.

ثم تمثل بأبيات حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبى وأوفاها بما حملا
الثانى التالى المحمود مشهده ... وأول الناس حقًا صدّق الرُسلا

(١) (رَمَس) الميت: دفنه. و(أرمسه) أيضًا. و(الرَّمْس) بوزن الفَلْس: تراب القبر، وهو فى الأصل مصدر. و(المرمس) بوزن المذهب: موضع القبر.

(٢) السَنَى: البرق. والسَّنِى: الرفيع.

(٣) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١١١: ١١٣) ط. دار الخانى.

ولقد ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير أن أبا بكر شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وجميع المشاهد، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد حين انهزم الناس، ودفع إليه رسول الله ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وأنه كان يملك يوم أسلم أربعين ألف درهم، فكان يعتق منها ويقوى المسلمين، وهو أول من جمع القرآن، وتنزَّه عن شرب المسكر فى الجاهلية والإسلام، وهو أول من قاء تحرجًا من الشبهات(١).

بعض مناقب الصدّيق وفضائله

تالله إنى لأجد نفسى عاجزاً عن الحديث عن تلك الفضائل، ولكن حسبُنا منها القليل، فالقليل منها كثير وكثير.

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمنَّ الناس علىَّ فى صُحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أُخوة الإسلام ومودته لا يبقين فى المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبى بكر»(٢).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر (أى أكثرهم رحمة) وأشدهم فى أمر الله عمر، وأشدهم حياءً عثمان، وأقضاهم علىّ....»(٣).

وفى رواية قال ﷺ: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر....»(٤).

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أهل الدرجات العُلى ليرون مَن فوقهم كما ترون الكوكب الدّرىّ فى أفق

(١) صفة الصفوة (١/ ٩٧، ٩٩) ط. دار ابن خلدون.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٥٤) فضائل الصحابة ـ ومسلم (٢٣٨٢) فضائل الصحابة.

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٤) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٦٨).

السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[١].

وقال النبى ﷺ : «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها إلا الصديق، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مالُ أحد قط ما نفعنى مالُ أبى بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[٢].

وعن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : «أبو بكر وعمر من هذا الدين كمنزلة السمع والبصر من الرأس»[٣].

وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر. . .»[٤].

وعن أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «مَن رأى الليلة رؤيا»؟ فقال رجل: أنا، رأيت كأن ميزانًا نزل من السماء فوُزِنْتَ أنت وأبو بكر، فرُجحت أنت بأبى بكر، ووزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر بعمر، ووزن عمر بعثمان، فرجح عمر بعثمان، ثم رُفع الميزان، قال: فرأينا الكراهة فى وجه النبى ﷺ »[٥].

وهنا يظهر فضيلة أبى بكر على عمر فمن دونه، وقوله: «فرأينا الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ ». . . . قال فى تحفة الأحوذى: وذاك لما علم ﷺ من أن تأويل رفع الميزان انحطاط رتبة الأمور، وظهور الفتن بعد خلافة عمر ومعنى رجحان كل من الآخر أن الراجح أفضل من المرجوح.

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٣٠).

(٢) رواه الترمذى (٣٦٦٢) المناقب، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٤).

(٣) قال الألبانى فى الصحيحة (٨١٥): هذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات.

(٤) رواه الترمذى عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

(٥) رواه أبو داود رقم (٤٦٣٤) فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم (٢٢٨٨) فى الرؤيا. وصححه شيخنا الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٨٧٥).

وعن عليّ بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ: أن رسول الله ﷺ نظر إلى أبى بكر وعمر فقال: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين. . . والمرسلين لا تخبرهما يا عليّ»[١].

وعن عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعليٌ فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة»[٢].

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: إن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر: «أنت صاحبى على الحوض، وصاحبى فى الغار»[٣].

قال فى «تحفة الأحوذى»: أنت صاحبى على الحوض: أى الكوثر «وصاحبى فى الغار» أى الكهف الذى بجبل ثور الذى أويا إليه عند خروجهما مهاجرين.

وعن أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ قال: قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[٤].

وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: كنا نُخَيِّرُ بين الناس فى زمن النبى ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ــ رضى الله

(١) رواه الترمذى (٣٦٦٦) المناقب ــ وقال الألبانى فى الصحيحة (٨٢٤): إن الحديث بمجموع طُرقه صحيح بلا ريب.

(٢) رواه الترمذى (٣٧٤٨) المناقب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٣) رواه الترمذى مرسلاً (٣٦٦٨) المناقب وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٥٣) ــ ومسلم (٢٣٨١) والترمذى (٣٠٩٦).

عنهم ـ[1].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعنى مالٌ قط ما نفعنى مال أبى بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله[2]؟.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ صعد (أُحُدًا) وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: «اثبُت أُحُد فإنما عليك نبىٌّ وصدّيق وشهيدان»[3].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعم الرجل أبو بكر نِعم الرجل عمر....»[4].

عن أبى موسى الأشعرى: أنه توضأ فى بيته ثم خرج... قال: فقلت: لألزمنَّ رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومى هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبى ﷺ فقالوا: خرج ووجه ها هنا فخرجتُ على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب ـ وبابها من جريد ـ حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ، فقمتُ إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قُفها وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر، فسلمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلستُ عند الباب فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب. فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رِسلك ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن فقال: «ائذن له وبشّره بالجنة». فأقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسولُ الله ﷺ يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القُف ودلَّى رجليه فى البئر كما

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٥٥) ـ وأحمد فى فضائل الصحابة (٥٣).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٥٣) وابن ماجة (٩٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٠٨).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٧٥) وأبو داود (٤٦٥١) والترمذي (٣٦٩٧).

(٤) رواه الترمذى (٣٧٩٥) وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٧٠).

صنع النبى ﷺ وكشف عن ساقيه. . . . »(١).

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما راعٍ فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاةً فطلبه الراعى، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع(٢) يوم ليس لها راعٍ غيرى؟ وبينما رجل يسوق بقرةً قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إنى لم أُخلق لهذا، ولكنى خُلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله. . . قال النبى ﷺ : فإنى أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما ــ»(٣).

وعن ابن أبى مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وُضِعَ عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرفعَ، وأنا فيهم فلم يرُعنى إلا رجل آخذ منكبى فإذا علىٌّ بن أبى طالب فترحَّم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أحَب إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنى كثيرًا أسمع النبى ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»(٤).

منزلة الصدّيق عند رسول الله ﷺ

عن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه ــ قال: كنت جالسًا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبى ﷺ : «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلم وقال: يا رسول الله، إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعتُ إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى فأبى علَىَّ، فأقبلت

(١) أخرجه البخارى (٣٦٧٤) ــ ومسلم (ص١٨٦٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر (فتح البارى ٧/ ٢٧): قال الداودى: معناه من لها يوم يطرقها السبع ــ أى الأسد ــ فتفر أنت منه فيأخذ منها حاجته وأتخلف أنا لا راعى لها حينئذ غيرى، وقيل: إنما يكون ذلك عند الاشتغال بالفتن فتصير الغنم هملاً فتنهبها السباع فيصير الذئب كالراعى لها لانفراده بها.

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٦٣) ــ ومسلم (٢٣٨٨) والترمذى (٣٦٧٧).

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨٥) ــ ومسلم (٢٣٨٩) وابن ماجة (٩٨).

إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر» (ثلاثًا). . . . ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبى بكر فسأل: أثَمّ أبو بكر؟ ـ يعنى هل أبو بكرٍ هنا ـ فقالوا: لا. فأتى إلى النبى ﷺ فجعل وجه النبى ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم. . . أنا كنت أظلَم. فقال النبى ﷺ : «إن الله بعثنى إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لى صاحبى؟. . فهل أنتم تاركو لى صاحبى؟». فما أوذىَ بعدها(١).

وعن محمد بن سيرين قال: سُئل أنس بن مالك عن خضاب رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يكن شاب إلا يسيراً، ولكن أبا بكر وعمر بعده خضَّبا بالحناء والكتم قال: وجاء أبو بكر بأبيه (أبى قحافة) إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يحمله حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه مكْرُمةً لأبى بكر». فأسلم ولحيته ورأسه كالثغامة بياضًا فقال رسول الله ﷺ : «غيروهما وجنِّبوه السواد»(٢).

وعن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»(٣).

أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يُدعَى من أبواب الجنة الثمانية

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله دُعى من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعى من باب الصلاة، ومن

(١) أخرجه البخارى (٣٦٦١) الفضائل ـ باب قول النبى ﷺ : «لو كنت متخذًا خليلاً».

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٦٠) وأبو يعلى (٢٨٣١) وابن حبان (١٤٧٦)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٤) والترمذى (٣٨٨٥).

كان من أهل الجهاد دُعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعى من باب الصيام، وباب الريان» فقال أبو بكر: ما على هذا الذى يُدعَى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: وهل يُدعَى منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»(١).

وفى رواية ابن حبان من حديث ابن عباس: قال ﷺ : «أجل وأنت هو يا أبا بكر».

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: عن أبواب الجنة فى «نونيته»:

ولسوف يُدعَى المرء من أبوابها جمعًا إذا وفى حُلَى الإيمان

منهم أبو بكر هو الصديق ذا ك خليفة المبعوث بالقرآن

الصدّيق ومحبته الشديدة للحبيب ﷺ

لقد أحبَّ أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده وجوارحه؛ حتى إنه كان يتمنى أن يفدى النبى ﷺ بنفسه وولده وماله والناس أجمعين.

تقول عائشة ــ رضى الله عنها ــ: لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل».

فلم يزل أبو بكر يُلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله، وإلى رسول الله ﷺ ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى

(١) أخرجه البخارى ومسلم (٣٦٦٦) فضائل أصحاب النبى ﷺ .

المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر، وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفها لوجهه، ونزَّ (أى وثب) على بطن أبى بكر، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم (قوم أبى بكر) يتعادون، فأجلت قريشًا عن أبى بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه.

فلما خلت به ألحّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟

فقالت: والله ما لى علم بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت... قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت الصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله علىّ ألا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى آتى رسول الله ﷺ . فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرِجل، وسكن الناس خَرجَتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبّله،

وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله، ليس بى بأس! إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

موقف يعجز القلم عن وصفه

وها هى صفحة مشرقة من حياة الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ الذى بذل نفسه وماله فداءً لله وفداءً لرسول الله ﷺ .

فعن على بن أبى طالب، قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فذا يجبأه(٢)، وهذا يُتلتله(٣)، وهم يقولون: أنت الذى جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: فوالله ما دنا منَّا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، ثم رفع (علىٌّ) بُردةً كانت عليه، فبكى حتى اخضَّلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبونى؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»(٤).

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: بينما رسول الله بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلفَّ ثوبه فى عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى ﷺ ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٩ ــ ٣٠) بسند رجاله ثقات، وقال الهيثمى فى المجمع (٤٦ ــ ٤٧/ ٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن أبى الحرث، وهو ثقة، انظر حلية الأولياء (١/ ٣٢).

(٢) يجبأه: أى فجأة وبغته.

(٣) يتلتله: يحركه ويزعزعه من مكانه.

(٤) تاريخ الخلفاء (ص ٣٧).

ربكم﴾ [غافر: ٢٨][١].

لم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ

عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتُوفى بالمدينة ـ فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر فى أمرى، فلبث ليالى، ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوَّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلىَّ شيئًا، وكنت أوجد عليه[٢] منى على عثمان، فلبثت ليالى، ثم خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحتها إياه، فلقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا. قال عمر: قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىَّ إلا أنى كنت قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سرَّ رسول الله، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[٣].

أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وإنفاقه في سبيل الله

قال ﷺ : «ما أحدٌ أعظم عندى يدًا من أبى بكر واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته»[٤].

(١) رواه البخارى فى مناقب الأنصار رقم (٣٨٥٦) باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٢٢١/ ٩): أى أشد موجدة أى غضبًا على أبى بكر من غضبى على عثمان، وذلك لأمرين: أحدهما ما كان بينهما من أكيد المودة، ولأن النبى ﷺ كان آخى بينهما، والثانى لكون عثمان أجابه أولاً ثم اعتذر له ثانيًا، ولكون أبى بكر لم يعد عليه جوابًا. ووقع فى رواية ابن سعد «فغضب على أبى بكر، وقال فيها: كنت أشد غضبًا حين سكت منى على عثمان». اهـ.

(٣) رواه البخارى رقم (٥١٢٢) فى النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، ورواه الإمام أحمد فى المسند (١/ ١٢).

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥١٧).

وقال ﷺ : «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يُكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مالُ أحدٍ قط ما نفعنى مال أبى بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»(١).

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفًا، فأنفقها فى سبيل الله، وأعتق سبعة كلهم يعذَّب فى الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنَّهدية وابنتها، وجارية بنى مُؤمَّل، وأم عبيس(٢).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «أنفق أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله ﷺ أربعين ألفًا»(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

[الليل: ١٧ ـ ٢١]

قال الإمام القرطبى: «والأكثر أن السورة نزلت فى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ»، فأىّ منقبة أعظم من هذه المنقبة، وأى وسام أغلى من هذا الوسام؟.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «عَذَّب المشركون بلالاً»، وبلال يقول: «أحدٌ أحدٌ»، فمر به النبى ﷺ ، فقال: «أحد، يعنى الله تعالى، ينجيك»، ثم قال لأبى بكر: «يا أبا بكر، إن بلالاً يعذَّب فى الله»، فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله ﷺ ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب، ومضى به إلى أميّة بن خلف، سيِّد بلال، فقال له: أتبيعنى بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة ومسلم عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١).
(٢) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥). وقال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى ورجاله إلى عروة رجال الصحيح.
(٣) رواه ابن حبان (٢١٦٧) وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٨٧).

عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، أى سوف يعطيه فى الجنة ما يرضى[(١)].

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول: «أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا يعنى بلالاً»[(٢)].

أبو بكر حبًا فى الله مالاً — وأعتقَ فى محبته بلالاً
وقد واسى النبىَّ بكلِّ فضلٍ — وأسرع فى إجابته بلا : لا
لو أن البحر يقصده ببعضٍ — لَمَا ترك الإله به بلالا

وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك منى مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يومًا ـ فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟».

قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك إلى شىء أبدًا[(٣)].

الحبيب ﷺ ينفى الخيلاء عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «من جرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقال أبو بكر: إن أحد شقَّى ثوبى يسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه.. فقال رسول الله ﷺ : «إنك لستَ تصنع ذلك خُيلاء»[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن/ للقرطبى (٢٠/ ٧٨ ـ ٨٠).
(٢) أخرجه البخارى (٣٧٥٤) فضائل أصحاب النبى ﷺ .
(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة ـ والترمذى (٣٦٧٥) المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح ـ وحسنه الشيخ الألبانى.
(٤) أخرجه البخارى (٣٦٦٥) ـ وأبو داود (٤٠٨٥) وأحمد (٢/ ١٠٤).

أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يسابق دائمًا إلى كل خير

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ: أنا. قال: «من عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ: أنا. فقال رسول الله ﷺ : «ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة»(١).

عن بكر المُزَنى قال: ما فاق أبو بكر أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ؛ ولكن بشىءٍ وقَرَ فى قلبه.

قال إبراهيم: بلغنى عن ابن علية أنه قال فى عقيب هذا الحديث:

الذى كان فى قلبه الحبُّ لله عز وجل والنصيحة لخلقه(٢).

صور مشرقة من تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

أورد ابن الأثير بسنده فى أُسد الغابة: عن أبى صالح الغفارى: أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل، فيستقى لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كلاً يسبق إليها، فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الصديق الذى يأتيها، وهو يومئذ خليفة. فقال عمر: أنت هو لعمرى!!

وكان ــ رضى الله عنه ــ يحلب للحى أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحى: الآن لا تُحلَب لنا منَائِحُ (أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمرى لأحلبَنَّها لكم، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨) فضائل الصحابة ــ باب من فضائل أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ.

(٢) استنشاق نسيم الأنس/ لابن رجب (ص ١٣).

عن خُلُقٍ كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحى: يا جارية أتحبين أن أُرغى لك أو أُصرّح؟ فربما قالت: أرغِ، وربما قالت: صرّح، فأى ذلك قالت فعل[١].

وعن سعيد بن المسيب: أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لما بعث الجنود نحو الشام أمَّر يزيد بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودّعهم حتى بلغ ثَنِيَّة الوداع، فقالوا: يا خليفة رسول الله، تمشى ونحن رُكبان؟! فقال: إنى أحتسب خُطاى هذه فى سبيل الله[٢].

صفحة مشرقة من عدله ـ رضى الله عنه ـ

وها هى صورة مشرقة من العدل نهديها لكل من ولى من أمر المسلمين شيئًا صغيراً كان أو كبيراً.

ومن عدل الصديق: أنه سوّى بين رعيته فى العطاء وقسمة المال، واعتبر أن سابقة بعضهم فى الخيرات إنما يثاب عليها فى الدار الآخرة.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «قسم أبى أول عام الفَىء، فأعطى الحُرّ عشرة، وأعطى المملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمَتها عشرة، ثم قسّم فى العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين»[٣].

وقال سهل بن أبى حثمة ـ رضى الله عنه ـ: قَدِم مال فى خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقرًا نُقر؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا، وكان يسوّى بين الناس فى القسم، الحر والعبد، والذكر والأنثى،

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦) وقال ابن كثير: هذا سياق حسن، وله شواهد من وجوه أخر، ومثل هذا تقبله النفوس وتتلقاه بالقبول (كذا فى الكنز: ١٤٠٧٧).

(٢) أخرجه البيهقى (٩/ ٨٥) وكذا ابن عساكر.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) فى الطبقات.

والصغير والكبير فيه سواء»[١].

لله دَر أبى بكر من إمام عظيم متفوق لم تفلت منه مَزيّة، ولم تغب عنه فضيلة، يقول هذه الكلمات المعجزات فى مستهل حُكمه، ينطق كل حرف منها بالحكمة والقسطاس.

لله دره كم كان ولاؤه لتطبيق هدى نبيه ﷺ حرفيًا حتى فى الظروف التى تجيش فيها العواطف وهو أرقّ الناس أفئدة.

لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امتحن فيها ولاؤه للعدل وهدى نبيه امتحانًا عظيمًا، حين ذهبت إليه فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تسأله قطعة أرض باعتبارها ميراث أبيها ﷺ، فقال لها أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورَّث، ما تركناه صدقة»[٢]، إنى والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته، إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ، وهو يعلم أن أولى الناس بالرعاية بنت حِبه ورسوله ﷺ.. فلله دره وهو يحمل إيمان العباقرة لا تثنيه عن عدله أرقّ الوشائج[٣].

ورع يعجز القلم عن وصفه

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: كان لأبى بكر غلامٌ يخرجُ له الخَراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر: ما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أُحسِن الكهانة، إلا أنى خدعته فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه؟ فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه[٤].

(١) إسناده حسن لغيره: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢١٢ ــ ٢١٣) ورواه عن غير سهل.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٨/ ٣٦٤)، وأصله فى البخارى (٣٠٩٢، ٣٠٩٣).

(٣) نقلاً من ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ١١٠ ــ ١١١).

(٤) أخرجه البخارى (٣٨٤٢) مناقب الأنصار ــ باب أيام الجاهلية.

وعن زيد بن أرقم ــ رضى الله عنه ــ قال: كان لأبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ مملوك يغلُّ عليه، فأتاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: مالك كنت تسألنى كل ليلة، ولم تسألنى الليلة؟

قال: حملنى على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟

قال: مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم، فوعدونى فلما كان اليوم، مررت بهم فإذا عُرس لهم فأعطونى.

قال: إنك كدت أن تهلكنى، فأدخَل يده فى حَلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج ــ يعنى اللقمة ــ.

فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء، فجعل يشرب، ويتقيأ حتى رمى بها.

فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة.

قال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها(١).

وقوفه ـ رضى الله عنه ـ عند كتاب الله ـ عز وجل ـ

لقد كان أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ وقّافًا عند كتاب الله ــ عز وجل ــ فلا يقدم شيئًا ولا يؤخره إلا إذا كان موافقًا لأمر الله ــ جل وعلا ــ.

فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى حادثة الإفك، وفيه قالت: فلما أنزل الله براءتى، قال أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره ــ: والله لا أُنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣١).

يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى، والله إنى أحبُّ أن يغفر الله لى، فرجع إلى النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً(١).

وعن ابن أبى مليكة قال: سُئل أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ عن آية فى كتاب الله ــ عز وجل ــ قال: أى أرض تُقلنى، وأى سماء تظلنى وأين أذهب وكيف أصنع إذا أنا قلت فى آية من كتاب الله بغير ما أراد الله؟(٢).

وعن ابن سيرين قال: «لم يكن أحدٌ أهيب بما لم يعلم من أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً، ولا فى السنة أثرًا فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيى فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى، وأستغفر الله(٣).

رقة قلبه وبكاؤه ـ رضى الله عنه ـ

عن أنس قال: قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، فقالت: ما أبكى أن أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكى أن الوحى قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها(٤).

(١) أخرجه البخارى (٤٧٥٠) التفسير.

(٢) ذكره الحافظ فى (الفتح) (١٣/ ٢٧١) وقال: الأثر حسن.

(٣) الخبر فى مسند عبد بن حميد ــ وقال العدوى: وهو صحيح رجاله ثقات.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) فضائل الصحابة ــ باب فضل أم أيمن.

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى حديث الهجرة الطويل، وفيه: ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يُصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يملكُ عينيه إذا قرأ القرآن(١).

زهده ـ رضى الله عنه ـ في الدنيا وزينتها الفانية

عن زيد بن أرقم، أن أبا بكر استسقى، فأُتى بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه ــ فمه ــ بكى، وأبكى مَنْ حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق، فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنتُ مع النبى ﷺ وجعل يدفع عنه شيئًا، ويقول: «إليك عنى، إليك عنى» ولم أرَ معه أحدًا، فقلت: يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئًا، ولا أرى معك أحدًا؟ قال: «هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها، فقلت لها: إليك عنى، فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلتَّ منى لا ينفلت منى مَن بعدك» فخشيت أن تكون قد لحقتنى، فذاك الذى أبكانى»(٢).

موقفه العظيم يوم بدرٍ

لقد شهد أبو بكرٍ ــ رضى الله عنه ــ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وثبت معه ثباتًا لا نظير له.

ففى يوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فتكلم أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ فأجاد، وكانت المعركة..

يقول (علىّ) ــ رضى الله عنه ــ: أشجع الناس أبو بكر... إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارى (٣٩٠٥) مناقب الأنصار ــ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.
(٢) رواه الحاكم والبزار وقال العراقى: إسناده جيد.

لئلا يقوى إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى إليه أحد إلا هوى إليه(١).

وعن ابن سيرين، أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يوم بدر مع المشركين!! فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفتَ ـ أشرفت ـ إليَّ يوم بدر، فانصرفتُ عنك، ولم أقتلك، فقال أبو بكر: «لكنك لو أهدفت لى لم أنصرف عنك»(٢).

ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف، وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية فى سبيل ما يعتقدون، فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد، ويخاصمه فى ذات الله، والقتال الذى دار بـ«بدر» سجّل صوراً من هذا النوع الحاد: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبى جهل(٣).

وهذه صورة عالية من الولاء والبراء.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (٩/ ٤٦).

(٢) تاريخ الخلفاء (٣٦).

(٣) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٦٧).

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ يقاتلان مع أبى بكر وعلىّ ـ رضى الله عنهما ـ

عن أبى صالح الحنفى عن علىّ قال: قيل لعلى[1] ولأبى بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال: يشهد الصف[2].

الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢] قالت لعروة: يا ابن أختى كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «مَنْ يذهب فى إثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً: كان فيهم أبو بكر والزبير[3].

ثباته ـ رضى الله عنه ـ فى باقى المشاهد

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وثبت أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ثبوت الجبال يوم أُحد حول رسول الله ﷺ يدافع.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بنى فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

---

(١) القائل هو رسول الله ﷺ كما هو واضح من رواية أبى يعلى والحاكم.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٤٧) والحاكم (٣/ ١٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، وأشار الذهبى إلى أنه على شرط مسلم.

(٣) أخرجه البخارى (٤٠٧٧) ـ وأخرجه مسلم (٢٤١٨).

وفى غزوة تبوك ساعة العُسرة كانت راية المسلمين بيد أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ.

ويوم حُنين أُعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغنهم شيئًا، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم أعداء الله فى شعاب الوادى، وكان أول من ثبت حول رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه وأرضاه ــ[١].

موقفه العظيم في قصة الإسراء والمعراج

ولما كانت رحلة الإسراء والمعراج جاء المشركون إلى أبى بكر فقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أُسرى به إلى المسجد الأقصى فى الليلة الماضية ونحن نقطع أكباد الإبل إليها فى شهر كامل، فقال أبو بكر: إن كان قال فقد صدق.

وفى رواية: وبادر الصدِّيق إلى التصديق وقال: إنى لأصدقه فى خبر السماء بكرة وعشية، أفلا أصدّقه فى بيت المقدس؟![٢].

ولذلك يُقال: إن أبا بكر سُمى صدِّيقًا من حادثة الإسراء والمعراج؛ لأن النبى ﷺ قال ليلة أسرى به لجبريل إن قومى لا يصدقونى فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصدِّيق[٣].

وكان علىٌّ بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ يحلف أن الله ــ عز وجل ــ أنزل اسم أبى بكر من السماء (الصدِّيق)[٤].

❊ ❊ ❊

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٦٩) ط. مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٠٨).

(٣) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٣٣٨ ــ ٤٠٢).

(٤) قال ابن حجر فى «الفتح» (٧/١١): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

موافقته للحبيب ﷺ يوم الحديبية

وها هو الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ فى موقفٍ من أعظم المواقف التى كاد أصحاب النبى ﷺ أن يعترضوا فيه على بنود الصلح التى وضعها المشركون.

ولكن الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ الذى كان من أكثر الناس تشبهًا بالحبيب ﷺ فى تفكيره وشفافية قلبه، بل وفى كلامه ينظر إلى الموقف ببصيرة عميقة وشفافية ليست لها حدود.

ففى الوقت الذى رأى فيه الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أن شروط قريش كانت جائرة، وأن موقف المسلمين ـ موقف ذلة ـ كان الصدِّيق يرى هو والحبيب ﷺ أن الموقف ـ موقف عزة وقوة ـ.

وهنا قام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ معترضًا على هذا الموقف وعلى تلك الشروط الجائرة، فقال: قلت لرسول الله ﷺ: ألست نبى الله حقًا؟!

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على حق وعدونا على الباطل؟!

قال: «بلى».

قلت: فَلِم نعطى الدنية فى ديننا إذًا؟!

قال: «إنى رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصرى».

قلت: أوَ لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟

قال: «بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟»

قلت: لا.

قال: «فإنك آتيه ومطّوفٌ به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقًا؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فَلِمَ نعطى الدنية فى ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله ﷺ ليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (أى: اتبع قوله، وفعله، ولا تخالفه) فوالله إنه لعلى الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال: بلى. أفأخبرك أنك آتيه العام؟

قلت: لا. قال: فإنك آتيه، ومطوف به(١).

فيا لها من قلوبٍ طاهرة تشابهت وتلاقت على الحُب فى الله (جل وعلا).

إن من تأمل فى كلمات الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ لوجد أنها هى نفس الكلمات التى قالها النبى ﷺ .

فيا لها من موافقة بين تلك الأرواح الطاهرة النقية التقية الصادقة.

إشارات الحبيب ﷺ لاستخلاف أبى بكر من بعده

عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتت امرأة للنبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك ـ كأنها تقول الموت ـ قال ﷺ : «إن لم تجدينى فأتى أبا بكر»(٢).

قال الحافظ ابن حجر فى «الفتح»: والاستدلال بأن هذا الحديث يدل على أن أبا بكر هو الخليفة بعد النبى ﷺ صحيح، لكن بطريق الإشارة لا

(١) أخرجه البخارى (٢٧٣١) كتاب الشروط ـ باب الشروط فى الحرب.

(٢) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام/ باب الاستخلاف ـ ومسلم (٢٣٨٦) فضائل الصحابة.

التصريح، ولا يعارض جزم عمر بأن النبى ﷺ لم يستخلف؛ لأن مراده نفى النص على ذلك صريحًا، والله أعلم.

قال الكرمانى: يُستدل بهذا الحديث على خلافة أبى بكر اهـ[١].

وقال الإمام النووى: مات رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدًا بنص صريح، وهذا مذهب أهل السنَّة والجماعة، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة لأبى بكر وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولَذَكَرَ حافظُ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نص، ثم اتفقوا على أبى بكر، واستقر الأمر. اهـ[٢].

وعن عبد الله بن زمعة ــ رضى الله عنه ــ قال: لما استعز[٣] بالنبى ﷺ ــ وأنا عنده فى نفر من المسلمين ــ دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا من يُصلى بالناس» قال: فخرج عبد الله بن زمعة فإذا عمر فى الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلت: يا عمر قُم فصل بالناس، فتقدم فكبر، فلما سمع النبى ﷺ صوته ــ وكان عمر رجلاً مجهرًا ــ قال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون» فبعث إلى أبى بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس[٤].

وعن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ قال: مرض النبى ﷺ فاشتد مرضه، فقال: «مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إنه رجل

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٤٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٢٢٠) ط. مؤسسة قرطبة.

(٣) «استعز» بالمريض: إذا غلب على نفسه من شدة المرض، وأصله العِزَّة، وهى الغلبة والاستيلاء على الشىء.

(٤) رواه أبو داود رقم (٤٦٦٠، ٤٦٦١) فى السنة، باب استخلاف أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ، وحسنه الأرناؤوط، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٣٨٩٥).

رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يُصلى بالناس؟

وفى رواية: قالت عائشة عندما قال ﷺ : «مروا أبا بكر يُصلى بالناس» قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام فى مقامك لم يُسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمر فليُصلِّ بالناس، فقالت عائشة: فقلت لحفصة، قولى له: إن أبا بكر إذا قام من مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمُر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ : «مَهْ، لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»(١).

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه: «ادعى لى أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإنى أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولَى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»(٢).

وعن ابن أبى مليكة قال: سمعت عائشة، وسُئلت: من كان رسول الله ﷺ مستخلفًا لو استخلفه؟

قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد أبى بكر؟ قالت: عمر(٣).

وعن حذيفة ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم! فاقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر»(٤).

ومن بين تلك الإشارات أن رسول الله ﷺ صلى خلف أبى بكر فى مرضه الذى مات فيه.

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: «صلى رسول الله ﷺ خلف أبى

---

(١) أخرجه البخارى (٦٧٩) الأذان ــ ومسلم (٤١٨) الصلاة.

(٢) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام باب الاستخلاف ــ ومسلم (٢٣٨٧) فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٥) فضائل الصحابة ــ باب من فضائل أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ.

(٤) رواه الترمذى رقم (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) فى المناقب، باب مناقب أبى بكر الصديق، وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وهو فى السلسلة الصحيحة رقم (١٢٣٣).

بكر قاعداً فى مرضه الذى مات فيه»(١).

ثبات الصدّيق عند وفاة الحبيب ﷺ

إن الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التى تشير إلى قُرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى فى السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفى السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقرُّ بالإسلام أو تعطى الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأرهب جيش العُسرة الذى خرج به النبى ﷺ جحافل الروم حتى فروا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبى ﷺ المتواصل وصحابته الكرام ـ رضى الله عنهم ـ فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبى ﷺ يُعرّض بقرب أجله:

فمن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى، فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا»(٢).

ومن ذلك أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا فى رمضان، فاعتكف فى السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فى رمضان فعارضه فى السنة الأخيرة مرتين.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٥٩) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ـ ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح.
(٢) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٢).

وخرج النبى ﷺ للحج فى السنة العاشرة، وقال: «خذوا عنى مناسككم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وطفق يودع الناس»(١).

ونزل عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن هذه الإشارات القوية ما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: خطب النبى ﷺ وقال: «إن الله خَيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله» قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيّر... فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا...»(٢).

وتروى لنا أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ كيف بدأت شكوى رسول الله ﷺ قالت: رجع النبى ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدنى، وأنا أجد صداعًا وأنا أقول: وارأساه، قال: «بل أنا يا عائشة وارأساه» قال: «وما ضرك لو مِتِّ قبلى فغسّلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك»، فقلت: كأنى بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتى فعرست فيه ببعض نسائك.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بُدئ فى وجعه الذى مات فيه»(٣).

اللحظات الأخيرة من حياة الحبيب ﷺ

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: «أن المسلمين بينا هم فى صلاة الفجر من يوم الإثنين وأبو بكر يصلى بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف السِتر من حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ

(١) رواه مسلم (٨/ ١٧٢ ـ ١٩٤) الحج.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٨) وابن أبى شيبة (١٢/ ٦) وهو فى الصحيحين من طرق أخرى.
(٣) رواه ابن ماجة (١٤٦٥) الجنائز، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة (١١٩٧).

يريدُ أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتِمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»(١).

فانظر إلى أدب الصدِّيق كيف أورثه مقامه، والإمامة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه ــ وقد أومأ إليه أن اثبت في مكانك ــ جَمزًا، وسعيًا إلى قُدَّام.

فبكلٍّ خطوة إلى وراء مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المطيِّ. والله أعلم(٢).

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده سواك، وأنا مُسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه: وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتد عليه، قلت: أُلينه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فليَّنتُه، فأمَرّه وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ﷺ ومالت يده»(٣).

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ : «اللهم الرفيق الأعلى».

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٨) المغازي ــ باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٧٤٥) المغازي.

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي ــ وابن ماجة (١٦٣٠) الجنائز.

تقول عائشة: «مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى وأنا مسندته إلى صدرى، فرأيته رفع يده أو أصبعه ثم قال: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى» فعلمت أنه لا يختارنا(١).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا»(٢).

وقال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه(٣).

موقف الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ

من شاء أن يرى يقين أبى بكر فى أحفل ساعاته، من شاء أن يرى اليقين العلوى الموصول بقيُّوم السموات والأرض، فليرَ هذا اليقين يومَ دُعى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء، يومئذٍ تكشَّف هذا الجوهر... يقين لا يضعف بل يتفوق، ولا يجزع بل يحتشد، ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض أيِّداً رشيداً ثابتًا ليحمل مسئولياته وتبعاته!!

وقف يقين أبى بكر يوم وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنح ـ قال إسماعيل: تعنى بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول

---

(١) أخرجه البخارى (٤٤٦٣) المغازى ـ باب آخر ما تكلم به النبى ﷺ.

(٢) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤) المناقب ـ وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.

(٣) لطائف المعارف (١١٣ ـ ١١٤) باختصار.

الله ﷺ فقبّله فقال: بأبى أنت طبت حيًا وميتًا، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رِسلك ـ يقصد عمر ـ فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. وقال: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فنشج[(١)] الناس يبكون[(٢)].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

وأن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تُقلنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبى ﷺ قد مات[(٣)].

وهكذا كان يقين أبى بكر يُشبه عين الصقر، يقع فى أقلٍّ من لمح البصر على كلمة السر التى ستردُّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة، إلى وعى قدير يستقبل تبعاته الجسام، ويعبُر أزمة الموت بسلام!!

إذن يا خيلَ الله اركبى... ويا راية الله ارتفعى.. ويا حَمَلَة هذه الراية قوموا... انهضوا... واصلوا رحلة الشمس المشرقة.

---

(١) فنشج الناس: أى بكوا بغير انتحاب، والنشج ما يعرض فى حلق الباكى من الغصة، وقيل: هو صوت معه توجع، كما يردد الصبى بكاءه فى صدره.

(٢) أخرجه البخارى رقم (٣٦٦٧، ٣٦٦٨) فى فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً».

(٣) أخرجه البخارى رقم (٤٤٥٤) فى المغازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته.

لقد فعل يقين أبى بكر فى الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزم الأيِّد[١].

مبايعته بالخلافة ـ رضى الله عنه ـ

وبعد وفاة الحبيب ﷺ كادت أن تحدث فتنة عظيمة بين المهاجرين والأنصار على أمر الخلافة ــ مع أننا على يقينٍ تامٍ بأن أصحاب الحبيب ﷺ كانوا لا يبتغون بعملهم إلا وجه الله تعالى ــ.

ومما حدث في يوم سقيفة بني ساعدة أنه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلامًا قد أعجبنى خشيت ألا يبلغه أبو بكر. . . ثم تكلم أبو بكر (فتكلم أبلغ الناس) فقال فى كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حُباب بن المنذر: والله لا نفعل. منا أمير ومنكم أميرٌ، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب دارًا وأعربهم أحسابًا فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عُمَرُ بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله»[٢].

وعن عبد الله قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أميرٌ فأتاهم عمر فقال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يُصلى بالناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[٣].

---

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٨٩ ــ ٩٠) بتصرف.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٦٧) عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ.

(٣) رواه النسائى (٢/ ٧٤، ٧٥)، وأحمد (١/ ٢١)، والحاكم (٣/ ٦٧)، وصححه ووافقه الذهبى.

وعن ابن عباس قال: قال عمر: لأن أُقدم فتُضرب عنقى أحب إلىَّ من أن أتقدم قومًا فيهم أبو بكر[1].

وعن أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد. جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالةً ما كانت، وما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إلىَّ رسول الله ﷺ ولكنى قد كنت أُرى أن رسول الله ﷺ سيدبُرُ أمرنا ــ يقول: يكون آخرنا ــ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه[2].

دستورٌ عظيم لحكام المسلمين

خطبة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد أن ولى الخلافة

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإنى قد وُليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أُريح[3] عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عَمَّهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[4].

(١) السيرة النبوية لابن هشام ــ وقال ابن كثير فى البداية: إسناده صحيح.

(٢) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٨٥).

(٣) أريح: أراحه: أرجعه حقه.

(٤) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/ ٢٤٨) (٦/ ٣٠١) وقال: إسناده صحيح.

من بديع خطبه ومواعظه ـ رضى الله عنه ـ

عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، فقال: «أما بعد: فإنى أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]

اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى، وهذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، ولا يُطفأ نوره، فصدِّقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستضيئوا منه ليوم القيامة، وإنما خلقكم لعبادته، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجلٍ قد غُيِّب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مُهَل آجالكم قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم، فإن أقوامًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، ألوَحَا ألوَحَا[١]، النجاء النجاء، إن وراءكم طالبًا حثيثًا أمره سريع[٢].

وخطب الصديق فى المسلمين فقال: «أيها الناس، استحيُوا من الله؟ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط، إلا وأنا مُقنِّع رأسى حياءً من الله»[٣].

* * *

(١) الوَحَا: اى السرعة.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٠٦ ــ ١٠٧).

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (ص ٢٠).

بعث جيش أسامة ـ رضى الله عنه ـ

لقد ارتد بعد وفاة النبى ﷺ الكثير من قبائل العرب، بل وأصبح الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ كما وصفهم عمار بن ياسر ــ رضى الله عنه ــ: كغنمٍ بلا راعٍ، وصارت المدينة المنورة ــ على حسب تعبيره ــ أضيق على أهلها من الخاتم.

فبدأ الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ خلافته المباركة بإنفاذ جيش أسامة بن زيد ــ رضى الله عنهما ــ الذى أمر به النبى ﷺ قبل موته لتأديب قبائل قضاعة لموالاتهم للروم ضد جيش المسلمين.

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: فصل فى تنفيذ جيش أسامة بن زيد، الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قُتل زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، فيغيروا على تلك الأراضى، فخرجوا إلى الجرف، فخيموا بها، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق، فاستثناه رسول الله ﷺ منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات عَظُم الخطب، واشتد الحال، ونَجَم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام فى بلد سوى مكة والمدينة، وكانت (جويثًا) من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما فى صحيح البخارى عن ابن عباس، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، ولم يفروا ولا ارتدوا.

والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة، لاحتياجه إليه فيما هو أهم؛ لأن ما جهز بسببه فى حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحِلُ

عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وآمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه فى ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحى من أحياء العرب إلا أُرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يومًا ويقال: سبعين يومًا، ثم أتوا سالمين غانمين ثم رجعوا فجهزهم حينئذٍ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعى الزكاة(١).

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجيش فأشخصهم وشيَّعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر.

فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن.

فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علىّ أن أغبر قدمىّ فى سبيل الله ساعة، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له، وسبعمائة درجة تُرفع له، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة، حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعيننى بعمر، فافعل، فأذن له.

ووقف الصديق ــ رضى الله عنه ــ يزود الجيش بخير الزاد، ويرسم له دستور الحرب الذى ما عرف التاريخ أعدل، ولا أطهر، ولا أشرف منه فى غير الإسلام ووقف يقول لهم:

أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عنى:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٨) لابن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له.

وانطلق جيش أسامة فى أمان الله تنفيذًا لأمر رسول الله ﷺ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وانتصر جيش أسامة بفضل الله فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام[1].

فتلك هى رحمة الإسلام بالكفار والمشركين حتى فى الحروب التى لا تخضع لقوانين الإيمان والأخلاق.

إنها صورة نهديها لكل من يقول: إن الإسلام لم ينتشر إلا بالعنف والإرهاب!!!.

موقف الصدّيق - رضى الله عنه - في حرب المرتدين

قال الإمام الذهبى: «لما اشتهرت وفاة النبى - عليه الصلاة والسلام - بالنواحى، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فنهض أبو بكر لقتالهم، فأشار عليه (عمر) وغيره أن يفتر عن قتالهم، فقال: والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه».

وهنا قال عمر بن الخطاب لأبى بكر - رضى الله عنهما -: كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقها، وحسابه على الله»؟.

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦) بتصرف - نقلاً من أئمة الهدى للشيخ محمد حسان وعوض الجزار - ط. دار ابن رجب.

فقال أبو بكر: والله لو منعونى عناقًا[١]، وفى رواية عقالاً[٢] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق[٣].

وكان مما قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: يا خليفة رسول الله ﷺ! تألَّف الناس وارفق بهم.

فأجابه أبو بكر: رجوت نُصرتك وجئتنى بخذلانك، أجبَّار فى الجاهلية، وخوَّار فى الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحى، وتم الدين، أوَ ينقص وأنا حى؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «إلا بحقها»؟ ومن حقها إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والله لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى[٤].

فكان موقفًا مباركًا مؤيدًا من الله تبارك وتعالى.. وقيَّض الله عز وجل لهذا الدين رجلاً مباركًا هو الصدِّيق..

فثبت ثباتًا عظيمًا فى هذه الفتنة العظيمة، تمثلت فيه عظمة هذا الرجل من إيمان ويقين وفهمٍ عميق لهذا الدين.. فأيده الله بنصرٍ من عنده..

فما من ناحية من جزيرة العرب إلا وحصل فى أهلها رِدة لبعض الناس فبعث الصدِّيق إليهم جيوشًا وأمراء يكونون عونًا لمن فى تلك الناحية من

---

(١) العناق: الأنثى من ولد المعز.

(٢) العقال: هو الحبل الذى يعقل به البعير.

(٣) رواه البخارى رقم (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، ومسلم رقم (٣٢) فى الإيمان.

(٤) التاريخ الإسلامى/ لمحمود شاكر (٣/ ٦٨).

المؤمنين، فلا يتواجه المشركون والمؤمنون فى موطن من تلك المواطن إلا غلب جيش الصديق مَن هناك من المرتدين، ولله الحمد والمنة. . . وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة فيتقوون بذلك على مَنْ هناك، يبعثون بأخماس ما يغنمون إلى الصدِّيق فينفقه فى الناس، فيحصل لهم قوة أيضًا ويستعدون بها على قتال من يريدون قتالهم من الأعاجم والروم، ولم تنم لصدِّيق الأمة عين حتى أرسل الجيوش الإسلامية يمينًا وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام، وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه، ورجع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وتوالت الانتصارات والفتوحات بفضل من الله رب الأرض والسموات، وتم القضاء على المرتدين، ودوخت جيوش المسلمين الفرس والروم، وأظهرت قوتهم وإمكاناتهم القتالية.

الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ أول من جمع القرآن الكريم

جهّز أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ جيشًا بقيادة خالد بن الوليد فى جمع كثير من الصحابة لمحاربة (مسيلمة الكذاب) عليه من الله ما يستحقه، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله، وقتله. . . وقُتل فى غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة من حَمَلة القرآن، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر وذلك فى موقعة اليمامة، فبدأ التفكير فى جمع القرآن قبل أن يُقتل الباقون.

ولنستمع القصة من كاتب وحى رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ[1].

يقول زيد: أرسل إلىَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة (أى عقب مقتل اليمامة)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه

(١) أئمة الهدى ومصابيح الدجى (ص ٢٠٣: ٢٠٥) للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

ـ: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى إن استحرّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟!

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر.

وفى رواية: يقول زيد: فقال لى أبو بكر: «إن هذا دعانى إلى أمر، وأنت كاتب الوحى فإن تك معه اتبعتكما، وإن توافقنى لا أفعل» فاقتضى قول عمر فنفرت من ذلك[١]، فقال عمر كلمة: وما عليكما لو فعلتما؟ قال: فنظرنا فقلنا: لا شى والله ما علينا.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خير.

لم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ[٢]

---

(١) قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانيًا؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال فى المستقبل إذا لم يجمع القرآن، فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة، رجعا إليه فتح... البارى (٨/ ٦٣٠).

(٢) العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض.

واللُّخاف[1]، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة.

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ــ أى طوال حياته ــ ثم عند حفصة بنت عمر ــ رضى الله عنهما ــ[2].

استخلافه لعمر ـ رضي الله عنه ـ

ولما دنا أجل الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ وقد أكرمه الله ــ عز وجل ــ بالقضاء على فتنة المرتدين وكثرت الفتوحات الإسلامية فى عهده وساق الله على يديه الخير الكثير للإسلام والمسلمين.. فأحسَّ أنه من الأفضل أن يستخلف رجلاً من بعده يكمل مسيرة الإصلاح ونشر الدعوة ويأخذ بأيدى الناس إلى جنة الرحمن ــ جل وعلا ــ.

ولا شك أن اختيار هذا الرجل قبل وفاة الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ سيجنب المسلمين محنة الاختلاف على الخليفة القادم.

ولقد كان الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ يخشى أن يموت فيتورع عن هذا المنصب مَن هو أحق الناس به لزهده وورعه، ومن ثَم فقد يتولى هذا المنصب من لا يستحقه فيكون بذلك قد ضيَّع الأمانة.

فرأى الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ أنه لابد من استخلاف رجل من بعده ويدأ بالفعل يسأل الصحابة عن رأيهم فى عمر ــ رضى الله عنه ــ فأجمع الصحابة على أنه أحق الناس بالخلافة سوى أن هناك من خشى أن يغلظ عمر

---

(١) اللخاف: قيل: هى الحجارة الرقاق، وقيل: هى صحائف الحجارة الرقاق.

(٢) رواه البخارى رقم (٤٩٨٦) فى «فضائل القرآن» باب جمع القرآن، والترمذى فى التفسير، والنسائى (٥/ ٢٩٣) فى المناقب.

ـ رضى الله عنه ـ على رعيته.

ولم يدر هذا الصحابى الجليل أن عمر ـ رضى الله عنه ـ إنما كان يغلظ أحيانًا إذا خشى أن يتجرأ رجل على شخص رسول الله ﷺ أو على خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ.

وهنا جاء القرار الحاسم من الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ فدعا عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وقال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب. . . . إنى استخلفت عليكم.

ثم غُشى عليه.

فكتب عثمان: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب.

فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ علىّ، فقرأ عليه، فكبّر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى.

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله.

وأقرها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأمره أن يخرج على الناس بالكتاب فبايعوه لمن فيه قد علموا أنه عمر(١).

* * *

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٤٨، ١٤٩) بسند فيه الواقدى، و«تاريخ الطبرى» (٢/ ٣٥٢) من طريق الواقدى أيضًا، و«المنتظم» (٤/ ١٢٥، ١٢٦) وعند البيهقى (٨/ ١٤٩) بإسناد حسن.

وصيته الغالية لعمر ـ رضى الله عنه ـ

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط، قال: لما حضر أبا بكر الصديق الموتُ، دعا عمر، فقال له: «اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلةً حتى تُؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الحقُّ غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتَهم قلت: إنى أخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إنى لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتى، فلا يك غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتى فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، ولستَ تُعجزه»(١).

أفرس الناس ثلاثة !!!

يقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس فى عمر بن الخطاب فاستخلفه وصاحبة موسى التى قالت: «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين»، قال: وما رأيت من قوته؟

قالت: جاء إلى البئر وعليه صخرة لا يُقلّها كذا وكذا فرفعها.

قال: وما رأيت من أمانته؟ قالت: كنت أمشى أمامه، فجعلنى خلفه،

---

(١) الحلية لأبى نعيم (١/ ٣٦، ٣٧) صفة الصفوة (١/ ١٣٧، ١٣٨).

والعزيز حين تفرس فى يوسف ﷺ فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١][1].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالحب والبذل والتضحية والفداء والعدل والإيثار.

نام خليفة رسول الله ﷺ على فراش الموت ليلحق بحبيبه وصاحبه رسول الله ﷺ فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أول ما بُدئ مرض أبى بكر أنه اغتسل، وكان يومًا باردًا فَحُمَّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه.

وعن عائشة قالت: لما مرض أبو بكر مرضه الذى مات فيه قال: انظروا ماذا زاد فى مالى منذ دخلت فى الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدى. فنظرنا فإذا عبدٌ نوبى كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح[2] كان يسقى بستانًا له. فبعثنا بهما إلى عمر. قالت: فأخبرنى جدى أن عمر بكى وقال: رحمة الله على أبى بكر لقد أتعب مَن بعده تعبًا شديدًا[3].

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: لما مرض أبو بكر مرضه الذى مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه فى صدره فتمثلت هذا البيت:

لعمـرك ما يغنـى الثراء عن الفتـى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إلىَّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٥٧٥) فى مصنفه، والحاكم (٣/ ٩٠)، وصححه وأقره الذهبى.

(٢) الناضح: هو البعير الذى يستقى عليه.

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٠٨).

أصدق: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحدٌ من أهلى أحب إلىَّ منك، وقد كنت نحلتك حائطًا، وإن فى نفسى منه شيئًا فردِّيه إلى الميراث.

قالت: نعم فرددته.

وقال ــ رضى الله عنه ــ: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا، ولبسنا من خيش ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فَىء المسلمين قليلٌ ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر، وابرئى منهن ففعلت، فلما جاء الرسولُ (عمر) بكى حتى جعلت دموعه تسيل فى الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده(١).

وقال ــ رضى الله عنه ــ لما حضرته الوفاة: إن عمر لم يدعنى حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطى الذى بمكان كذا فيها، فلما توفى ذُكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً(٢).

واستمر مرض أبى بكر مدة خمسة عشر يومًا حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ: إن أبا بكر قال لها: فى أى يوم مات رسول الله ﷺ؟ قالت: فى يوم الإثنين، قال: ما شاء إنى لأرجو فيما بينى

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٤٦، ١٤٧)، ورجاله ثقات.

(٢) المنتظم (٤/ ١٢٧) عن ابن سعد، ورجاله ثقات.

وبين الليل، قال: ففيم كفنتموه؟

قالت: فى ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص، ولا عمامة.

فقال أبو بكر: انظرى ثوبى هذا فيه ردعُ زعفران أو مشقٍ فاغسليه واجعلى معه ثوبين آخرين.

فقالت عائشة: يا أبت هذا خَلِقٌ ـ قديم ـ فقال: إن الحى أحق بالجديد، وإنما هو للمُهلة[١]. يعنى فترة القبر.

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أى يوم هذا؟ قالوا: يوم الإثنين، قال: فإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى الغد، فإن أحبَّ الأيام والليالى إلىّ أقربُها من رسول الله ﷺ [٢].

وتوفى رحمه الله وهو ابن ثلاث وستين سنة... مُجمعٌ على ذلك فى الروايات كلها، استوفى سن رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وُلد بعد الفيل بثلاث سنين ـ رضى الله عنه ـ وغسلته زوجه أسماء بنت عميس، وكان قد أوصى بذلك[٣]، ودُفن جانب رسول الله ﷺ حسب وصيته، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ

* * *

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٥٠)، ورجاله ثقات.
(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند رقم (٤٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٣) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.

كلمة خالدة قالها (عليّ) بعد موت (الصدّيق) ـ رضى الله عنهما ـ

عن أُسيد بن صفوان: قال: لما قُبض أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وسُجِّى عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قُبض رسول الله ﷺ.

قال: فجاء علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ووقف على البيت الذى فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر.. كنت إلف رسول الله ﷺ وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم لله يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء فى دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وسمتًا، وأشرفهم منزلة، وأرفعهم عنده، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء. صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله فى تنزيله صدِّيقًا فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣].

واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة، ثانى اثنين صاحبه فى الغار، والمُنزَّل عليه السكينة، ورفيقه فى الهجرة، وخليفته فى دين الله وأمته، أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبى، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ وهنوا.

وكنت كما قال رسول الله ضعيفًا فى بدنك قويًا فى أمر الله تعالى، متواضعًا فى نفسك عظيمًا عند الله تعالى، جليلاً فى أعين الناس كبيرًا فى

أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقائل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ بحقه القريب والبعيد عندك فى ذلك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم... شأنك الحق والصدق والرفق قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين وقوى بك الإيمان وظهر أمر الله، فسبقت ـ والله ـ سبقًا بعيدًا، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالخير فوزًا مبينًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون رضينا عن الله عز وجل قضاءه وسلمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدًا، كنت للدين عزًا، وحرزًا وكهفًا فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد ﷺ، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك، فسكت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: صدقت[1].

وعن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: لو وُزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم ليتنى شعرة فى صدر أبى بكر»[2].

فرضى الله عن أبى بكر وعن سائر الصحابة أجمعين

***

(١) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٩).

(٢) المطالب العالية (٤٢٩٢) والخبر فى زيادات مسند مسدد ورجاله ثقات.

عمر بن الخطاب

لو كان من بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب

محمد رسول الله ﷺ

وهذا الفاروق، الذى تطيب المجالس بذكره، يَصْدُق فيه: أن من خاف الله أخاف الله منه كل شىء. . . . والجزاء من جنس العمل.

فقد كان يسمع القرآن فيُغشى عليه فيُحمل صريعًا إلى منزله، فيُعاد أيامًا، ليس به مرض إلا الخوف.

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين فى وجهه من كثرة بكائه[1].

إنه مَن أظهر إسلامه يوم كانوا يُخفونه.

إنه مُرقّع القميص وبين يديه الغالى والنفيس.

إنه من يسلك الشيطان فجًا غير فجه.

إنه الوقّاف عند كتاب الله. . إنه المجاهد فى سبيل الله.

إنه القيم والمُثل بعينها. . وما أروع المُثل يوم تكون رجالاً فتكون الأخلاق فعالاً.

---

(١) الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (٢/ ١٧).

إنه العادل إن ذُكر العادلون.

هو مَن سهر لينام الناس.. وجاع ليشبع الناس.

هو مَن جعل كبير المسلمين أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ولدًا.. فوقَّر أباه وأحَبَّ أخاه ورَحِم ولده.

هو مَن لا تأخذه في الله لومة لائم.

هو قائل الحق ولو كان مُرًا.

إنه مَن اشترى أعراض المسلمين من أحد الشعراء بثلاثة آلاف درهمٍ حتى قال ذلك الشاعر:

وأخذت أطراف الكلام فلم تَدع
شَتمًا يضر ولا مديحًا ينفعُ
ومنعتنى عِرض البخيل فلم يخف
شَتمى وأصبح آمنًا لا يفزعُ

إنه (فاروق الأمة) الذى زلزل عروش الظالمين... ودكَّ قلاع الأكاسرة والقياصرة، وخضعت لعدالته الجبابرة والأباطرة وهوت عناكب الظلم أمام رايات عدله الخفَّاقة وفتوحاته المظفّرة.. فأرغم أنوف الروم وحطَّم كبرياء الفُرس وأخرج المغضوب عليهم (اليهود) من جزيرة العرب.

أخرجهم أذلة صاغرين.

إنه الزاهد العالم... العابد الغيور.. الخائف من الله.

إنه عمر بن الخطاب.. نورٌ أضاء سطور التاريخ..

غُرةٌ فى جبين الزمان.. أُمةٌ فى رجل.. إمامٌ هُمامٌ.. مُميت الفتن ومُحيى السُنن[1].

---

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ على القرنى.

مَن هو (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ

إنه الرجل الكبير فى بساطة... البسيط فى قوة... القوى فى عدل ورحمة.

إنه الرجل الذى أنجبته أرض الجزيرة، ورباه الإسلام.

إنه الناسك الورع الذى تفجر نُسكه حركةً، وذكاءً، وعملاً وبناءً.

إنه الأستاذ المعلم الذى صحح كثيراً من مفاهيم الحياة، وكساها عظمة وروعة من خُلقه وسلوكه، وكان للمتقين إمامًا.

إنه الرجل الذى أعطى دنيا الناس كافة قدوة لا تبلى.. قدوة تتمثل فى عاهل قد بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلة بالغنائم والطيبات فسرَّحها سراحًا جميلاً، وساقها إلى الناس سوقًا كريمًا.. يقدم إليهم طيباتها، ويدرأ عنهم مضلاتها، حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع الزائل... استأنف سيره، ومسراه مهرولاً فى فترة الظهيرة الحارقة، وراء بعير من أموال الصدقة يخشى عليه الضياع، أو منحنيًا فوق قدر ليطبخ فيه طُعمة طيبة لامرأةٍ غريبةٍ أدركها كَرْب المخاض أو لأطفال يتضورون جوعًا فى ظلام الليل الدامس!!

إنه الرجل الذى تنزَّل القرآن أكثر من مرة موافقًا لرأيه، وقوله.

إنه الرجل الذى كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت ولايته عدلاً.

إنه فاروق الأمة الأواب عمر بن الخطاب.

والحق أن الاقتراب من هذا التقى النقى أمرٌ رهيب بقدر ما هو حبيب إلى النفس، فعمر بن الخطاب من الطراز الذى تغمرك الهيبة، وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كما تغمرك الهيبة وأنت تجالس شخصه المتواضع، فالمشهد المسطور من تاريخه لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل ـ فقط ـ

عن حاسة البصر.

أجل... عن حاسة البصر وحدها.. أما الأفئدة.. أما البصيرة فتحس وهى تطالع سيرة عمر أنها تعايشه وتجالسه، وكأنها ترى رأى العين جلال الأعمال، ومناسك البطولات.. وأروع الانتصارات التى نقشها على جبين الزمان، وصفحة الأيام، إنه فاروق الأمة الأواب.. عمر بن الخطاب[1].

كُنيته: أبو حفص كنّاه بها رسول الله ﷺ .

قال الحافظ فى الفتح[2]: جاء فى السيرة لابن إسحاق أن النبى ﷺ كناه بها، وكانت حفصة أكبر أولاده.

قال الزبير: وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة فى الجاهلية، وذلك أن قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب وبين غيرهم بعثوا سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخرٌ رضوا به وبعثوه منافرًا، ومفاخرًا.

قال علماء السير: شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله ﷺ بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وخيبر، والفتح، وحنين، وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار، ولقد أثنى عليه النبى ﷺ فى غير موضع، ووضع ﷺ على صدره ـ رضى الله عنه ـ كثيرًا من الأوسمة.

دعاء النبى ﷺ كان سببًا فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ

لقد كثرت الروايات التى تروى قصة إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ وأكثر تلك الروايات ضعيفة، ولكنها مشهورة ـ مثل القصة التى يرويها أكثر الناس عن دخوله على أخته وزوجها سعيد بن زيد وكذا استماعه القرآن من النبى

(١) أئمة الهدى ومصابيح الدجى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٢) فتح البارى (٥٣/ ٧ العلمية).

ﷺ وهو خلف أستار الكعبة ـ.

والراجح ـ والله أعلم ـ أن السبب الأساسى فى إسلامه ـ رضى الله عنه ـ هو دعاء النبى ﷺ له عندما قال: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»(١).

ولقد أورد الإمام البخارى سببًا آخر فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ.

عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشىء قطُّ يقول: إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن، بينما عمرُ جالسٌ، إذ مرَّ به رجلٌ جميلٌ، فقال عمر: لقد أخطأ ظنى، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم.

علىّ الرجل. فدُعى له، فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كاليوم استُقبلَ به رجلٌ مسلم.

قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى.

قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية.

قال: فما أعجبُ ما جاءتك به جنِّيَتُك؟ قال: بينما أنا يومًا فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها(٢)، ويأسها من بعد إنكاسها(٣)، ولحوقها بالقلاصِ، وأحلاسها(٤).

قال عمر: صدق، بينما أنا نائمٌ عند آلهتهم، إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحه،

---

(١) رواه الترمذى (٣٦٨٢) المناقب ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٩٠٧).

(٢) إبلاسها: المراد به اليأس ضد الرجاء.

(٣) يأسها من بعد إنكاسها: اليأس ضد الرجاء، والإنكاس الانقلاب، قال ابن فارس: معناه أنها يئست من استراق السمع، بعد أن كانت قد ألفته، فانقلبت عن الاستراق، قد يئست من السمع.

(٤) ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها: القلاص جمع قُلُص، وهى الفتية من النياق، والأحلاس جمع حِلس، وهو ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرحل.

فصرخ به صارخٌ، لم أسمع صارخًا قطُّ أشد صوتًا منه يقول: يا جليح[١]، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى، يا جَليح أمرٌ نجيح، رجلٌ فصيح، يقول: لا إله إلا الله. فقمت، فما نشبنا[٢] أن قيل: هذا نبى[٣].

قال الحافظ فى الفتح: لمح المصنف بإيراد هذه القصة من «باب إسلام عمر» بما جاء عن عائشة، وطلحة عن عمر من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه، فروى أبو نعيم فى «الدلائل» أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمدًا مائة ناقة، قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم آلضمان صحيح؟

قال: نعم، قال: فتقلدت سيفى أريده، فمررت على عجل، وهم يريدون أن يذبحوه، فقمت أنظر إليهم، فإذا صائح يصيح من جوف العجل: يا آل ذريح أمر نجيح، رجل يصيح بلسان فصيح. قال عمر: فقلت فى نفسى، إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا.

قال: فدخلت على أختى فإذا عندها سعيد بن زيد... فذكر القصة فى سبب إسلامه بطولها[٤].

ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى: وتأمل ما فى إيراده (أى البخارى رحمه الله) حديث سعيد بن زيد الذى بعد هذا ــ وهو الحديث الخامس[٥] ــ من

(١) يا جليح: معناه الوقح المكافح بالعداوة. قال الحافظ: ووقع فى معظم الروايات «يا آل ذريح» وهم بطن مشهور من العرب.

(٢) فما نشبنا: أى لم نتعلق بشىء من الأشياء حتى سمعنا أن النبى ﷺ قد خرج، يريد أن ذلك كان بقرب مبعث النبى ﷺ.

(٣) رواه البخارى رقم (٣٨٦٦) فى مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ.

(٤) ستأتى قريبًا إن شاء الله.

(٥) عن قيس بن أبى حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيتُنى مُوثقى عُمرُ على الإسلام أنا وأختُهُ وما أسلم، ولو أن أحدًا انقضَّ لما صنعتم بعثمان، لكان محقوقًا أن ينقض (رواه البخارى رقم (٣٨٦٧) فى مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب).

المناسبة لهذه القصة. اهـ[1].

الروايات المشهورة التي وردت في سبب إسلامه - رضي الله عنه -

وإليكم بعض الروايات المشهورة في قصة إسلامه ـ رضي الله عنه ـ مع بيان الحكم على تلك الروايات.

روى ابن إسحاق عن أم عبد الله بنت أبي حَثمة قالت: والله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ ـ زوجها ـ في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ـ قالت: وكنَّا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه لَلانطلاقُ يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فَرَجًا، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رِقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه ـ فيما رأى ـ خروجُنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحُزنه علينا.

قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيت حتى يسلم حمارُ الخطاب، قالت: يأسًا منه، لما كان يُرى من غلظته وقسوته على [أهل] الإسلام[2].

قال ابن إسحاق: وكان إسلامُ عمرَ ـ فيما بلغني ـ أنَّ أُخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهما مُستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعيم بن عبد الله النحَّام ـ رجل من قومه، من بني عديّ بن كعب ـ قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فرقًا ـ خوفًا ـ من قومه، وكان خبَّاب

(١) البداية والنهاية (٧٨/ ٣) ـ نقلاً من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن الحارث صدوق له أوهام قاله الحافظ في التقريب وقال أحمد: متروك الحديث وقال أبو حاتم: شيخ وقال النسائي: ليس بالقوي. قاله الذهبي في الميزان (٢/ ٥٥٤).

ابن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمرُ يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيتٍ عند الصفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبى قُحافة (الصدِّيق) وعلىّ ابن أبى طالب، فى رجال من المسلمين ــ رضى الله عنهم ــ ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمرُ؟ فقال: أُريد محمدًا هذا الصابئ، الذى فرَّق أمرَ قُريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله قد غرَّتك نفسُك من نفسِك يا عمر. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرهم؟ قال: وأىّ أهل بيت؟ قال: ختنُك[١] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمرُ عامدًا إلى أخته وختَنه، وعندهما خبَّابُ بن الأرت معه صحيفةٌ، فيها: ﴿طه﴾ يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر، تغيَّب خباب فى مُخدع لهم، أو فى بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[٢] التى سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئًا، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أختُه فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضرب فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما

(١) ختنك: أى زوج أختك.

(٢) الهينمة: صوت كلام لا يُفهم.

بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِم على ما صنع، فارعوى[1]، وقال لأخته: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعتْ فى إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها ﴿طه﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن [يكون] الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعُمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدُلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم، فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا، معه فيه نَفَرٌ من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلل الباب، فرآه متوشحًا السيفَ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان [جاء] يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له»، فأذن له الرجلُ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة، فأخذ حُجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه [به] جبذةً شديدة، وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزلَ الله بك قارعةً»؛ فقال عمرُ: يا رسول الله، جئتك لأُومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة،

(١) فارعوى: رجع وكف.

عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم[١].

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمرُ مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم.

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الله بن أبي نجيح المكيّ عن أصحابه: عطاء ومجاهد، أو عمّن روى ذلك، أنّ إسلام عمر [فيما] تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُباعدًا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أُحبها وأشربها، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجال من قُريش بالحزورة[٢]، عند دُور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلةً أُريد جُلسائي أولئك في مجلسهم ذلك قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحدًا. قال: فقلت: لو أني جئت فلانًا الخمّار، وكان بمكة يبيع الخمر. لعلّي أجدُ عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجتُ فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطُفت بها سبعًا أو سبعين. قال: فجئت المسجد أُريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُلاهُ بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت: حين رأيته: والله لو أني استمعتُ لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! [قال] فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأروّعنّه،

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٦٧) والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩) من طريق إسحاق بن يوسف الأزرق قال: حدثنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك وإسناده ضعيف، وعلته القاسم بن عثمان البصري، قال الحافظ في اللسان (٤/ ٥٤٢) قال البخاري له أحاديث لا يتابع عليها. قال الحافظ: حدث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ وتعقبه إسلام وهي منكرة جدًا. اهـ.

(٢) الحزورة: هي الآن قطعة من المسجد في مكة.

فجئت من قِبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها ـ الكعبة ـ فجعلتُ أمشى رويدًا، ورسول الله ﷺ قائمٌ يصلى يقرأ القرآن، حتى قمتُ فى قبلته مُستقبله، ما بينى وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآن رقّ له قلبى؛ فبكيتُ ودخلنى الإسلام، فلم أزل قائمًا [فى مكانى ذلك] حتى قضى رسول الله صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حُسين وكانت طريقه، حتى يجزع(1) المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر ابن عبد عوف الزهرى، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ فى الدار الرقطاء، التى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان. قال عمر ـ رضى الله عنه ـ: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ودار ابن أزهر أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسى عرفنى، فظنَّ رسول الله ﷺ أنى إنما تبعته لأُوذيه، فنهمنى(2)، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: [جئت] لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحَمِدَ الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر»، ثم مسح صدرى، ودعا لى بالثبات، ثم انصرفتُ عن رسول الله ﷺ ، ودخل رسول الله ﷺ بيته(3).

قال ابن إسحاق: والله أعلم أىّ ذلك كان.

قال ابن إسحاق: وحدّثنى نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: لما أسلم أبى عمرُ قال: أىّ قريش أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن معَمر الجُمحى قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلامٌ أعقل كل ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل

(1) يجزع المسعى: يقطعه ويقال: جزعت الوادى أى إذا قطعته.

(2) نهمنى: زجرنى.

(3) رواه عطاء ومجاهد عن إسلام عمر. قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح المكى عن إسحاق، سنده مرسل وله شواهد وتقوى بما قبله، ولما سيأتى.

أنى قد أسلمتُ ودخلت فى دين محمد؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجرُّ رداءه واتبعه عمر، واتبعتُ أبى، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـ وهم فى أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إنَّ عمر بن الخطاب قد صبأ. قال [و] يقول عمر من خلفه: كذب؛ ولكنى قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وثاروا إليه فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه، حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال: وطلح[1]، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة رجل [لقد] تركناها لكم، أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخٌ من قريش، عليه حُلة حَبِرَةَ، وقميصٌ مُوشّى، حتى وقف عليه فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر؛ فقال: فمه؟ رجلٌ اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كُشِط[2] عنه. قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهو يُقاتلونك؟ فقال: ذلك، أى بُنيّ، العاص بن وائل السهمى.

قال ابن هشام: وحدّثنى بعضُ أهل العلم أنه قال: يا أبتِ، من الرجل الذى زجر القوم عنك [بمكة] يوم أسلمت، وهم يقاتلونك، جزاه الله خيرًا؟ قال: يا بنى، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيرًا[3].

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا فى ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف فى الله لومة لائم.

قال عبد الله ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت

---

(١) طلح: أي أعيا ومنه البعير، والطلح: أي التعب.

(٢) كشط عنه: نزع عنه.

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٢٨٧).

نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلَ قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلّينا معه[1].

بل كان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [بن الخطاب]، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

هجرة رغم أنوف المشركين

وعندما أراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يهاجر خلف الحبيب ﷺ وقف أمام المشركين موقفًا أذلَّ فيه أُنوفهم وأظهر عجزهم وألقى الرعب فى قلوبهم.

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال لى علىّ بن أبى طالب: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى فى يده أسهُمًا، واختصر عَنَزَتُه[2]، ومضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه[3]، لا يُرغمُ الله إلا هذه المعاطس[4]، من أراد أن تثكله أمه، ويُوتم ولده، ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى.

قال علىّ: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علّمهم، وأرشدهم،

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٢٧٠) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٦٢) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٨٣، ٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئًا، واختصرها ـ أى أمسكها بيده ـ وقيل هى أطول من العصا، وأقصر من الرمح.

(٣) شاهت: قَبُحت، رجل أشوه، أو امرأة شوهاء، إذا كانت قبيحة (انظر اللسان ٤/ ٢٣٦٥).

(٤) المعاطس: الأنوف، واحدها معطس؛ لأنه العطاس يخرج منها (انظر اللسان ٤/ ٢٩٩٥).

ومضى لوجهه(١).

باقة من مناقب عمر ـ رضى الله عنه ـ

وها هى باقة عطرة من مناقب فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

وإذا أردنا أن نُحصى مناقبه وفضائله فإننا نحتاج إلى مجلدات، ولن نستطيع أيضًا أن نُحصى كل المناقب، ولكن حسبُنا أن نتعرف على بعض المناقب التى وردت عن فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

قال ﷺ : «نِعم الرجل أبو بكر نِعم الرجل عمر. . .»(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم مَن تحتهم، كما تَرَون النَّجم الطالع فى أُفق السماء، وإن أبا بكر، وعمر منهم، وأنعما»(٣).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناسٌ محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر»(٤).

زاد زكريا بن أبى زائدة عن سعد عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ : «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رَجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر».

قال ابن الأثير: محدثون: أراد بقوله محدثون أقوامًا يصيبون إذا ظنوا، وحدسوا فكأنهم قد حُدِّثوه بما قالوا، وقد جاء فى الحديث تفسيره «أنهم

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٤/ ١٤٤، ١٤٥) بسند صحيح والخبر فى الرياض النضرة (١/ ١٩٨).
(٢) رواه الترمذى (٣٧٩٧) المناقب ـ وصححه الألبانى فى الصحيحة (٨٧٥) ـ صحيح الجامع (٦٧٧٠).
(٣) رواه أبو داود (٣٩٨٧) والترمذى (٣٦٥٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٣٠).
(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨٩) الفضائل ـ ومسلم (٢٣٩٨) فضائل الصحابة.

مُلهَمون» والملهم: الذى يُلقى فى نفسه الشيء، فيخبر به حدسًا، وظنًا، وفراسة، وهو نوع يختص الله به من يشاء من عباده الذى اصطفى، مثل عمر ـ رضى الله عنه ـ. اهـ[١].

وعن أنس بن مالك وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين. . . لا تُخبرهما يا علىُّ»[٢].

وعن عقبة بن عامر، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول. «لو كان من بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب»[٣].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[٤].

وقال ابن عمر: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر[٥].

وعن طارق بن شهاب قال: كنا نتحدث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه مَلَكٌ[٦].

وعن سالم عن أبيه قال: رأى النبى ﷺ على عمر ثوبًا (وفى رواية: قميصًا أبيض) فقال: «أجديد ثوبك أم غسيل؟» فقال: بل غسيل، فقال: «البس جديدًا، وعش حميدًا، ومُت شهيدًا»[٧].

---

(١) جامع الأصول (٨/ ٦١٠/ ٦٤٣٤).

(٢) رواه الترمذى (٣٦٦٦) المناقب عن أنس وعلى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٥).

(٣) رواه أحمد (١٧٣٣٦) والترمذى (٣٦٨٦) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٨٤).

(٤) رواه أحمد (٥١٤٥) والترمذى (٣٦٨٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٣٦).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٩٥) وفى فضائل الصحابة (٣١٣ ـ ٣١٤) وقال العدوى: إسناده حسن.

(٦) رواه أحمد وقال وصى الله بن محمد عباس فى تخريج فضائل الصحابة (٣٤١) وهو موقوف صحيح.

(٧) رواه أحمد (٥٦٢٠) وعبد الرزاق (٢٠٣٨٢) وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٣٥٢)، وهو فى صحيح الجامع (١٢٣٤).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: صعد النبى ﷺ أُحُدًا، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله. وقال: «اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيدان»(١).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما راعٍ فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ شاة، فطلبه الراعى، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راع غيرى؟ وبينما رجلٌ يسوق بقرة قد حمل عليها. فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إنى لم أُخلق لهذا، ولكنى خُلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله! قال النبى ﷺ : فإنى أومن بذلك، وأبو بكر، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ»(٢).

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر. . .»(٣).

وفى رواية: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر وأشدهم فى أمر الله عمر. .»(٤).

وعن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ : «هذان السمعُ والبصرُ» يعنى أبا بكرٍ وعمر(٥).

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم؟ فاقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر»(٦).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ وأبو داود (٤٦٥١) والترمذى (٣٦٩٧).
(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى ـ صحيح الجامع (٢٨٧١).
(٣) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٦٨).
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).
(٥) رواه الترمذى والحاكم عن عبد الله بن حنطب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٤).
(٦) رواه الترمذى (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) المناقب ـ وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٥).

النبى ﷺ يبشره بالجنة ويرى قصره فيها

وها هو الحبيب الصادق المصدوق ﷺ يبشر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بأنه من أهل الجنة ـ ويا لها من بشرى ـ بل إن الحبيب ﷺ رأى قصر (عمر) فى الجنة.

عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلىّ فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة»(١).

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يطلعُ عليكم رجلٌ من أهل الجنة، فاطَّلع أبو بكر، ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فاطلع عمر»(٢).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت لمن هذا؟ فقالوا: لشاب من قريش، فظننت أنى أنا هو، فقلت: ومن هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب»(٣).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مُدبراً، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟!»(٤).

---

(١) رواه الترمذى (٣٧٤٨) عن عبد الرحمن بن عوف ـ ورواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٢) رواه الترمذى (٣٦٩٥) المناقب ـ والحاكم فى المستدرك، وصححه وأقره الذهبى.

(٣) رواه الترمذى (٣٦٨٩) وأحمد (١١٩٨٥) وابن حبان (٢١٨٨) ـ صحيح الجامع (٣٣٦٤).

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨٠) فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ ومسلم (٢٣٩٥) فضائل الصحابة.

منزلة إيمان عمر ـ رضى الله عنه ـ

عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى فقال النبى ﷺ : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى، فقال النبى ﷺ : الآن يا عمر»(١).

وكان من بديع كلامه ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول: «مَن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

ويقول: «من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وُقى»(٢).

منزلة دين عمر ـ رضى الله عنه ـ

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم رأيت الناس عُرضوا علىَّ وعليهم قُمُصٌ ـ جمع قميص ـ فمنها ما يبلغ الثدى ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرض علىَّ عمر وعليه قميص اجتَّره(٣) قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: الدين»(٤).

* * *

(١) أخرجه البخارى (٦٦٣٢) وأحمد (٥/ ٢٩٣).

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (ص ٢٠).

(٣) قال الحافظ ابن حجر (فتح البارى ٧/ ٥١): وقد استشكل هذا الحديث بأنه يلزم منه أن عمر أفضل من أبى بكر الصديق، والجواب عنه تخصيص أبى بكر من عموم قوله: (عُرض علىَّ الناس) فلعل الذين عُرضوا إذ ذاك لم يكن فيهم أبو بكر، وأن كون عمر عليه قميص يجره لا يستلزم أن لا يكون على أبى بكر قميص أطول منه وأسبغ، فلعله كان كذلك إلا أن المراد كان حينئذ بيان فضيلة عمر فاقتصر عليها. والله أعلم.

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٩١) ـ ومسلم (٢٣٩٠) ـ والترمذى (٢٢٨٦).

علم عمر ـ رضى الله عنه ـ وفقهه

عن الزهرى قال: أخبرنى حمزة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم شربت ـ يعنى اللبن ـ حتى أنظر إلى الرى يخرج من ظُفرى ـ أو فى أظفارى ـ ثم ناولت عمر قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: العلم[1]. [2]

ولقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ حريصًا كل الحرص على طلب العلم، بل كان من أصحاب الهمم العالية.

يقول عمر ـ رضى الله عنه ـ: كنت أنا وجار لى من الأنصار من بنى أمية بن زيد، وهم من عوالى المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبى ﷺ فينزل يومًا، وأنزل يومًا فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[3].

وقال الذهبى: قال عبد الله بن عمر: تعلم عمر البقرة ـ سورة البقرة ـ فى اثنى عشرة سنة، فلما تعلمها نحر جزورًا[4].

وعن طارق بن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ تقرؤونها فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، ونعلم ذلك

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٤٦): والمراد بالعلم هنا العلم بسياسة الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، واختص عمر بذلك لطول مدته بالنسبة إلى أبي بكر وباتفاق الناس على طاعته بالنسبة إلى عثمان فإن مدة أبى بكر كانت قصيرة فلم يكثر فيها الفتوح التى هى أعظم الأسباب فى الاختلاف، ومع ذلك فساس عمر فيها ـ مع طول مدته ـ الناس بحيث لم يخالفه أحد، ثم ازدادت اتساعًا فى خلافة عثمان فانتشرت الأقوال واختلفت الآراء، ولم يتفق له ما اتفق لعمر من طواعية الخلق له فنشأت من ثمَّ الفتن إلى أن أفضى الأمر إلى قتله، واستخلف (علىّ) فما ازداد الأمر إلا اختلافًا والفتن إلا انتشارًا.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٨١) ـ ومسلم (٢٣٩١) ـ والترمذى (٣٦٨٧).

(٣) رواه البخارى رقم (٥١٩١) فى النكاح باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ومسلم رقم (١٤٧٨) فى الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا.

(٤) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).

اليوم الذى نزلت فيه، لاتخذناه عيدًا قال: أىُّ آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال عمر ابن الخطاب: إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والمكان الذى نزلت فيه.

نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة يوم جمعةٍ، ونحن واقفون معه بعرفة[(١)].

وصية غالية من الفاروق ـ رضى الله عنه ـ

قال ـ رضى الله عنه ـ: « تفقهوا قبل أن تسودوا »[(٢)].[(٣)]

يقول الحافظ فى الفتح: أراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن السيادة قد تكون سببًا للمنع من التفقه فى الدين؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين، ولهذا قال مالك عن عيب القضاء: أن القاضى إذا عُزل لا يرجع إلى مجلسه الذى كان يتعلم فيه.

وها هى صفحات من فقهه وعلمه ورأى الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فيه.

عن الحرث بن معاوية الكندى رحمه الله أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال، قال: فقدم المدينة فسأله: ما أقدمك؟

قال: لأسألك عن ثلاث. قال: وما هن؟

قال: ربما كنت أنا والمرأة فى بناءٍ ضيقٍ، فتحضر الصلاة، فإن صليت أنا، وهى كانت بحذائى، وإن صلّت خلفى خرجت من البناء؟!

---

(١) أخرجه البخارى (٤٤) الإيمان ـ ومسلم (٣٠١٧) التفسير.

(٢) أخرجه البخارى معلقًا فى كتاب العلم، باب الاغتباط فى العلم والحكمة، وقال الحافظ: أخرجه ابن أبى شيبة، وإسناده صحيح (الفتح ١/ ٢١٩).

(٣) عقب البخارى على هذا الأثر فقال: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبى ﷺ فى كبر سنهم، قال الحافظ: وإنما عقب البخارى ليبين أن لا مفهوم له خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه.

فقال عمر: تستر بينك وبينها بثوب، ثم تصلى بحذائك إن شئت.

وعن الركعتين بعد العصر؟ فقال: نهانى عنهما رسول الله ﷺ.

قال: وعن القصص؟ فإنهم أرادونى على القصص؟!

قال (عمر): ما شئت.... كأنه كره أن يمنعه.

قال: إنما أردت أن أنتهى إلى قولك؟!

قال (عمر): أخشى عليك أن تقصَّ فترتفع عليهم نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثُريَّا، فيضعك الله عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك[1].

وعن قبيصة بن جابر قال: والله ما رأيت أحدًا أرأف برعيته، ولا خيرًا من أبى بكر الصديق، ولم أر أحدًا أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه فى دين الله، ولا أقوم بحدود الله، ولا أهيب فى صدور الرجال من عمر بن الخطاب، ولا رأيت أحدًا أشد حياءً من عثمان بن عفان[2].

وعن عبد الرحمن بن عبد القارىِّ أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ ليلة فى رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاعٌ[3] متفرقون يصلىِّ الرجل لنفسه، ويصلى الرجلُ، فيصلى بصلاته الرهط، فقال عمر: إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثلُ[4]، ثم عزم فجمعهم

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١١١) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أسد الغابة (٤/ ١٤٧) لابن الأثير.

(٣) أوزاع: أى جماعة متفرقون.

(٤) قال الحافظ فى الفتح (٤/ ٣١٧): قال ابن التين وغيره: استنبط عمر ذلك من تقرير النبى ﷺ من صلى معه فى تلك الليالى، وإن كان كره ذلك لهم فإنما كرهه خشية أن يفرض عليهم، فلما مات النبى ﷺ حصل الأمن من ذلك، ورجح عند عمر ذلك لما فى الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين.

على أُبى بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى، والناس يُصلُّون بصلاة قارئهم.

قال عمر: نعم البدعة هذه، والتى ينامون عنها أفضل من التى يقومون ـ يريد آخر الليل ـ وكان الناس يقومون أوله[١].

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: ما أظن أهل بيت من المسلمين لم يدخل عليهم حزن يوم أُصيب عمر إلا أهل بيت سوء.

إن عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله[٢].

وقال أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: إذا ذُكر الصالحون فحيهلاً بعمر، إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا فى دين الله[٣].

ويقول أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: لو أن علم عمر وُضع فى كفة ميزان، ووضع علم أحياء الأرض فى كفةٍ لرجح علم عمر بعلمهم.

قال الأعمش: فأنكرت ذلك فأتيت إبراهيم النخعى فذكرته له، فقال: وما أنكرت من ذلك فوالله لقد قال عبد الله أفضل من ذلك قال: إنى لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم مات عمر ـ رضى الله عنه ـ[٤].

موافقات عمر ـ رضى الله عنه ـ لربه ـ عز وجل ـ

يا لها من منزلة عظيمة ومنقبة جليلة أكرم اللهُ بها فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ حيث وافقه فى كثيرٍ من المواقف، فأنزل القرآن موافقًا لرأى عمر ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠١٠) صلاة التراويح ـ باب فضل من قام رمضان.
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (٧/ ٤٨٠)، وابن عساكر، والحاكم مختصرًا.
(٣) سير الخلفاء للذهبى (ص ٨١).
(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ٤٨٣) والحاكم، وصححه وأقره الذهبى.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال عمر: وافقت ربى فى ثلاث[١]: فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلى فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلِّمهُنَّ البَرُّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه. فقلت لهن: عسى ربُّه إن طلّقكنَّ أن يُبدله أزواجًا خيرًا منكنَّ، فنزلت هذه الآية[٢].

وفى رواية مسلم قال: «وافقت ربى فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر»[٣].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: حدثنى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تُعبد فى الأرض» فما زال يهتف بربه مادًا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداءه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من وراءه، وقال: يا نبى الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ

---

(١) قال الحافظ فى الفتح: قوله (وافقت ربى فى ثلاث) أى وقائع، والمعنى وافقنى ربى فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، لكن لرعاية الأدب أسند الموافقة إلى نفسه، أو أشار به إلى حدوث رأيه، وقدم الحكم، وليس فى تخصيصه العدد الثلاث ما ينفى الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة فى أشياء، غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين. ثم قال رحمه الله: وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر، لكن ذلك بحسب المنقول اهـ (فتح ٦٦٥/ ١).

(٢) أخرجه البخارى (٤٠٢) الصلاة ـ وأحمد (١٥٧) والنسائى فى الكبرى (٨/ ١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٩٩) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل عمر ـ رضى الله عنه ـ.

مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمده الله بالملائكة.

قال ابن عباس: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسوط فوقهُ، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا أربعين: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبى الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : «ما ترى يا ابن الخطاب؟».

قلت: لا. والله! يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكِّنا فنضرب أعناقهم، فتُمكن عليًا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكنىِّ من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدُها.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر قاعدين يبكيان.

فقلت: يا رسول الله! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ : أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عُرض علىّ عذابُهُم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبى الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي**

الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ــ ٦٩]

فأحلَّ الله الغنيمة لهم»(١).

وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال: لما مات عبد الله بن أُبى ابن سلول دُعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتُصلى على (ابن أُبىّ)، وقد قال يوم كذا، وكذا: كذا وكذا! أُعدِّدُ عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخِّر عنى يا عمر.

فلما أكثرت عليه قال: إنى خُيِّرتُ فاخترت لو أعلم أنى زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدًا ــ إلى ــ وهم فاسقون﴾.

قال: فعجبت بعدُ من جُرأتى على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم(٢).

شياطين الجن والإنس تفر من عمر ـ رضي الله عنه ـ

إن الإنسان كلما ازداد خوفه من ربه ــ عز وجل ــ فإن الله يُلقى هَيبته فى قلوب مَن حوله.. وها هو فاروق الأمة ــ رضى الله عنه ــ يُلقى الله هيبته فى قلوب الشياطين.. فما إن تراه حتى تهرب خوفًا منه!!!.

عن سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ قال: استأذن عمرُ على النبى ﷺ وعنده نسوة من قريش يُكلِّمنه ــ وفى رواية: يسألنه، ويستكثرنه ــ عالية أصواتُهنَّ على صوته، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له النبى

---

(١) رواه مسلم رقم (١٧٦٣) فى الجهاد والسير باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين، ورواه أيضًا أحمد فى المسند رقم (٢٠٨، ٢٢١) والترمذى (٣٠٨١) فى تفسير القرآن.

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٦) الجنائز ــ ومسلم (٢٤٠٠) فضائل الصحابة.

ﷺ ، فدخل عمر، والنبى ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنّك[١]، بأبى وأمى ما أضحكك؟

قال: «عجبت من هؤلاء اللاتى كُنَّ عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب».

قال عمر: فأنت يا رسول الله لأحق أن يهبن، ثم قال: أى عدوات أنفسهنَّ، أتهبننى، ولا تهبن النبى ﷺ ؟

قلن: نعم، أنت أفظ، وأغلظ[٢] من النبى ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : «إيه[٣] يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»[٤].

وفى رواية: قال ﷺ : «إنى لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر»[٥].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له؛ لأنهما فى حق النبى ﷺ واجبة، وفى حق غيره ممكنة. اهـ[٦].

وقال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: هذا الحديث محمول على ظاهره، أن الشيطان متى رأى عمر سالكًا فجًا هرب هيبة من عمر، وفارق ذلك

(١) قال الحافظ فى الفتح: لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك، بل لازمه، وهو السرور، أو نفى ضد لازمه، وهو الحزن (الفتح ٥٨/ ٧).

(٢) قال الحافظ فى الفتح: أفعل تفضيل من الفظاظة، والغلظة، وهو يقتضى الشركة فى أصل الفعل، ويعارض قوله تعالى: ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ فإنه يقتضى إنه لم يكن فظًا، ولا غليظًا (انظر الفتح ٥٨/ ٧).

(٣) بالكسر، والتنوين معناها: حدثنا ما شئت، وبغير تنوين زدنا مما حدثتنا.

(٤) رواه البخارى رقم (٣٦٨٣) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ومسلم رقم (٢٣٩٦) فى فضائل الصحابة.

(٥) رواه الترمذى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٩٦).

(٦) فتح البارى (٥٨/ ٧).

الفج، وذهب من فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئًا. اهـ(١).

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: أتيت النبى ﷺ بخزيرة قد طبختها له، فقلت لسودة، والنبى ﷺ بينى وبينها: كُلى فأبت، فقلت: لتأكلن أو لألطخنَّ وجهك، فأبت، فوضعت يدى فى الخزيرة فطليتُ وجهها، فضحك النبى ﷺ، فوضع بيده لها، وقال لها: «الطخى وجهها» فضحك النبى ﷺ لها، فمر عُمر فقال: يا عبد الله، يا عبد الله، فظن أنه سيدخل فقال: «قوما فاغسلا وجوهكما» فقالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ(٢).

فطنة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة تبوك

وها هو موقف جليل للفاروق ــ رضى الله عنه ــ يوضح مدى ثقته فى الحبيب ﷺ وفى تأييد الله لرسوله ﷺ.

عن أبى هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا ــ من الإبل ــ فأكلنا، وادَّهنَّا، فقال لهم رسول الله ﷺ : «افعلوا».

قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قَلَّ الظهر، ولكن ادعهم فليأتوا بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك.

فقال رسول الله ﷺ : نعم فدعا رسول الله ﷺ بنطع فبسطه، ثم دعا بكسرة حتى اجتمع من ذلك على النطع شيء يسير، ثم دعا ﷺ بالبركة، ثم

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٨٠/ ٧) ط. دار الحديث.

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٤٤٩) وقال العدوى: إسناده حسن.

قال: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملأوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

فقال رسول الله ﷺ : «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍ فيحجبَ عن الجنة»(١).

قوة شخصيته وهيبته في قلوب الناس

لقد كان الفاروق ـ رضي الله عنه ـ قوي الشخصية لا يخاف في الله لومة لائمٍ حتىَ إنه كان إذا رآه الرجل تمنعه هيبة (عمر) من أن يطلب منه حاجته التي جاء من أجلها فيرجع ولم يقضِ حاجته.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر ابن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعت، وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فَرَغَ ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين... مَن اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصةُ وعائشةُ، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنةٍ فما أستطيعُ هيبةً لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبَّرتك به..»(٢).

وعن عكرمة أن حجَّامًا كان يقُصّ عمر بن الخطاب، وكان رجلاً مهيبًا فتنحنح عمر فأحدث الحجَّام ـ بال على نفسه ـ فأمر له عمر بأربعين درهمًا(٣).

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٨٢) في الجهاد، باب حمل الزاد في الغزو، ومسلم رقم (٢٧) في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا ـ واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣) التفسير.

(٣) أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٠٠٩).

شفافية وفراسة يندر وجودها

ولقد كان ـــ رضى الله عنه ـــ يتمتع بفراسة وشفافية يندر وجودها فى هذا الكون ـــ وهى نعمة امتن الله بها على فاروق الأمة ـــ رضى الله عنه ـــ.

وها هى أمثلة ـــ تضاهى الشمس فى نورها وبهائها ـــ توضح لنا كيف بلغت تلك الشفافية والفراسة عند فاروق الأمة ـــ رضى الله عنه ـــ.

عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة، قال ابن مَنْ؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، قال: أين مسكنك؟ قال: الحَرَّة، قال: بأيتها؟ قال: بذات لظى، قال: عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال عمر(١).

وقال الذهبى فى السير: حدثنا شرحبيل: أن الأسود العنسى تنبأ باليمن ـــ ادَّعى النبوة ـــ فبعث إلى أبى مسلم الخولانى، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبو مسلم فيها، فلم تضره... فقيل للأسود: إن لم تنفِ هذا عنك أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، فأناخ راحلته، ودخل المسجد يصلى، فبصر به عمر ـــ رضى الله عنه ـــ (وكأنه وقع فى قلبه أنه أبو مسلم) فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن قال: ما فعل الذى حرقهُ الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثُوب. قال: نشدتُك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر، وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه، وبين الصدِّيق، فقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من صُنع به كما صُنع بإبراهيم الخليل(٢).

---

(١) تاريخ الخلفاء (٩)، والإصابة (١/ ٢٦٢)، والطرق الحكمية (٢٩) نقلاً عن أخبار عمر (ص٣٥٩)، وقال ابن الأثير فى جامع الأصول: أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٧٣) فى الاستئذان.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٤/ ٧) ـــ تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٣٦).

عبادته ـ رضى الله عنه ـ

ومع أن الفاروق ـ رضى الله عنه ـ كان يحمل أعباء الأمة بأسرها إلا أنه لم ينس أبداً حظه من العبادة التى يتزود بها فى سفره إلى ربه جل وعلا.

عن أبى قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر: «متى توتر؟ ـ تصلى الوتر ـ قال: أُوتر من أول الليل، وقال لعمر: متى توتر؟

قال: آخر الليل، فقال لأبى بكر: أخذ هذا بالحذر ـ وفى رواية ـ بالحزم، وقال لعمر: أخذ هذا بالقوة»[1].

وعن أسلم أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى ما شاء الله حتى إذا كان من آخر الليل يعظ أهله يقول: الصلاة.. الصلاة: ويتلو هذه الآية: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية[2].

وقال زياد بن حُدير رحمه الله: رأيت عمر بن الخطاب أكثر الناس صياماً، وأكثرهم سواكاً[3].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: ما مات عمر حتى سرد الصوم[4].

قال الحسين: «تزوج عثمان بن أبى العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب، فقال: والله ما نكحتها رغبة فى مال ولا ولد، ولكنى أحببت أن تخبرنى عن ليل عمر..!!»[5].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٣٤) الصلاة، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (١٢٧١).

(٢) رواه أبو داود فى الزهد، ومالك (١/ ١١٩) فى الموطأ، والبيهقى فى الشعب (٢٨٢٢).

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٢٠).

(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٨٦).

(٥) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٧٣): أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات.

قال الحافظ ابن كثير عن ليل عمر: «كان يصلى بالناس العشاء ثم يدخل بيته، فلا يزال يصلى إلى الفجر».

وقال لمعاوية بن خديج: «لئن نمت بالنهار لأُضيِّعنَّ الرعيَّة، ولئن نمتُ بالليل لأُضيعنَّ نفسى، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية»(١).

فاروق الأمة وحُسن الاتباع

واستلم عمر الحجر الأسود وقال: إنى لأعلم أنك حَجَر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبّلك ما قبلتك.

وقال نافع: كان الناس يأتون الشجرة، التى بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها، وأمر بها فقُطعت.

وعن المعرور قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى حجة حجها، قال: فقرأ بنا فى الفجر ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحابِ الفيل﴾، و﴿لإيلاف قريش﴾ فلما انصرف، فرأى الناس مسجداً فبادروه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا مسجدٌ صلَّى فيه النبى ﷺ ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثارَ أنبيائهم بيعًا، مَن عرضت له صلاة فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمض.

وعن عمر بن ميمون، عن أبيه قال: أتى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ رجل، فقال: يا أمير المؤمنين: إنا لما فتحنا المدائن، أصبت كتابًا فيه كلام معجب قال: أمِن كتاب الله؟. قال: لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها. فجعل يقرأ: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٣]،

(١) الزهد للإمام أحمد (ص ١٢٣).

ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل، حتى دَرَسَا وذهب ما فيهما من العلم(١).

الكريم الجواد ـ رضى الله عنه ـ

إن المؤمن الواثق فى موعود ربه ـ جل وعلا ـ هو الذى يعلم، بل ويوقن أن الرزق بيد الله ـ عز وجل ـ ولذا تراه لا يبخل أبدًا بماله على إخوانه المؤمنين؛ لأنه يعلم أيضًا أن الله سيخلف عليه كل نفقة أنفقها فى سبيل الله.

وها هو فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ يضرب لنا المثل فى الجود والكرم.

فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك عندى مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ :

«ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شىء أبدًا(٢).

وقول عمر: «لا أسبقه إلى شىء» أى من الفضائل؛ لأنه إذا لم يقدر على مغالبته حين كثرة ماله، وقلة مال أبى بكر ففى غير هذا الحال أولى أن لا يسبقه. اهـ(٣).

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب/ لابن الجوزى (ص ١٢٣) تحقيق د/ زينب إبراهيم، دار الكتب العلمية.

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤١٤) وقال على شرط مسلم، وأقره الذهبى، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (١٤٧٢).

(٣) تحفة الأحوذى (١٠/ ١١١) ط الكتب العلمية، عون المعبود (٥/ ٧٢) ط. دار الفكر.

قال الأعمش: كنتُ يومًا عنده، فأُتى باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقُم من مجلسه حتى يفرّقها، وكان إذا أعجبه شىءٌ من ماله تصدّق به، وكان كثيرًا ما يتصدّق بالسُكَّر، فقيل له فى ذلك فقال: إنى أُحبه، وقد قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تُحبُّون﴾ [آل عمران: ٩٢][١].

وقال مجاهد: كتب عمرُ بن الخطاب إلى أبى موسى أن يبتاع له جاريةً من سبى جلولاء، ففعل، فدعاها عمرُ فأعتقها، ثم تلا هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تُحبُّون﴾.

ويقول أسلم مولى عمر: سألنى ابن عمر عن بعض شأنه؟ يعنى عمر: فأخبرته فقال: ما رأيت أحدًا قطُّ بعد رسول الله ﷺ من حين قُبِض كان أجدَّ، وأجود حتى انتهى: من عمر[٢].

قال الحافظ فى الفتح: أى لم يكن أحد أجد منه فى الأمور، ولا أجود بالأموال، وهو محمول على وقت مخصوص، وهى مدة خلافته ليخرج النبى ﷺ، وأبو بكر من ذلك.

موقف الفاروق - رضى الله عنه - عند موت الحبيب ﷺ

عن أنس قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أَنَس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»[٣].

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول

(١) الدر المنضود فى ذم البُخل ومدح الجود لعبد الرؤوف المناوى (ص ٦٤) دار الصحابة بطنطا.
(٢) أخرجه البخارى (٣٦٨٧) فضائل أصحاب النبى ﷺ ــ باب مناقب عمر بن الخطاب.
(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٧٥٥) المغازى ــ وأحمد (٣/ ٢٠٤) مختصرًا.

الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا»[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب (رحمه الله): لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه[(٢)].

فكان من موقف عمر ـ رضى الله عنه ـ أن وقف صارخًا يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ ـ توفى، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم، يزعمون أنه مات[(٣)].

وأقبل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ على فرسٍ من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حِبَره، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، فقبله، وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة الأولى التى كُتبت عليك فقد مُتها.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد: من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حى لا يموت.

---

(١) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤، ١٠٥) المناقب، والحاكم مختصراً (٣/ ٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وأقره الذهبى وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.

(٢) لطائف المعارف (١١٣، ١١٤) باختصار.

(٣) أخرجه ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق، وابن سعد فى الطبقات، وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٦٢٠).

قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر(١)، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقِرت حتى ما تُقِلُّنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبى ﷺ قد مات(٢).

مبايعته لأبى بكر الصدّيق

عن أنس بن مالك أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفى النبى ﷺ فتشهَّد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يُدْبِرنا... يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثانى اثنين، فإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك فى سقيفة بنى ساعدة، وكانت بيعة الناس العامة على المنبر.

قال الزهرى عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»(٣).

---

(١) قال الحافظ فى الفتح معلقًا: وفيه بيان رجحان علم أبى بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رجحانه عليهم لثباته فى مثل ذلك الأمر العظيم (فتح البارى ٧/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخارى (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) عن عائشة وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ فى المغازى.

(٣) أخرجه البخارى (٧٢١٩) الأحكام ـ باب الاستخلاف.

القضاء والخلافة

لقد بلغ الفاروق درجة عالية من العلم والفقه والحكمة أهّلته لأن يكون قاضيًا فى عهد الصدِّيق وأميرًا للمؤمنين من بعده.

عن إبراهيم النخعى قال: أول من ولَّى أبو بكر شيئًا من أمور المسلمين عمر بن الخطاب، ولاه القضاء، وكان أول قاضٍ فى الإسلام(١).

وفى آخر عهد أبى بكر ـ فى اللحظات الأخيرة من حياته ـ عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.

قال ابن الجوزى فى المنتظم: لما أراد ذلك ـ أى عقد الخلافة من بعده لعمر ـ دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب.

فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة.

فقال أبو بكر: ذاك لأنه يرانى رفيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه.

ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر.

فقال: أنت أخبرنا به.

فقال: على ذلك يا أبا عبد الله.

فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عَدوتُك.

ثم قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حين

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى (ص ٥٢).

يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى استخلفت عليكم ـ ثم أُغشى عليه ـ فكتب عثمان: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ علىّ، فقرأ عليه، فكبَّر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى؟

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأمره فخرج على الناس بالكتاب، فبايعوه لمن فيه، قد علموا أنه عمر، ودخل عليه قوم، فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر، وأنت ترى غلظته؟

فقال: أجلسونى، أبالله تخوفونى، خاب من تزود من أمركم بظلم.

أقول: استخلفت عليهم خير أهلك، ثم دعا عمر، وأوصاه ا. هـ[1].

وقال علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: لما حضرت أبى بكر الوفاة رأى أن عمر أقوى عليها ـ أى على الخلافة ـ ولو كانت محاباة لآثر بها ولده، واستشار المسلمين فى ذلك، فمنهم من رضى، ومنهم من كره، وقالوا: أتؤمر علينا من كان عنَّانًا، وأنت حى؟! فماذا تقول لربك إذا قدمت عليه؟ قال: أقول لربى إذا قدمت عليه: إلهى أمَّرتُ عليهم خير أهلك.

فأمَّر علينا عمر، فقام فينا بأمر صاحبيه، لا ننكر منه شيئًا، نعرف الزيادة كل يوم فى الدين، والدنيا، فتح الله به الأرضين، ومَصَّرَ به الأمصار، لا تأخذه فى الله لومة لائم، البعيد والقريب سواء فى العدل، والحق، وضرب الله بالحق على لسانه وقلبه، حتى أن كنا نظن أن السكينة تنطق على لسانه، وأن ملكًا بين عينيه يُسدده، ويوفقه[2].

---

(١) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك (٤/ ١٢٥، ١٢٦)، وأخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٥٧)، انظر المطالب العالية (٤٣١٣)، وقال ابن حجر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائده على المسند (١/ ١٠٦) واللالكائى فى كرامات الأولياء (٦٤) وغيرهما عن الشعبى عن (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ ورجاله ثقات.

فاروق الأمة والقضاء

روى ابن عبد البر، أن عروة ومجاهدًا رويا أن رجلاً من بنى مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبى سفيان بن حرب، أنه ظلمه حدًا فى موضع كذا وكذا، وقال عمر: إنى لأعلمُ الناس بذلك، وربما لعبتُ أنا وأنت فيه ونحن غلمان، فأْتِنى بأبى سفيان، فأتاه به، فقال له عمر: يا أبا سفيان، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا، فنهضوا ونظر عمر فقال: يا أبا سفيان، خُذ هذا الحجر من ها هنا، فضعه ها هنا، فقال: والله لا أفعلُ. فقال: والله لتفعلنَّ. فقال: والله لا أفعل. فعلاه بالدرة وقال: خُذه لا أُمَّ لك فضعهُ ها هنا. فإنك ما علمتُ قديمُ الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال عمر، ثم إن عمر استقبل القبلة فقال: اللهم لك الحمد، لم تُمتنى حتى غلبتُ أبا سفيان على رأيه، وأذللته لى بالإسلام، قال: فاستقبل القبلة أبو سفيان وقال: اللهم لك الحمدُ إذ لم تُمتنى حتى جعلت فى قلبى من الإسلام ما أذِلَّ به لعمر»[١].

هدية لحكام المسلمين

وها هى باقة عطرة من (خُطب) فاروق الأمة ــ رضى الله عنه ــ التى سطَّر فيها كل ما يتمناه البشر من حقوق الإنسان.

فإلى كل من ولى من أمور المسلمين شيئًا صغيرًا أو كبيرًا... نُهدى إليهم تلك السطور التى تضىء لهم طريقهم إلى الله.

بلغ من لين أبى بكر أن الصبيان كانوا إذا رأوه يسعون إليه، ويقولون: يا أبت! فيمسح رؤوسهم، وبلغ من هيبة عمر أن الرجال تفرّقوا، وتركوا مجالسهم بالأفنية هيبةً. حتى ينظروا ما يكون من أمره، فلما بلغ ذلك عمر، صاح فى الناس: الصلاة جامعة! فحضروا، فجلس على المنبر حيث كان أبو

(١) المغنى على مختصر الخرقى (١٠/ ٤٩).

بكر يضع قدميه، فلما اجتمعوا، قام قائمًا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبى ﷺ، ثم قال: بلغنى أن الناس هابوا شدتى، وخافوا غلظتى، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟

ومن قال ذلك صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت خادمه، وكان مَنْ لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله، وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد.

ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا ينكرون دعته، وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتى بلينه، فأكون سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل، وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد.

ثم أنى قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم، والتعدى على المسلمين، فأما أهل السلامة، والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا، أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف.

ولكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها:

لكم علىّ أن لا أجتبى شيئًا من خَراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم علىّ ألا

ألقيكم فى المهالك، ولا أجمركم فى ثغوركم، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله! وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم(١).

وعن أبى فراس قال: خطب عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس، ألا إنا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرينا النبى ﷺ، وإذ ينزل الوحى، وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإن النبى ﷺ قد انطلق، وقد انقطع الوحى، وإنما نعرفكم بما نقول لكم: من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم، ألا إنه قد أتى علىَّ حين، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خُيِّل إلىَّ بآخره أن رجالاً قد قرؤوه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، ألا إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم، وسنتكم، فمن فُعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىَّ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنَّه منه.

فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدَّب بعض رعيته أئنك لمقتصه منه؟

قال: إى والذى نفس عمر بيده، إذن لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوا الغياض فتضيعوهم(٢).

---

(١) الخراج لأبى يوسف: ١٤٠ نقلاً عن أخبار عمر (ص: ٥٦).

(٢) رواه أحمد فى المسند رقم (٢٨٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، والحاكم بنحوه (٤/ ٤٣٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وهو فى كنز العمال (٤٤٢١٢).

صفحات تتألق روعة وجمالاً من ورع الفاروق وخوفه من الله

وها هو الفاروق ــ رضى الله عنه ــ يسطِّر على جبين التاريخ صفحات مضيئة تتألق روعة وجمالاً وإجلالاً من الورع والخوف من الله- جل وعلا- .

وإليكم جميعًا تلك المشاهد التى يعجز القلم عن وصفها أو حتى عن مجرد التعليق عليها.

بينا عثمان بن عفان فى مالٍ له بالعالية فى يوم صائف ــ شديد الحر ــ إذ رأى رجلاً يسوق بَكْرَين ــ من الإبل ــ وعلى الأرض مثل الفراش من الحر، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد، ثم يروح.

ثم دنا الرجل فقال لمولاه: انظر من هذا؟

فنظر فقال: أرى رجلاً مُعْتَمًا بردائه، يسوق بكرين.

ثم دنا الرجل فقال: انظر، فنظر، فإذا عمر بن الخطاب!!

فقال: هذا أمير المؤمنين.

فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا نَفْح السَموم، فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟!!

فقال عمر: بكران من إبل الصدقة تخلّفا، وقد مُضِى بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحِمَى وخشيت أن يضيعا، فيسألنى الله عنهما.

فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، هَلُمَّ إلى الماء والظل، ونكفيك.

فقال: عُد إلى ظلك يا عثمان!

فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين، فلينظر إلى هذا، فعاد إلينا فألقَى نفسه[1].

(١) أسد الغابة لابن الأثير (١٦٠/ ٤) بسندٍ صحيح ــ والكامل لابن الأثير (٢/ ٤٥١).

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: اشتريت إبلاً وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلاً سمانًا فقال: لمن هذه؟

فقيل: لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبد الله: بخ بخٍ.. ابن أمير المؤمنين! فجئته أسعى، فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إبل أنضاء (هزيلة) اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى ابتغى ما يبتغى المسلمون.

فقال (عمر): ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين!

يا عبد الله بن عمر! خذ رأس مالك، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين[1].

ويقول ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ: دعانى عمر بن الخطاب، فأتيته، فإذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثًا، قال: هلم فاقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه عليه السلام، وعن أبى بكر، وأُعطيته لخيرٍ أعطيته أو لشرّ؟

قال ابن عباس: فأكببت عليه أقسم، وأزيّل (أى أفرّق) فسمعت البكاءَ، فإذا صوت عمر يبكى، ويقول فى بكائه، والذى نفسى بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ وعن أبى بكر إرادةَ الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له[2].

وعن مجاهد: أنفق عمر بن الخطاب فى حجة حجها ثمانين درهمًا من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، قال: ثم جعل يتأسف، ويضرب بيده

(١) أخبار عمر ــ رضى الله عنه ــ (ص ٢٩٢).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٣٠) وإسناده صحيح.

على الأخرى، ويقول: ما أخلقنا أن نكون قد أسرفنا في مال الله تعالى[١].

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكُ شيئًا، ليت أمي لم تلدني[٢].

وعن قتادة: لما ورد عمر الشام، صُنع له طعام لم ير قبله مثله فلما أوتي به قال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين، الذين باتوا لا يشبعون من خبز الشعير؟

فقال خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ: لهم الجنة، فاغرورقت عيناه، فقال: إن كان حظنا في هذا ويذهب أولئك بالجنة لقد بانوا بَونًا بعيدًا[٣].

وعن سالم بن عبد الله أن عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ كان يُدْخِل يده في دُبر البعير، ويقول: إني خائف أن أُسأل عما بك»[٤].

وكان عمر ربما يدني يده من النار، ويقول: ابن الخطاب، هل لك على هذا صبر[٥].

وعن البراء بن معرور أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خرج يومًا حتى أتى المنبر ـ وقد كان اشتكى شكوى له ـ فَنُعت له العسل (وصفوه له) وفي بيت المال عُكة، فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فهي عليَّ حرام[٦].

وقال ابن الجوزي في مناقب عمر:

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت عمر ابن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ على قتب يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين

---

(١) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ١٦١) بسند صحيح.

(٢) سير الخلفاء للذهبي (ص ٨٣)، وابن الجوزي في المنتظم (٤/ ١٤١) بسند رجاله رجال الصحيح إلا عاصم بن عبد الله بن عاصم ضعفوه.

(٣) مناقب أمير المؤمنين لابن الجوزي.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢١٧) ورجاله ثقات.

(٥) أخبار عمر (ص ٣٠٧) نقلاً عن ابن الجوزي.

(٦) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٩) وتاريخ الطبري (٢/ ٥٦٩) بسند صحيح.

أين تذهب؟

فقال: بعير نَدَّ (أى فرّ وهرب) من إبل الصدقة أطلبه.

فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك.

فقال: يا أبا الحسن لا تلمنى، فوالذى بعث محمدًا بالنبوة لو أن عِناقًا ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة.

وعن قتادة قال: كان معيقيب على بيت مال عمر فكسح بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا، فدفعه إلى ابن عمر، قال: معيقيب ثم انصرفت إلى بيتى فإذا رسول عمر قد جاء يدعونى، فجئت فإذا الدرهم فى يده فقال: «ويحك يا معيقيب! أوجدت علىّ فى نفسك سببًا؟ أو مالى ومالك؟ فقلت: وما ذاك؟

قال: أردت أن تخاصمنى أمة محمد ﷺ فى هذا الدرهم يوم القيامة[١].

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حفرت الدموع خطَّين أسودين فى وجهه.

فقل لى بربك: كيف تحفر الدموع مجرى فى اللحم.

من لم يبتْ والخوفُ حشو فؤادهِ   لـم يـدر كيـفَ تُفَتَّتُ الأكبـادُ

وكان يمرُّ بالآية من وِرده بالليل فيمرض حتى يعوده الصحابة شهرًا.

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعتُ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يومًا وخرجتُ معه، حتى دخل حائطًا، فسمعتُه يقول ـ وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط ـ: عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين! بَخٍ[٢]! واللهِ لتتقينّ الله يا ابن الخطاب، أو ليعذبنّك[٣].

(١) مناقب أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) لابن الجوزى.

(٢) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشىء.

(٣) إسناده صحيح متصل، موقوف على عمر ـ رضى الله عنه ـ أخرجه أحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس.

صفحات مضيئة من زهده ـ رضى الله عنه ـ

كان ـ رضى الله عنه ـ متواضعًا فى الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديدًا فى ذات الله، يرقِّع الثوب بالأدم- الجلد- ويحمل القِرْبة على كتفيه، مع عظيم هيبته، ويركب حمارًا عريًا، والبعير مخطومًا بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحدًا، وكان نقش خاتمه: «كفى بالموت واعظًا يا عمر»[(١)].

ولما تولى الخلافة، قال: «لا يحلُّ لى من مال الله إلا حُلتان، حُلة للشتاء وحلَّة للصيف، وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين!!».

قال ابن الجوزى فى مناقب عمر: قال عبد العزيز بن أبى جميلة: أبطأ عمر ابن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ جمعة بالصلاة فلما خرج صعد المنبر، واعتذر إلى الناس فقال: «إنما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره كان يُخاط، أبيض، لا يجاوز كمه رسغ كفيه[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى يدى لحمًا معلقًا.

قال: «ما هذا يا جابر؟! قلت: اشتهيت لحمًا فاشتريته.

فقال عمر: كلما اشتهيت اشتريت! أما تخاف هذه الآية: ﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا﴾[(٣)].

وعن حميد بن هلال أن حفص بن أبى العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل. فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟

قال: إن طعامك جَشِبٌ غليظ، وإنى راجع إلى طعام لينٍ قد صُنع لى

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥/ ٢١٤).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٥١) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد فى الزهد (١٥٣) والبيهقى فى الشُعب (٥٢٨٤).

فأصيب منه. قال: أترانى أعجزُ أن آمُرَ بشاة فيُلقى عنها شعرها، وآمُر بدقيق فيُنخل فى خرقة ثم يُصبّ فى خرقة، ثم آمرَ به فيُخبز خبزًا رقاقًا، وآمُر بصاع من زبيب فيُقذف فى سُعْن، ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دَمُ غزال؟ فقال: إنى لأراك عالمًا بطيب العيش!

فقال: أجل! والذى نفسى بيده لولا أن تنتقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم(١).

وعوتب عمر، فقيل له: لو أكلت طعامًا طيبًا كان أقوى لك على الحق؟ فقال: «إنى تركت صاحبىَّ على جادة، فإن تركت جادتهما، فلن أدركهما فى المنزل».

وكان فى عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسودَّ جلده، ويقول: «بئس الوالى أنا إن شبعتُ والناس جياع!!»... لله دَرُّك يا عمر.

عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: تقرقر بطن عمر عام الرمادة، فكان يأكل الزيت، وكان قد حرم على نفسه السمن، قال: فنقر عمر بطنه بأصبعه، وقال: تقرقر، إنه ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس(٢).

وعن معاوية ــ رضى الله عنه ــ قال: أما أبو بكر فلم يُرد الدنيا، ولم تُرده، وأمَّا عمر فأرادته الدنيا، ولم يُردها، أمّا نحن فتمرغنا فيها ظهرًا لبطنٍ(٣).

قال طلحة بن عبيد الله: ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلامًا، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الآخرة(٤).

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢١٢) بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (ص ١٥٠).

(٣) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).

(٤) أخرجه ابن عساكر (٥٢/ ٢٢٤) فى تاريخه، وابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٤٧) بسند حسن.

يا رافعًا رايةَ الشورى وحارسها — جزاك ربك خيراً عن مُحبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلادُ به — رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها
إن جاع الخليفة فى شدة قوم شركتهم — الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جُوع الخليفة والدنيا بقبضته — منزلة فى الزهد سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفصٍ وسيرته — أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال — لها من أين لى بثمن الحلوى فاشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به — أولى فقومى لبيت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما — عُهدت بعد النبوة أخلاقٌ تحاكيها

صفحات مشرقة من تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

وها هو أمير المؤمنين (عمر) ـ رضى الله عنه ـ يضرب للأمة كلها أروع الأمثال فى تواضعه.

قال قتادة: خرج عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة بِرزَة على الطريق[1]، فسلّم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها.

فقالت: هيه يا عمر، عهدتك، وأنت تُسمَّى عُميراً فى سوق عكاظ، تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين، فاتق الله فى الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر ـ رضى الله عنه ـ.

فقال الجارود: هيه، لقد تجرأت على أمير المؤمنين، وأبكيتيه.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟

هى (خولة بنت حكيم) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات فعُمَرُ

(١) أى جالسة فى الطريق وظاهرة للناس ـ وكانت كبيرة فى السن وقتها ـ.

والله أحرى أن يسمع كلامها[١].

وعن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب يومًا، وخرجت معه حتى دخل حائطًا، فسمعته يقول: وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ، والله، بُنىّ الخطاب، لتتقين الله، أو ليعذبنَّك[٢].

وخرج عمر فى سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مُقعدة فقال: ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت: إنه يتعاهدنى من كذا وكذا، يأتينى بما يصلحنى، ويُخرج عنى الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع؟!![٣]

وقدم على عمر بن الخطاب وفد من العراق فيهم الأحنف بن قيس وفى يوم صائف شديد الحر، وعمر معتجر (متعمَّم) بعباءة يهنأ بعيرًا من إبل الصدقة (أى يطليه بالقطران) فقال: يا أحنف، ضع ثيابك وهلمَّ، فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم، والأرملة، والمسكين، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيك؟

فقال عمر: وأى عبد هو أعبد منى، ومن الأحنف؟ إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده فى النصيحة، وأداء الأمانة[٤].

---

(١) المصباح (٢/ ٣٧)، وانظر «العقد الفريد» (٢/ ٣٥٨) نقلاً عن مختصر منهاج القاصدين، بتحقيق على حسن عبد الحميد (ص ١٧٠ ــ ١٧١).

(٢) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٩٢) فى الكلام، باب ما جاء فى التقى، وقال محقق جامع الأصول: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٤٨) وإسناده صحيح.

(٤) أخبار عمر (رضى الله عنه) (ص: ٣٤٣).

وها هو الفاروق يدخل بيت المقدس فاتحًا راكبًا برزونا، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه بردائه، ثم قال: قبَّح الله مَن علمك هذا! هذا من الخيلاء، ونزل عنه، وقال: ما حملتمونى إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى[1].

وعن محمد بن عمر المخزومى، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاةُ جامعة. فلمَّا اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس، لقد رأيتُنى أرعى على خالاتٍ لى من بنى مخزوم، فيقبضنَ لى القبضة من التمر والزبيب فأظلّ يومى وأىّ يوم. . . . ثم نزل، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زلت على أن قمئت[2] نفسك؟! فقال: ويحك يا ابن عوف!! إنى خلوتُ فحدثتنى نفسى، فقالت: أنت أمير المؤمنين؛ فمن ذا أفضل منك؟! فأردتُ أن أعرِّفها نفسها[3].

وعن الحسن قال: خرج عمر بن الخطاب فى يوم حارٍّ واضعًا رداءه على رأسه، فمرَّ به غلام على حمار، فقال: يا غلام، احملنى معك. فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك. تريد تحملنى على المكان الوطئ، وتركبُ أنت على الموضع الخشن!! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة، وهو خلفه والناس ينظرون إليه[4].

«وعن أبى محذورة قال: كنت جالسًا عند عمر ــ رضى الله عنه ــ إذ جاء صفوان بن أُمية بجفنة يحملها نفرٌ فى عباءة، فوضعوها بين يدى عمر، فدعا عمر ناسًا مساكينَ وأرقَّاء من أرقَّاء الناس حوله، فأكلوا معه، ثم قال عند

---

(١) أخرجه الطبرى (٢/ ٤٥٠) وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (٣/ ٨٢٢، ٨٢٣).

(٢) قمئتَ: أى: عبت.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩٣).

(٤) حياة الصحابة (٢/ ٥٥١).

ذلك: فعَلَ الله بقوم ـ أو قال: لحى(١) الله قومًا ـ يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم!! فقال صفوان: أما والله، ما نرغب عنهم، ولكنَّا نستأثر عليهم، لا نجد ـ والله ـ من الطعام الطيب ما نأكل ونُطعمهم»(٢).

وقال عروة بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ: «رأيت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ علىّ عاتقه قربة ماء، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا ينبغى لك هذا. فقال: لمَّا أتانى الوفود سامعين مطيعين، دخلتْ نفسى نخوةٌ، فأردتُ أن أكسرها»(٣).

قصته مع الهرمزان (قمة في التواضع)

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس.

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخُمس من الغنائم، فدخلوا المدينة، فتيمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحدًا فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا: إنه نائم فى المسجد متوسدًا برنسًا له، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس فى المسجد غيره، والدرة معلقة فى يده. فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا.

وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حُجّابه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حُجّاب ولا خرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال: ينبغى أن يكون نبيًا. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء(٤).

(١) أى: قبّحهم الله ولعنهم.
(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى (ص ٩٣).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠).
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٨٩).

يقول حافظ إبراهيم :

وراعَ صاحبَ كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أنَّ لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقًا فى نومه فرأى ... فيه الجلالة فى أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببردة كاد طول العهد يبليها
فهانَ فى عينه ما كان يُكبره ... من الأكاسرِ والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمِنتَ لما أقمت العدل بينهمُ ... فنمتَ نومَ قرير العين هانيها

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

لقد ضرب فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ أروع الأمثلة فى اتِّباع النبى ﷺ واقتفاء أثره.

وحسبُنا من كل هذا أن نتأمل تلك الأمثلة التى سطّرها عمر ـ رضى الله عنه ـ على جبين التاريخ بسطور من نور.

عن عاتكة بنت زيد بن عمرو، وهى زوجة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ أنها كانت تستأذن عمر بن الخطاب إلى المسجد فيسكت!! وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا، وكان عمر رجلاً غيوراً.

فتقول: والله لأخرجن إلا أن تمنعنى... فلا يمنعها[1].

ولقد طُعن عمر، وإنها لفى المسجد.

وفى رواية: كانت تشهد صلاة الصبح، والعشاء فى الجماعة فى المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين، وقد تعلمين أنه يكره ذلك، ويغار؟

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (١/ ١٩٨) فى القبلة باب ما جاء فى خروج النساء إلى المساجد.

قالت: فما يمنعه أن ينهاني؟!!

قالوا: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[١].

انظر.. على الرغم من أن غيرة عمر على أهله شديدة.. هذه الغيرة التي كانت لا تخفى على رسول الله ﷺ إذ يقول: «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟

قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً»!!![٢]

فعلى الرغم من هذه الغيرة الشديدة، إلا أنه أبى أن يخالف أمر رسول الله ﷺ... ولِمَ لا؟! فما كان لفاروق الأمة الأواب الذي تربى على مائدة القرآن، وتتلمذ على يد سيد الأنام، أن يخالف أمر حبيبه، وقدوته، ومثله الأعلى ﷺ[٣].

وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب فضَّل المهاجرين الأولين وأعطى أبناءهم دون ذلك وفضَّل أسامة بن زيد على عبد الله بن عمر، فقال عبد الله ابن عمر: فقال لي رجل: فضَّل عليك أمير المؤمنين مَن ليس بأقدم منك سنًا ولا أفضل منك هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد.

فقال عبد الله: وكلمته، فقلت: يا أمير المؤمنين فضَّلت عليَّ من ليس هو بأقدم مني سنًا ولا أفضل مني هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد؟ قال: ومَن هو؟ قلت: أسامة بن زيد. قال: صدقت لعمر الله! فعلت ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر فلذلك فعلت[٤].

(١) أخرجه البخاري (٩٠٠) في الجمعة.

(٢) رواه البخاري رقم (٣٦٨٠) في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أئمة الهدى ومصابيح الدجى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٤٠).

(٤) صحيح لغيره: رواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٥٢).

وعن حارثة بن مضرب: أنه حج مع عمر بن الخطاب، فأتاه أشراف أهل الشام، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا أصبنا من أموالنا رقيقًا ودوابَّ، فخذ من أموالنا صدقة تطهرنا بها، وتكون لنا زكاة، فقال: هذا شيء لم يفعله صاحباى قبلى، ولكن انتظروا حتى أسأل المسلمين[1].

وعن عابس بن ربيعة عن عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله فقال: إنى أعلم أنك حجرٌ لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يقبلُك ما قبَّلتُك[2]. إنه الاتباع فى أجلِّ صورِه، وأسمى معانيه.

قال الحافظ فى الفتح: قال الطبرى: إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام، فخشى أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل النبى ﷺ .

ثم قال الحافظ رحمه الله: وفى قول عمر هذا التسليم للشارع فى أمور الدين، وحُسن الاتباع، فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه. اهـ[3].

وعن السائب بن يزيد قال: كنت قائمًا فى المسجد فحصبنى[4] رجل فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فأتنى بهذين، فجئته بهما. قال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف.

قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ ؟![5]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم (٨٢، ٢١٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخارى رقم (١٥٩٧) فى الحج، باب ما ذكر فى الحجر الأسود.

(٣) فتح البارى (٣/ ٥٩٠، ٥٩١).

(٤) أى رمانى بالحصباء.

(٥) رواه البخارى رقم (٤٧٠) فى كتاب الصلاة، باب: رفع الصوت.

وهذه نصيحته ـ رضى الله عنه ـ لعموم الأمة يقول: إياكم، وأصحاب الرأى، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا[1].

الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وكرامات الأولياء

إن الكرامات من الأشياء الثابتة التى امتن الله بها على أوليائه الصالحين الذين وصفهم الله فى كتابه بقوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢: ٦٤].

ولقد امتن الله على فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ بباقة عطرة من الكرامات سنكتفى بذكر بعضها.

يا سارية الجبل

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن عمر وجَّه جيشًا ورأس عليه رجلاً يقال له سارية. قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادى: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، ثلاثًا، ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: يا سارية الجبل ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله، قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك[2].

قال الشيخ الألبانى ـ رحمة الله عليه ـ: فالقصة صحيحة ثابتة، وهى كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢١٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ـ ورواه البخارى (٤٢٣٥) المغازى ـ باب غزوة خيبر.

(٢) رواه البيهقى فى الدلائل، وابن عساكر، وذكره ابن كثير فى البداية (٧/ ١٣٥)، وقال: وهذا إسناد جيد حسن، ووافقه الألبانى، وقال: وهو كما قال: انظر الصحيحة رقم (١١١٠).

به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (فى عُرف الشرع) أو (التخاطر) فى عرف العصر الحاضر الذى ليس معصومًا، فقد يصيب كما فى هذه الحادثة، وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر(١).

من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر

عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: لما افتُتحت مصر أتى أهلها عمرو ابن العاص ــ حين دخل بؤنة من أشهُر العجم ــ فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سُنة لا يجرى إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكرٍ من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحُلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون فى الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى (والنيل) لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى همّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذى فعلت، وإنى قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابى، فألقِها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت إنما تجرى من قِبَلك ومن أمرك فلا تجرِ فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار، وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك» قال: فألقى البطاقة فى النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا فى ليلة واحدة وقطع الله السُنة السيئة عن أهل مصر إلى اليوم(٢).

عن معاوية بن قرَّة، أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ لقى ناسًا من

(١) السلسلة الصحيحة للشيخ الألبانى (١١١٠).

(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٠٢ ــ ١٠٣).

أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المُتَّكِلُونَ، إنما المتوكل من يُلقى حِبَّهُ فى الأرض ويتوكّل على الله عز وجل(١).

وعن المعرور بن سويد، عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: يا معشر القُرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، ما أوضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا كَلاً على المسلمين(٢).

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين

لعلنا فى كل يوم نرى مشاهداً من التشاحن والبغضاء بين المسلمين ولا نرى من يعفو أو يُسامح إلا فى القليل النادر.. والسبب فى ذلك ضعف الإيمان وعدم الوقوف عند كتاب الله ـ عز وجل ـ الذى يأمرنا بالعفو والمسامحة والإعراض عن الجاهلين.

وها هو فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ مع قدرته على أن يثأر لنفسه ـ فهو أمير المؤمنين ـ وعلى الرغم من ذلك فإنه ما إن سمع آية من كتاب الله حتى أذعن لقول الله ـ عز وجل ـ.

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته كهولاً كانوا، أو شبابًا.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، قال: فاسأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب فوالله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر

(١) التوكل لابن أبى الدنيا (ص ٤٨) وإسناده صحيح. انظر تحقيق الدوسرى.
(٢) إسناده حسن. ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان (٢/ ١٣٦).

حتى همَّ به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله[1].

صاحب القلب الرحيم برعيته ـ رضى الله عنه ـ

وها هى صور مشرقة من رحمة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وشفقته برعيته التى عاشت فى ظل خلافته الراشدة.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ إلى حرّة واقم حتى إذا كنا بصرار، إذا نار تؤرث، فقال: يا أسلم، إنى أرى هؤلاء ركبًا قصَّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان لها، وقِدْر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون فقال عمر: السلام عليكم يا أصحابَ الضوء ـ وكره أن يقول: يا أصحاب النار ـ قالت: وعليك السلام.

قال: أأدنو؟ قالت: أدنُ بخير أو دَعْ، فدنا فقال: ما بالُكم؟ قالت: قصّر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع.

قال: وأى شىء فى هذا القِدْر؟ قالت: ماء أسكّتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر! قال: أى رحمك الله، ما يُدرى عمر بكم؟! قالت: يتولى أمرنا، ويغفل عنّا!... فأقبل علىّ فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عِدلاً فيه كُبّة شحم فقال: احمله علىّ! فقلت: أنا أحمله عنك، قال: احمله علىَّ، مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك أقول: أنا أحمله عنك، فقال لى فى آخر ذلك: أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة؟! لا أُمَّ لك، فحمّلته عليه، فانطلق، وانطلقت معه نهرول، حتى انتهينا إليها، فألقى

(١) رواه البخارى رقم (٤٦٤٢) فى التفسير باب «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين».

ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذُرّى علىّ، وأنا أحرِّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر ـ وكان ذا لحية عظيمة ـ فجعلتُ أنظر إلى الدخان من خَلَل لحيته حتى أنضج وأدُمَ القدرُ، ثم أنزلها، وقال: ابغنى شيئًا فأتته بصحفة فأفرغها فيها، ثم جعل يقول: أطعميهم، وأنا أسطّح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلّى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولى خيرًا، إنك إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتنى هناك إن شاء الله.

ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها وربَض مربض السبعُ، فجعلت أقول له: إن لك شأنًا غير هذا، وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا، وهدؤوا، فقام، وهو يحمد الله. ثم أقبل علىّ فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم[1].

وعن ابن عمر قال: قَدِمَتْ رفقةٌ من التجار فنزلوا المُصلىَّ فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السّرق؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبىّ فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقى الله، وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك: إنى لأراك أمّ سَوْءٍ، مالى أرى ابنك لا يَقرّ منذ الليلة؟

قالت: يا عبد الله قد أبرمتنى منذ الليلة، إنى أُريغُه عن الفطام فأبى؟ قال: ولِمَ؟

(١) تاريخ الطبرى (٥٦٨/ ٢) بسند رجاله رجال الصحيح، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد (٣٨٢) فى الفضائل.

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفُطُم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تعجليه!

فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤسًا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين؟! ثم أمر مناديًا فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق، أن يُفرض لكل مولود فى الإسلام[1].

وعن أبى عثمان قال: استعمل عمر ـ رضى الله عنه ـ رجلاً من بنى أسد على عمل، فدخل ليسلم عليه فأُتى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الأسدى: أتُقَبِّل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبَّلت ولدًا لى قط!!

فقال عمر: فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة، لا تعمل لى عملاً أبدًا، فردَّ عهده أو قال: فما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده الرُحماء، ثم قال: مزّق الكتاب، فإنه إذا لم يرحم أولاده، فكيف يرحم الرعية[2].

وعن قسامة بن زهير قال: وقف أعرابى على عمر بن الخطاب فقال:

يا عُمَرَ الخير جُزِيتَ الجَنَّة ... جَهِّـز بُنَيَّاتـى واكسُهنـه

أقسمُ بالله لتفعلَنَّهْ

قال: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابى؟

قال: أقسم بالله لأمضينَّه.

قال: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابى؟

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩) ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٩٠) والبخارى فى الأدب (٩٩)، وحسَّن إسناده الشيخ الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٧٢).

والله عن حالى لَتُسْأَلَنَّهْ ثمَّ تكونُ المسألات عنَّهْ
والواقفُ المسئول بينَهُنَّه إمَّا إلـى نـارٍ وإمَّا جَنَّـهْ

قال: فبكى عمر حتى أخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصى هذا، لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصًا غيره!(١)

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال: قَدِم علينا عمر بن الخطاب ــ رضوان الله عليه ــ حاجًا فصنع له صفوان بن أمية طعامًا قال: فجاؤوا بجفنة يحملها أربعة، فوضعت بين القوم فأخذ القوم يأكلون، وقام الخُدّام فقال عمر: مالى أرى خُدامكم لا يأكلون معكم، أترغبون عنهم؟ فقال: سفيان بن عبد الله: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكننا نستأثر عليهم، فغضب غضبًا شديدًا، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خُدَّامهم؟ فعل الله بهم وفعل، ثم قال: للخُدّام اجلسوا، فكلوا، فقعد الخدام يأكلون، ولم يأكل أمير المؤمنين(٢).

محبته وحرصه على رعيته جَلْب الخير للأمة كلها

وها هو عمر ــ رضى الله عنه ــ تراه يحرص كل الحرص على رعيته. يخشى عليهم من المعاصى ويخشى أن يكون بينهم جائع أو مريض يحتاج إلى من يعينه.. فكان ــ رضى الله عنه ــ بمثابة طوق النجاة لرعيته.. وذلك لأنه يراقب ربه فى الليل والنهار ولا يأمر رعيته إلا بطاعة الله ــ جل وعلا ــ.

عن أسلم قال: بينما أنا مع عمر بن الخطاب، وهو يعس بالمدينة إذ عيى فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل، وإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ــ أى امزجيه بالماء ــ.

(١) أخرجه ابن الأثير فى أُسد الغابة (٤/ ١٥٥) بسند صحيح، والخبر فى مناقب عمر لابن الجوزى وغيره.
(٢) أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٠١)، وقال الألبانى فى صحيح الأدب (١٤٨): صحيح الإسناد.

قالت لها: يا أمتاه أوَ ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟

قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟!

قالت: إنه أمر مناديه فنادى لا يُشاب اللبن بالماء.

فقالت لها: يا بنية قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإننا بموضع لا يراك عمر، ولا منادى عمر.

فقالت الصبيَّة لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه فى الملأ، وأعصيه فى الخلاء، وعمر يسمع ذلك كله، فقال: يا أسلم علّم الباب، واعرف الموضع، ثم مضى فى عسسه، فلما أصبح قال: يا أسلم امض إلى الموضع، فانظر مَن القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ - أى زوج -.

فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها ليس لها بعل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج امرأة فأزوجه؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لى زوجة، وقال عبد الرحمن: لى زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لى، فزوجنى، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت له بنت، فولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله[1].

وعن سعيد بن جبير بسند رجاله ثقات: كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا أمسى أخذ درتَه، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا يُنكره أنكره، فبينما هو ذات ليلةٍ يَعُسَّ إذ مرّ بامرأةٍ على سطحٍ وهى تقول:

تطاول هذا الليل واخضلَّ جانبه ... وأرَّقنى ألا خليلَ أُلاعبهْ
فوالله لولا الله لا ربَّ غيرُه ... لحُرِّكَ من هذا السرير جوانبه
مخافةُ ربى والحياءُ يصُدُّنى ... وأُكرم بعلى أن تُنال مراكبُه

(١) أخرجه ابن حبان فى العقلاء (ص ٥٤) بسندٍ حسن.

ثم تنفست الصعداء، وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار، فقالت: من هذا الذى يأتى إلى امرأةٍ مُغِيبةٍ (غاب زوجها) هذه الساعة؟!

فقال: افتحى، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها، قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين.

قالت: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته، وجهر لها، فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟

قالت: فى بَعْث كذا، وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرِّح فلان ابن فلان، فلما قدم عليه، قال: اذهب إلى أهلك ـ زوجتك ـ.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أى بُنَيَّه كم تصبر المرأة عن زوجها؟

قالت: شهراً واثنين، وثلاثة، وفى الرابع يَنفَدُ الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث[1].

فتأمل معى أخى الكريم: كيف أن حرصه ـ رضى الله عنه ـ على رعيته ومراقبته لهم كان السبب فى كل خيرٍ عاشته الأمة المسلمة فى عهده، بل لقد كان ـ رضى الله عنه ـ يُعلِّم الأمة أن الكون كله قد سخَّره الله لعباده المؤمنين فإن زاغوا وابتعدوا عن طاعة الله فإن الكون كله يتأذى بمعصيتهم وينقلب نقمة عليهم.

فعن صفية بنت أبى عبيد قالت: تزلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفقت السُّرُرُ، فخطب عمر الناس فقال: أحدثتم، لقد عجلتم، لئن

(١) أخرجه عبد الرزاق، والبيهقى (٢٩١٩)، والخبر فى الطبقات الكبرى لابن سعد، روضة المحبين لابن القيم (٢٥٢ ـ ٢٥٣) ط. ابن كثير. سوريا.

عادت لأخرجنّ من بين ظهرانيكم ولا أساكنكم فيها أبدًا»[(١)].

حرصه على العدل ـ رضي الله عنه ـ ونصائحه للولاة

كان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ حريصًا على العدل غاية الحرص، ولذا كان ينتقى (الولاة) انتقاءً فكان لا يعطى الولاية لمن يحرص عليها، بل كان يعطيها لأهل الزهد والعفاف والتقوى، وكان يحرص على أن يتابعهم ويوصيهم بالناس خيرًا.

عن ابن خزيمة بن ثابت الأنصارى قال: كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهدًا، وأشهَد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذونًا، ولا يأكل نقيًا، ولا يلبس رقيقًا، ولا يتخذ بابًا دون حاجات الناس[(٢)].

وبينما عمر بن الخطاب يتصفح الناس يسألهم عن أخبار أمرائهم، إذ مرَّ بأهل حمص، فقال: كيف أنتم؟ وكيف أميركم؟ قالوا: خير أمير يا أمير المؤمنين، إلا أنه قد بنى عُلِّيَّة يكون فيها.

فكتب كتابًا، وأرسل بريدًا، وأمره إذا جئت باب عُلِّيَّته فاجمع حطبًا وأحرق الباب.

فلما قدم جمع حطبًا، وأحرق باب العُلية، فدخل عليه الناس، وذكروا أن هاهنا رجلاً يحرق باب عليتك!

فقال: دعوه فإنه رسول أمير المؤمنين، ثم دخل عليه فناوله الكتاب، فلم يضع الكتاب من يده حتى ركب، فلما رآه عمر قال: احبسوه عنى فى الشمس ثلاثة أيام، فحُبس عنه ثلاثًا، حتى إذا كان بعد ثلاث، قال: يا ابن

---

(١) رواه ابن أبى شيبة (٢/ ٤٧٣) والبيهقى (٣/ ٣٤٢) وإسناده صحيح.

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٥٦٩) بسندٍ صحيح.

قرط! الحقني إلى الحرَّة (وفيها إبل الصدقة، وغنمها) حتى إذا جاء الحرَّة ألقى عليه جبة، وقال: انزع ثيابك واتزر بهذه، ثم ناوله الدلو فقال: اسق هذه الإبل، فلم يفرغ حتى لَغَب (أى تعب).

فقال: يا ابن قرط! متى كان عهدك بهذا؟ ـ أى بالإمارة ـ.

قال: مليًا (أى زمانًا) يا أمير المؤمنين.

قال: فلهذا بنيت العُلِّيَّة، وأشرفت بها على المسلمين، والأرملة واليتيم... ارجع إلى عملك ولا تعد[1].

وعن زيد بن وهب قال: خرج عمر ـ رضى الله عنه ـ ويداه فى أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه! يا لبيكاه! قال الناس: ماله؟!!

قال: جاءه بريدٌ من بعض أمراءه، أن نهرًا حال بينهم، وبين العبور، ولم يجدوا سُفُنًا فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً، يعلم غور الماء فأُتى بشيخ، فقال: إنى أخاف البرد، (وذلك فى البرد)، فأكرهه، فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادى: يا عمراه.. يا عمراه.. فغرق.

فكتب إليه فأقبل فمكث أيامًا معرضًا عنه، وكان إذا وَجَد على أحدٍ منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذى قتلته؟!

قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت قتله، لم نجد شيئًا نعبر فيه وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا، وكذا، وأصبنا كذا، وكذا (أى من الغنيمة).

فقال عمر: لَرَجلٌ مسلم أحب إلىّ من كل شىء جئت به، لولا أن تكون سُنّة!! لضربت عنقك، اذهب فاعط أهله ديته، واخرج فلا أراك[2].

---

(١) الرياض النضرة (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه البيهقى (٨/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) وإسناده صحيح.

وعن المغيرة بن حكيم الصنعانى عن أبيه قال: أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها، وترك فى حجرها ابنًا له من غيرها غلامًا يقال له أصيل، فاتخذت المرأة بعد زوجها خليلاً فقالت له: إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله فأبى، فامتنعت منه، فطاوعها، فاجتمع على قتل الغلام الرجل، ورجل آخر، والمرأة، وخادمها فقتلوه، ثم قطعوه أعضاء، وجعلوه فى عيبة (هى وعاء من أدم) فطرحوه فى ركية (هى البئر التى لم تُطو) فى ناحية القرية ليس فيها ماء، فَأُخِذَ خليلها، فاعترف ثم اعترف الباقون فكتب يعلى ــ وهو يومئذ أمير ــ بشأنهم إلى عمر فكتب إليه عمر بقتلهم جميعًا، وقال: والله لو أن أهل صنعاء اشتركوا فى قتله لقتلتهم أجمعين»[1].

ما أجمل الوفاء

كان الفاروق ــ رضى الله عنه ــ لا ينسى أبدًا كل من قدَّم للإسلام شيئًا ولو كان صغيرًا. . . ويا له من وفاء نحتاج إليه فى هذا الزمان الذى انعدم فيه الوفاء عند أكثر الناس ــ إلا من رحم الله ــ.

وها هو مشهد عظيم للوفاء. عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ إلى السوق، فلحقت عمر امرأةٌ شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجى، وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كُراعًا[2]، ولا لهم زرع، ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبُع[3]، وأنا بنت خُفاف بن إيماء الغفارى، وقد شهد أبى الحديبية مع رسول الله ﷺ فوقف معها عمر، ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسبٍ قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا فى الدار فحمل عليه غرارتين، ملأهما طعامًا، وحمل

---

(١) رواه البخارى رقم (٦٨٩٦) فى الديات مختصرًا، وانظر الفتح (١٢/ ٢٨١).

(٢) هو ما دون كعب الشاة، قال الخطابى: معناه أنهم لا يكفون أنفسهم معالجة ما يأكلونه.

(٣) أى السنة المجدبة، ومعنى تأكلهم: أن تهلكهم (فتح البارى ٧/ ٥٦٦).

بينهما نفقةً، وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها.

قال عمر: ثكلتك أمك، والله إنى لأرى أبا هذه، وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفىء سهماننا فيه[١].

أمنية عُمَرية

إلى أصحاب الأمانى الدنيوية الزائلة

أُهدى إليكم جميعًا تلك الأمنية العُمَرية.

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لأصحابه: تمنّوا.

فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملؤة ذهبًا أُنفقه فى سبيل الله وأتصدق.

وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه فى سبيل الله، وأتصدق.

ثم قال عمر: تمنوا.

فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ ابن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة، وحذيفة بن اليمان[٢].

* * *

(١) رواه البخارى رقم (٤١٦٠، ٤١٦١) فى المغازى، باب غزوة الحديبية.

(٢) الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٦)، وصححه، ووافقه الذهبى.

نفرٌ من قدَر الله إلى قدَر الله

بكل يقين وثقة قال فاروق الأمة تلك الكلمات لأبى عبيدة بن الجراح فى قصة طاعون عمواس.

فعن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ[1] لقيه أمراء الأجناد ــ أبو عبيدة بن الجراح، وأصحابه ــ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عمر: ادْعُ لى المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فاختلفوا: فقال بعضهم قد خرجنا لأمر، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عنى، ثم قال: ادعوا لى الأنصار فدعوهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عنى، ثم قال: ادعُ لى مَن كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر فى الناس: إنى مُصبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة.

نعم نفرٌّ من قدر الله إلى قدر الله[2]. أرأيت إن كانت لك إبلٌ هبطت واديًا له عُدوتان[3]: إحداهما خصيبة، والأخرى جَدْبة! أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

---

(١) سرغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، وهى اليرموك والجابية متصلات، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة.

(٢) قال الحافظ فى الفتح: فى رواية هشام بن سعد «إن تقدمنا فبقدر الله، وإن تأخرنا فبقدر الله» وأطلق عليه فرارًا لشبهه به فى الصورة، وإن كان ليس فرارًا شرعيًا، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهى عنه ولو فعل لكان من قدر الله وتجنبه ما يؤذيه مشروع، وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه، فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان: مقام التوكل، ومقام التمسك بالأسباب اهـ (١٠/ ٢٢٨).

(٣) عُدوتان: تثنية عدوة، وهو المكان المرتفع من الوادى، وهو شاطئه.

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبًا فى بعض حاجته ـ فقال: إن عندى فى هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف(١).

شبهة حول عزل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ والردّ عليها

إن من أسخف الظنون أن يُظنَّ أن فاروق الأمة العادل الأواب قد عزل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ لضغينة فى نفس عمر أو لبغضاء قديمة كانت بينه وبين خالد إلى آخر هذه الدعاوى الباطلة، والأخبار المكذوبة المبثوثة فى كتب التاريخ.

فوالله إنى لأُبرئُ منها آحاد المؤمنين الصادقين، فكيف بالفاروق القوى الأمين المُزكَّى من رب العالمين، وسيد المرسلين ﷺ..

والعجيب أن الفاروق نفسه ـ رضى الله عنه ـ قد بيَّن سبب عزله لخالد بجلاء ووضوح، فقال: «إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة»(٢).

وما أجمل وأعذب كلماته التى ودَّع بها عُمر بن الخطاب خالد بن الوليد يوم موته: رحم الله أبا سليمان.. ما عند الله خيرٌ مما كان فيه.. لقد عاش حميدًا.. ومات سعيدًا.

والعجيب أن عمر لم ينس خالدًا ـ رضى الله عنه ـ حتى وهو على فراش الموت لما قيل له: لو عهدت يا أمير المؤمنين فقال: لو أدركت أبا عبيدة

---

(١) أخرجه البخارى (٥٧٢٩) الطب ـ باب ما يُذكر فى الطاعون.

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩٢).

ثم وليته، ثم قدمت على ربى فقال لى: لِمَ استخلفته لقلت: سمعت عبدك وخليلك ﷺ يقول: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته فقدمت على ربى لقلت: سمعت عبدك وخليلك ﷺ يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سَلَّه الله على المشركين[١].

«فتح بيت المقدس»

«من تواضع لله رفعه الله»

وفى ظل تلك الفرحة الغامرة (فتح بيت المقدس) وإذا بأمير المؤمنين يضرب المثل للأمة المسلمة فى الزهد والتواضع.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: لما فرغ أبو عبيدة من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله، وإلى الإسلام أو يبذلون الجزية، أو يؤذنوا بحرب فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه.

فركب إليهم فى جنوده، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس، وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار (عمر) الناس فى ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم.

وأشار على بن أبى طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين فى حصارهم بينهم، فَهَوَ ما قال (علىّ) ولم يهو ما قال (عثمان) وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، وسار العباس ابن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، فترجَّل أبو عبيدة، وترجَّل عمر فأشار أبو عبيدة ليُقبِّل يد عمر فهمَّ

(١) نقلاً من أئمة الهدى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٨٣: ٣٨٤).

عمر بتقبيل رِجل أبى عبيدة فكفَّ أبو عبيدة، فكفَّ عمر.

ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد فى قبلى بيت المقدس، وهو العمرى اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة فى طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه. اهـ[1].

وعن أبى العالية الشامى قال: قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة، ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب... وطاؤه كساء انبجانى ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة، أو شملة محشوة ليف، هى حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس (ثوب خشن) قد رسم، وتخرق جنبه.

فقال: ادعوا لى رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصى وخيطوه، وأعيرونى ثوبًا، أو قميصًا.

فأتى بقميص من كتان، فقال: ما هذا؟

قالوا: كتان.

قال: وما الكتان؟

فأخبروه، فنزع قميصه، فغُسل ورُقع وأتى به فنزع قميصهم، ولبس قميصه.

فقال له الجلومس: أنت ملك العرب، وهذه البلاد لا تصلح لها الإبل،

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).

فلو لبست شيئًا غير هذا، وركبت برذونًا لكان ذلك أعظم فى أعين الروم.

فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلاً.

فأُتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فركبه بها فقال: احبسوا احبسوا: ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأُتى بجمله فركبه. اهـ(١).

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول فى عمريته:

يا منْ صدفتَ عن الدنيا وزينتها ... فلمْ يغرك من دنياك مُغريها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا ... أن يُلبسوك من الأثواب زاهيها
ويُركبوك على البرذون تقدمه ... خيلٌ مطهَّمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالاً براكبه ... وفى البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: يا قوم، كاد الزهو يقتلنى ... وداخلتنى حالٌ لستُ أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمرٌ ... ويرتضى بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابى فلا أبغى به بدلاً ... ردوا ثيابى فحسبى اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشامَ عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع موقيه فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا. قال: فصكَّ فى صدره. وقال: أوَ لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله(٢).

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٦١).

موقفه ـ رضي الله عنه ـ في عام الرمادة

قال ابن الجوزى: وذلك أن الناس، أصابهم جدب، وقحط، وجوع شديد حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس، وكانت الريح تسفى ترابًا كالرماد، فسُمّى ذلك العام، عام الرمادة، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبحها، وإنه لمعسر.

فآلى عمر ألا يذوق سمنًا، ولا لبنًا، ولا لحمًا حتى يحيى الناس، وإن غلامًا لعمر اشترى عُكة من سمن ورطبًا من لبن بأربعين، ثم أتى بهما عمر، فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: تصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافًا، كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسسنى ما مسهم. اهـ(١).

فجمع عمر ـ رضى الله عنه ـ الناس للاستسقاء، وأخذ معه العباس عم رسول الله ﷺ.

ثم قال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، فالآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا(٢).

ثم طلب من العباس أن يدعو الله، فقام العباس فقال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والطاعة والبذل والتضحية أحسّ فاروق الأمة باقتراب أجله فقام يدعو بهذا الدعاء راجيًا من الله أن يحقق له تلك

(١) المنتظم (٤/ ٢٥٠).

(٢) رواه البخارى رقم (١٠١٠) فى الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

الأمنية الغالية.

قال ــ رضى الله عنه ــ: «اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك»(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: لما صدر عمر من مِنى أناخ بالأبطح، ثم كوَّم كومة من البطحاء، ثم ألقى عليها نفسه فلزق بثوبه، واستلقى، ومد يده إلى السماء فقال: اللهم ضعفت قوتى، وكبرت سنى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيِّع، ولا مفرط، ثم قدم المدينة، فخطب فقال: أيها الناس: إنى قد سننت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتكم على واضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينًا، وشمالاً...

قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة، حتى قُتل عمر(٢).

بل إنه رأى رؤيا بتلك الشهادة.

فعن معدان بن أبى طلحة العمرى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قام على المنبر يوم جمعة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر النبى ﷺ وذكر أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا بحضور أجلى، ورأيت ديكًا نقرنى نقرتين، فقصصتها على أسماء بنت عميس فقالت: يقتلك رجل من العجم(٣).

ولقد بشّره الحبيب ﷺ قبل ذلك بتلك الشهادة.

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صعد أُحدًا، ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان، فرجف فضربه برجله، وقال: «اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبى،

(١) أخرجه البخارى (١٨٩٠) فى فضائل المدينة.
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩١) ومالك (٢/ ٨٢٤/ ١٠) وابن أبى الدنيا فى مجابوا الدعوة (٩).
(٣) رواه أحمد فى المسند (١٦٨، ٣٦٢) مختصرًا ورواه مسلم والحاكم (٣/ ٩٠ ــ ٩١).

وصدِّيق، وشهيدان»(١).

ورأى رسول الله ﷺ على عمر ثوبًا غسيلاً فقال: «أجديد ثوبك هذا أم غسيل؟» قال: غسيل يا رسول الله، قال: «البس جديداً، وعش حميداً، وتوفَّ شهيداً، ويعطيك الله قرة عين فى الدنيا والآخرة»(٢).

وفى صحيح البخارى: أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ فى الفتنة؟

قال حذيفة: أنا أحفظ كما قال: قال: هات، إنك لجرىء، قال رسول الله ﷺ: فتنة الرجل فى أهله، وماله، وجاره تكفرها الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. قال: ليست هذه، ولكن التى تموج كموج البحر.

قال: يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا.

قال: يُفتح الباب أو يُكسرَ؟ قال: لا، بل يُكسر، قال: ذلك أحرى أن لا يغلق(٣).

قال النووى: يحتمل أن يكون حذيفة علم أن عمر يُقتل، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل لأن عمر كان يعلم أنه الباب فأتى بعبارة يحصل بها المقصود بغير تصريح بالقتل. اهـ.

***

(١) رواه البخارى (٣٦٧٥) فى الفضائل، باب قول النبى لو كنت متخذًا خليلاً، وأبو داود رقم (٤٦٥١) فى السنة، باب ما جاء فى الخلفاء، والترمذى رقم (٣٦٩٧) فى المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٨٨)، والنسائى فى اليوم والليلة (٣١١)، وابن ماجة رقم (٣٥٥١)، والطبرانى (١٣١٢٧). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخارى (٣٥٨٦) المناقب.

الفوز بالشهادة

وحان الوقت لتتحقق تلك الأمنية الغالية (أن يرزقه الله الشهادة فى مدينة رسول الله ﷺ).

فعن عمرو بن ميمون ــ رضى الله عنه ــ قال: «.... إنى لقائم ما بينى، وبينه إلا عبد الله بن عباس[1] غداة أصيب ــ وكان إذا مَرَّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبَّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول: قتلنى أو أكلنى ــ الكلب، حين طعنه[2]، فطار العِلجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا، ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ــ ذبح نفسه ــ وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف قدَّمه[3]، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة.

---

(١) قال الحافظ في الفتح: وفى رواية أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون: شهدت عمر يوم طُعن، فما منعنى أن أكون فى الصف الأول إلا هيبته، وكان رجلاً مهيبًا، وكنت فى الصف الذى يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المقدم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدمًا من الصف أو متأخرًا ضربه بالدرة، فذلك الذى منعنى منه. اهـ. فتح البارى (٧/ ٧٧).

(٢) قال الحافظ: روى ابن سعد بإسناد صحيح إلى الزهرى قال: كان عمر لا يأذن لسبى قد احتلم فى دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شعبة، وهو على الكوفة يذكر له غلامًا عنده صانعًا، ويستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً تنفع الناس، إنه حداد نقاش نجار، فأذن له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائة، فشكى إلى عمر شدة الخراج، فقال له: ما خراجك بكثير فى جنب ما تعمل، فانصرف ساخطًا، فلبث عمر ليالى، فمر به العبد فقال: ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت إليه عابسًا فقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها، فأقبل عمر على من معه فقال: توعدنى العبد، فتح البارى (٧/ ٧٨).

(٣) أى للصلاة بالناس.

وفى رواية: فظن عمر أن له ذنبًا إلى الناس لا يعلمه، فدعا ابن العباس ــ وكان يحبه ويدنيه.

فقال: أحب أن تُعلم عن ملأ من الناس كان هذا؟ فخرج لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون، فكأنما فقدوا أبكار أولادهم، قال ابن عباس: فرأيت البشر فى وجهه.

قال: فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلنى. فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصنع؟ قال: نعم. قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدَّعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقًا. فقال: إن شئت فعلت ــ أى إن شئت قتلنا.

قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلُّوا قبلتكم، وحجوا حجكم؟ فانطلقنا معه.

وفى رواية: ثم غلب عمر النزف حتى غُشى عليه، فاحتملته فى رهط حتى أدخلته بيته فلم يزل فى غشيته حتى أسفر فنظر فى وجوهنا، فقال: أصلى الناس؟ فقلت: نعم، قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم توضأ وصلى.

قال: وكأن الناس لم تُصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتى بنبيذ[1] فشربه فخرج من جوفه، ثم أوتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله

(١) قال الحافظ فى الفتح: المراد بالنبيذ المذكور تمرات نبذت فى ماء، أى نقعت فيه، كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء.

لك، وصُحبة رسول الله ﷺ وقدمٍ فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفافٌ لا علىَّ ولا لى.

فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: رُدوا علىّ الغلام. قال: يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك.

وفى رواية: قال ابن عباس: فقلت له: أبشر بالجنة، صاحبت رسول الله ﷺ فأطلت صحبته، ووليت أمر المؤمنين فقويت وأديت الأمانة.

فقال: أما تبشيرك إياى بالجنة فوالله لو أن لى الدنيا بما فيها، لافتديت به من هول ما أمامى قبل أن أعلم الخبر، وأما قولك فى أمر المؤمنين، فوالله لوددتُ أن ذلك كفافًا لا لى ولا علىّ، وأما ما ذكرت من صحبة نبى الله ﷺ فذلك[1].

قال الذهبى: قال ابن عمر: كان رأس عمر فى حِجرى، فقال: ضع خدى على الأرض، فوضعته فقال: ويلٌ لى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى»[2].

صُحبة الحبيب ﷺ وأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فى القبر

وفى اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ قال لابنه: يا عبد الله بن عمر، انظر ما علىّ من الدَّين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه. قال: إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسل من بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش، ولا تَعْدُهُم إلى غيرهم، فأد عنى هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا ـ وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن

(١) رواه أحمد فى المسند رقم (٣٢٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٢) سيرة الخلفاء للذهبى (٩٤)، والخبر فى الطبقات (٣/ ٢٧٤)، وإسناده صحيح.

يُدفن مع صاحبيه، فسلم فاستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء. قال: ارفعونى: فأسنده رجلٌ إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذى تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شىء أهمَّ إلىَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت احملونى، ثم سلمْ فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى رُدُّنى إلى مقابر المسلمين. . . . وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت[1] عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لها، فسمعنا بكاءها من الداخل، قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ، يا صهر رسول الله ﷺ، يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لا صبر لى على ما أسمع، أحرج عليك بمالى عليك من الحق أن تندبينى بعد مجلسك هذا، فأما عينيك فلن أملكها.

قال: فقالوا: أوصى يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أجدُ أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط النفر ـ أو الرهط ـ الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: فسمىَّ عليًا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن[2]، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شىء ـ كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمرة سعد فهو

(١) أى دخلت عليه.

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٨٤): واقتصار عمر على الستة من العشرة لا إشكال فيه لأنه منهم، وكذلك أبو بكر، ومنهم أبو عبيدة، وقد مات قبل ذلك، أما سعيد بن زيد فهو ابن عم عمر فلم يسمه عمر فيهم مبالغة فى التبرى من الأمر، وقد صرح المداينى بأسانيده، أن عمر عد سعيد بن زيد فيمن توفى النبى ﷺ وهو عنه راض، إلا أنه استثناه من أهل الشورى لقرابته منه، وقد صرح بذلك المداينى بأسانيده، قال: «فقال عمر: لا أرب لى فى أموركم فأرغب فيها لأحد من أهلى» اهـ.

ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان[١] من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يُعفى من مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رِدْءُ الإسلام (أى عون الإسلام الذى يدفع عنه)، وغيظ العدو (أى يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم)، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم (أى إلا ما فضل عنهم). وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصلُ العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشى أموالهم (أى التى ليست بخيار)، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ (أى أهل الذمة) أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم»[٢].

فلما قُبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه[٣].

باقة عطرة من ثناء الصحابة عليه ـ رضى الله عنه ـ

قال أبو وائل رحمه الله: قدم علينا عبد الله بن مسعود فنعى إلينا عمر، فلم أر يومًا كان أكثر باكيًا، ولا حزينًا منه، ثم قال: والله لو أعلم عمر كان يحب كلبًا لأحببته.

وعن حذيفة ــ رضى الله عنه ــ: أنه قال يوم موت عمر: اليوم ترك المسلمون حافة الإسلام[٤].

---

(١) أى سكنوا المدينة قبل الهجرة.

(٢) رواه البخارى رقم (٣٧٠٠) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ وفيه مقتل عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ.

(٣) بتصرف من أئمة الهدى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٤).

وقيل لعبد الله بن عباس: ما تقول في عمر؟

قال: رحمة الله على أبي حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومنتهى الإحسان، ونادى الضعفاء، ومعقل الخلفاء، كان للحق حصنًا، وللناس عونًا، قام بحق الله صابرًا محتسبًا حتى أظهر الدين، وفتح الديار، وذكر الله عز وجل على التلال والبقاع، وقورًا لله في الرخاء والشدة، شكورًا له في كل وقت، فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة[١].

ويقول العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ: كنت جارًا لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحدًا من الناس كان أفضل من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام وفي حاجات الناس[٢].

وعن حذيفة قال: كان الإسلام من زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قُربًا، فلما قُتل عمر رحمه الله، كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعدًا[٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: وُضع عمر على سريره، فتكنّفه الناس يدعون، ويصلون قبل أن يُرفع وأنا فيهم ـ فلم يَرُعْني إلا رجلٌ آخذ منكبي، فإذا علي بن أبي طالب، فترحَّم على عمر وقال: ما خلَّفت أحدًا أحب إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك، وحسبت أني كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا، وأبو بكر، وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا، وأبو بكر، وعمر[٤].

---

(١) الرياض النضرة (١/ ٣٥).

(٢) أخرجه السيوطي في الحلية (١/ ٥٤)، ورجاله ثقات.

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٥) ورجاله ثقات.

(٤) رواه البخاري رقم (٣٦٨٥) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب، ومسلم رقم (٢٣٨٩) في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أكثروا ذكر عمر، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل، وإذا ذكرتم العدل ذكرتم الله تبارك وتعالى(١).

ولا نملك عند وداع هذا الصحابى الجليل إلا أن نقول له: جزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فكم تعلَّمنا من سيرتك العطرة التى فاح عبيرها فى الدنيا كلها.. وكم تعلمنا من مواقفك الخالدة التى سطَّرتها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

فلن ننساك أبدًا ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

فرضى الله عنك وأرضاك وجمعنا وإياك فى جنته ومستقر رحمته

إخوانًا على سُررٍ متقابلين

***

(١) أسد الغابة (٤/ ١٥٣) بسندٍ صحيح.

عثمان بن عفان

ألا أستحى من رجلٍ تستحى منه الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

بهذا العنوان بدأت الكلام عن هذا الصحابى الجليل.

إنه صنف من الرجال الأطهار يندر وجوده فى كل العصور والأزمان... رجل تستحى منه ملائكة الرحمن!!!.

نعم إنه ذو النورين (عثمان بن عفان) ـ رضى الله عنه ـ ذلكم الرجل الذى إذا جاءت سيرته وجدنا بين ثنايا سطورها ريح الحياء والتواضع والجود والكرم والخشية.... وُلد بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، وكان رَبعة حسن الوجه رقيق البشرة عظيم اللحية بعيد ما بين المنكبين[1].

لما قالوا (لعلىّ): حدِّثنا عن عثمان. قال: ذاك امرؤٌ يُدعَى فى الملأ الأعلى ذا النورين.

كان ـ رضى الله عنه ـ فى أيام الجاهلية من أفضل الناس فى قومه فهو عريض الجاه ثريًا متواضعًا شديد الحياء عذب الكلمات فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه.

لم يسجد فى الجاهلية لصنمٍ قَط ولم يقترف فاحشة قَط ولم يظلم إنسانًا

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ٣٧٧).

قَط.

وكان كغيره من أهل المروءة فى أشد الشوق ليدٍ حانية تأخذ بنواصى العباد من تلك الجاهلية التى عمَّت البلاد إلى شاطئ النجاة.

وما هى إلا فترة يسيرة حتى بُعث الحبيب ﷺ وكان عثمان ـ رضى الله عنه ـ من السابقين الذين أسلموا قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم.

ولإسلام عثمان بن عفان قصةٌ ما زال يرويها الرواة.

ذلك أنه حين بلغه فى الجاهلية أن محمد بن عبد الله زوَّج ابنته رُقَية من ابن عمها عتبة بن أبى لهب... ندم أشدَّ الندم لأنه لم يسبق إليها... ولم يحظ بخُلُقها الرفيع وبيتها العريق[١]... فدخل على أهله مهمومًا. فوجد عندهم خالته «سُعدى بنت كُريز»، وكانت هذه امرأةً حازمةً، عاقلةً، طاعنة[٢] فى السن فسرَّت عنه[٣].

وبشرته بظهور نبى يُبطلُ عبادة الأوثان. ويدعو إلى عبادة الواحد الدَّيَّان، ورغَّبته فى دين ذلك النبى، وبشرته بأنه سينالُ عنده ما يبتغيه.

قال عثمان: فانطلقت وأنا أفكرُ فيما قالته خالتى...

فلقيت أبا بكر، وحدَّثته بما أخبرتنى به، فقال: والله لقد صدقت خالتك، فيما أخبرتك، وبشَّرتك بالخير يا عثمان... وإنك لرجلٌ عاقلٌ حازمٌ[٤] ما يخفى عليك الحق، ولا يشتبه عندك مع الباطل... ثم قال لى: ما هذه الأصنام التى يعبدها قومنا؟!... أليست من حجارةٍ صُم[٥] لا تسمع ولا

(١) بيتها العريق: أى كريمة الآباء والأجداد.
(٢) طاعنة فى السن: متقدمة فى السن.
(٣) سرَّت عنه: كشفت عنه الهم.
(٤) حازم: حكيم قاطع فى الرأى صائب.
(٥) صم: لا تسمع من يدعوها.

تُبصرُ؟. فقلت: بلى. فقال: وإن ما قالته خالتك ـ يا عثمان ـ قد تحقق... فلقد أرسل الله رسوله المرتقب[١]، وبعثه إلى الناس كافة بدين الهدى والحق. فقلت: ومَنْ هو؟! فقال: إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقلت: الصادق الأمين[٢]؟. فقال أبو بكر: نعم... إنه هو... فقلت: فهل لك أن تصحبنى إليه؟. فقال: نعم... ومضينا إلى النبى عليه الصلاة والسلام. فلما رآنى قال: (أجب يا عثمان داعى الله... فإنى رسول الله إليكم خاصةً، وإلى خلق الله عامةً...).

قال عثمان: فوالله ما إن ملأت عينى منه، وسمعتُ مقالته؛ حتى استرحتُ لهُ، وصدَّقت رسالتهُ... ثم شهدتُ أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً عبده ورسوله.

لم يؤمن بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحدٌ من قومه بنى «هاشم» حتى ذلك اليوم... غير أنه لم يكن فيهم أحدٌ يُناصبهُ[٣] العداء غير عمه «أبى لهب»[٤].

فقد كان هو وزوجه «أُمُّ جميل» من أشدِّ قريش قسوةً عليه، وأعنفهم إيذاءً له، وتنكيلاً به... فأنزل الله فيه وفى امرأته: ﴿تَبَّتْ[٥] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ[٦]﴾ (سورة المسد).

(١) المُرتقب: المنتظر.

(٢) الصادق الأمين: لقب اشتُهر به محمد ﷺ قبل أن يُبعث.

(٣) يناصبه العداء: يعلن العداوة ضده.

(٤) أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب مات على الكفر بعد غزوة بدر.

(٥) تبت: هلكت وخسرت.

(٦) مسدٍ: القوى من الحبال.

فازداد أبو لهب ضغينة[١] على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، واشتد حقده وحقد زوجته أم جميل عليه، وعلى المسلمين معه، فأمرا ابنهما «عُتبة» بأن يُطلق زوجته رُقية بنت محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فطلَّقها نكاية[٢] بأبيها.

ما كاد عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار[٣] فرحًا... وبادر فخطبها من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فزوجها الرسول الكريم ﷺ منه.

وزفتها[٤] أم المؤمنين خديجة بنت خويلد...

وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة[٥]، وكانت هى تُضاهيه قسامةً[٦] وصباحةً، فكان يقال لها حين زُفت إليه:

أحسنُ زوجين رآهما إنسان
رُقيةٌ، وزوجها عثمان[٧]

وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشى: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهى تغسل رأس عثمان، فقال: «يا بُنية أحسنى إلى أبى عبد الله، فإنه أشبه أصحابى بى خُلُقًا»[٨].

***

(١) الضغينة: الحقد والحسد وإضمار الكراهية فى الصدور.
(٢) نكاية: إغاظةً له وقهرًا.
(٣) استطار فرحًا: كاد يطير من شدة الفرح.
(٤) زفتها: قدمتها إلى زوجها.
(٥) الطلعة: ملامح الوجه.
(٦) تضاهيه قسامة: تشبهه فى حُسن تقاسيم الوجه وملامحه.
(٧) صور من حياة الصحابة (ص٥٥٨ : ٥٦١) بتصرف.
(٨) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات، المجمع (١٤٥٠٠).

الفرار إلى الله والهجرة إلى الحبشة

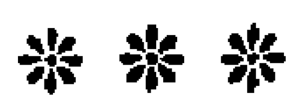
وعلى الرغم من مكانته بين قومه ومحبتهم له إلا أنه ما إن أعلن إسلامه واستعلى بإيمانه حتى سلطوا عليه الأذى فلما يئسوا من عودته إلى الشرك وارتداده عن دين محمد ﷺ أطلقوا سراحه فهاجر إلى الحبشة ومعه زوجه (رقية) ــ رضى الله عنها ــ.

وهناك اشتد الحنين إلى رسول الله ﷺ فعاد عثمان وزوجه ــ رضى الله عنهما ــ مرة أخرى إلى الحبيب ﷺ إلى أن أذن الله لنبيه ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، فكان عثمان وزوجه مع المهاجرين. وبذلك يكون ــ رضى الله عنه ــ قد هاجر الهجرتين.

جهاده في سبيل الله وتسميته بذى النورين

ولقد شهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا غزوة بدرٍ فإن النبى ﷺ لما خرج إلى بدرٍ خلّفه على ابنته رقية يمرّضها ــ فقد كانت مريضة ولم يكن معها أحد ــ ولما عاد الحبيب ﷺ من الغزوة علم أن ابنته رقية قد لحقت بجوار ربها فحزن حزنًا شديداً.. وواسى عثمان ــ رضى الله عنه ــ فضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهد بدراً، ثم زوّجه من ابنته الثانية (أم كلثوم) وقال: لو كان عندى ثالثة لزوجتها عثمان.. وسُمّى ذا النورين لجمعه بين بنتى رسول الله ﷺ[1].

قال العلماء: «ولا يُعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره، ولذلك سُمّى ذا النورين. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن».



(١) صفة الصفوة (١/ ١١٩).

موقفه الخالد في تجهيز جيش العُسرة (غزوة تبوك)

جاءت غزوة تبوك، والناس في عُسرة شديدة، وحين طابت الثمار وأحبت الظلال، والناس يحبون المقام ويكرهون الخروج.

وحضَّ رسول الله ﷺ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة؛ وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أول من حمل بماله كله. . . . أربعة آلاف درهم.

فقال له رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئًا؟» فقال: الله ورسوله، ثم جاء عمر بنصف ماله، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنهما ـ إلى النبي ﷺ مالاً، وحمل عبد الرحمن بن عوف إليه مائتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ إليه مالاً، وكذلك محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ وتصدّق عاصم بن عديّ ـ رضي الله عنه ـ بتسعين وسقًا من التمر. والنساء يُعنّ بكل ما قدرن عليه.

قالت أم سنان الأسدية ـ رضي الله عنها ـ: لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيه: مَسَك[1]، ومعاضد، وخلاخل[2]، وأقرطة[3] وخواتيم، وقد مُلئ مما بعث به النساء يُعنّ به المسلمين في جهازهم».

ولله در أبي عقيل يأتي بصاع من تمر ويستحي. . . قال: «بت ليلتي أجرُّ بالجرير[4] على صاعين، والله! ما كان عندي من شيء غيره، فأتيت بأحدهما، وتركت الآخر لأهلي»[5].

(١) مَسَك: الأسورة والخلاخيل من القرون والعاج.
(٢) جمع خلخال: حلية تلبس في الرجل كالسوار في اليد.
(٣) جمع قرط: ما يعلق في شحمة الأذن.
(٤) حبل يجعل للبعير، والمعنى بت ليلتي كلها استقى الماء بالحبل.
(٥) ابن عساكر (١/ ١١٠).

وعن عكرمة ـ رضى الله عنه ـ قال: حث رسول الله ﷺ على الصدقة[١]، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال يا رسول الله (مالى ثمانية آلاف) جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت.

العسرة وعثمانها المعطاء

روى عبد الرحمن بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ أن عثمان بن عفان جاء إلى النبى ﷺ بألف دينار فى كُمّه حين جهز جيش العسرة، فنثرها فى حجره، فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره، ويقول: ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[٢].

ولما حُصر فى داره قام فأشرف عليهم فوق داره... قال: «أُذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال فى جيش العسرة: «من ينفق نفقة متقبلة» والناس مجهدون، معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم...»[٣].

وما جاء فى رواية الأحنف بن قيس من قول عثمان: «أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله نظر فى وجوه القوم فقال: «من يجهّز هؤلاء غفر الله له» يعنى جيش العسرة، فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خطامًا؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد»[٤].

ما كاد عثمان يسمع نداء رسول الله ﷺ : «من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له؟» حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.

---

(١) يعنى فى غزوة تبوك.

(٢) أخرجه الترمذى، وأحمد، وابن أبى عاصم فى «السنة»، والحاكم وصححه وأقره الذهبى، والبيهقى فى الدلائل، وابن عساكر فى تاريخ دمشق.

(٣) جزء من حديث صحيح لغيره: أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة، وابن عساكر فى تاريخه.

(٤) جزء من خبر حسن لغيره: أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٧/ ٤٨٦)، وابن حبان (٦٨٨١)، وابن أبى عاصم فى السنة (١٣٠٣).

وهكذا وجدت العُسرة الضاغطة «عثمانها» المعطاء!!

وقام ـ رضى الله عنه ـ بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال... !!

يقول ابن شهاب الزهرى: «قدّم عثمان لجيش العُسرة فى غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرسًا، أتمَّ بها الألف»!!.

ويقول حذيفة: «جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ يُقلبها بيده ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويقول عبد الرحمن بن عوف: «شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان ابن عفان فى جيش العسرة بسبعمائة أوقية من الذهب».

ألم أقل لكم: إنه يبدو وكأنه الممول الوحيد للأمة الجديدة، والدين الجديد...؟؟[1].

ولما كفى الله المؤمنين القتال برجوع الروم... ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمدّه به عثمان... ما استرجع عثمان من ذلك شيئًا، وما استرد منها بعيراً ولا خطامًا.

رضى الله عن عثمان المهاجر إلى ربه الذى يخرج من ماله ومن دنياه العريضة كلها ويسافر إلى الله فى حياء رجلٍ تستحى منه الملائكة... نِعم المال الصالح للرجل الصالح... ترى كم أظل عثمان من رءوس رجال... وكم له عند الله من ظل بل ظلال ظليلة.

قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقات ظل فسطاط ـ خيمة ـ فى سبيل الله عز وجل، أو منحة خادم فى سبيل الله، أو طروقة فحل فى سبيل

(١) خلفاء الرسول ﷺ خالد محمد خالد (٢٤١) دار الجيل.

الله»(١)، (٢).

حفر عثمان ـ رضى الله عنه ـ بئر رومة

ولما كان المسلمون لا يجدون الماء العذب الذى هم فى أشد الحاجة إليه.. قام النبى ﷺ يعرض على أصحابه تلك الصفقة الرابحة، فقال: «من حفر رومة فله الجنة...»(٣)، (٤)

فقام عثمان ــ رضى الله عنه ــ السبَّاق إلى كل خير فحفرها، ففاز بثواب كل من شرب شربة ماءٍ أو توضأ من هذا الماء.

كان ـ رضى الله عنه ـ يعتق كل جمعة عبداً ويُحرر رقبة

وما كان البذل الذى يبذله ــ رضى الله عنه ــ ليقف أبدًا عند تجهيز جيش العُسرة أو حفر بئر رومة، بل لقد كان دومًا وأبدًا مواسيًا لكل مسلمٍ فى كربته ومُعينُه فى محنته ومعينًا له فى فقره وحاجته.

يُمضى ــ رضى الله عنه ــ مع نفسه موثقًا لا يُخلفه طوال حياته: هو أن يُعتق كل جمعة عبدًا، ويحرر رقبة... يشترى العبد من سيده بأى ثمن، ثم يهبه حريته مبتغيًا وجه ربه الأعلى(٥).

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة وبالجنة

وها هى البشرى بالشهادة وبالجنة يزفها إليه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى أمامة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٩).
(٢) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١٨٨: ١٩١) بتصرف.
(٣) المشهور فى الروايات أن عثمان ــ رضى الله عنه ــ اشتراها لا أنه حفرها ولذلك وَهَّم ابن بطال من قال حفرها قال: والمعروف اشتراها، نقل ذلك عنه الحافظ فى الفتح، ثم قال الحافظ.. ولعل العين كانت تجرى إلى بئر فوسعها وطواها فنسب حفرها إليه (الفتح ٥/ ٤٠٨).
(٤) أخرجه البخارى (٢٧٧٨) معلقًا وهو صحيح لشواهده.
(٥) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (ص ٢٤٥).

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان على حِراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ : «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيد»[١].

وعن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال: «أن النبى ﷺ دخل حائطًا وأمرنى بحفظ باب الحائط، فجاء رجلٌ يستأذنُ فقال: ائذن له وبشِّره بالجنة فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال له: ائذن له وبشره بالجنة فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذنُ فسكت هنيهة ثم قال: ائذن له وبشرهُ بالجنة على بلوى ستصيبه فإذا عثمان بن عفان»[٢].

استحيا من الله فاستحيت منه الملائكة والنبى ﷺ

ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوَّى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تُباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة»[٣].

وفى رواية: فقالت عائشة: يا رسول الله مالى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ : «إن عثمان رجلٌ حيىٌّ، وإنى خشيتُ إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلىَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) والترمذى (٣٦٩٦) وأحمد (٢/ ٤١٩).

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٩٥) ومسلم (٢٤٠٣) والترمذى (٣٧١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١) عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ.

في حاجته»[١] ـ أي يستحي فيخرج من غير أن يطلب حاجته التي جاء من أجلها ـ.

قال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيا من الله مطيعًا، استحيا الله منه وهو مذنب.

قال المناوي: مقام عثمان مقام الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره، مع نقص يجده في النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلت رتبة عثمان كذلك، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه، كما أن مَن أحب الله أحب أولياءه، ومن خاف الله خاف منه كل شيء[٢].

والجزاء من جنس العمل.

وقال ﷺ: «عثمان أحيى أمتي»[٣].

يعني أكثرها حياءً... والحياء منشأ الآداب، قيل: لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبي ﷺ:

فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ

يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة

قال عبد الرحمن بن عثمان التيمي ـ رحمه الله ـ: قلت: لأغلبن الليلة

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٢) وأحمد (١/ ٧٧) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٠).
(٢) فيض القدير للمناوي (٤/ ٣٠٢).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٧٢).

على المقام، فسبقت إليه، فبينا أنا قائم أصلى إذ وضع رجل يده على ظهرى، فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان ـ رحمة الله عليه ـ وهو خليفة، فتنحيت عنه، فقام فما برح قائمًا حتى فرغ من القرآن فى ركعة لم يزد عليها.

فلما انصرفت قلت: يا أمير المؤمنين، إنما صليت ركعة؟

قال: أجل هى وِترى[1]. أى ركعة الوتر.

وقال سليمان بن يسار ـ رحمه الله ـ: قام عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد العشاء فقرأ القرآن كله فى ركعة لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها[2].

و«كان ـ رضى الله عنه ـ يقرأ القرآن فى ركعة، ثم يُوتر بها»[3].

وعن ابن سيرين قال: قالت امرأة عثمان حين قُتل: لقد قتلتموه، وإنه ليُحيى الليل كله بالقرآن فى ركعة[4].

قال الحافظ ابن كثير: «وقد رُوى من غير وجه أنه صلَّى بالقرآن العظيم فى ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه ـ رضى الله عنه ـ ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال فى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] قال: هو عثمان بن عفان».

وقال فيه حسان بن ثابت:

ضحَّوا بأشمطَ عُنوانُ السُّجود به ... يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنا

---

(١) صحيح: أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٢٧٦)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٣/ ٢٤)، وابن سعد فى طبقاته (٣/ ٧٥)، والبيهقى فى سننه الكبرى.

(٢) صحيح: أخرجه ابن المبارك وابن سعد وابن عساكر.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الطحاوى والبيهقى (٣/ ٢٥)، وابن أبى داود، وصحَّح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ زهير الشاويش فى تحقيق شرح السنة (٤/ ٤٩٩).

(٤) الزهد (ص ١٢٧) لأحمد بن حنبل.

قال النووى فى «التبيان» (٥٥): «فمن الذين كانوا يختمون الختمة فى اليوم والليلة: عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ وتميم الدارى، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشافعى، وآخرون».

وكان ــ رضى الله عنه ــ لا يوقظ أحدًا من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه، إلا أن يجده يقظانًا، وكان يصوم الدهر، وكان يعاتَب، فيقال: لو أيقظت بعض الخدم؟ فيقول: لا! الليل لهم يستريحون فيه[1].

وعن الحسن، قال: قال عثمان: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإنى لأكره أن يأتى علىَّ يوم لا أنظر فى المصحف» وما مات عثمان حتى خُرِق مصحفه من كثرة ما يُديم النظر فيه[2].

وقُتل ــ رضى الله عنه ــ والمصحف فى حجره.

تجارة رابحة مع الله تعالى

عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال: «قحط الناس فى زمان أبى بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تُمسون غدًا حتى يأتيكم فرج الله.. فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته.

فسألهم: كم تُربحوننى؟ قالوا: العشرة اثنى عشر، قال: قد زادنى، قالوا: فالعشرة خمسة عشر، قال: قد زادنى، قالوا: من الذى زادك، ونحن تجار المدينة؟ قال: إنه الله، زادنى بكل درهم عشرًا، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجار عنه، وهو ينادى: اللهم إنى وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن، وبلا حساب»[3].

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥/ ٣٠٧).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٣٠٧).

(٣) خلفاء الرسول/ لخالد محمد خالد (ص ٢٤٦).

خلافته الراشدة

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ فتح الله على يديه «أرمينية» و«القوقاز». . . ونصر المسلمين وسوَّدهم على «خُراسان»، و«كرمان»، و«سجستان»، و«قبرص» وطرفٍ غير قليل من إفريقية.

ولقى الناس فى عهده من الثراء ما لم يحظ به شعبٌ على ظهر الأرض.

حدَّث الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ عما نعم به الناس فى عهد ذى النورين من الرخاء وبُلهنية[١] العيش. . .

وما غُمروا[٢] به من الهناءة والطمأنينة وقال: رأيت مُنادى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ينادى قائلاً: أيها الناس اغدوا على أُعطياتكم[٣]. فكان الناس يغدون عليها، ويأخذونها وافيةً. . .

أيها الناس أقبلوا على أرزاقكم[٤]. فكانوا يقبلون عليها، فيعطونها غزيرة وفيرة[٥]. ولقد سمعته ـ والله ـ أذُناى وهو يقول: اغدوا على كسوتكم. فكانوا يأخذون الحُلل السابغة[٦]، وكان يقول: هلموا على السمن والعسل أيضًا.

ولا غرو فلقد كانت الأرزاق فى عهد عثمان دارة[٧]. . . وكان الخير كثيراً. وذات البين[٨] سعيدة، ولم يكن على ظهر الأرض مؤمنٌ يخافُ مؤمنًا، وإنما

(١) بُلهنية العيش: الرفاهية والرخاء.
(٢) غُمروا: غَمَرَ الشيء ـ غمراً: علاه وستره. ويقال: غمر فلانٌ فلانًا: غطَّاه بفضله.
(٣) اغدوا على أعطياتكم: هلموا إلى العطايا التى تستحقونها.
(٤) أرزاقكم: رواتبكم.
(٥) غزيرة وفيرة: كثيرة.
(٦) الحُلل السابغة: الحلل الطويلة الواسعة.
(٧) دارة: أى مستمرة.
(٨) ذات البين: المراد الأحوال بين الناس.

كان المسلم يألف المسلم، ويواده، وينصره[١].

جمع القرآن في عهده

عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[٢].

خوفه ـ رضى الله عنه ـ

كان عثمان ــ رضى الله عنه ــ إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»[٣].

---

(١) صور من حياة الصحابة (ص ٥٦٨ : ٥٦٩).

(٢) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة (٣٤٦١).

وعن عبد الله بن الرومى، قال: «بلغنى أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال: «لو أنى بين الجنة والنار، ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

عدله ـ رضى الله عنه ـ

وها هى صفحة ناصعة البياض من عدله ـ رضى الله عنه ـ.

عثمان الرحيم الذى تشع الرحمة فى حياته، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته، يغضب على خادم له يومًا، فيفرك أذنه حتى يوجعه... ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيفرك أذنه... ويأبى الخادم، ويأمره فى حزم فيطيع: «اشدد يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة».

إقامة عثمان ـ رضى الله عنه ـ الحدود على القريب والبعيد

من عظام الأعمال وكبارها فى خلافته ظهور حدود الله تعالى.

فهذا الوليد بن عقبة من أقرب الناس إليه، إنه أخوه لأمه، ومع ذلك لم تأخذه شفقة عليه ولا رحمة.

قال الحافظ فى «الفتح» (٧/ ٥٦): «إنما أخّر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحدّ عليه».

قال حنين بن المنذر: شهدت عثمان بن عفان، وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم؟

فشهد عليه رجلان؟ أحدهما (حُمران) أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا علىّ قم فاجلده، فقال علىّ: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولِّ حارَّها من تولىَّ قارَّها[1] ـ

(١) ولِّ حارها من تولى قارها: قال الأصمعى: ولِّ شديدها من تولى هينها، والقارد البارد... أى ولِّ العقوبة والضرب من توليه العمل والنفع.

فكأنه وجد عليه ــ فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده، فجلده ــ وعليّ يعدّ ــ حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وهذا أحبّ إليّ»(١).

وفي رواية: «وكلٌّ سُنّة».

وقفات المؤمنين للدفاع عن (ذي النورين)

عجبًا ثم عجبًا لمن ينقمون على ذي النورين ــ رضي الله عنه ــ!!!

هل ينقمون على عدله أم على جُوده أم على رحمته أم على إيمانه أم على أنه من العشرة المبشرين بالجنة؟!!!

قال الحسن البصري ــ رحمه الله ــ: «أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا، فيُقال لهم: يا معشر المسلمين، اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على السمن والعسل.

الأعطيات جارية، والأرزاق دائرة، والعدو منفي، وذات البين حسن، والخير كثير، وما مؤمن يخاف مؤمنًا، من لقيه فهو أخوه مَنْ كان، أُلفتُه، ونصيحته، ومودته، قد عُهد إليهم أنها ستكون أثرة، فإذا كانت أن تصبروا.

ولو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير، قالوا: لا والله ما نصابرها، فوالله ما رُدّوا ولا سلموا.

والأخرى كان السيفَ مغمدًا على أهل الإسلام، ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفًا حتى سلّوه على أنفسهم، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا.

---

(١) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٩٧٣) وابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٤٥٣).

وأيم الله إنى لأراه سيفًا مسلولاً إلى يوم القيامة»(١).

يقول عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ: «أدركت زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وما من نفس مسلمة إلا ولها فى مال الله حق»(٢).

لين جانبه ورحمته بالرعية

من شمائل عثمان ـ رضى الله عنه ـ: لين جانبه، ورأفة قلبه، وإحسانه إلى الرعية، ولينه معهم، وخروج أهل الزور والبهتان عليه، وقتله مظلومًا.

قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: «لقد عبتم على عثمان أشياء، لو أن عمر فعلها ما عبتموها»(٣).

وقال الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ: «عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتى عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئًا، حتى جاء فَسَقَة فداهن والله فى أمره أهل المدينة»(٤).

ومن المواقف التى تبدو فيها شفقته بالرعية جليًا، ما رواه موسى بن طلحة يقول: سمعت عثمان بن عفان، وهو على المنبر، والمؤذن يقيم الصلاة، وهو يستخبر الناس عن أخبارهم وأسعارهم، وعن مرضاهم»(٥).

هذا عثمان فأين مثل عثمان ـ رضى الله عنه ـ؟!

عُباب البحر تنقص منه قدرًا ... إذا شبهتـه قلبـًا ذمامـًا(٦)

---

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن عساكر، والطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٩٤): إسناده حسن، وأخرجه ابن شبة فى تاريخ المدينة.

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه.

(٤) إسناده صحيح: أخرجه البخاري في التاريخ الصغير، وابن عساكر في تاريخه.

(٥) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، وابن سعد في طبقاته.

(٦) القلب الذمام: الآبار الصغيرة.

ولله در القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضَى من العصا

جملة الافتراءات والردّ عليها

١ - قولهم أنه - أى عثمان - لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان مع ظهور القصاص ووجوبه:

والجواب: أن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ دفع ديته من ماله بعد أن شاور الصحابة؛ لأنه ولى دم القتيل الذى لم يكن له ولى، وفقًا لقاعدة: «السلطان ولى من لا ولى له»[1].

ولقد ردّ ابن العربى ردًا شافيًا وكافيًا فى «العواصم من القواصم»: أما تلك القصة سندًا ومتنًا ففيها اضطراب، يقول ابن عبد البر: «قصته فى قتل الهرمزان وجفينة، وبنت أبى لؤلؤة، ففيها اضطراب، وفى الرواية الصحيحة أن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ تشاور مع المهاجرين والأنصار، ولم يقتل مسلمًا بكافر، وأعطى الدية بدلاً من ذلك فأى مخالفة فى ذلك؟[2].

٢ - قولهم: إن عثمان - رضى الله عنه - ولّى أقاربه - يعنى الولاية -:

مما قاله المفترون فى هذا الشأن عن عثمان: أنه ولّى أقاربه: معاوية، وعبد الله ابن عامر بن كريز، ومروان، والوليد بن عقبة، وأعطى مروان خُمس إفريقية.

قال ابن العربى ـــ رحمه الله ـــ: هذا كله باطل سندًا ومتنًا، فأما معاوية: (فعمر) ولاه، وجمع له الشام كلها، وأقره عثمان، وأما عبد الله بن كريز، فولاه كما قال: لأنه كريم العمّات والخالات.

---

(١) تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) العواصم من القواصم لابن العربى (ص٧٧، ١١٦).

وأما تولية الوليد بن عقبة فقد قال عثمان: ما وليته لأنه أخي، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم عمة النبي ﷺ وتوأمة أبيه.

والولاية اجتهاد، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص، وقدّم أقل منه درجة.

ومروان رجل عدل من كبار الأئمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، والفقهاء علي تعظيمه، والتلفت إلي فتواه، والانقياد إلي روايته، أما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون علي أقدارهم.

وأما الوليد وحدّه في الخمر، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون علي الخمر، وهو أمير وعزله، وليست الذنوب مُسقطة للعدالة إذا وقعت منه التوبة.

وإما إعطاؤه خُمس إفريقية لواحد فلم يصح.

وأما توليته لعبد الله بن أبي سرح، وهو الذي ارتد بعد إسلامه، فلقد تاب وعاد وحَسُن إسلامه، وجاهد جهاد الأبرار، ومات بين التسليمتين، ومعلوم أن الذنوب ليست مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة.

٣ ـ قولهم بأنه أخرج أبا ذرٍ إلى الربذة:

وهذا ظلم عظيم، ومنكر أثيم... فعثمان ـ رضى الله عنه ـ أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون، أو ينالهم بمكروه؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبى ذر والدليل على ذلك ما رواه زيد بن وهب قال: «مررتُ بالربذة، فقلت لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ: ما أنزلك هذا المنزل؟ فقال: أُخبرك.. إنى كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فقال معاوية: هذه نزلت فى أهل الكتاب، وقلت أنا: هى فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك فكتب إلىّ: أن أقدم علىّ، فقدمتُ عليه فانثال علىّ الناس كأنهم لم يعرفونى فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيّرنى

فقال: انزل حيث شئت»[١].

وقال عبد الله بن الصامت: «دخلت مع أبى ذر فى رهط من غِفار على عثمان بن عفان من الباب الذى لا يُدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، فانتهى إليه فسلّم عليه، قال: ثم ما بدأه بشىء إلا أن قال: أحسبتنى منهم يا أمير المؤمنين؟! والله ما أنا منهم ــ يعنى الخوارج ــ ولا أدركهم، ولو أمرتنى أن أعضّ على عرقوبى قتب لعضضت عليهما حتى يأتينى الموت وأنا عاض عليهما.

قال: صدقت يا أبا ذر، إنا إنما أرسلنا إليك لخير؛ لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لى فى ذلك، ثم استأذنه فى الربذة، فقال: ائذن لى فى الربذة.

قال: نعم نأذن لك، ونأمر لك بنَعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رسلها[٢].

قال: لا حاجة لنا فى ذلك، يكفى أبا ذر صِرمته[٣] ثم خرج فنادى: دونكم معاشر قريش، دنياكم فاعذمُوها لا حاجة لنا فيها، ودعونا ودينَنا[٤].

قال غالب القطان: قلت للحسن البصرى: أعثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا . . . معاذ الله[٥].

وكان محمد بن سيرين ــ رحمه الله ــ إذا ذُكر له أن عثمان بن عفان سيَّره أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من قِبَل نفسه، ولم يُسيِّره عثمان ــ رضى الله عنه ــ[٦].

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو نعيم (١٣٩) فى «تثبيت الإمامة».

(٢) يعنى اللبن. (٣) الصرمة: القطعة من الإبل.

(٤) صحيح: أخرجه ابن سعد فى «طبقاته» (٤/ ٢٣٢)، وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (٣/ ١٠٣٦، ١٠٤١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٦٠).

(٥) إسناده حسن: أورده الذهبى فى «تاريخ الإسلام» وابن شبة (٣/ ١٠٣٧).

(٦) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة (٣/ ١٠٣٧).

٤ ـ قولهم بأنه حرق المصاحف :

فالجواب: قال على بن أبى طالب: «... فوالله ما حرقها إلا على ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ... جَمَعَنا وقال: ما تقولون فى هذه القراءة التى اختلف الناس فيها، يلقى الرجلُ الرجلَ، فيقول: قراءتى خير من قراءتك وهذا يُجر إلى الكُفْر، فقلنا: ما الرأى؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد اختلافًا، فقلنا: نِعْم ما رأيت»(١).

٥ ـ قولهم بأنه رَدَّ طريد رسول الله ﷺ (الحكَم بن العاص):

فالجواب عن ذلك بأن الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال:

«لم تثبت من الأصل وليس لها إسناد».

٦ ـ إعطاء العطاء من مال الصدقة:

ومن تلك المطاعن الواهية: أنه أمر بالعطاء من مال الصدقة وأن الناس أنكروه.

وللرد على ذلك يقول أبو نعيم الأصبهانى ـ رحمه الله ـ:

«عثمان ـ رضى الله عنه ـ أعلم ممن أنكر عليه، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية فى شىء أن يفعلوه ولا تجعل إنكار مَن جهل المصلحة حُجة على من عرفها، ولا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون.

ولا يلزم عثمان فيما أمر به إنكار من أنكر لما رأى من المصلحة، فقد فرّق رسول الله ﷺ غنائم حنين فى المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة، وترك الأنصار لما رأى من المصلحة حتى قال قائلهم: تقسم غنائمنا فى الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

(١) منهاج السنة (٦/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

فكان الذى دعاهم إلى الإنكار على ما فعل رسول الله ﷺ قلة معرفتهم بما رأى من المصلحة فيما قسم، وكان أعظم من إنكار مَنْ أنكر على عثمان ـ رضى الله عنه ـ لأن مال المؤلفة من الغنيمة، فلا يلزم عثمان ـ رضى الله عنه ـ من إنكار مَن أنكر عليه شيئًا إلا ما لزم رسول الله ﷺ حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداءً بنبيه ﷺ »[1].

٧ ـ الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود:

أما الطعن عليه بأنه ضرب عمارًا حتى فتق أمعاءه!! فقال أبو نعيم فى «تثبيت الإمامة»: هذا غير ثابت عنه، وقال ابن العربى: وأمّا ضربه عمارًا فزور، وإفك. ودعوى ضربه ابن مسعود، وكسر أضلاعه، ومنعه عطاءه سنتين!! كل هذا باطل وزور، ولا أصل له[2].

بل لقد قال الإمام ابن تيمية: «فإن قيل إن عثمان قد ضرب ابن مسعود وعمار، فهذا لا يقدح فى واحد منهم، فإنا نشهد أن الثلاثة فى الجنة، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين، ولقد ضرب عمر، أُبىّ بن كعب، بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه، وقال: «ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع»[3].[4]

ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ودفاعه عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ

جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إنى سائلك عن شىء فحدثنى عنه. هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أُحُد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟

(١) «تثبيت الإمامة» لأبى نعيم (ص ١٤٩) نقلاً عن سيرة وحياة ذى النورين عثمان بن عفان، تأليف مجدى فتحى السيد (ص ٩٤) ـ دار الصحابة بطنطا.

(٢) تثبيت الإمامة/ لأبى نعيم (ص ١٥١ ـ ١٥٢).

(٣) منهاج السنة (٣/ ١٩٢).

(٤) نقلاً من ترطيب الأفواه (ص ١٤١ : ١٤٧) بتصرف.

قال: نعم، قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال أُبيّن لك. أما فراره يوم أُحُد فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيّبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه.. فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك[1].

عتاب يجعل القلب يبكى الدماء بدل الدموع (وقت الحصار)

عن أبى أُمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان وهو محصورٌ في الدار، وكان فى الدار مدْخلٌ من دخله سمع كلام من على البلاط فدخله عثمان فخرج إلينا وهو متغير لونه فقال: إنهم ليتواعدوننى بالقتل آنفًا قال: قلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين قال: ولِمَ يقتلوننى؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إسلام، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام قط، ولا أحببت أن لى بدينى بدلاً منذ هدانى الله ولا قتلت نفسًا فبم يقتلوننى»[2].

وعن أبى عبد الرحمن أن عثمان ــ رضى الله عنه ــ حين حُوصِر أشرف عليهم وقال: «أنشُدُكُم الله، ولا أنشُدُ إلا أصحاب النبى ﷺ: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رومة (البئر) فله الجنة فحفرتُها؟ ألستُم تعلمون أنه قال: من جهَّز جيش العسرة فله الجنةُ فجهزتُه؟ قال: فصدَّقوه بما قال[3].

(١) أخرجه البخارى عن عثمان ــ ابن موهب ــ (٣٦٩٨) والترمذى (٣٧٠٦).
(٢) رواه أبو داود (٤٥٠٢) وأحمد (١/ ٦١ ــ ٦٢) والنسائى (٧/ ٩١ ــ ٩٢) وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه البخارى (٢٧٧٨) معلقًا وهو صحيح لشواهده.

وحان وقت الرحيل

ولما اشتدَّ حصار الثُوار لداره، قال للصحابة الذين تجمَّعوا حول داره ليُواجهوا الثُوَّار بالسلاح: «إن أعظمكم عنى غَنَاءً، رجلٌ كفَّ يده وسلاحه!!».

ويقول لأبى هريرة وقد جاء شاهراً سلاحه مُدافعًا عنه: «أما إنك والله لو قتلت رجلاً واحدًا، لكأنما قتلتَ الناس جميعًا».

ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لحراسته: «أُناشدكم الله وأسألكم به، ألا تُراق بسببى مِحْجَمَة دمٍ».

قال ابن عمر: جاء (علىٌ) إلى عثمان يوم الدار، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن على وعليه سلاحه، فقال للحسن: ادخُل إلى أمير المؤمنين، وأقرئه السلام، وقُل له: إنما جئتُ لنُصرتك، فمُرنى بأمرك. فدخل الحسن ثم خرج، فقال لأبيه: إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام، ويقول لك: لا حاجة لى فى قتالٍ وإهراق الدماء. قال: فنزع (علىٌ) عمامةً سوداءَ فرمى بها بين يدى الباب، وجعل ينادى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢][(١)].

لله دَرُّك يا عثمان.. رحمةٌ جامعة تغطى بعطائها المقسط جلائل الأحداث وصغارها، فللخادم منها حظه وحقه فى أن ينعم براحة النوم، وإن أضنى الخليفة نفسه وشيخوخته فى ظلمة الليل البهيم... ولقطراتِ الدم حظها وحقها فى أن تنعم بالسلام والعافية، وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ بيدِ مُعتدٍ أثيم، وغادرٍ زنيم.. توغَّلتِ الرحمةُ فى حياته وفى

(١) التبصرة (١/ ٤٣١).

سلوكه، حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها، فجاد بها.

ولقد كان من الطبيعي لرجل وسعت رحمته الناس جميعًا، أن تغطي رحمته ذوي قُرباه... قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «أوصلنا للرحم عثمان». لقد كان عثمان في ذلك نسيج وحده[1].

إن أرادك المنافقون على خلع قميصك، فلا تخلعه حتى تلقاني

ومن للعظائم غيرُ العظيم.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان، إن الله مُقمِّصُك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه حتى تلقاني»[2].

لله درُّه في محنته.. محنةٌ هبطت بها شراسةُ المتآمرين إلى السَّفح، وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمة.

قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أُمتي المُطيطاء، وخدمها أبناءُ الملوك؛ أبناء فارس والروم، سُلِّط شرارها على خيارها»[3].

مؤامرة يتولاها ويُعدُّ لها الناقمون على الإسلام كله (الدين والدولة والأمة).

لقد سيطر على رُوع الخليفة واجب ـ وهو يرى المدَّ المتآمر ـ بدا له ـ يومئذ ـ أنه أهمّ الواجبات وأقدسها؛ ذلكم هو «المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها». فهذه الفتنة المخربة، والتمرد الآبق، يهدفان إلى هدم كيانها ودحر قيمها، واعتصامُ الدولة بكبريائها وسلطانها، يُصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة. لقد وعى خليفتنا عهد رسول الله إليه ببصرٍ ثاقب،

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٢).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجة والحاكم، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٩٤٧).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٠١).

وحمل مسئوليته بعزمٍ مجيدٍ.

من شاء أن يُبصر علو الهمة فى الاستمساك، فى أجلّ وأروع وأبهى صوره، لا للفوضى، حتى ولو كان فيها قتلهُ: تُواتيه فرصة قتال الثُوّار وقتلهم، فيرفضها.

ومع هذا، حين أخرج الثُوّار ورقتهم الأخيرة، ورفعوا عقائرهم فى جُرأةٍ ضاريةٍ: «إما اعتزال عثمان، وإما قتله». فى ثبات مُذهل يرفض الخليفة أن يعتزل.

أيمكن لرجل جاوز الثمانين، أن يستبد به طموح المنصب ومجده وجاهه، والأخطار والمهالك على هذا النحو المُزلزل الرهيب.

لقد رفض عثمان أن يعتزل؛ لأنه «رجل مسئوليات» من طرازٍ فريد.

وهذا الخُلق كان مخبوءًا تحت ستار تواضعه وحيائه، وما كنا سنراه متألقًا كالشمس فى رابعة النهار، إلا فى أزمةٍ كهذه.. ومحنة كهذه.. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم... أفيرضخ ويُسلِّم مصاير الإسلام، وكرامة الدولة، لعصابةٍ مفتونة؟ لا، وألف لا.

قال له ابن عمر: «لا تَسُنّ هذه السنة فى الإسلام، ولا تخلع قميصًا ألبسكه الله».

منعوه زوّاده، ومنعوه الماء.. الذى تتفجر به بئر رومة التى اشتراها من خالص ماله وأهداها للمسلمين.

سبحان الله! ما أعلى هذه الهمة... صبر على حقن الدماء ولو سالت دماؤه... وحفاظ على هيبة الدولة ولو ذُبح.

حاصروه أربعين يومًا، وعنده فى الدار من المهاجرين والأنصار قريبٌ من

سبعمائة، وخلقٌ من مواليه، ولو تركهم لمنعوه، فقال لهم: أُقسم على من لى عليه حقّ، أن يكُفَّ يده، وأن ينطلق إلى منزله. وقال لرقيقه: مَن أغمدَ سيفه فهو حُرّ.

عن نافع عن ابن عمر، أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أصبح يحدِّث الناس، قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال: «يا عثمان، أفطر عندنا»، فأصبح صائمًا وقُتل من يومه(١).

واستسلم عثمان لأمر الله رجاء موعوده، وشوقًا إلى رسوله ﷺ، ليكون خيرَ ابنى آدم: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

كان عثمان أكثر الناس يقينًا بصدق رؤياه.. سينطلق فى عُرسه العظيم إلى رحاب الله وجوار محمد ﷺ ورحلة الخلود.

ولما أصابوا كفه قال: «والله إنها لأول يد خطَّت المُفصل وكتبت آى القرآن».. وسال الدم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

لقد كان همه ألا تسقط راية الخلافة من يمينه.. وألا يلقى الله ـ حتى يلقاه ـ وعلى يديه قطرةٌ واحدة من دماء مسلمة.

وحين تمدد جثمانه الطهور، كان كتاب الله لصيقهُ وصديقهُ.. ومَنْ أولى بذلك منه؟! وهو الذى وحَّده، وحفظه وافتداه.

ضحَّوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ به يُقطِّـعُ الليـلَ تسبيحـًا وقُرآنـًا(٢)

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٩٠).

(٢) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٤: ٦٦).

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

إن الله ـ عز وجل ـ تكفَّل لأوليائه المؤمنين بالدفاع عنهم فى حياتهم، بل وبعد موتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالى فى الحديث القدسى: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب...»[1].

وقد يسأل سائل ويقول: ولِمَ لم يدافع الله عنه عند قتله؟!

أقول: إن قَتْله هو أعظم دفاعٍ عنه.... فقد رزقه الله الشهادة بذلك مصداقًا لقول النبى ﷺ الذى بشَّره بها.

وها هى صورة مشرقة من دفاع الله عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ بعد موته ـ هذا غير العذاب الذى سيلاقيه قاتلوه يوم القيامة عند ربهم ـ.

عن أبى قلابة قال: «كنت فى رفقة بالشام، وسمعت صوت رجل يقول: «يا ويلاه النار». قال: فقمت إليه، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين، أعمى العينين، منكبًا لوجهه، فسألته عن حاله فقال:

إنى كنتُ ممن دخل على عثمان الدار، فلمَّا دنوت منه صرخت زوجته فلطمتها، فقال (أى عثمان): «ما لك، قطع الله يديك، ورجليك، وأعمى عينيك، وأدخلك النار»، فأخذتنى رعدة عظيمة، وخرجت هاربًا، فأصابنى ما ترى، ولم يبق من دعائه إلا النار. قلت له: بُعدًا لك وسُحقًا[2].

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ باب التواضع ـ كتاب الرقاق.

(٢) الرياض النضرة فى مناقب العشرة للطبرى (٥٠٧) تحقيق/ د. حمزة النشرتي.

وقال يزيد بن حبيب: «إن عامة الذين ساروا إلى عثمان جُنُّوا»[١].

أي أُصيبوا بالجنون.

ورحل الشهيد عن دنيا الناس بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد والعدل والسماحة والتواضع.

رحل بعد أن سالت دماؤه التى لطالما امتزجت بُحب الله وحُب رسوله ﷺ... سالت دماؤه الشريفة التى انصهرت مع كل آية من آيات القرآن الكريم.

رحل بعد أن قدَّم للإسلام الكثير والكثير.

وها نحن بعد هذا الزمان الطويل نذكره ونذكر أعماله الجليلة، ولن ننساه أبدًا ما دامت أرواحنا فى أجسادنا.

فرضى الله عن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٤٥٥٣): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

على بن أبى طالب

أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن نفتح صفحة. . . أقصد صفحات مضيئة، بل ومليئة بالزهد والورع والخشية والتضحية والجهاد بالنفس والنفيس فى سبيل الله جل وعلا.

إنه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

إنه البطل. . . بل حيدرة الأبطال الذى عاش لله بقلبه وجوارحه.

إنه التقى الذى تربَّى فى حقل الإسلام وسُقى بماء الوحى، فكان زهرة يانعة طاب ريحها وملأ أرجاء الكون كله. . وما زلنا نشم عطر سيرته حتى يومنا هذا، وسيظل هذا العبير ينشر عطره عبر العصور والأزمان على أرجاء الكون ليعلم الكون كله كيف استطاع الحبيب ﷺ أن يربّى أصحابه ليكونوا نُجومًا فى سماء الدنيا تضىء للناس طريقهم إلى الله.

وكيف لا؟! وهو الذى ربّاه الخالق ـ جل جلاله ـ ليربّى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه وهو فى السادسة من عمره بدأ يعيش مع «محمد» الصادق الأمين، يتأدّب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتُقَى ضميره وسلوكه. .

وحين بلغ العاشرة، كان الوحى قد أمر الرسول بالدعوة.. وكان هو سابق المسلمين!!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجيء اليوم الذى سيلقي فيه ربه.. تطبيقًا كاملاً وأمينًا لمنهج الرسول وتعاليم القرآن..

ألا بُوركت هذه الحياة!!

حياة لم تكن لها صَبْوَة، ولا شهوة، ولا هفوة.!!

حياة: وُلد صاحبها، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله!!

حتى لهُو الأطفال. لم يكن لحياة (على بن أبى طالب) فيه حظ ولا نصيب..

فلا مزامير البادية، ولا أغانى السُّمار، شبع منها سمع الطفل، ووجدان الشاب..

لكأنَّ المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه، لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض، ووجه الحياة..!!

أجلْ.. لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مِثله آيات الله العلى الكبير.

لقد كان يسمع القرآن غضًا طريًا من فم الصادق المصدوقﷺ .

ولك أن تتصور أيها الأخ الكريم نفسك وأنت تسمع القرآن من فم مَن أُنزل عليه القرآنﷺ .

وفى نور هذه الآيات المنزَّلة، والتى كان الوحى يجيء بها تباعًا، قضى «على بن أبى طالب» بواكير حياته النضرة، يبهره نورها.. ويهزُّه هديرها..

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأىَ العين،

حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها. !

ويسمع آية النار، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار.. ولولا جلال الصلاة وحُرمتها لَولَّى هاربًا من لفح النار الذى يُحسُّه ويراه..!!(١)

وذكر بعضُ أهل العلم أنّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاةُ خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علىّ بن أبى طالب مستخفيًا من أبيه أبى طالبٍ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيُصلِّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إنَّ أبا طالبٍ عثَّر عليهما يومًا وهما يُصلِّيان، فقال لرسولِ الله ﷺ: يابن أخى! ما هذا الدينُ الذى أَرَاكَ تدين به؟ قال: «أى عمٍّ. هذا دين الله، ودينُ ملائكته ودين رُسله، ودين أبينا إبراهيم» ـ أو كما قال ﷺ ـ «بعثنى اللهُ به رسولاً إلى العباد، وأنت أى عمّ، أحقُ مَنْ بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقُّ من أجابنى إليه وأعاننى عليه»، فقال أبو طالب: أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخلَص(٢) إليك بشىءٍ تكرهه ما بقيت.

وذكروا أنه قال لعلىّ: أى بُنىَّ، ما هذا الدينُ الذى أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنتُ [بالله و] برسول الله، وصدَّقته بما جاء به، وصلَّيت معه لله، واتبعتُه، فزعموا أنه قال له: أما إنَّهُ لم يَدْعُك إلا إلى خير، فالزمهُ(٣).

ولما كانت حياته فى بيت النبى ﷺ فإنه عرف جميع أموره الداخلية، ودرس أحواله وأخلاقه عن قرب، وشرب من مشربه، وتربى على أخلاقه

---

(١) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (٤٧٣: ٤٧٤) بتصرف.

(٢) يُخلص إليك: أى لا يصل إليك.

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

ﷺ وعاداته، وتصرفاته، فلبس ثياب الطُهر فى صغره، وبَعُد عن الأصنام وناصَبها العداء من بداية أمره، وشُغل بأمر النبى ﷺ طيلة حياته؛ لأنه كان دائم القرب منه، والصلة به، والعمل على راحته وخدمته، والاستضاءة بنوره، والشرب من منهله أكثر من غيره. وكان مع ذلك قد أوتى ذاكرة واعية، وعقلاً متفتحًا، وذكاءً نادرًا، وشجاعة فذة، وقوة لا مثيل لها عند غيره.

وكان قد اعتاد أن يحيا حياة النبى ﷺ فى زهده وتقشفه وورعه وخوفه من الله، وصلابته فى الحق، وثباته عليه، والدعوة إليه.

وكان عنده من عمر ـ رضى الله عنه ـ عزمه وحزمه، وشدته فى الله وصلابته، وسرعة بتِّه فى الأمور، وانقضاضه على الباطل وأهله فى غير مهادنة أو مداهنة.

ولم يكن علىّ ـ رضى الله عنه ـ يعرف مجاملة الناس فى سبيل نصرة الحق وإزهاق الباطل، وليس عنده استعداد أن يدير سياسة الرعية حسبما تقتضى أصول السياسة بعيدًا عن أصول الدين وفروعه وما كان عليه رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده[1].

الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدره ـ رضى الله عنه ـ

وها هى باقة عطرة من مناقبه ـ رضى الله عنه ـ والأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدره.

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ : «اهدأ

---

(١) الخلفاء الراشدون/ الشيخ حسن أيوب (ص ٢٥١).

فما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيق أو شهيدٌ»(١).

وعن عليّ ــ رضى الله عنه ــ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله إنك تبعثنى إلى قوم هم أسنُّ منى لأقضيَ بينهم قال: اذهبْ فإن الله تعالى سيُثَبِّتُ لسانَكَ ويهدى قلبكَ(٢).

وقال ﷺ : أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلىّ فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة»(٣).

وعن حبشى بن جنادة السلولى ــ وكان قد شهد حجة الوداع ــ قال: قال رسول الله ﷺ : علىّ منى وأنا من علىّ ولا يؤدى عنى إلا أنا أو علىّ(٤).

وعن على ــ رضى الله عنه ــ قال: لما تُوفى أبو طالب أتيتُ النبىَّ ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات قال: اذهب فوارِه ثم لا تُحدثْ شيئًا حتى تأتينى قال: فواريتُهُ ثم أتيتُه قال: اذهب فاغتسل ثم لا تُحدث شيئًا حتى تأتينى قال: فاغتسلت ثم أتيتُه قال: فدعا لى بدعوات ما يسرُّنى أن لى بها حُمُرَ النّعم وسودَها، قال: وكان علي ــ رضى الله عنه ــ إذا غسل ميتًا اغتسل(٥).

وعن زر قال: قال علىٌّ: والذى فلق الحبة وبَرَأَ النَّسمةَ إنه لَعَهْدُ النبىِّ

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) ــ والترمذى (٣٦٩٦).
(٢) رواه أحمد (١/ ٨٨) والنسائى فى الخصائص (٣٥)، وقال العدوى: وهو صحيح بمجموع طُرقه.
(٣) رواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).
(٤) رواه أحمد (٤/ ١٦٥) والترمذى (٣٧١٩)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩١).
(٥) رواه أحمد (١/ ١٠٣) وأبو يعلى فى مسنده (١/ ٣٣٥)، وقال العدوى: وهو حسن بمجموع طُرقه.

الأُمِّ ﷺ إليَّ: «أن لا يُحبنى إلا مؤمن ولا يُبغضنى إلا مُنافق»(١).

وعن ابن أبى ليلى قال: «حدثنا علىّ أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فَأُتِىَ النبى ﷺ بسبى فانطلقت ـ لتطلب منه من يخدمها من السبايا ـ فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة فجاء النبى ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال: على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت بَرْدَ قدميه على صدرى، وقال: ألا أعلمكما خيرًا مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعًا وثلاثين وتسبحان ثلاثًا وثلاثين وتحمدان ثلاثًا وثلاثين فهو خير لكما من خادم»(٢).

وعن ابن أبى حازم أن رجلاً جاء إلى سهل بن سعد فقال هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليًا عند المنبر(٣) قال: ماذا يقول: قال: يقول له: أبو تراب فضحك قال: والله ما سماه إلا النبى ﷺ وما كان له اسم أحب إليه منه فاستطعمت الحديث سهلاً، وقلت: يا أبا عباس كيف ذلك؟ قال: دخل علىٌّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع فى المسجد فقال النبى ﷺ : أين ابن عمك(٤)؟ قالت: فى المسجد فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره، فيقول: اجلس يا أبا تراب. مرتين»(٥).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨) والترمذى (٣٧٣٦).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٠٥) ـ ومسلم (٢٧٢٧) ـ وأحمد (١/ ١٣٦).

(٣) فى رواية مسلم: استعمل على المدينة رجل من آل مروان قال: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليًا قال: فأبى سهل، فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا التراب... فقال سهل: ما كان لعلى اسم أحب إليه من أبى التراب، وإن كان ليفرح إذا دعى بها...

(٤) فى رواية البخارى (٤٤١) ومسلم (٢٤٠٩) قالت: كان بينى وبينه شىء فغاضبنى فخرج فلم يَقِلْ عندى.

(٥) أخرجه البخارى (٣٧٠٣).

واستخلف عليًا فقال: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون إلا أنه ليس نبى بعدى»(١).

وعن سعد بن أبى وقاص قال: «كنت جالسًا فى المسجد أنا ورجلين معى فنلنا من علىّ فأقبل رسول الله ﷺ غضبان يُعْرَفُ فى وجه الغضب فتعوذت بالله من غضبه، فقال: مالكم ومالى؟ من آذى عليًا فقد آذانى»(٢).

وعن أبى بكر أن النبى ﷺ بعثه ببراءة لأهل مكة لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فأجله إلى مدته، والله برىء من المشركين ورسولُه، قال: فسار بها ثلاثًا ثم قال لعلىّ ـ رضى الله عنه ـ: الحقه فَرُدَّ علىَّ أبا بكر وبلغها أنت قال: ففعل قال: فلما قدم على النبى ﷺ أبو بكر بكى.

قال: يا رسول الله حدث فىَّ شىء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل منى(٣).

وعن البراء ـ رضى الله عنه ـ قال: لما اعتمر النبىُّ ﷺ فى ذى القعدةَ فأبى أهلُ مكةَ أن يَدعوه يدخلُ مكة حتى قاضاهم على أن يُقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقرُّ لك بهذا، لو نعلم أنَّكَ رسول الله ما منعناك شيئًا، ولكن أنت محمد بن عبد الله فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلىّ: امح رسول الله.. قال (علىّ): لا والله لا أمحوك أبدًا، فأخذ رسول الله الكتاب ـ وليس يُحسنُ يكْتُبُ ـ فكتب: هذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخُلُ مكة السلاح إلا السيفُ فى القراب وأن لا يخرُجَ من أهلها بأحد إن أراد أن

---

(١) أخرجه البخارى (٤٤١٦) ـ ومسلم (٢٤٠٤).
(٢) رواه أبو يعلى (٢/ ١٠٩) وأحمد فى فضائل الصحابة (١٠٧٨) وهو حسن.
(٣) رواه أحمد (١/ ٣) وهو صحيح بمجموع طُرقه.

يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يُقيم بها فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًا فقالوا: قُل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجلُ، فخرج النبيُّ ﷺ فتبعتهُ ابنة حمزة تنادى يا عمّ يا عمّ. فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك حمليها، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر، قال عليّ: أنا أخذتها وهى بنت عمى، وقال جعفر: ابنة عمك وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى. فقضى بها النبى ﷺ لخالتها وقال: الخالةُ بمنزلة الأم، وقال لعليّ: أنت منى وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خَلْقى وخُلُقى، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال عليّ: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخى من الرضاعة(1).

ثلاثة أغلى من الدنيا وما فيها

عن سعد بن أبى وقاص قال: أمَرَ معاويةُ بن أبى سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تَسُبَّ أبا التُراب؟ فقال: أمَّا ما ذكرتُ ثلاثًا قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أسبَّهُ لأن تكون لى واحدةٌ منهن أحبُّ إلىَّ من حُمرِ النَّعَمِ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له خَلَّفَهُ فى بعض مغازيه فقال له عليٌّ: يا رسول الله خلفتنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون منِّى بمنزلة هارونَ من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى» وسمعتهُ يقول يوم خيبر: «لأُعطين الرايةَ رجلاً يحبُّ الله ورسولَهُ، ويحبُّهُ الله ورسوله» قال: فتطاولنا لها، فقال: «ادعوا لى عليًا» فَأُتىَ به أرمدَ فَبَصَقَ فى عينه ودفع الرايةَ إليه ففتح الله عليه(2)، ولما نزلت هذه الآيةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله ﷺ عليًا وفاطمةَ وحسنًا وحُسينًا فقال: «اللهم

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٥١) ــ والترمذى مختصرًا.

(٢) تنبيه: عند النسائى فى الخصائص عقب حديث (٥٢) ــ وهو هذا الحديث ــ زيادة فوالله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة. وإسنادها صحيح وفيها شدة تورع معاوية وتوقفه عند حديث رسول الله ﷺ.

هؤلاء أهلى»(١).

وكان أخًا لنبى الهدي   وخُصّ بذاك فلا يُكْذَبِ
وفى ليلة الغار وافى النبى   عشاءً إلى الفلق الأشهبِ
وبات دُوَيْنَهُ فى الفراش   مُوطِّنَ نفسٍ على الأصعبِ
وعمرو بن وُدّ وأحزابه   سقاهم حِسا الموت فى يثربِ
وسل عنه خيبر ذات الحصونِ   تُخَبِّرْكَ عنه وعَنْ مَرْحَبِ
وسبطاهُ جدهما أحمدٌ   فَبخٍ بَخٍ(٢) بجدهما والأَبِ

نام على فراش النبى ﷺ ليفديه... فأسعد الله فراشه بفاطمة لترضيه

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش فى دار الندوة فى يوم الزحمة، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذى تبدّى لهم فى صورة الشيخ النجدى، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابًا جليداً نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطى كل فتىً منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل ـ الدية ـ فعقلناه لهم.

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه.

(١) أخرجه مسلم فى طرق حديث (٢٤٠٤) ـ والترمذى (٣٧٢٤) وأحمد (١/ ١٨٥).
(٢) كلمة تُقال عند الإعجاب والفخر.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي، وتسجَّ ببُردى هذا الحضرمى الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم». وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذ ينام.

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩]. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال خيّبكم الله، قد والله، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًا على الفراش متسجيًا ببُرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على بُرده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام (عليّ) عن الفراش، فقالوا: والله، لقد صدقنا الذى كان حدثنا.

حمى المغوار حيدرة[1] الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرّت بها الدعوة، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه، أسعد الله فراشه بفاطمة بنتِ نبيه ﷺ التى تجلببت في جلباب كمالها. وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب، وأصدقه درعه الحُطَمِيّة،

---

(١) هو اسم علي بن أبي طالب قال:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة كليث غابات كريه المنظره

وحيدرة هو: الأسد.

فأُهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم ـ جلد ـ حشوها ليف، وقربة ومنخل وقدح ورحًى وجرابان. ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش يناما عليه بالليل وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هى خادمة نفسها.

تالله، ما ضرها ذلك.

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين».

وفى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى، فمن أغضبها أغضبنى».

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة؛ علىّ وعمّار وسلمان»(١). ونعم الجزاء..

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

وها هو ـ رضى الله عنه ـ يسطِّر على جبين التاريخ ـ بسطورٍ من النور ـ صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله تعالى فهو يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن الماء البارد فى صحراءٍ موحشة.

جهاده في يوم بدر

وفى غزوة بدر خرج الفارس المغوار مجاهدًا فى سبيل الله.

عن عبد الله ابن مسعود قال: كنا يوم بدر ثلاثةٌ على بعير... كان أبو لبابة وعلىٌّ بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺقال: وكانت عقبة رسول الله ﷺـ دوره فى المشى ـ قال: فقالا: نحن نمشى عنك فقال: ما أنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما(٢).

(١) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤١١) والطيالسى (٣٥٤) وإسناده حسن.

وفي أرض الشرف والجهاد حيث تصمت الألسنة وتنطق السيوف فوق هامات الرؤوس.. كان لبطلنا هذا الموقف العظيم.

عن عليّ قال: تقدَّم ـ يعنى عتبةَ بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه فنادى: مَن يُبارز؟ فانتُدبَ له شبابٌ من الأنصار فقال: من أنتُم؟ فأخبروه فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بنى عمنا فقال رسول الله ﷺ: «قمْ يا حمزةُ قم يا علىٌّ قم يا عبيدة بن الحارث» فأقبل حمزةُ إلى عُتبة وأقبلتُ إلى شيبة واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه ثم مِلنَا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة[1].

وعن قيس بن عباد عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال: «أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة» وقال قيس بن عباد وفيهم أُنزلت ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ قال: «هم الذين تبارزوا يوم بدر... حمزة وعليّ وعبيدة ـ أو أبو عبيدة بن الحارث ـ وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»[2].

جهاده في يوم الخندق

وفى غزوة الخندق كان له هذا الموقف العظيم مع فارس قريش (عمرو بن عبد وُدّ).

كان عمرو بن عبد ودّ العامرى «كبش الكتيبة» قد حضر معركة بدر الكبرى، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرِح فى المعركة، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسَهُ دُهنًا حتى يقتل محمداً، ولهذا كان أولَ الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين، ومعه فوارس من قريش، وخرج على بن أبى طالب فى نفرٍ معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلَهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِق ـ تُسرع ـ نحوهم.

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٦٥) وأحمد (١/ ١١٧).
(٢) أخرجه البخارى (٣٩٦٥) وعزاه المزى فى الأطراف للنسائى.

قال ابن إسحاق: «كان عمرو بن عبد ودّ العامرى (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدرٍ حتى أثبتته الجراحةُ فلم يشهد أُحدًا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلَمًا ليُرَى مكانُه، فلما وقف هو وخيله قال: مَن يبارز؟ فبرز إليه على بن أبى طالب».

وعند البيهقى فى «دلائل النبوة»: «خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مُقَنَّع بالحديد، فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام على بن أبى طالب فقال: أنا لها يا نبى الله. فقال: «إنه عمرو، اجلسْ». ثم نادى عمرو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يؤنِّبهم ويقول: أين جنتكم التى تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا، أفلا تُبرزون إلىّ رجلاً؟! فقام علىٌّ فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «اجلسْ». ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححْتُ من النداء لِجَمْعهم هلْ منْ مُبارزْ
ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشجَّعُ موقفَ القرنِ المناجزْ
ولذاك إني لم أزلْ متسرعًا قبلَ الهَزَاهِزْ
إنَّ الشجاعةَ في الفتَى والجود من خيرِ الغرائِزْ

قال: فقام علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، أنا. فقال: «إنه عمرو». فقال: وإن كان عَمرًا. فأذِن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه، حتى أتي وهو يقول:

لا تَعْجلَنَّ فَقَدْ أتاكَ مُجيبُ صَوتكَ غيرُ عاجزْ
فى نيّةٍ وبصيرةٍ والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائزْ
إنى لأرجُو أن أُقيـ ـمَ عليكَ نائحَةَ الجنائزْ
مِن ضربةٍ نجلاءَ يَبْـ ـقَى ذكرُها عندَ الهزاهزْ[1]»

(١) نجلاء: واسعة ـ الهزاهز: الحروب والشدائد.

ولما مشى على إلى عمرو ليبارزه قال له: يا عمرو، إنك كنتَ تقول: لا يدعونى أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتُها. قال له: أجل. فقال له: إنى أدعوك أن تشهد أن لاَّ إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول الله، وتُسلِمَ لرب العالمين. فقال عمرو: يا ابن أخى، أخِّرْ عنى هذه. قال علىّ: وأخرى: ترجع إلى بلادك، فإنْ يكُ محمد رسول الله صادقًا كنتَ أسعد الناس به، وإن يكُ كاذبًا كان الذى تريد. فقال عمرو: هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريشٍ أبداً. كيف وقد قدرتُ على استيفاء ما نذرتُ؟! ثم قال عمرو: فالثالثة، ما هى؟ فقال على: البرازُ. فضحك فارسُ قريشٍ عمرو ـ وكان فارسًا مشهوراً مُعمَّرًا قد جاوز الثمانين ـ ثم قال لعلىّ: إن هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعنى بها. ثم قال لعلىّ: مَنْ أنت؟ قال له: أنا على. قال: ابن عبد مناف؟ فقال علىّ: أنا على بن أبى طالب. فقال عمرو: يا ابن أخى من أعمامك مَن هو أسنُّ منك؛ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال علىّ: ولكنى ـ والله ـ أحبُّ أن أقتلك. فعند ذلك غَضِبَ عمرو غضبًا شديداً، ونزل فسلّ سيفه، كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علىٍّ مُغضبًا، واستقبله علىّ بدَرَقَته فضربه عمرو فى دَرَقَته فقدّها، وأثبتَ السيف فيها، وأصابَ رأسه فشجّه، وضربه (علىّ) على حبل عاتقه فسقط، وثار العَجَاجُ، وسَمِعَ رسول الله ﷺ التكبير، فعرف الناس أنَّ عليًا قد قتل عمرًا، فثمَّ يقول علىّ:

أعليَّ تقتحم الفوارسَ هكذا ... عنّى وعنهم أخّروا أصحابى
اليوم يمنعنى الفرارَ حفيظتى ... ومُصَمَّمٌ فى الرأسِ ليسَ بنابى

وألقى عكرمة رمحه يومئذٍ وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت:

فرّ وألقَى لنا رمحَه ... لعلَّكَ عِكرِمُ لم تفعلِ
ووليْتَ تعدو كعدو الظَّليـ ... ـم ما أن يحوّر عن المَعدلِ
ولم تلوِ ظهرَك مستأنسًا ... كأنّ قفاكَ قفا فَرْعَلِ(١)

---

(١) الفرعل: صغار الضباع.

قال عمر بن الخطاب: هلا استلبت درعَه، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها. فقال: ضربته فاتقانى بسوءَته فاستحييت ـ ابنَ عمى ـ أن أسلبه. وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفتَه بعشرة آلاف، فقال: «ادفعوا إليهم جيفته؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية». فلم يقبل منهم شيئًا(١).

صاحب الراية الذى يفتح الله على يديه (يوم خيبر)

وها هو ـ رضى الله عنه ـ فى يوم خيبر يشهد له النبى ﷺ بأنه يُحب الله ورسوله ﷺ ويحبه الله ورسوله ﷺ وبأن الله سيفتح على يديه.

عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله». قال: فبات الناس ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «أين على بن أبى طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال علىٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفُذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»(٢).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه». قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ. قال: فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها، قال: فدعا

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤/ ١٠٦).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) والنسائى فى فضائل الصحابة (٤٦).

رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إياها. وقال: «امشِ ولا تلتفتْ، حتى يفتح الله عليك». فسار (عليٌّ) شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتلُ الناس؟ قال: «قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»(١).

وعند البخارى عن سلمة، قال: «كان عليّ قد تخلَّف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلّف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج عليٌّ فلحقَ بالنبى ﷺ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأُعطينَّ الراية ـ أو ليأخذنَّ الراية ـ غداً رجلاً يحبُّه الله ورسوله ـ أو قال: يحبُّ الله ورسوله ـ يفتح الله عليه». فإذا نحن بعليّ، وما نرجوه، فقالوا: هذا عليّ. فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه»(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى، قال: إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزّها، ثم قال: «مَنْ يأخذها بحقِّها؟» فجاء فلان فقال: أنا. قال: أمط. ثم جاء رجلٌ فقال: أمطْ. ثم قال النبى ﷺ: «والذى كَرَّم وجهَ محمد، لأُعطينَّهَا رجلاً لا يفرّ، هاكَ يا عليّ» فانطلقَ حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَك، وجاء بعجوتهما وقديدهما(٣).

وفى حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم: «ثم أرسلنى رسول الله ﷺ إلى عليّ وهو أرمد، فقال: «لأُعطينَّ الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله». قال: فأتيتُ عليًا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق فى عينيه فبرأ، وأعطاه الراية. وخرج «مرحب» فقال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) ـ وأحمد (٢/ ٣٨٤) والطيالسى (٢٤٤١).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٠٢) ـ ومسلم (٢٤٠٧).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٦) وفى فضائل الصحابة (٩٨٧) وإسناده حسن.

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ ... شاكى السلاحِ بطلٌ مُجرَّبُ

إذا الحروبُ أقبلتُ تلهَّبُ

فقال علىٌّ:

أنا الذى سمّتْنى أُمّى حَيْدَرَهْ[1] ... كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المَنْظَرهْ

أُوفِّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأسَ «مرحب» فقتله، وكان الفتح على يديه[2].

مَرْحب هذا: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية:

هذا سَيفُ مَرحَبْ ... مَن يَذُقْهُ يعطبْ

فضربه علىٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسه، ووقع السيف فى الأضراس.

وقبله قتل (علىّ) أخا مَرحَبَ، وهو الحارث. وبارز علىٌّ قائدًا يهوديًا ـ بعد مبارزة الزبير لياسر ـ وكان هذا القائد الفارس يُسمّى عامرًا، فقتله علىٌّ أمام الحصن. قال رسول الله ﷺ حين طلع عامرٌ: «ترونْه خمسةَ أذرع؟» وكان طويلاً جسيمًا، فلما دعا للبراز، وخطر بسيفه، وعليه دِرعان، وهو مُقَنَّعٌ فى الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه (علىّ) فضربه ضربات، كلّ ذلك لا يصنعُ شيئًا، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذفّف[3] عليه فأخذ سلاحه[4].

وفتح الله على يديه حصن (ناعم) وهو من أقوى حصون خيبر.

فيا لها من صفحات مشرقة لا ننساها أبدًا ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

---

(١) حيدرة: هو الأسد.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع.

(٣) أجهز عليه.

(٤) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة ـ خيبر ـ لمحمد أحمد بشاميل (ص ١٢٢).

وعاش ــ رضى الله عنه ــ ملازمًا للحبيب ﷺ يقتبس من علمه وزهده وأخلاقه الرفيعة إلى أن تُوفى الحبيب ﷺ وحزن عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبه.. فلقد فَقَدَ حبيبه ورسوله الذى لطالما احتضنه وأغدق عليه الكثير والكثير من رحمته وعطفه وعلمه، بل وأعطاه قُرة عينه وثمرة فؤاده (فاطمة) ــ رضى الله عنها ــ.

وبعد وفاة النبى ﷺ ظل (علىّ) ملازمًا لخليفته الراشد (أبى بكر) ــ رضى الله عنه ــ وكان أبو بكر يعرف قدره ومنزلته ويشاوره فى عظائم الأمور، ولطالما كان يسعى إليه ويقول: «أفتنا يا أبا الحسن».

ولما تُوفى أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ وأصبح عمر ــ رضى الله عنه ــ أميرًا للمؤمنين... كان يعرف أيضًا (لعلىّ) قدره ومنزلته، ولطالما كان يستنجد بفقهه وبذكائه وبصيرته ويقول: «لولا علىٌّ لَهَلَك عمر».

ولما قُتل (عمر) شهيدًا وتولى عثمان شئون الأمة المسلمة وأصبح أميرًا للمؤمنين كان يستشير (عليًا) ويستنصحه ويستعين به إلى أن قُتل عثمان ــ رضى الله عنه ــ وفُتحت أبواب الفتن على مصراعيها وتولى (علىّ) الخلافة على الرغم من أنه كان لا يريدها بحالٍ من الأحوال.

وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ــ رضى الله عنهما ــ.

قال الحافظ ابن كثير ــ رحمه الله ــ: إن ما كان بين معاوية وبين علىّ بعد مقتل عثمان... على سبيل الاجتهاد والرأى فجرى بينهما قتال عظيم، وكان الحق والصواب مع (علىّ) ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سَلفًا وخلفًا، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين(١).

ونحن على يقين من أن الصحابة كلهم عُدول وأنهم ما كانوا يطمعون فى

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٦٢٩).

حُطام الدنيا، وإنما أرادوا جميعًا وجه الله ونُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ. فرضى الله عنهم جميعًا وجمعنا وإياهم فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

الخليفة الراشد وهمته العالية

إن حياة أبى السِّبطين وأبى تراب (علىٍّ بن أبى طالب) تتفجَّر عظمةً وجلالاً وإعجازًا، فمن عظمة نفسه وعلوّ همَّته، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظائمُ وأمجاد، تكاد تحسبها ـ لولا صدْق التاريخ ـ أحلامًا وأساطير.. مسلم عظيم، يفجّرُ الدنيا من حواليه ذمَّةً، واستقامةً، وطُهرًا، وذُرًا سامقة وغاياتٍ بعيدة. عظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًا، يُمارس العظائم، ويصوغ المكْرمَات.

يقول ضرار بن ضمرة الكنانى فى وصف علىّ: «كان بعيدَ المَدَى، شديد القُوَى... يقول فَصْلا، ويحكُم عدلاً... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته... كان غزير الدمعة، طويل الفِكرة، يقلِّب كَفَّيه ويُخاطب نفسه، ويُعجبه من اللباس ما خشُن، ومن الطعام ما جشب... لا يطمع القوىُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيفُ من عدله.. وأشهد، لقد رأيتُه فى بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سُدُولَه، وغارتْ نجومُه، وقد مَثَل فى محرابه، قابضًا على لحيته، يتململ تململُ السليم، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إلىَّ تعرَّضت، أم إلىّ تشوَّقْت؟ هيهات هيهات غُرِّى غيرى، قد أبَنْتُك ـ طلقتك ـ ثلاثًا لا رجعة فيها!! فعمرُكِ قصير، وعيشُكِ حقير، وخَطَرُكِ كبير، آهٍ من قلة الزّاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق».

كان ـ رضى الله عنه ـ يُخرج كلَّ ما كان فى بيت المال لمستحقيه، حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر الإمامُ أن تُنضح أرضُه ويُغسَل بالماء، حتى إذا تمَّ

ذلك، قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين!!

كانت هذه الصلاة في بيت المال، بعد أن نضح أرضه بالماء، رمزًا لمعنىً جليل، كان إيذانًا بعهدٍ جديد، تُسيطر فيه الآخرة على الدنيا، ويستردّ الورع والتُقَى نفوذهما على الدولة، وعلى المجتمع، وعلى الأنفس والأفئدة جميعًا.

دُعِيَ لينزل قصر الإمارة.. قصر كبير ترتفع هامتُه في شموخٍ وفتنة.. فلا يكاد يُبصره حتى يولِّى مدبرًا وهو يقول: «قصر الخَبَال هذا، لا أسكنه أبدًا».

ويرتدى جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، ويركب حمارًا ويقول: «دَعُونى أُهِن الدنيا».

فعليٌّ ـ رضى الله عنه ـ مقيمٌ لم يرحل.

يجد عصرنا هذا في نهجه وحُكمه أستاذًا ومعلِّمًا وهاديًا.. يعلِّم الحُكّام في كلِّ جيلٍ وعصرٍ أن الولاء للحقّ يعني رَفْض إغراء الدنيا، ورفض غرور السلطان.

قال الإمام أحمد بن حنبل: إن عليًا ما زانتْهُ الخلافةُ، ولكنْ هو زانها.

ما زانه المُلْكُ إذ حواه بل كلُّ شيءٍ به يُزانْ
جرى ففاتَ الملوكَ سَبْقًا فليس قُدّامَهُ عنَّانْ
نالتْ يَدَاهُ ذُرَا مَعَالٍ يعجِزُ عن مِثْلِهَا العِيَانْ

منازل عُلا في الزهد يُحلِّق فيها البطل الزاهد الأوَّاب، لقد كانت هوايته الكبرى: إهانة الدنيا وإذلال مغرياتها الهائلة؛ بأن يرفع في وجهها يدًا لا تهتزُّ ولا تختلِج، تقول لتلك المغريات: لا.

قال سفيان الثوريُّ: ما بنى عليٌّ لَبِنَةً، ولا قصبةً على لبنةٍ، وإن كان ليُؤتى بحبوبه من المدينة في جِرابٍ.

وكان ــ رضى الله عنه ــ معه دِرَّةٌ له (عصا) يمشى بها فى الأسواق، ويأمر الناس بتقوى الله وحُسن البيع، ويقول: أوفُوا الكيل والميزان، ويقول: لا تنفخوا اللحم.

وخرج ذات يومٍ وعليه بُرْدان، مُتَّزِرٌ بأحدهما، مُرتدٍ بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانبًا، وقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكونا أبعد لى من الزَّهْو، وخيرًا لى فى صلاتى، وسُنَّة للمؤمن.

قال عمر بن عبد العزيز: أزهدُ الناس فى الدنيا علىٌّ بن أبى طالب.

وقال الحسن: رَحِمَ اللهُ عليًا، إن عليًا كان سهمًا لله صائبًا فى أعدائه، وكان فى مَحَلَّة العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رَهْبانىَّ هذه الأُمَّة، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقَة، ولا فى أمر الله بالنُّومة، أعطى القرآن عزائمهُ وعمله وعلمهُ، فكان منه فى رياضٍ مُونِقَةٍ، وأعلامٍ بيِّنة، ذاك علىّ بن أبى طالب[1].

صفحات مشرقة من عدله ـ رضى الله عنه ـ

رضى الله عن أبى الحسن: «يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، كانت حظوظه مع نفسه فى طُهرها وعدلها وتقاها رابية ووافية، وكان عدله سامقًا يبقى على مر الزمان منارًا لذوى الرشد والنهى، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعًا، ولاء فطرة وولاء يقين.

يقول ــ رضى الله عنه ــ: «أأقنع من نفسى أن يقال: أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان؟ والله لو شئت لكان لى من صفو هذا العسل، ولُباب هذا البرٌّ، ومناعم هذه الثياب ولكن، هيهات أن يغلبنى الهوى، فأبيت مبطانًا وحولى بطون غرثى وأكباد حرّى».

وقال على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ على المنبر فى يوم الجمعة: «أيها الرعاء، إن لرعيتكم حقوقًا: الحكم بالعدل، والقسم بالسويّة، وما من

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٧: ٧٠).

حسنة أحبّ إلى الله من حكم إمام عادل»[١].

وعن العلاء بن عمار أن عليًا ــ رضى الله عنه ــ خطب الناس فقال: أيها الناس. . . والذى لا إله إلا هو ما رزأت[٢] من مالكم قليلاً ولا كثيرًا إلا هذه ــ وأخرج قارورة من كمّ قميصه فيها طيب ــ فقال: أهداها إلىّ الدِّهقان[٣]، ثم أتى بيت المال فقال: خذوا، ثم أنشأ يقول:

أفلح مَن كانت له قوصرة[٤] يأكل منها كل يومٍ مرة[٥]

وفى رواية: طوبى لمن كانت له قوصرة.

وعن عبد الله بن زُرير ــ رحمه الله ــ قال: دخلت مع علىّ ــ رضى الله عنه ــ يوم الأضحى، فقرّب إلينا خزيرة[٦]، فقلنا: أصلحك الله، لو أطعمتنا من هذا البط، فإن الله قد أكثر الخير، فقال: يا ابن زرير، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان: قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها بين الناس»[٧].

هكذا التقى الورع مع العدل، وما أروع (علىّ) وهو يتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئًا زهيدًا:

قال عنترة بن عبد الرحمن الشيبانى: دخلتُ على علىّ ابن أبى طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك، ولأهل بيتك نصيبًا فى هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟!

(١) ابن عبد البر فى (التمهيد) (٢/ ٢٨٤).

(٢) ما رزأت: أى ما أصبت ولا أخذت.

(٣) زعيم فلاحى العجم، ورئيس إقليمهم.

(٤) القوصرة: وعاء التمر.

(٥) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»، وابن كثير فى «البداية» (٨/ ٣)، والذهبى فى تاريخ الإسلام.

(٦) طعام عبارة عن لحم يقطع صغارًا، ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق، وقيل الحساء من سمن ودقيق.

(٧) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وفيه ابن لهيعة، لكن الراوى عنه فى رواية حرملة عن ابن وهب، وهو أحد العبادلة.

فقال: إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئًا، وهذه القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى، أو قال من المدينة(١).

ومن عدالته: ما رواه علىّ بن ربيعة الوالبى، قال: إن علىّ بن أبى طالب قد جاءه ابن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء، وبيضاء ــ ذهب وفضة ــ فقال: الله أكبر!! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين، فقال:

هذا جناى وخياره فيه وكل جانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج، علىّ بأشياع الكوفة، قال: فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء... ويا بيضاء... غرّى غيرى... ها، وها.

حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه، وصلى فيه ركعتين(٢).

وعن على بن الأرقم، عن أبيه قال: رأيت عليًا، وهو يبيع سيفًا له فى السوق، ويقول: من يشترى منى هذا السيف، فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله ﷺ، ولو كان عندى ثمن إزار ما بعته(٣).

وكان ــ رضى الله عنه ــ يمشى فى أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين، فيُرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسنِّ الكهل، فيحمل عنه حاجته، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول: «قصر الخبال هذا، لا أسكنه أبدًا» وحين نتكلم عن أمير المؤمنين ــ رضى الله عنه ــ فإنا نؤرخ للعظمة الإنسانية والعدل فى نموذجه الباهر.. هو الذى علَّم الأمة فقال أهل القبلة ولله دره حين يقول لعسكره: لا تقتلوا مدبرًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقربوا

---

(١) صحيح: أخرجه ابن الجوزى فى «صفة الصفوة»، وأبو نعيم فى «الحلية»، والذهبى فى «تاريخ الإسلام»، والخورنق: موضع بالكوفة.

(٢) حسن: أخرجه أبو نعيم فى الحلية.

(٣) صحيح: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٨٣) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٨/ ١٥٧).

النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم، واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون».

لله در أبي الأسود الدؤلي حيث يقول في عليّ:

يقيم الحق لا يرتاب فيه ... ويعدل في العِدى والأقربينا[1]
ونفسًا لم تذق طعم الدنايا ... ولا لذّت من الدنيا طعامًا
غذاها الدين مُذْ كانت فشبّتْ ... على التقوى رضاعًا وانفطاما
ونشأها على كرم وأيْدٍ ... وصاغ من الجلال لها قوامًا
ذكت فسمت عن الدنيا طلابا ... وأضنى حبها قومًا وتامًا[2]
طوى عنها على الضرّاء كشحًا ... وعاف نُصارها تبرا وساما

❋ ❋ ❋

وأكبر همه مذ كان طفلاً ... حدود الله يحرص أن تُقامَا
يذل لعزها نفسًا ويرضى ... لدفع الضيم عنها أن يُضاما
إذا ما رنَّ صوت الحق منه ... تولى الإفك وانحطم انحطامًا[3]

ولما طُعن ـ رضى الله عنه ـ وهو يتهيأ للصلاة، بعد أن مرَّ بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر... قال لبنيه بعد أن علم قاتله: «أحسنوا نُزله، وأكرموا مثواه، فإن أعش، فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا، وإن أمت، فألحقوه بي، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بي سواه، إن الله لا يحب المعتدين»[4].

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ١٥٠ ـ ١٥١) وأسد الغابة (٤/ ١٢٤).
(٢) تامه: أى تيّمه.
(٣) «العلوية» لمحمد عبد المطلب.
(٤) نقلاً من ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ١٤٨ : ١٥١) بتصرف.

(عليٌّ) ـ رضى الله عنه ـ أقضى هذه الأمة

قال عمر بن الخطاب: أقضانا عليٌّ بن أبي طالب.

وعن ابن مسعود قال: كنَّا نتحدَّث أن أقْضَى أهل المدينة على بن أبى طالب.

وعن عليٍّ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلتُ: يا رسول الله، تُرسلنى وأنا حديثُ السِّنِّ، ولا عِلْمَ لى بالقضاء؟ فقال: «إن الله سيهدى قلبك، ويُثبِّت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخَصمان، فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول، فإنه أحْرَى أن يتبيّن لك القضاءُ». قال: فما زلتُ قاضيًا، أو ما شككتُ فى قضاءٍ بَعْدُ(١).

وعن أبى سعيد الخُدرى أنه سَمِع عمر يقول لعليٍّ ـ وقد سأله عن شيءٍ فأجابه ـ: أعوذ بالله أن أعيش فى قومٍ لستَ فيهم يا أبا حسن(٢).

وأخرج أحمد فى المناقب، عن عليٍّ ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعةً وقعوا فى حفرة حُفرت ليُصطاد فيها الأسد، سقط أولاً رجل فتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرَحهم الأسد. وماتا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال عليٌّ: أنا أقضى بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزتُ بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم. اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر رُبع الدِّية وثلثها ونصفها ودِيَةً كاملة، فللأول ربعُ الدِّية؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه، وللذى يليه ثلثُها؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلَكَ من فوقه، وللرابع الدِّيةُ كاملةً. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرك وقال: صحيح الإسناد. وحسنه الشيخ وصى الله ابن محمد عباس فى تحقيقه لفضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٦٩٩).

(٢) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (٣/ ١٦٦) للمحب الطبرى.

ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم، فقصوا عليه القصة فقال: «أنا أقضى بينكم» واحتبى ببردة، فقال رجل من القوم: إن عليًا قضى بيننا. فلمَّا قصُّوا عليه القصة، أجازه[1].

علي ـ رضي الله عنه ـ وجوده وكرمه

عن أبي جعفر قال: ما مات علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حتى بلغتْ غلَّتُه مائة ألف، ولقد مات يوم مات وعليه سبعون ألفًا دَيْنًا. فقلت: مِنْ أين كان عليه هذا الدَّيْن؟ قال: كان تأتيه حامَّتُه من أصهاره ومعارفه، ممَّن لا يرى لهم في الفَيء نصيبًا، فيُعطيهم، فلمَّا قام الحسنُ بن علي باع وأخذ من حواشي ماله حتى قضى عنه ثم كان يُعتق عنه في كل عام خمسين نَسمة حتى هلك ثم كان الحسين يُعتق عنه خمسين نسمة حتى قُتل ثم لم يفعله أحدٌ بعدهما[2].

نزع (أبو بكر) مَخيطَ الهوى فمزَّقه (عليٌّ).

رمى الصدِّيق جهاز المُطلَّقة فوافقه عليٌّ حتى رمى الخاتم.

حبَّبَ الفقرَ إليه أنَّه ... سُؤْدُدٌ وَهْوَ بذاكَ الفقر يَغْنَى

وشريفُ القومِ من بَقَّى لهم ... شَرَفَ الذِّكْر وخَلَّى المال يَفْنَى

ما اطمأنّ الوفْر في بُحْبُوحَة ... فرأيتُ المجدَ فيها مُطْمَئِنَّا

تُهْدَمُ الأموالُ من أساسها ... أبدًا ما دامت العلياءُ تُبْنَى[3]

* * *

(١) الرياضة النضرة في مناقب العشرة (٣/ ١٦٩) للمحب الطبري.
(٢) مكارم الأخلاق (ص ١٠٦).
(٣) التبصرة (٢/ ٢٥٨).

علي ـ رضي الله عنه ـ وشكره لله

كان عليّ بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده، وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها[1].

وعن عليّ ــ رضى الله عنه ــ أنه قال لرجل من أهل همدان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلّق بالمزيد، وهما مقرونان فى قرنٍ؛ فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد»[2].

تواضعه ـ رضي الله عنه ـ

عن عمرو بن قيس: أن عليًا ــ رضى الله عنه ــ رُئىَ عليه إزار مرقوع، فعُوتِب فى لبوسه، فقال: يقتدى به المؤمن، ويخشع له القلب[3].

أدبه ـ رضي الله عنه ـ

عن صُهيب مولى العباس، قال: رأيتُ عليًا يقبِّل يد العباس ورِجْله ويقول: يا عمّ، ارضَ عنى[4].

زهده ـ رضي الله عنه ـ

لما بكت الدنيا عليه، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه.

كان يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب ــ أى ما غَلُظ ــ.

هذا الذى كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا أبى تعرّضت؟! أم بى تشوّقت؟! هيهات غُرّى غيرى، قد بتتك

---

(١) عُدة الصابرين (ص ١٢٢).

(٢) الشكر لابن أبى الدنيا.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة وابن سعد فى الطبقات.

(٤) قال الذهبى فى السير (٢/ ٩٤): إسناده حسن.

ثلاثًا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشكِ حقير، وخطركِ كبير، آهٍ من قِلة الزاد، وبُعد السفر ووحشة الطريق.

كلمات من ذهب

وها هي باقة عطرة من كلماته التي ينبغي أن تُنقش بالذهب على صفحات القلوب.

قال ـ رضي الله عنه ـ الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وَهَمَجٍ رِعَاع اتباع كُلَّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة. ومحبة العالِم دين يُدان بها.

العلم يُكسب العالِمَ الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وضيعة المال تزول بزواله.

مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: احفظوا عني خمسًا لو ركبتم الإبل في طلبهن لما أصبتموهن ولأنضيتم الإبل قبل أن تدركوهن:

لا يَرْجُونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يَخَف إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم، ولا يستحي عالم إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: «إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطُول الأمل: فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبلة، ولكل واحدة

منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»(١).

وقال ـ رضى الله عنه ـ: كونوا ينابيع العلم، معادن الحكمة، مصابيح الليل، خُلقان الثياب، جُدد القلوب، تُعرفون فى أهل السماء، وتُخفون فى أهل الأرض، وتُذكرون عند ربكم.

ألا إن الفقيه كل الفقيه الذى لا يُقَنِّطُ الناسَ من رحمة الله ولا يُؤمِنهُمُ من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم فى معاصى الله، ولا يدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره، ولا خير فى عبادة لا علم فيها، ولا خير فى علم لا فهم فيه، ولا خير فى قراءة لا تَدبُّرَ فيها.

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حِلْمُك، وأن تباهى الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله.

ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوبًا فهو يتدارك ذلك بتوبة. ورجل يسارع فى الخيرات ويعمل فى الدرجات.

موعظة بليغة

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، أن عليًا ـ رضى الله عنه ـ شيع جنازة، فلما وُضعت فى لحدها عج أهلها وبكوها فقال: «ما تبكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم وإن له فيهم لعودة ـ يعنى ملك الموت ـ حتى لا يبقى منهم أحدًا. ثم قام فقال: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب لكم الأمثال، ووقَّت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعًا تعى ما عناها، وأبصارًا لتجلوا عن غشاها، وأفئدة تفهم

(١) صفة الصفوة (١/ ١٣٠).

ما دهاها، إن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يضرب عنكم الذكر صفحًا، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرصد لكم الجزاء، فاتقوا الله عباد الله وجدّوا في الطلب، وبادروا بالعمل قبل هادم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل، وسناد مائل، اتعظوا عباد الله بالعبر، وازدجروا بالنُذُر، وانتفعوا بالمواعظ، فكأن قد علقتكم مخالب المنية، وضمنتم بيت التراب، ودهمتكم مفظعات الأمور بنفخة الصور، وبعثرة القبور، وسياق المحشر، وموقف الحساب، بإحاطة قدرة الجبار، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون﴾ فارتجت لذلك اليوم البلاد، ونادى المنادى، وحُشرت الوحوش، وبدت الأسرار، وارتجبت الأفئدة، وبرزت الجحيم قد تأجج جحيمها وغلا حميمها. عباد الله اتقوا الله تقية من وجل وحذر وأبصر وازدجر فاحتث طلبًا ونجا هربًا، وقدّم للمعاد واستظهر بالزاد، وكفى بالله منتقمًا ونصيرًا وكفى بالكتاب خصمًا وحجيجًا، وكفى بالجنة ثوابًا، وكفى بالنار وبالاً وعقابًا، وأستغفر الله لي ولكم(١).

نعمة الاتباع

أخرج البخارى عن مروان بن الحكم قال: «شهدت عليًا وعثمان بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك (عليٌّ) أهلَّ بهما جميعًا فقال: لبيك بحجة وعمرة معًا، فقال عثمان: تراني أنهى الناس عن شيء وأنت تفعله! فقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس».

وأخرج البيهقى بسنده عن عليّ ــ رضي الله عنه ــ قال: «لو كان الدِّين بالرأى لكان باطن الخُفَّيْن أحق بالمسح من ظاهرهما، ولكن رأيت رسول الله

(١) صفة الصفوة (١/ ١٣٢ ــ ١٣٣).

ﷺ يمسح على ظاهرهما».

وهكذا يكون الاتباع للحبيب ﷺ الذى قال الله فى حق من حاد عن هديه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

بل ولقد حثّ الله الأمة كلها على اتباع الحبيب ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكيف لا نتبع الحبيب ﷺ وهو الذى وصفه الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

علىّ ـ رضى الله عنه ـ والدعوة إلى الله

عن البراء أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علىّ بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ وأمره أن يُقفِل خالدًا، إلا رجلاً كان ممن مع خالد، فمن أحب أن يعقب مع علىّ، فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علىّ، فلما دنونا من القوم، خرجوا إلينا، ثم تقدم فصلّى بنا علىٌّ، ثم صفّنا صفًا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت (همدان) جميعًا، فكتب علىّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلمّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجدًا ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان! السلام على همدان!»[1].

(١) أخرجه البيهقى ورواه البخارى مختصرًا ــ كذا فى البداية (٥/ ١٠٥).

قتاله ـ رضي الله عنه ـ للخوارج

عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: كُنَّا جلوسًا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا من بعض بيوت نسائه. قال: فقُمنا معه، فانقطعت نعلُه، فتخلَّف عليها (عليٌ) يخصفها. فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلت على تنزيله». فاستشرفنا، وفينا أبو بكر وعمر، فقال: «لا، ولكنَّه خاصِف النَّعْل». قال: فجئنا نبشِّره. قال: وكأنَّه قد سَمِعَهُ(1).

وهو الذى قاتل الخوارج وقتلوه، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «طوبى لمن قتلهم وقتلوه»(2).

وقال ﷺ: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»(3).

وقال ﷺ: «الخوارج كلاب النار»(4).

وقال ﷺ: «لو يعلم الجيش الذى يصيبونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل»(5).

وقال ﷺ: «إن فى قتلهم أجرًا عظيمًا عند الله لمن قتلهم»(6).

ولما خرجت الخوارج على (علىّ) وكانوا ثمانية آلاف من قُرَّاء الناس، ونزل بحروراء فناظرهم (علىّ)، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد الله بن الكواء،

---

(1) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٨٢) وإسناده حسن.

(2) إسناده حسن: رواه ابن أبى عاصم فى السنة عن عبد الله بن أبى أوفى ــ وأخرجه أحمد.

(3) صحيح: وقد ورد فى الصحيح أيضًا «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

(4) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن ابن أبى أوفى، وأحمد والحاكم عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(5) صحيح: أخرجه النسائى فى خصائص علىّ، ورواه عبد الله بن أحمد فى السنة.

(6) صحيح: أخرجه ابن ماجة وأحمد والترمذى عن ابن مسعود.

فبعث (علىٌ) إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا، فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحدًا، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب.

قال عبد الله بن شدَّاد: فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم الحرام، وذلك بقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت، وبقروا بطن سُرِّيَّته(١).

وعن سلمة بن كهيل قال: حدثنى زيد بن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش الذى كانوا مع على ـ رضى الله عنه ـ الذين ساروا إلى الخوارج فقال علىّ ـ رضى الله عنه ـ: أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيَهُم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكَلُوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدى عليه شعرات بيض.

فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم، والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا فى سرح الناس فسيروا على اسم الله. قال سلمة بن كهيل: فنزَّلنى زيد بن وهب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ (عبد الله بن وهب الراسبى) فقال لهم: ألقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحَّشوا برماحهم وسلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم قال: وقُتِل بعضهم على بعض وما أُصيب من الناس يومئذ إلا رجلان فقال لهم علىّ ـ رضى الله عنهم ـ: التمسوا فيهم (المُخْدج) ـ الرجل الذى وصفه

(١) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٩٢).

لهم النبي ﷺ ـ فالتمسوه فلم يجدوه فقام عليّ ـ رضى الله عنه ـ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قتل بعضهم على بعض قال: أخروهم فوجدوه مما يلى الأرض فكبّر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله قال: فقام إليه عبيدة السلمانى فقال يا أمير المؤمنين! ألله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال: إى والله الذى لا إله إلا هو ـ حتى استحلفه ثلاثًا وهو يحلف ـ(١).

وحان وقت الرحيل

لقد بشّره النبى ﷺ بالشهادة من قبل، وكان (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ لا ينسى أبدًا تلك البشرى العظيمة، فكان على يقين من أنه سيُقتل شهيدًا مهما طال عليه العمر.

فعن زيد بن وهب، قال: «قدم علىٌّ على قوم من أهل البصرة من الخوارج، فيهم رجل يقال له: الجعد بن بعجة، فقال له: اتق الله يا علىُّ فإنك ميِّت.

فقال له علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ: «بل مقتول، ضَرْبة على هذا، يقصد قَرْنه، تخضب هذه، يعنى لحيته من رأسه، عهد معهود، وقضاء مقضى، وقد خاب من افترى».

وعن أبى مجلز قال: جاء رجل من مراد إلى (علىّ) وهو يصلى فى المسجد، فقال: احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر عليه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جُنة حصينة(٢).

وقال الأصبغ الحنظلى: لما كانت الليلة التى أصيب فيها علىٌّ ـ كرَّم الله

(١) أخرجه مسلم (ص ٧٤٨) ـ وأبو داود (٤٧٦٨).
(٢) صفة الصفوة (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

وجهه ــ أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة، فقام عليٌّ يمشى، وهو يقول:

أشدُدْ حيازيمك للموت فإن المــوت لاقيكــا

ولا تجزع من المــوت إذا حَــلَّ بواديكــا

أما عن قصة قتله ــ رضى الله عنه ــ فلقد اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرَك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا (أهل النهر) فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فَأَرَحْنَا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا.

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم على بن أبى طالب، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، تعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها ــ وضعوا عليها السُّم ــ واتعدوا لخمس عشرة تخلو من رمضان سنة (٤٠هـ) أن يثب كلٌّ على صاحبه الذى توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم على المصر ــ المكان ــ الذى فيه صاحبه.

فأما ابن ملجم وكان عداده فى كندة فخرج حتى أتى الكوفة، ولم يخبر مَن بها من إخوانه شيئًا كراهة أن يظهر، وكان بالكوفة من تيم الرباب عشرة وفيهم امرأة يقال لها (قطام ابنة الشجنة) قَتَلَ عَلِيٌّ أباها وأخاها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت: لا أتزوجك حتى تشفى لى. قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة (جارية مغنية) وقَتْل على بن أبى طالب قال: هو لك مهر، أما على فلم أرك ذكرتيه لى وأنت تريديننى قالت: بل التمس غرته فإن أصَبْتَ شفيت

نفسك ونفسى وتهنأ بالعيش معى وإن قُتِلْتَ فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها، فقال لها: والله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر، ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة (٤٠هـ) ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح، فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادى: الحكم لله لا لك ولا لأصحابك. ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة[1].

ولقى الإمام ربه ــ أخيراً ــ مصابًا بضربة سيف مسموم.. كما لقيه من قبل عمر الفاروق، مصابًا بضربة خنجر محموم!

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد فى حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة، ودالاً على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة..!

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر فى رأسه، حتى حُمِل إلى داره..

وإذ هو فى لحظات الكارثة هذه، يأمر حامليه والحافِّين حوله أن يذهبوا إلى المسجد، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤذِن بفوات.. هذه الصلاة التى كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم، ويعودون إليه، كما يعود فى نفس الوقت، بعض الرجال ممسكين بالقاتل ــ عبد الرحمن بن ملجم ــ يفتح الإمام عينيه، فتقعان عليه. فيهز رأسه فى أسى حين يعرفه ويقول:

ــ أهو أنت..؟ لطالما أحسنْتُ إليك..!!

ويُلقى البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة، فيراها تتفجَّر غيظًا، وتضطرم نقمة، ويُحسُّ بَرد الموت يَسرى فى أوصاله، ويكاد يرى المصير الذى سيحيق بـ«ابن ملجم». يكاد يرى الانتقام المروِّع الذى سيثأر به أولاده،

(١) نقلاً من (الخلفاء الراشدون) للشيخ حسن أيوب (ص ٣١٩: ٣٢٠) بتصرف.

وأصحابه، فيتقدم هو فى إصرار ليحمى قاتله من أيَّة مجاوزة أو تخطٍ لحدود القصاص المشروع.

وهكذا ناداهم إليه، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم فى «العظمة الإنسانية» التى أفاءها القرآن على «علىّ» لوحة باهرة.

قال لبنيه، ولأهله:

«أحْسِنُوا نُزُلَه..

وأكرموا مَثْوَاه..

«فإن أعِشْ، فأنا أوْلَى بدمه قِصاصًا أو عَفْوًا..

«وإن أمُتْ، فألحقُوه بى، أُخاصِمه عند رب العالمين..

«ولا تقتلُوا بى سواه..

«إن الله لا يحبُّ المعتدين»..!![1]

قال العلماء بالسير: ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان. وقيل: ليلة إحدى وعشرين منه. سنة أربعين. فبقى الجمعة والسبت، ومات ليلة الأحد، وغسَّله ابناه وعبد الله بن جعفر، وصلَّى عليه الحسن، ودُفن فى السَحَر[2].

وقال الحسن بن على: يا أيها الناس، لقد فارقكم أمس رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية، فما يرجع حتى يفتح الله عليه، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ــ يعنى عليًا ــ رضى الله عنه ــ ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشترى بها خادمًا[3].

(١) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (٥٩٨/ ٥٩٩) بتصرف.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٣٥).

(٣) أخرجه ابن حبان وأحمد والبزار، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٤٩٦).

وهكذا، آب المسافر إلى وطنه.. وعاد إلى منزله..!!

ورحل «ابن أبى طالب» عن الدنيا.. لكنّ حياته والأيام التى عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة البشرية وتاريخها، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَمَ الحق، والبطولة، والإيمان، والخير، والشرف.

وهكذا رحل الإمام، وما رَحَل..

وظعَن، وما ظعَن..

فهو الظَّاعن الحاضر..

وهو الراحل المُقيم..

لقد فتح لذِكره، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدُنيا دنياهم، واختار الله ورسوله، والدار الآخرة..

ولقد احتوشَتْه العواصف، والأعاصير، لكى تُزيغه فى ظلامها عن الطريق.. أو تُفقده بعض رشده، أو تشغَله عن غاياته ومبادئه.. فما زاغ عن الطريق[1].

فرضى الله عن علىّ وسائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) خلفاء الرسول (ص ٦٠١).

طلحة بن عبيد الله

مَن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله

محمد رسول الله ﷺ

مرحبًا مرحبًا بمن قدَّم حياته فداءً للحبيب ﷺ فى غزوة أُحُد. . مرحبًا بالشهيد الحى الذى يضع أقدامه فى الدنيا وهو يعلم أنه من أهل الجنة.

مرحبًا بمن شهد له النبى ﷺ أنه ممّن قضى نحبه.

مرحبًا بالصحابى الجليل: طلحة بن عبيد الله القرشى التيمىّ، أبو محمد، أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى[١].

لقد كان طلحة ـ رضى الله عنه ـ صاحب النفس الطيبة التى تبحث عن الخير أينما كان. . فكان يرى الجاهلية التى يعيشها الناس من حوله فتشمئز نفسه ويتمزق قلبه حُزنًا وكَمداً على تلك الحالة التى كان يتمنى هو وغيره ـ من أصحاب المروءة والنفوس النقية الصافية التى فُطرت على النقاء ـ أن تتغير وأن تتبدل تلك الجاهلية إلى حياة نظيفة طاهرة يعيش الناس فيها فى ظل الحب والوئام والعدل والإخاء.

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٣٠).

إنه عملاق من عمالقة الإسلام، وفارس من أشجع الفرسان، ورجل من أولئك الرجال الذين كان لهم أطيب الأثر، وأعظمه فى الفتوحات الإسلامية الأولى. والده: عبيد الله، كان من أشراف مكة، وأولى الحظوة فيها. وأمه: الصعبة بنت عبد الله، جدها لأمها وهب بن عبد الله، صاحب العطاء والكرم.

وبين أبيه وأمه نمت طفولته، وترعرع شبابه، وتعلَّم على أيديهما الكثير من شئون الحياة والتخلق بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة، حتي إذا بلغ مبلغ الرجال تزوج حمنة بنت جحش، أخت زينب زوج النبى ﷺ.

نشأ طلحة ـ رضى الله عنه ـ فى مكة، فعرف سهولها ووديانها، وتنقل بين جبالها وقممها، وتعلَّم الرماية بالسهم، والإصابة بالرمح ولما شبَّ عن الطوق ضاقت به جنباتُ مكة، فاختار طريق التجارة. ومن هنا عرفته أسواق بصرى والشام، عرفته تاجرًا صدوقًا، وخبرته بائعًا سمحًا.

وسارت حياة طلحة ـ رضى الله عنه ـ بين ظعن وإقامة، وحِلٍّ وترحال، وتوالت الأيام، وكرت الليالى، وهى لا تخرجه عن مزاولة التجارة.

هذا العمل الشاق الذى رضيه لنفسه، واختاره لحياته.

وسرعان ما تحققت تلك الأمنية الغالية، فلقد بزغ نور الإسلام فأضاء الكون كله فى لحظة واحدة.. يوم أن نزل جبريل ـ عليه السلام ـ على الحبيب ﷺ ومعه النور الذى أضاء الله به القلوب المظلمة وهدى به النفوس التائهة فى دروب الحياة المتشابكة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

لقد بُعث محمد ﷺ وآمن برسالته أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ. فلما سمع طلحة ـ رضى الله عنه ـ هذا الخبر لم يتلكأ ولم يتلعثم، بل إنه بمجرد أن دعاه أبو بكر استجاب لنداء الحق فهو يعلم يقينًا أن محمداً هو الصادق الأمين بلا منازع، وأن أبا بكر هو التاجر الصدوق الذى لا يمكن أن يجتمع مع الحبيب ﷺ على ضلالة أبدًا.

وذهب طلحة وقلبه ينبض بكل قوة وشوق وحنين للقاء الحبيب ﷺ ليعلنها قوية في وجه الكون كله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من مكانته بين قومه وثرائه، إلا أنه أوذى فى سبيل الله، ولكن سرعان ما كشف الله عنه هذا العذاب والابتلاء.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة هاجر طلحة ـ رضى الله عنه ـ مع المهاجرين لينعم بصُحبة النبى ﷺ بعيداً عن أعين كفار قريش وسطوتهم.

شهيد يمشى على الأرض

وها هو الحبيب ﷺ يبشر طلحة ـ رضى الله عنه ـ بأنه سيموت شهيداً بإذن الله ـ جل وعلا ـ.

فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حِراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبىٌّ أو صدِّيق أو شهيد»، وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحةُ والزبير وسعد بن أبى وقاصٍ ـ رضى الله عنهم ـ(١).

فلما علم طلحة بأنه سيموت شهيداً.. وذلك بعد أن سمع تلك البشرى من الحبيب ﷺ ظل يبحث عن الشهادة فى مظانها... فشهد المشاهد كلها مع النبى ﷺ عدا غزوة بدر.

فاتُفق أنه غاب عن وقعة بدر فى تجارة له بالشام(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) قال ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١٥٤) لما تحين رسول الله ﷺ، وصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، فخرجا حتى بلغا الحوراء. فلم يزالا مقيمين هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول الله ﷺ، الخبر، قبل رجوع طلحة وسعيد إليه...».

وفي يوم «أحد» أوجب طلحة - رضى الله عنه -

وفى غزوة أُحُد كان طلحة كعادته يبحث عن الشهادة التى بشَّره بها النبى ﷺ. لعل الله أن يكرمه بها فى ذلك اليوم.

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقًا على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت أن تكون سببًا فى مقتل النبى ﷺ وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو؛ غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكَّرهم أوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟!

ولكن الأغلبية الساحقة لم تُلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتينَّ الناس فلنصيبن من الغنيمة[1]. ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه فى جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يُبادوا.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقضَّ على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف منها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت

(١) أخرجه البخارى عن البراء بن عازب (١/ ٤٢٦).

امرأة منهم ــ وهى عمرة بنت علقمة الحارثية ــ فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفَّ حوله المشركون، ولاثوا به، وتَنادىَ بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال. وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شِقّى الرحى.

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، تطحن بين شقى رحى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ فلما نادى المسلمين: «هَلُمّ إلىَّ، أنا رسول الله»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكرّوا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أُحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه؛ قال: «من يردّهم عنا وله الجنة؟» أو: «هو رفيقى فى الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ــ أى: القرشيين ــ: «ما أنصفنا أصحابنا»(١).

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط(٢).

وبعد سقوط ابن السكن بقى رسول الله ﷺ فى القرشيين فقط.

ففى الصحيحين عن أبى عثمان؛ قال: لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله، وسعد (بن أبى

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧) باب غزوة أُحد.

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. [ابن هشام ٢/ ٨١].

وقاص)[١].

فأما سعد بن أبى وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: «ارم فداك أبى وأمى»[٢]. ويدل على مدى كفاءته أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحدٍ غير سعد[٣].

وعن جابر قال: لما كان يوم أُحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ فى ناحية فى اثنى عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبى ﷺ: «مَن للقوم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت» فقال رجل: أنا. قال: «أنت». فقاتل حتى قُتل. ثم التفت، فإذا المشركون فقال: «من لهم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «أنت» فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقى مع نبى الله (طلحة) فقال: «مَن للقوم؟» قال طلحة: أنا. فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه فقال: «حسّ». فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون».. ثم ردّ الله المشركين[٤].

وعند الطبرانى: «لو قلت: بسم الله لطارت بك الملائكة والناس ينظرون إليك».

وعند النسائى والبيهقى فى الدلائل: «حتى تلج بك فى جو السماء».

وعند أحمد: فقال له النبى ﷺ: «لو قلت بسم الله لرأيت يُبنى لك بها بيت فى الجنة وأنت حىٌّ فى الدنيا»[٥].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٢٢)، ومسلم (٤٧)، (٢٤١٤).

(٢) أخرجه البخارى (١/ ٤٠٧) (٢/ ٥٨٠).

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٢٥) ـ ومسلم (٤٢) (٢٤١٢).

(٤) رواه الحاكم مختصراً (٣/ ٣٦٩) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألبانى فى الصحيحة رقم (٢١٧١) فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

(٥) رواه أحمد فى فضائل الصحابة (١٢٩٤) وإسناده صحيح.

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى يوم أُحد[١].

وجُرِح فى تلك الغزوة تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين وشُلّت أصبعه أى السبابة والتى تليها[٢].

وقال النبى ﷺ فيه يومئذ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»[٣].

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك اليوم كله لطلحة[٤].

وقال فيه أبو بكر أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنـان وبـوأت المها العينا[٥]

عن عائشة وأم إسحاق بنتى طلحة قالتا: جُرِح أبونا يوم أُحُد أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها فى رأسه شجةٌ مربّعة، وقُطع نساه ـ يعنى العرق ـ وشُلَّت أصبعُه، وكان سائر الجراح فى جسده، وغلبه الغَشىُ ـ الإغماء ـ ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيتهُ، مشجوجٌ فى وجهه، قد علاه الغَشْىُ، وطلحةُ محتملهُ ـ أى يحمل النبى ﷺ ـ يرجعُ به القهقرى، كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب[٦].

حتى قال عنه ﷺ: «أوجـب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع»[٧].

(١) رواه البخارى عن قيس بن حازم ـ حديث رقم (٤٠٦٣).
(٢) البخارى (٧/ ٣٦١).
(٣) رواه الترمذى والحاكم عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٢).
(٤) فتح البارى (٧/ ٣٦١).
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٨٢).
(٦) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٢).
(٧) أخرجه أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم عن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٠)، بلفظ «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع» الصحيحة (٩٤٥).

من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه

عن موسى وعيسى ابنى طلحة عن أبيهما أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاء[١] يسأله عمن قضى نَحبه مَن هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابى فأعرَض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم إنى اطلعت من باب المسجد ـ يعنى طلحة ـ وعليّ ثياب خضر فلما رآنى رسول الله ﷺ قال: «أين السائل عمن قضى نحبه؟» قال الأعرابى: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قضى نحبه»[٢].

وعن طلحة ـ رضى الله عنه ـ قال: عُقرت يوم أُحد فى جميع جسدى حتى فى ذَكَرى[٣].

وطلحة يوم الشِّعْب واسَى مُحمدًا ... لدى ساعة ضاقتْ عليه وسُدَّتِ
وقاه بِكَفْيهِ الرِّماحَ فقُطِّعَتْ ... أصابعُهُ تحت الرماح فشُلَّتِ

أدبه مع النبى ﷺ

أدب طلحة الخير: طلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنه ـ.

يظهر ذلك جليًا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أُحد؛ قال ابن إسحاق: نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد بدَّن[٤] وظاهَر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله حتى استوى عليها.

لقد أصاب العرَجُ إحدى رجْلَى طلحة ـ رضى الله عنه ـ أثناء دفاعه عن

(١) فى رواية الترمذى. . . قالوا لأعرابى جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟
(٢) النحب النذر، وقيل: الموت وقيل: العهد وقيل غير ذلك ـ قال شعيب الأرنؤوط: والحديث رواه أبو يعلى (٢/ ٢٦ ـ ٢٧) والترمذى (٣٧٤٢) بإسناد حسن.
(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٩).
(٤) أى ضعف وأسنّ.

النبى ﷺ ، ولمّا حمل طلحة النبى ﷺ تكلّف استقامة المشى أدبًا مع رسول الله ﷺ ، لئلا يشقَّ على النبى ﷺ ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف، فشُفى من العَرَج[١].

دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم

عن مالك بن أبى عامر، قال: جاء رجل إلى طلحة فقال: أرأيتك هذا اليمانى هو أعلمُ بحديث رسول الله منكم ـ يعنى أبا هريرة ـ نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم، قال: أما أنْ قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك: إنَّا كنَّا أهل بيوت، وكنا إنما نأتى رسول الله غُدوةً وعشيةً، وكان مسكينًا لا مال له ـ أبو هريرة ـ إنما هو على باب رسول الله، فلا أشكُّ أنه قد سمع ما لم نسمع، وهل تجد أحدًا فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ؟[٢].

فيا ليتنا نعى هذا الدرس جيدًا ونُحسن الظن بكل علمائنا فهم الذين يقفون على كل ثغرٍ من ثغور الإسلام يدافعون عن هذا الدين ويبلغون رسالة الحبيب ﷺ إلى الدنيا بأسرها. ولذا فإن هؤلاء العلماء بمثابة الجهاز المناعى للأمة ضد كل غاشم يريد أن ينال من هذا الدين.

ولا تستطيع الأمة بحالٍ من الأحوال أن تحيا بغير هذا الجهاز المناعى، وإلا أتتها الأمراض من كل مكان، ودبّ فيها الضعف... فاعلموا لأهل العلم قدرهم ومنزلتهم.

إنفاقه في سبيل الله تعالى

عن قبيصة بن جابر قال: صحبتُ طلحة، فما رأيت أعطَى لجزيلِ مالٍ من

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٦٤٠ ـ ٦٤١).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الترمذى، وحسنه هو والحافظ فى الفتح.

غير مسألةٍ منه(١).

وعن موسى، عن أبيه (طلحة) أنه أتاه مالٌ من حضرموت سبعُ مئة ألف، فبات ليلته يتململ. فقالت له زوجته: ما لك؟ قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلت: ما ظنّ رجل بربه يبيت وهذا المال فى بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادع بجفانٍ وقصاعٍ فقسِّمه. فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفقٍ، وهى أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علىّ منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد! أما كان لنا فى هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقى. قالت: فكانت صرة فيها نحوُ ألف درهم(٢).

وعن سُعدى بنت عوف المرية قالت: دخلتُ على طلحة يومًا وهو خاثر(٣)، فقلت: ما لك؟ لعل رابك من أهلك شىء؟ قال: لا والله، ونِعْم خليلةُ المسلم أنتِ، ولكن مالٌ عندى قد غمَّنى. فقلت: ما يَغُمُّك؟ عليك بقومك، قال: يا غلام! ادع لى قومى. فقسَّمه فيهم، فسألتُ الخازن: كم أعطى؟ قال: أربع مئة ألف(٤).

وعن الحسن البصرى أن طلحة بن عُبيد الله باع أرضًا له بسبع مئة ألفٍ. فبات أرقًا من مخافة ذلك المال، حتى أصبح ففرَّقه(٥).

وعن علىّ بن زيد قال: جاء أعرابى إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألنى بها أحدٌ قبلك، إن لى أرضًا قد أعطانى بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان، ودفعت إليك

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٥٧) والطبرانى فى الكبير (١٩٤).
(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٠ ـ ٣١).
(٣) خاثر النفس: غير نشيط.
(٤) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٤٨) وقال: رواه الطبرانى ورجاله ثقات.
(٥) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٢).

الثمن. فقال: الثمن، فأعطاه[(١)].

إنه طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود.

موقفه يوم الجمل... والشهادة في سبيل الله

عن علقمة بن وقاص الليثى قال: لما خرج طلحة والزبيرُ وعائشة للطلب بدم عثمان، عرَّجوا عن منصرفهم بذات عِرق، فاستصغروا عُروة بن الزبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن فردُّوهما، قال: ورأيت طلحة، وأحبُّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد! إنى أراك وأحبُّ المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر، فدعه، فقال: يا علقمة! لا تلمنى، كنا أمس يدًا واحدة على مَنْ سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنه كان منى شىء فى أمر عثمان، مما لا أرى كفَّارته إلا سَفْكَ دمى، وطلب دمه[(٢)].

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ قلت: الذى كان منه فى حق عثمان تمغفلٌ وتأليبٌ، فعله باجتهاد، ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان، فندم على ترك نُصرته ـ رضى الله عنهما ـ وكان طلحةُ أول من بايع عليًا، أرهقه قتلةُ عثمان، وأحضروه حتى بايع[(٣)].

ولكن طلحة والزبير ـ رضى الله عنهما ـ اعتزلا تلك الحرب فلم يقاتلا، وذلك عندما رأيا (عمارًا) يقاتل فى صف (علىّ) فتذكّرا قول النبى ﷺ لعمار: تقتلك الفئة الباغية»[(٤)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٢)، وفيه «فى طلب دمه» بدل «وطلب دمه» وسكت الحاكم عنه. ولكن الذهبى قال فى مختصره: سنده جيد. وهو كما قال.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩١٥) الفتن ـ وأحمد (٣/ ٥).

وكان طلحة والزبير ـــ رضى الله عنهما ـــ فى جيش معاوية ـــ رضى الله عنه ـــ الذى يقاتل عماراً ـــ رضى الله عنه ـــ فخشيا من الخوض فى هذا القتال. ومما زاد حماسهما لاعتزال تلك الحرب ـــ قول علىّ بن أبى طالب للزبير ـــ: يا زبير أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتله وأنت له ظالم؟ قال ـــ الزبير ـــ: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا»[(١)].

فانسحب طلحة والزبير وُقتلا أثناء اعتزالهما لتلك الحرب، فأما الزبير فقد تعقّبه رجل اسمه «عمرو بن جرموز» فقتله غدراً.

وأما طلحة فيقال: إنه جاءه سهم غرب ـــ أى لا يُدرى من الذى رماه ـــ.

وقيل: إن الذى رماه هو مروان بن الحكم.

فعن قيس قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم، فوقع فى ركبته، فما زال ينسحُّ حتى مات[(٢)].

وعن أبى سبرة قال: نظر مروان بن الحكم إلى طلحة بن عبيد الله يوم الجمل فقال: لا أطلب بثأرى بعد اليوم فرماه بسهمٍ فقتله»[(٣)].

قال الإمام الذهبى ـــ رحمه الله ـــ قلت: قاتِل طلحة فى الوزر بمنزلة قاتل (علىّ). . . . وعن (علىّ) قال: «بشّروا قاتل طلحة بالنار»[(٤)].

وعن طلحة بن مطرف: أن عليًا انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه، ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتنى مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة»[(٥)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٠) وابن سعد (٣/ ١/ ١٥٩) مطولاً، وأورده الحافظ فى الإصابة (٥/ ٢٣٥) وقال: سنده صحيح.

(٣) أورده الحافظ فى الإصابة (٥/ ٢٣٥) وقال: إسناده صحيح.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٦، ٣٧).

(٥) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٠): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

وعن قيس بن عبادة، قال: «سمعت عليًا ــ رضى الله عنه ــ يوم الجمل يقول لابنه الحسن: «يا حسن، وددتُ أنى كنتُ مِتُّ منذ عشرين سنة»(١).

وعن أبى حبيبة ــ مولىً لطلحة ــ قال: دخلت على (علىّ) مع عمران بن طلحة بعد وقعة الجمل فرحَّب به وأدناه ثم قال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧](٢).

حفظ الله له بعد موته

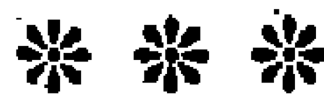
إن الله يحفظ العبد المؤمن بعد موته كما كان يحفظه وهو حى.

وها هو طلحة ــ رضى الله عنه ــ بعد موته بأكثر من ثلاثين سنة يفتحون قبره وينقلونه إلى مكانٍ آخر، وإذا به لم يتغير منه إلا شُعيرات فى إحدى شِقّى لحيته.

فعن المثنى بن سعيد قال: أتى رجلٌ عائشةَ بنت طلحة فقال: رأيت طلحةَ فى المنام، فقال: قل لعائشة تحولنى من هذا المكان! فإنَّ النَّزَّ ــ الرطوبة أو الماء ــ قد آذانى. فركبت فى حشمها، فضربوا عليه بناء واستثاروه. قال: فلم يتغير منه إلا شُعيرات فى إحدى شِقَّى لحيته، أو قال رأسه، وكان بينهما بضع وثلاثون سنة.

وحكى المسعودىُّ أن عائشة بنته هى التى رأت المنام(٣).

فرضى الله عن طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٠) رواه الطبرانى وإسناده جيد.
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٦٠) والطبرى فى تفسيره (١٤/ ٣٦) ــ وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٤).
(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٤٠).

الزبير بن العوام

حوارى رسول الله ﷺ المشهود له بالجنة
أول من سلّ سيفه فى سبيل الله

يا لها من مناقب اجتمعت لهذا الصحابى الجليل.

إنه حوارىُّ رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سلّ سيفه فى سبيل الله... أبو عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أسلم وهو حَدَث، له ست عشرة سنة.

وقد ورد أن الزبير كان رجلاً طويلاً، إذا ركب خطّت رجلاه الأرض، وكان خفيف اللحية والعارضين(١).

ولقد كان الزبير منذ صغره فارسًا مغواراً لا يخشى الردى ـ الموت ـ أينما كان... ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ قط.

وكان يحب النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه قلبه وجوارحه فكان يخشى عليه من نسيم الهواء، بل من أدنى من ذلك.

***

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٤١ ـ ٤٢).

دفاعه عن النبى ﷺ

وفى يوم من الأيام سرت إشاعة بين الناس أن الرسول ﷺ قُتل فما كان من الزبير إلا أن أخذ سيفه وخرج على الناس كالإعصار المدمِّر يريد أن يتثبت من الخبر فلقيه الحبيب ﷺ فقال: مالك يا زبير؟ قال: أُخبرت أنك أُخذت ـ قُتلت ـ فصلى عليه ودعا له ولسيفه.

وفى رواية: فقال النبى ﷺ ما لك؟ قال: أُخبرت أنك أُخذت، قال: فكنت صانعًا ماذا ؟ قال: كنتُ أضربُ به من أخذك. فدعا له ولسيفه(١).

كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء

لقد كان يحب الشهادة فى سبيل الله، ويبحث عنها فى مظانها حتى إنه من حبه للشهادة كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء.

قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنه لا نبى بعد محمد ﷺ، وإنى أُسمى بنىّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يُستشهدوا، فسمى (عبد الله) بعبد الله بن جحش، (والمنذر) بالمنذر بن عمرو، (وعروة) بعروة بن مسعود، (وحمزة) بحمزة بن عبد المطلب، (وجعفرًا) بجعفر بن أبى طالب، (ومصعبًا) بمصعب بن عُمير، (وعُبيدة) بعبيدة بن الحارث، (وخالدًا) بخالد بن سعيد، (وعمرًا) بعمرو بن سعيد بن العاص(٢).

صبره على الإيذاء فى سبيل الله

وعلى الرغم من شرفه ونسبه فى قومه إلا أنه أخذ حظه من الظلم والتعذيب والاضطهاد.

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١) وانظر الاستيعاب (٣/ ٣١١)، وأسد الغابة (٢/ ٢٥٠) والإصابة (٤/ ٨).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٧٤).

وكان الذى يتولى تعذيبه (عمه).

قال يتيم عروة: هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عمه يعلّقه ويُدخِّن عليه، وهو يقول: «لا أرجع إلى الكفر أبدًا»[١].

ولقد هاجر الزبير إلى الحبشة الهجرتين ـ الأولى والثانية ـ ثم عاد ليشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها.

ومن تأمل وصف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لجسد الزبير لعلم كيف كان يقاتل الزبير ـ رضى الله عنه ـ.

عن عروة قال: كان فى الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن فى عاتقه إن كنت لأُدخل أصابعى فيها ضُرب ثنتين يوم بدر وواحدة يوم اليرموك[٢].

وعن علىّ بن زيد قال: أخبرنى من رأى الزبير وإن فى صدره مثل العيون، من الطعن والرمى[٣].

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا فى جوار (النجاشى) ذلكم الملك العادل.

فكانوا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ.

وظلوا على تلك الحالة من الأمن والاستقرار إلى أن نزل رجل من الحبشة لينازع النجاشى فى المُلك فحزن المسلمون لذلك حُزنًا شديدًا وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى وهو لا يعرف حق الصحابة الأطهار ولا يعرف قدرهم.

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥١): رجاله ثقات إلا أنه مرسل. وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٠).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٥٢) ـ وأخرجه البخارى (٧/ ١٠٠) فضائل الصحابة.

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٤١).

وهنا أراد الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ أن يعرفوا أخبار الصراع الدائر بين النجاشي وبين هذا الرجل ــ على الجانب الآخر من النيل ــ.

قالت أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ:

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يَحضر وقيعةَ القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا؛ قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًا. قالت: فنفخوا له قِربةً فجعلها فى صَدْره، ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها مُلتقى القوم، ثم انطلق حتى حَضَرهم. قالت: فَدَعَوْنَا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له فى بلاده، قالت: فوالله إنَّا لعَلَى ذلك مُتوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشِرُوا، فقد ظفر النجاشي، وأَهْلَكَ الله عدوه، ومكّن له فى بلاده[1].

جهاده في سبيل الله

لقد بذل (الزبير) الكثير والكثير فى سبيل الله فلقد جعل نفسه وماله وقفًا لله ــ عز وجل ــ فأكرمه الله ورفعه فى الدنيا والآخرة.

فها هو الزبير ــ رضى الله عنه ــ كانت عليه عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر... فعن عُروة أنه قال: كانت على الزبير يوم بدرٍ عمامة صفراء فنزل جبريل على سيماء الزبير[2] ــ أى على هيئته ــ.

فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

وفيه يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

---

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٩).

(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٤) ونسبه إلى الطبرانى وقال: هو مرسل صحيح الإسناد.

جدِّى ابنُ عمَّةِ أحمدٍ ووزيرُه عند البلاء وفارسُ الشقراءِ
وغداة بدرٍ كان أول فارسٍ شهدَ الوغى فى اللأمة الصفراءِ
نزلت بسيماهُ الملائكُ نُصرةً بالحوض يوم تألُّب الأعداءِ

وهو ممن هاجر إلى الحبشة فيما نقله موسى بن عقبة، وابن إسحاق ولم يطول الإقامة بها[١].

وعن الزبير قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعد بن العاص وهو مُدجج لا يُرى إلا عيناه، وكان يكنى أبا ذات كرشٍ، فحملت عليه بالعنزة فطعنته فى عينه فمات. قال الزبير: لقد وضعت رجلى عليه، فكان الجهد أن نزعتها ــ يعنى الحربة ــ فلقد انثنى طرفها[٢].

وقتل الزبير يوم بدر عمَّهُ نوفل بن خويلد بن أسد، وكذا عبيدة بن سعيد ابن العاص.

وفى يوم أحُد

ورأى النبىُّ يوم «أُحُد» رجلاً يقتل المسلمين قتلاً عنيفًا، فقال: «قم إليه يا زبير» فرقى إليه الزبير، حتى إذا علا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى الأرض، فوقع الزبيرُ على صدره وقتله»[٣].

كان من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

قال الزبير ــ رضى الله عنه ــ: جمع لى رسول الله ﷺ أبويه مرتين فى أُحدٍ وفى قريظة[٤].

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٤٧).
(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٣٦٥) المغازى.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٥٨).
(٤) أسد الغابة (٢/ ٢٥٠).

وعن هشام عن أبيه، قالت عائشة: يا ابن أُختى! كان أبواك ــ يعنى الزبير وأبا بكر ــ من ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾

[آل عمران: ١٧٢]

لما انصرف المشركون من أُحدٍ، وأصاب النبى ﷺ وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من يتتدب لهؤلاء فى آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوةً، فانتدب أبو بكر والزبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار المشركين، فسمعوا بهم، فانصرفوا، قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٤]. لم يلقوا عدواً(١).

وفي يوم الخندق

روى البخارى، ومسلم عن جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: من يأتينا بخبر بنى قريظة؟ فقال الزبير: أنا، فذهب على فرسٍ، فجاء بخبرهم. ثم قال الثانية، فقال الزبير: أنا، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبى ﷺ: «لكُلِّ نبيٍّ حوارىٌّ، وحوارىَّ الزبير»(٢).

قال على بن أبى طالب: أشجع الناس الزبير، . . . ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

وقال الثورى: نجدة الصحابة: حمزة وعلىّ والزبير.

وعن عبد الله بن الزبير قال: «كنت يوم الأحزاب جُعلتُ أنا وعمر بن أبى سلمة فى النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثًا فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف، قال: أوَ هل رأيتنى يا بنى؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بنى قريظة

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٧٧) المغازى، وأخرج مسلم الجزء الأول (٢٤١٨) الفضائل.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧١٩) فضائل الصحابة ــ ومسلم (٢٤١٥) الفضائل.

فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي[١].

وعن ابن أبي الزّناد قال: ضرب الزبيرُ يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مغفره، فقطعه إلى القربُوس[٢]، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريد أن العمل ليده لا للسيف[٣].

وفي يوم حنين

«ويوم (حُنين) طاعن الزبير المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال، فأخبره أصحابه أنهم يرون فارسًا واضعًا رمحه على عاتقه، عاصبًا رأسه بملاءةٍ حمراء، فقال: هذا الزبير بن العوام، وأحلفُ باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم، قصدهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها»[٤].

لله دَرُّ أشجع الناس الذي قال فيه عليّ بن أبي طالب: «يغضبُ كالنمر، ويثبُ وُثوبَ الأسد»[٥].

وفي يوم اليرموك

عن عروة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فنشد معك؟ فقال: إني إن شددتُ كذبتم فقالوا: لا نفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مُقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: كنت

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (٢٤١٦).

(٢) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٥١).

(٤) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٥) للواء الركن محمود شيت خطاب ـ ط. دار الفكر.

(٥) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٦٢).

أُدخل أصابعى فى تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزبير يومئذ، وهو ابن عشر سنين فحمله على فرسٍ ووكَّل به رجلاً»(١).

قال الذهبى فى السِّير معلقًا: «هذه الوقعة هى يوم اليمامة إن شاء الله؛ فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين»(٢).

وذكر ابن كثير أن الموقعة هى «اليرموك». ولا مانع من وقوع ذلك فى الموقعتين.

ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطالُ من صحابة رسول الله ﷺ، ولا يصبرون معه(٣).

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبيرُ بن العوام، وهو أفضل مَن هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحملُ فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدَم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل فى الأولى، وجُرح يومئذٍ جُرحين بين كتفيه. وفى رواية: جُرحٌ»(٤).

ويقول ابن كثير مرة أخرى: «خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك، فتشرَّفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين، من أولهم إلى آخرهم»(٥).

(١) أخرجه البخارى (٣٩٧٥).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٣).

(٣) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٢٠).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ١١).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٠).

وفي فتح مصر (شجاعة نادرة)

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتحها كانت معه قوَّات تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه ـ يطلب المدد من الرجال ـ فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعُبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخلد، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع. وكتب إليه: «إنى أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألفٍ منهم رجل مقام ألفٍ». وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»[١].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده محاصرًا حصن (بابليون) فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرّق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون». فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[٢].

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: «إنى أهبُ نفسى لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين». فوضع سُلمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفًا من أن ينكسر، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس»[٣].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (ص٦١) ومعجم البلدان (٦/ ٣٧٦)، وقادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٨، ٢٢٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٧)، والبلاذرى (ص ٢١٥).

(٣) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٩، ٢٢٧).

ولله دَرُّ حسان حين يقول:

أقام على عهد النبى وهديه حواريُّه والقولُ بالفعلِ يُعدلُ
أقام على منهاجه وطريقهِ يُوالى ولَّى الحق والحقُّ أعدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذى يصولُ إذا ما كان يومٌ محجَّلُ
إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حشها بأبيض سبَّاق إلى الموت يُرقل(١)
وإنَّ امرأ كانت صفيةُ أمَّهُ ومن أسدٍ فى بيتها لُمؤثَّل
له من رسول الله قُربى قريبةٌ ومن نصرة الإسلام مجدٌ مُؤثل
فكم كُربةٍ ذبَّ الزبيرُ بسيفه عن المصطفى والله يعطى فيجزل
ثناؤُك خيرٌ من فعال معاشرٍ وفعلك يا ابن الهاشمية أفضلُ(٢)

غيرة الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ

عن أسماء بنت أبى بكر الصدِّيق ـ رضى الله عنها ـ قالت: تزوَّجنى الزبير ـ رضى الله عنه ـ وما له فى الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شىء غير فرسه. قالت: فكنتُ أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسُوسُه، وأدقُّ النوى للناضحة، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أُحسن أخبزُ، فكان يخبز لى جاراتٌ من الأنصار، وكنَّ نسوةَ صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعَهُ رسول الله ﷺ على رأسى، وهى على ثُلُثَى فرسخ. قالت: فجئتُ يومًا والنوى على رأسى، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه فدعا لى، ثم قال «أخ أخ»؛ ليحملنى خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرتَه. قالت: وكان من

(١) يقال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالاً: أسرعوا، والإرقال: ضرب من الخبب، وهي سرعة سير الإبل.
(٢) ديوان حسان (١٩٩ ـ ٢٠٠) طبعة دار صادر البيروتية.

أغيَّر الناس. قالت: فعرف رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ فمضى، فجئتُ الزبير فقلتُ: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركبَ معه، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك، فقال: والله لحملُك النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه!! قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني(١).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالعطاء والتضحية والفداء كان الموعد في يوم الجمل فلقد شهد الزبير يوم الجمل مع طلحة وعائشة ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ غير أنه عندما ذكَّره (علي) بما قاله النبي ﷺ انصرف عنهم.

فعن أبي حرب بن الأسود الديلي، قال: شهدت الزبير خرج يُريد عليًا، فقال له عليٌّ: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت له ظالم؟»، فقال: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا(٢).

وانصرف الزبير يوم الجمل عن عليّ، فلقيه ابنه عبدالله، فقال: جُبنًا، جُبنًا! قال: قد علم الناس أني لست بجبان، ولكن ذكَّرني (عليٌّ) شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ فحلفت أن لا أقاتله، ثم قال:

ترْكُ الأمُورِ التي أخشى عواقبها ... في الله أحسنُ في الدنيا وفي الدِّين

وقيل: إنه أنشد:

ولقد علمتُ لو أن علمي نافعي ... أنَّ الحياة من الممات قريبُ

فلم ينشب أن قتله ابن جُرموز.

عن جون بن قتادة قال: كنت مع الزبير يوم الجمل، وكانوا يسلمون عليه

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي (٢/ ٦٩١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

بالإمرة، إلى أن قال: فطعنه ابن جرموز ثانيًا، فأثبته، فوقع، ودُفن بوادى السباع، وجلس (على) ــ رضى الله عنه ــ يبكى عليه هو وأصحابه(١).

قاتل الزبير في النار

لقد أخبر الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ أن قاتل الزبير من أهل النار.

وأخبر الحبيب ﷺ أن الزبير سيموت شهيدًا.

فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبىٌ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ» وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىٌ وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنهم ــ(٢).

قال الإمام النووى ــ رحمه الله ــ وفى هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبى ﷺ وأبى بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير ــ رضى الله عنهم ــ قُتلوا ظلمًا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقُتل الزبير بوادى السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا للقتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركًا للقتال، فأصابه سهم فقتله. وقد ثبت أن من قُتل مظلومًا فهو شهيد(٣).

وها هو قاتل الزبير (ابن جرموز) ــ عليه من الله ما يستحقه ــ يستأذن على (علىّ) فقال: من هذا؟ فقال: ابن جرموز يستأذن. فقال: ائذنوا له. ليدخل قاتل الزبير النار. إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبى

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٠ ــ ٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.
(٣) مسلم مع شرح النووى (١٥/ ٢٧١ ــ ٢٧٢).

حوارى وإن حوارىّ الزبير»(١).

وفى رواية: جىء برأس الزبير إلى علىّ، فقال علىّ: تبوأ يا أعرابىُّ مقعدك من النار، حدثنى رسول الله ﷺ أن قاتل الزبير فى النار(٢).

قال الشعبى ـ رحمه الله ـ: أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علىٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير فى الجنة.

قال الإمام الذهبى: قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر تعالى أنه رضى عنهم ورضوا عنه، ولأن الأربعة قُتلوا، ورُزقوا الشهادة، فنحن مُحبون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة(٣).

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت تحت الزبير بن العوام، وكان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد، كانت عند عبد الله بن أبى بكر فقُتل عنها، ثم كانت عند عمر بن الخطاب فقُتل عنها، ثم كانت عند الزبير فقُتل عنها، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بُهمةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مُعرِّدِ
يا عمرو لو نبَّهته لوجدته ... لا طائشًا رعشَ الجنان ولا اليد
شُلَّت يمينك إن قتلت لمُسلمًا ... حلت عليك عُقوبةُ المعتمد
ثكلتك أُمك هل ظفرت بمثله ... فيمن مضي فيما تروحُ وتغتدي؟
كم غمرةً قد خاضها لم يثنه ... عنها طرادُك يا ابن فقع القردد(٤)

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبى.
(٢) قال الأرنؤوط: الفضل بن أبى الحكم روى عنه غير واحد، وقال أبو حاتم: شيخ بصرى، وذكره ابن حبان فى الثقات. وباقى رجال الإسناد ثقات.
(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٢).
(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ٨٣).

حرصه على أداء دَينه عند الموت

عن عبد الله بن الزبير قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدَينه، ويقول: إن عجزت عن شىء منه فاستعن عليه بمولاى. قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبتِ مَن مولاك؟ قال: الله. قال: ما وقعت فى كُربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه، فيقضيه. وإنما دينه الذى كان عليه: أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإنى أخشى عليه الضيعة. قال: فحسب ما عليه من الدَين فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف. فقُتل ولم يدع ديناراً ولا درهمًا إلا أرضين، فبعتهما (يعنى: وقضيت دينه) فقال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا. فقلت: والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف[1].

وكيف لا يحرص الزبير ـ رضى الله عنه ـ على أداء الدَّين وهو الذى كان يُغدق الأموال على الفقراء واليتامى والمساكين.

فعن نهيك قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول: يتصدق بها، وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شىء.

وعن جويرية قالت: باع الزبير داراً له بستمائة ألف. قال: فقيل له: يا أبا عبد الله غُبنت. قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أُغبن هى فى سبيل الله[2].

---

(١) أخرجه البخارى (٣١٢٩) فرض الخمس ـ باب بركة الغازى بماله حيًا وميتًا.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٤١).

وهكذا رحل الشهيد المبارك عن دنيانا ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن الزبير وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عبد الرحمن بن عوف

من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم فى بطون أمهاتهم

يا تُرى من ذاك الرجل العظيم الذى فاز بتلك المنقبة العظيمة.

إنه مشهد مهيب يرويه لنا ابنه.

فعن إبراهيم بن عبد الرحمن، قال: غُشِيَ على عبد الرحمن بن عوف فى وجعه حتى ظنوا أنه قد فاضت نفسه، حتى قاموا من عنده، وجلّلوه. فأفاق يكبِّر، فكبَّر أهلُ البيت، ثم قال لهم: غُشى عليَّ آنفًا؟ قالوا: نعم. قال: صدقتم! انطلق بى فى غشيتى رجلان أجد فيهما شدةً وفظاظة، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بى حتى لقيا رجلاً، قال: أين تذهبان بهذا؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: ارجعا، فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم فى بطون أمهاتهم، وإنه سيُمتَّع به بنوه إلى ما شاء الله، فعاش بعد ذلك شهراً[1].

---

(١) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (١/ ٣٦٧)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٧) من طريق: أبى اليمان، عن شعيب، عن الزهرى، بأطول مما هنا. وأخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٩٥) من طريق: محمد بن كثير العبدى، عن سليمان بن كثير، عن الزهرى. وذكره الحافظ فى المطالب العالية (٤٠٠٧) ونسبه إلى أبى إسحاق. وقال البوصيرى: إسناده صحيح. وذكره صاحب الكنز (٣٦٦٨٩) ونسبه إلى أبى نعيم، وابن عساكر.

إنه الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف الذى كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو. وقيل: عبد الحارث. وقيل: عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن.

أمه: الشفاء بنت عوف، أسلمت وهاجرت.

أسلم عبد الرحمن قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، وصلى رسول الله ﷺ خلفه فى غزوة تبوك(١).

وهو أحدُ العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدريين، القرشى الزهرى. وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام(٢).

عفاف يعجز القلم عن وصفه

لقد كان من أهم الدعائم التى أقام بها النبى ﷺ دولته المسلمة ـ تلك المؤاخاة التى أوجدها بين المهاجرين والأنصار ـ وكان من بين هؤلاء الذين آخى النبى ﷺ بينهم (سعد بن الربيع الأنصارى وعبد الرحمن بن عوف المهاجرى).

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك(٣).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها

(١) صفة الصفوة (١/ ١٤٢).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٨).

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٣١٧) مناقب الأنصار.

لى أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمن، ثم تابع الغدوَّ يومًا، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفرة. فقال النبى ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت. قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب ــ أو وزن نواة من ذهب ــ[١].

مكانته فى قلب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ

لقد احتل عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ مكانة سامقة فى قلوب الصحابة رضى الله عنهم جميعًا.

فعن المسور أنه قال: بينما أنا أسير فى ركب بين عثمان وعبد الرحمن قدامى وعليه خميصة سوداء فقال عثمان: من صاحب الخميصة السوداء؟ قالوا: عبد الرحمن، قال: فنادانى عثمان فقال: يا مسور قلت: لبيك يا أمير المؤمنين فقال: من زعم أنه خير من خالك فى الهجرة الأولى وفى الهجرة الآخرة فقد كذب[٢].

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال: جلسنا مع عمر فقال: هل سمعت عن رسول الله ﷺ شيئًا أمر به المرء المسلم إذا سها فى صلاته، كيف يصنع؟ فقلت: لا والله، أوَ ما سمعت أنت يا أمير المؤمنين من رسول الله فى ذلك شيئًا؟ فقال: لا والله. فبينا نحن فى ذلك أتى عبد الرحمن بن عوف فقال: فيم أنتما؟ فقال عمر: سألتُه، فأخبره. فقال له عبد الرحمن: لكنى قد سمعتُ رسول الله يأمر فى ذلك. فقال له عمر: فأنت عندنا عدلٌ، فماذا سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سها أحدكم فى صلاته حتى لا يدرى أزاد أم نقص، فإن كان شك فى الواحدة والثنتين،

(١) أخرجه البخارى (٧/ ١٤٠) مناقب الأنصار.

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٢٥) والحاكم (٣/ ٣٠٩)، وصححه ووافقه الذهبى.

فليجعلها واحدة، وإذا شك فى الثنتين أو الثلاث، فليجعلها ثنتين، وإذا شك فى الثلاث والأربع، فليجعلها ثلاثًا حتى يكون الوهمُ فى الزيادة، ثم يسجد سجدتين، وهو جالس، قبل أن يسلم، ثم يسلم[1].

قال الإمام الذهبى: فأصحاب رسول الله ﷺ وإن كانوا عُدولاً فبعضهم أعدل من بعض وأثبت، فهنا عمر قنع بخبر عبد الرحمن[2].

جملة من مناقبه ـ رضى الله عنه ـ

تالله لا أدرى كيف أكتب عن مناقب هذا الصحابى الجليل الذى يجعل القلم متحيراً من كثرة مناقبه.

ولكنى وجدت أن كل المناقب لا توازى ـ وإن اجتمعت ـ تلك المنقبة العظيمة ألا وهى صلاة النبى ﷺ خلفه.

فعن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك. قال (المغيرة): فتبرز رسول الله قِبَلَ الغائط فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر فلما رجع رسول الله ﷺ إلىَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق كُمَّا جبته فأدخل يديه فى الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثم توضأ على خُفيه ثم أقبل.

قال المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبى ﷺ صلاته أقبل عليهم

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٩٠) والترمذى (٣٩٨) ـ والحاكم (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) وصححه ووافقه الذهبى.
(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٧٣).

ثم قال: «أحسنتم» أو قال: «أصبتم» يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها(١).

وفي رواية: عن عمرو بن وهب الثقفي، قال: كنا مع المغيرة بن شعبة، فسُئل: هل أمَّ النبي ﷺ أحدٌ من هذه الأمة غيرُ أبي بكر؟ فقال: نعم. فذكر أن النبي ﷺ توضأ ومسح على خُفيه وعمامته، وأنه صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، وأنا معه، ركعةً من الصبح وقضينا الركعة التي سُبقنا(٢).

ومن مناقبه أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، وأنه من أهل بدر الذين قيل لهم «اعملوا ما شئتم»... ومن أهل هذه الآية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨](٣).

وعن أبي سعيد قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٤).

وفي رواية: قال ﷺ: «دعوا لي أصحابي أو أصيحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٥).

وعن سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ كان على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «اثبُت حراءُ! فإنما عليك نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ»(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤) وأبو داود (١٥٢) وأحمد (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٨١) والنسائي (١/ ٧٧) الطهارة.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٤١) وأبو يعلى (٢/ ٣٩٦).

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥) ونسبه إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) في السنن ـ والترمذي (٣٧٥٨) في المناقب، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وقال أبو عمر بن عبد البر: كان مجدودًا فى التجارة. خلَّف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس. وكان يزرع بالجُرف[١] على عشرين ناضحًا.

قال الإمام الذهبى: قلتُ: هذا هو الغنىُّ الشاكر، وأويس فقير صابر، وأبو ذر أو أبو عبيدة زاهد عفيف[٢].

وعن بُسرة بنت صفوان: أن النبى ﷺ سألها: «من يخطبُ أمَّ كلثوم بنت عقبة؟»، قالت: فلان وفلان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «أنكحوا عبد الرحمن بن عوف، فإنه من خيار المسلمين، ومن خيارهم من كان مثله»[٣].

إنفاقه فى سبيل الله

لقد عاش الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ مع كل آية من آيات القرآن الكريم، بل وتعايشوا معها.

فها هو عبد الرحمن بن عوف يستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وإلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. فيُسرع الخُطا لينفق ماله لله ــ جل وعلا ــ رغبة فيما عند الله وزهدًا فى تلك الدنيا الفانية التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

عن طلحة بن عبد الله بن عوف قال: كان أهلُ المدينة عِيالاً على عبد

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٩٢).

(٣) قال الهيثمى: رواه الطبرانى، وفيه يعقوب بن حميد، وسليمان بن سالم، وكلاهما وُثِّق، وبقية رجاله رجال الصحيح. المجمع برقم (١٤٨٩٣).

الرحمن بن عوف: ثُلث يُقرضُهم ماله، وثلثٌ يقضى دينهم، ويصلُ ثُلثًا[١].

وعن عروة أن عبد الرحمن بن عوف أوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله، فكان الرجل يُعطى منها ألف دينار.

وعن الزهرى أن عبد الرحمن أوصى للبدريين، فوجدوا مئةً، فأعطى كل واحد منهم أربع مئة دينار، فكان منهم عثمان، فأخذها[٢].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهلى من بعدى». قال[٣] فباع عبد الرحمن بن عوف حديقة بأربع مائة ألف قسمها فى أزواج النبى ﷺ [٤].

وعن أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه: «إن الذى يحنو عليكن بعدى لهو الصادق البار. اللهم اسق عبد الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة»[٥].

بل لقد تصدّق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة وقيل: إنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً[٦].

وعن أنس قال: رأيتُ عبد الرحمن بن عوف، قُسِّم لكلِّ امرأة من نسائه بعد موته مئةُ ألف[٧].

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٨٨).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٩٠).

(٣) القائل (فباع) هو أبو سلمة.. كما عند الترمذى (لكنها عنده بلفظ أوصى) (٣٧٥٠).

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣١١ ــ ٣١٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٥) قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات ــ مجمع الزوائد (١٤٨٩٨).

(٦) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ٩١).

(٧) السير للإمام الذهبى (١/ ٩٠).

زهده فى الدنيا ومحاسبته لنفسه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه: أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أُتى بطعام، وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ وهو خير منى كُفّن فى بُردة، إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا ـ أى ظهر رأسه ـ وأراه قال: وقُتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وهو خير منى، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام[١].

زهده فى الإمارة والخلافة

وعن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان اشتكى رُعافًا، فدعا حُمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العَهْد من بعدى. فكتب له، وانطلق حمرانُ إلى عبد الرحمن، فقال: البُشرى. قال: وما ذاك؟ قال: إنَّ عثمان قد كتب لك العهد من بعده. فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إيّاى هذا الأمر، فأمِتْنى قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[٢].

قال الذهبى: «مِن أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف: عزلُه نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة مَن أشار به أهلُ الحَلِّ والعقد، فنهض فى ذلك أتمَّ نهوضٍ على جمعِ الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها، لأخذها لنفسه أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه: سعد بن أبى وقاص[٣].

***

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٨٨).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٨٦).

تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

عن سعد بن الحسن التميمى، قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف من بين عبيده. يعنى: من التواضع فى الزِّىِّ.

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعملوا.. علموا قول رسولهم ﷺ: «البذاذةُ من الإيمان»[١]. والبذاذةُ: اللباسُ دون اللباس والتواضع، ورَثَاثة الثياب فى الملبس والمفرش. وقد قال ﷺ: «مَن ترك اللباس تواضعًا لله، وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّره من أى حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها»[٢].

ولله درُّ القائل:

ليسَ الجمــالُ بِمئــزَرٍ فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

إنَّ الجمــالَ معــادنٌ ومحاسنٌ أَوْرثنَ مجْدَا

الدعوة إلى الله

أخرج الدارقطنى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: دعا النبى ﷺ عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ فقال: «تجهَّزْ فإنى باعثك فى سرية». فذكر الحديث، وفيه: فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه، فسار حتى قدم دومة الجندل، فلمّا دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيامٍ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى ـ رضى الله عنه ـ وكان نصرانيًا وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن مع رجلٍ من جُهينة ـ يقال له رافع بن مكيث ـ إلى النبى ﷺ يخبره، فكتب إليه النبى ﷺ، أن تزوّج ابنة الأصبغ، فتزوّجها، وهى تماضر التى ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن[٣].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبى أمامة الحارثى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٧٩).

(٢) رواه الترمذى والحاكم عن معاذ بن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٤٥).

(٣) الإصابة فى تراجم الصحابة (١/ ١٠٨).

وحان وقت الرحيل

وها هو يرحل بكل هدوء بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال.

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: لقد رأيت سعد بن أبى وقاص فى جنازة عبد الرحمن بن عوف عند قائمتى السرير فجعل يقول: واجبلاه[1].

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت علىّ بن أبى طالب يقول يوم مات عبد الرحمن: اذهب ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها[2].

عاش ـ رضى الله عنه ـ خمسًا وسبعين سنة، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ودُفن بالبقيع وصلى عليه عثمان.

فرضى الله عنه وعن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٣٥) والحاكم (٣/ ٣٠٨).

(٢) قال الأرنؤوط: رواه الطبرانى فى الكبير (٢٦٣) بإسناد صحيح. والرنق: الكدر.

سعد بن أبى وقاص

ارم سعد فداك أبى وأمى

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره ولا أن يدرك مستقبله إلا بعد أن يأخذ الدروس والعبر من ماضيه.

ونحن أمة قد امتن الله عليها بباقة عطرة من الرجال الأفذاذ الأتقياء الذين يندر وجودهم فى أى أمة على مدى العصور والأزمان.

وإنى والله كلما قلّبت الصفحات للوقوف على أخبار الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كنت أتعجب وأقول فى نفسى: كيف لا يعلم شبابنا، بل وفتياتنا تلك الأخبار لتكون لهم نوراً يضىء لهم الطريق إلى الله ـ جل وعلا ـ بل وليقتدوا بهم فى أفعالهم وأقوالهم فإن التشبُّه بالكرام فلاحُ.

وها نحن الآن على موعدٍ مع واحدٍ من هؤلاء الأخيار.

إنه سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السابقين الأولين الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأحد الستة أهل الشورى. وخال رسول الله ﷺ وبطل القادسية، وفاتح «المدائن» ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد.

ثباته على الحق ـ رضى الله عنه ـ

لقد كان سعد ـ رضى الله عنه ـ من أكرم فتيان مكة وأشرفهم نسبًا، وكان قلبه يحترق شوقًا إلى يدٍ حانية تمتد لتُخرج هؤلاء القوم من ظلمات الجاهلية وفساد المعتقد إلى أنوار التوحيد والإيمان.. فلقد كان العرب قبل بعثة النبى ﷺ على أسوأ حالٍ على مدى العصور والأزمان.

وأراد الحق ـ جل جلاله ـ الخير بهذه الأمة فأشرق نور الوحى فى أرجاء مكة ليضىء للكون كله طريقه إلى الله ـ جل وعلا ـ.

وعلى الرغم من أن سعدًا كان يومئذ يستقبل ربيعه السابع عشر؛ فقد كان يضم بين بُرديه[1] كثيرًا من رجاحة الكهول[2]، وحكمة الشيوخ.

فلم يكن ـ مثلاً ـ يرتاح إلى ما يتعلق به لِداته[3] من ألوان اللهو، وإنما كان يصرفُ همه إلى بَرى[4] السهام، وإصلاح القِسىِّ[5]، والتمرس بالرماية حتى لكأنه كان يُعدُّ نفسه لأمرٍ كبيرٍ[6].

والهداية أولاً وآخرًا (منحة ربانية يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده).

فقذف الله نور الهداية فى قلب سعد ـ رضى الله عنه ـ فأسرع إلى الإسلام حتى إنه كان يقول: ما أسلم أحدٌ إلا فى اليوم الذى أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيامٍ، وإنى لثلثُ الإسلام»[7].

(١) بُرديه: ثوبيه.
(٢) رجاحة الكهول: عقل الكهول ورصانتهم.
(٣) لداته: المماثلون له فى السن.
(٤) برى السهام: إعدادها وإصلاحها.
(٥) القِسى: الأقواس التى يُرمى بها.
(٦) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩١).
(٧) أخرجه البخارى (٣٧٢٧) وابن ماجة (١٣٢) وأحمد فى فضائل الصحابة (١٣٢٠).
قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٨٤): قال ذلك بحسب اطلاعه والسبب فيه أن من كان أسلم فى ابتداء الأمر كان يخفى إسلامه، ولعله أراد بالاثنين الآخرين خديجة وأبا بكر، أو النبى ﷺ وأبا بكر، وقد كانت خديجة أسلمت قطعًا فلعله خص الرجال.

وقال يوسف بن الماجشون: سمعتُ عائشة بنت سعد تقول: مكث أبى يومًا إلى الليل وإنه لثلثُ الإسلام.

لكنَّ إسلام سعد بن أبى وقاص لم يمرَّ سهلاً هينًا، وإنما عرَّضَ الفتى المؤمن لتجربة من أقسى التجارب قسوةً وأعنفها عنفًا؛ حتى إنه بلغ من قسوتها وعُنفها أن أنزل الله سبحانه فى شأنها قرآنًا(١).

فعن أبى عثمان أنَّ سعدًا قال: نزلت هذه الآية فىَّ ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨] قال: كنت برًا بأمى، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعدُ! ما هذا الدين الذى قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكلُ، ولا أشربُ، حتى أموتَ، فتُعيَّر بى، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلى يا أمه، إنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثت يومًا لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جُهدت، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أمه! تعلمين والله لو كان لك مئةُ نفسٍ، فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركتُ دينى. إن شئت فكلى أو لا تأكلى. فلما رأت ذلك أكلت»(٢).

ولقد بذل سعد ـ رضى الله عنه ـ نفسه ووقته وماله فى سبيل الله.

وكان الحبيب ﷺ يحبه من كل قلبه حتى إنه كان يفتخر بأنه خاله.

فعن جابر قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ فأقبل سعد بن أبى وقاص فقال ﷺ: «هذا خالى فليُرنى امرؤٌ خاله»(٣).

بل كان ـ رضى الله عنه ـ ممن فازوا بتلك المنقبة العظيمة... فعن عبد الله ابن ظالم قال: خطب المغيرةُ فنال من (علىٍّ) فخرج سعيد بن زيد فقال:

(١) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٤٨) الفضائل ـ وأحمد (١/ ١٨١ ـ ١٨٢) والترمذى (٣١٨٨).
(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٩٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

ألا تعجب من هذا يسبُّ عليًا، أشهدُ على رسول الله ﷺ أنا كنَّا على حراء أو أُحُد، فقال رسول الله ﷺ «أُثبت حراءُ أو أُحُدا فإنما عليك نبى أو صديقٌ أو شهيد» فسمَّى النبى، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا، وطلحة، والزبير، وسعدًا، وعبد الرحمن، وسمَّى سعيدٌ نفسه ـ رضوان الله عليهم ـ(١).

بل لقد كان من الذين أمر الله نبيه ﷺ بأن يقربهم منه... فعن سعد قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢](٢).

وكان سعد ـ رضى الله عنه ـ هو أول من رمى بسهمٍ فى سبيل الله... عن الزهرى قال: بعث رسول الله ﷺ سريةً فيها سعد بن أبى وقاص إلى جانب من الحجاز يُدعى (رابغ) وهو من جانب الجُحْفة. فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ بسهامه، فكان هذا أول قتال فى الإسلام، فقال سعد:

ألا هل أتى رسول الله أنى ... حميتُ صحابتى بصدور نبلى

فما يعتدُّ رامٍ فى عدوٍّ ... بسهمٍ يا رسولَ الله قبلى(٣)

حارس النبى ﷺ

لقد بلغت محبة النبى ﷺ في قلب سعدٍ مبلغًا عظيمًا حتى إنه كان يتمنى

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣) وابن ماجة (٤١٢٨) والنسائى فى فضائل الصحابة (١١٦).

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥) والإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ١٦٤).

أن يفديه بنفسه وولده وماله والدنيا كلها.

عن عائشة قالت: أرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة. قالت: فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله: مَنْ هذا؟ قال سعد بن أبى وقاص: أنا يا رسول الله جئت أحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطه[1].

اللهم اشف سعدًا وأتمم له هجرته

وكان الحبيب ﷺ يبادله هذا الحب ويخصّه بزيارته له.

عن عائشة بنت سعد، أن أباها قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاءنى النبى ﷺ يعودنى ـ يزورنى ـ فقلت: يا نبى الله! إنى أترك مالاً، وإنى لم أترك إلا بنتًا واحدة، فأوصى بثلثى وأترك الثلث؟ قال: لا. قلت: فأوصى بالنصف وأترك النصف؟ قال: لا. قلت: فأوصى بالثلث وأترك الثلثين؟ قال: الثلث والثلث كثير. ثم وضع يده على جبهته، ثم مسح يده على وجهى وبطنى، ثم قال: اللهم اشف سعدًا، وأتمم له هجرته، فما زلت أجد برده على كبدى فيما يخال إلىَّ حتى الساعة»[2].

ولما توفى رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ظل سعدٌ على عهده زاهدًا عابدًا مجاهدًا فى سبيل الله.

وكان الصحابة يعرفون له قدره ومنزلته.

الله يستجيب دعاءه ـ رضى الله عنه ـ

ولقد امتن الله عليه بأن جعله مستجاب الدعوة.. وذلك ببركة دعاء النبى ﷺ له عندما قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»[3].

(١) أخرجه البخارى (٢٨٨٥) الجهاد ـ ومسلم (٢٤١٠) الفضائل.
(٢) أخرجه البخارى (٥٦٥٩) المرض ـ ومسلم (١٦٢٨) والنسائى (٦/ ٢٤١).
(٣) رواه الترمذى (٣٧٥٢) والحاكم (٣/ ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبى.

وفى عهد أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ شكا أهل الكوفة سعدًا ـ رضى الله عنه ـ وقالوا: إنه لا يُحسن يصلى. فقام سعد وقال: «إنى لأول العرب رمى بسهمٍ فى سبيل الله وكنا نغزو مع النبى ﷺ وما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر، حتى إن أحدنا ليضعُ كما يضعُ البعيرُ أو الشاةُ ما له خِلط، ثم أصبحت بنو أسدٍ تُعزِّرُنى على الإسلام لقد خبتُ إذًا وضلَّ عملى(١).

وفى رواية عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فعزله واستعمل عليهم عمارًا فشكوا حتى ذكروا أنه لا يُحسن يُصلى فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أصلى العشاء فأركد فى الأوليين وأُخفُّ فى الأخريين قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه ويثنون معروفًا حتى دخل مسجدًا لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة ابن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطِل عمره وأطل فقره وعَرِّضهُ للفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن(٢).

خوفهم من دعائه عليهم

وكان الناس من حوله يخافون من دعائه عليهم لعلمهم بأن الله ـ جل

(١) أخرجه البخارى (٣٧٢٨) ـ ومسلم (٢٩٦٦) والترمذى (٢٣٦٥).
(٢) أخرجه البخارى (٧٥٥) وأخرجه مسلم (٤٥٣) مقتصراً على الجزء الأول منه.

وعلا ـ يستجيب دعاءه فى التو واللحظة.

عن سعيد بن المسيب قال: كنت جالسًا مع سعد فجاء رجل يقال له الحارث بن برصاء وهو فى السوق، فقال له: يا أبا إسحاق إنى كنت آنفًا عند مروان فسمعته وهو يقول: إن هذا المال مالنا نعطيه من شئنا قال: فرفع سعد يده وقال: أفأدعو؟. فوثب مروان وهو على سريره فاعتنقه وقال: أنشدك يا أبا إسحاق ألا تدعو فإنما هو مال الله(1).

وعن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد عليها قميص جديد، فكشفتها الريح، فشدَّ عمر عليها بالدرة، وجاء سعد ليمنعه، فتناوله بالدِّرة، فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدِّرة وقال: اقتصَّ، فعفا عن عمر(2).

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يحبه ويعرف له قدره ومنزلته، فعن عبد الله بن عمر، عن سعد بن أبى وقاص، عن النبى ﷺ أنه مسح على الخُفين، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال: إذا حدثك شيئًا سعدٌ عن النبى ﷺ فلا تسأل عنه غيره(3).

جهاده في سبيل الله تعالى

ولقد شهد سعدٌ ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وأبلى فيها بلاءً حسنًا.

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدرٍ قتال الفارس فى الرجال(4).

---

(1) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٠٠) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

(2) أخرجه الطبرانى برقم (٣٠٩) فى الكبير. وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٤) ونسبه إلى الطبرانى، وقال: ورجاله ثقات.

(3) أخرجه البخارى (٢٠٢) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

(4) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٠).

وعن عامر الشعبى، قال: قيل لسعد بن أبى وقاص: متى أصبت الدعوة؟ قال: يوم بدر، كنت أرمى بين يدى النبى ﷺ فأضع السهم فى كبد القوس، ثم أقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وافعل بهم، وافعل، فيقول النبى ﷺ: «اللهم استجب لسعد»(١).

وفى غزوة «أُحُد» عندما عصى الرُماة أمر رسول الله ﷺ وتركوا الجبل فاستطاع المشركون أن ينقضّوا على المسلمين وأن يُحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وأرادوا بعد ذلك قتل الحبيب ﷺ فثبت معه سعد بن أبى وقاص مع ثلة من الأنصار وطلحة بن عبيد الله.

وكان سعد ـ رضى الله عنه ـ يرمى بالنبل دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

قال سعد: «فلقد رأيته ﷺ يناولنى النَّبل وهو يقول: ارم فداك أبى وأمى، حتى إنه ليناولنى السهم ما له من نصل، فيقول: ارم به»(٢).

وعن (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ قال: «ما سمعت النبى ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك(٣) فإنى سمعته يقول يوم أُحُدٍ: يا سعد ارم فداك أبى وأمى»(٤).

وعن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله: «ارم فداك أبى وأمى»، فنزعت بسهم ليس فيه نصل، فأصبتُ جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٤٨٥١): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٢٩٠٥ فتح) الجهاد ـ ومسلم (٤/ ١٨٧٦/ ح ٤١) فضائل الصحابة.

(٣) هو سعد بن أبى وقاص، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٨٤): وفى هذا الحصر نظر لما تقدم فى ترجمة الزبير أنه ﷺ جمع له أبويه يوم الخندق... ويجمع بينهما بأن عليًا ـ رضى الله عنه ـ لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أحد. والله أعلم.

(٤) أخرجه البخارى (٥٩ - ٤٠) ـ ومسلم (٢٤١١) والترمذي (٣٧٥٥).

حتى بدت نواجذه»(١).

بل إنه ـ رضى الله عنه ـ رأى الملائكة يوم «أُحد».

عن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد»(٢).

قال الحافظ: هما جبريل وميكائيل.

وظل سعد ـ رضى الله عنه ـ يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ثابتًا حتى توفى رسول الله وبقى سعد على عهده الذى كان عليه يشهد المشاهد مع أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ حتى كانت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ وهنا قام سعد ـ رضى الله عنه ـ كالأسد الضارى يشق صفوف الأعداء ليحقق للإسلام أعظم الانتصارات.

لما تجهز الفُرسُ لقتال العرب، قال عمر بن الخطاب: «والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب» وكتب عمر إلى عماله: «لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلىّ، والعَجلَ العَجلَ»(٣).

وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش، فصرفه عن ذلك أهل مشورته. فجمع عمر الناس، وقال لهم: «إنى كنت عزمتُ على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلاً، فأشيروا علىَّ برجل»، وكان سعد يومذاك على صدقات (هوازن) فلما وصل كتاب منه ـ حين كان عمر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٢) الفضائل ـ باب مناقب سعد.

(٢) رواه البخارى (٧/ ٤١٤، ٤١٥) المغازى، ومسلم (١٥/ ٦٦) الفضائل. قال النووى: فيه بيان كرامة النبى ﷺ على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر وهذا هو الصواب خلافًا لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح فى الرد عليه وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، بل يراهم الصحابة والأولياء وفيه منقبة لسعد بن أبى وقاص الذى رأى الملائكة والله أعلم. شرح النووى (١٥/ ٦٦).

(٣) الطبرى: (٢/ ٦٦٠)، وابن الأثير: (٢/ ١٧٢).

يستشير الناس فيمن يبعثه ــ فقال عمر: وجدته! قالوا: مَنْ هو؟ قال: «الأسدُ عاديًا سعد بن مالك»(١). وقال: «إنه شجاعٌ رامٍ»(٢).

وقال عبد الرحمن بن عوف: «الأسد فى براثنه: سعد بن مالك الزهرى».

ويستدعى عمر سعدًا ويقول له: «إنى قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتى، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومَنْ معك الخير، واستفتح به، واعلم أنَّ لكل عدةٍ عتادًا، وعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك»(٣).

وفى القادسية نظَّم سعدٌ الجيش، وعبَّأه للحرب، وجعل على كل عشرة رجال عريفًا، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولَّى الحروب رجالاً، فولَّى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها وطلائعها ومُشاتها وفرسانها، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ، حتى يحول دون مباغتة العدو لقواته.

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية فى جيشه، فعيَّن مسئولاً عن القضاء، وجعله مسئولاً عن قِسْمة الفَىء أيضًا، وعيَّن مسئولاً عن الوعظ والإرشاد، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهى إليه الأمور الكتابية.

ووصل جيش المسلمين القادسية، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة، فعادت كلها بالفتح والغنائم والسلامة، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى (كسرى) وإلى (رستم) يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين: الإسلام أو الجزية، أو السيف، فكان لهذه الوفود تأثير معنوى حاسم على كسرى وقائده رستم.

وتهيأ الفريقان للقتال، وقبل أن يأذن سعد بالقتال، بعث ذوى الرأى

(١) الطبرى: (٣/ ٤).

(٢) البلاذرى: (ص ٢٥٥).

(٣) تاريخ الطبرى (٣/ ٤ ــ ٥).

والعقل والنجدة إلى الناس، ليحرضوهم على القتال، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال، فلما قُرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها(١).

ونادى منادى سعد فى جيشه: «ألا إن الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد فى أمر الله يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام (سعد) فأصابته بِعِرْق النسا، وبحبون ودماميل منعته من الركوب، بل حتى من الجلوس، فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس فاعتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادةٍ فى صدره يُشرف على الناس، وأسفل منه فى الميدان خليفته؛ (خالد بن عرفطة) يرمى إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر(٢).

وأكبّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه، فخطبهم وقال: «إن الله هو الحق، لا شريك له فى الملك، وليس لقوله خُلف قال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتُجبونهم وتُسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة وعزّ مَن وراءكم، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم». ثم قال: «إنى قد استخلفتُ عليكم خالد بن عرفطة، وليس

(١) الطبرى (٣/ ٤٧) وابن الأثير (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢).
(٢) الطبرى (٣/ ٥٣٠، ٥٣١، ٥٧٣).

يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الجبون، فإني مكبّ على وجهي، وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي».

قال الطبري: «فقُرئ على الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع»(١).

لك الله أيها «الليث في برائنه» تدير أشرس المعارك.. المعركة الفاصلة، وأنت منبطحٌ على وجهك في شُرفتك، وباب دارك مفتوح، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًا أو ميتًا.

دماملك تنبح وتنزف، وأنت عنها في شُغل، فأنت من الشُرفة تكبّر، وتصيح أوامرك لجنودك: «الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئًا حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً، فكبِّروا وشدُّوا شِسعَ نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعطهُ أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أُعطيتموه تأييدًا لكم، فإذا كبرتُ الثانية فكبروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم، فإذا كبّرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)».

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذباب المترنح.. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار..!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم ـ باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا ـ مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية، فلقد صبر الفرس

(١) الطبري (٣/ ٥٣٢).

في هذه المعركة صبراً عجيباً وغير معهودٍ منهم، وأظهروا قدرة قتالية فائقة، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا فى هذه المعركة أربعة أيام، وخسر المسلمون فى القادسية أكثر من خمسة وعشرين فى المائة من قواتهم.

والقادسية أعظم أثراً فى تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون، بل من كل الغزوات التى وقعت إلى عصرنا الحاضر، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن (سعد) النفيس وفرط شجاعته، وما إقامته بالقصر مع ما به من علة تمنعه من مباشرة القتال إلا إفراطًا فى الشجاعة، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدى: «ولو عرّاه الصف فَوَاق ناقة لأخذ برمّته، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه».

وكتب سعد إلى عمر بخبر النصر على المجوس فقال: «أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلِبُوه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفى الفجاج، وأُصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين، لا نعلمهم الله بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن ــ إذا جنّ الليل ــ دويَّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل مَن مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكتب لهم»(١).

فتح البيت الأبيض

عن جابر بن سمرة ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «عُصبةٌ من أمتى يفتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى». رواه أحمد ومسلم.

---

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٥٨٣).

وروى مسلم عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لتفتحنّ عصابةٌ من أُمتى كَنْز آل كسرى الذى فى الأبيض».

أمضى سعد شهرين فى القادسية بعد المعركة، وكاتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فيما يفعل، فكتب إليه عمر بالمسير إلى «المدائن» عاصمة كسرى. وتحرك الجيش المنتصر باتجاه المدائن، وسار المسلمون من نصر إلى نصر فى «برس» وفى بابل، وفى «بهرسير». وبذلك أصبح جيش المسلمين فى الضفة المقابلة للمدائن، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه فى السفن، فلم يقدر على شىء منها؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[١]. وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء، يقذف بالزَّبد لشدة جريانه، وموجُه متلاطم، وزاد المدُّ فيه، وارتفعت مياهه ارتفاعًا كبيرًا، وفى ليلةٍ من ليالى سعد، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمت مياه دجلة الهادرة وعبرت، وقد أقبلت من المد بأمرٍ عظيم.

عبور لا مثيل له فى التاريخ

فصدّق الرؤيا، وعزم على عبور النهر، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلُصُون إليه معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوشُونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شىء تخافون أن تُؤتوا منه، فقد كفاكموه أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إنى قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعًا: عزمَ الله لنا ولك على الرُشد، فافعل»[٢].

---

(١) الطبرى (٣/ ١١٩).

(٢) الطبرى (٣/ ١١٩)، وابن الأثير (٢/ ١٩٨)، وفتوح الشام للواقدى (٢/ ١٢٧).

وندب سعد الناس للعبور، ثم قال: «من يبدأ ويحمى لنا الفراض[١] لكيلا يمنعونا من العبور». فانتدب عاصم بن عمرو التميمى، وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات، فعبر هؤلاء المغاوير، وعبر سعد مع جيشه بعدهم، ففاجأوا أهل فارس بأمر لم يكن فى حسابهم.

سبحان الله!! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون.

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير: «قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[٢].

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون فى مسيرتهم على الأرض.

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون، نجاحًا أذهل سعدًا نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه فى المعركة «سلمان الفارسى»، «عامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليُظهرن الله دينه، وليهزمنّ الله عدوه، إن لم يكن فى الجيش بغىٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات». فقال له سلمان: «الإسلام جديد، ذُلِّلت لهم والله البحور، كما ذُلل لهم البرُّ، أما والذى نفسى بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا. لم تضع منهم شكيمة فرس»[٣]. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم فى البر لو كانوا فيه، فخرجوا منه ــ كما قال

---

(١) الفراض: جمع فرضة، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخري ويُسمي في المصطلح العسكري رأس جسر.

(٢) الطبري (٤/ ٤٨).

(٣) تاريخ الرسل والملوك (٤/ ١١).

سلمان ـ لم يفقدوا شيئًا، ولم يغرق منهم أحد، إلا رجلاً من بارق يُدعى (غرقدة) زال عن ظهر فرسٍ له شقراء، قال أبو عثمان النهدى: كأنى أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ، فثنى القعقاع عنان فرسه إليه، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر، فقال البارقى ـ وكان من أشد الناس ـ: عجز الأخواتُ أن يلدن مثلك يا قعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة.

ما تقاتلون إلا الجنّ

نظر جنود «يزدجرد» إلى هذه الخيل التى ملأت دجلة، وجعلوا يرددون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن».

قال أبو عثمان النهدى: «طُبقت دجلة خيلاً ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجت بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء».

وفزع يزدجرد ملك الفرس، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات... فدلاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض فى زنبيل.. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طباخ وألف فهاد وألف بازيار.

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله؛ فقد جاء فى تاريخ الطبرى (٤/ ٥٣): «أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس، وفيهم فارس منهم يعترض على طريق من طرقها، يحمى مؤخرة أصحابه فى فرارهم، وهو يضرب فرسه للإقدام فيحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بنى عدى بن طريف، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه. ودخل سعد المدائن، وانتهى إلى

إيوان كسرى، فأقبل يقرأ قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ : ٢٨][١].

فالفتوحات الإسلامية إذن التى جرت فى العراق، وفى شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية، فتحها سعدٌ بنفسه، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها، وحتى الجيش الذى فتح نهاوند أرسله سعد، ولكن فتحها جرى بعد عزله.

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مستدامًا. لقد فتح سعد العراق، وأكثر بلاد فارس، وأذربيجان، والجزيرة وبعض أرمينية، أى أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث، وأكثر إيران بحدودها اليوم، وفتح القسم الجنوبى من تركيا المتاخمة لإيران، والقسم الواقع فى شمالى إيران والذى يحدّ روسيا. وفوق ذلك مصر الكوفة وكوَّفها، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامى فى الشرق كله، وأمدّت العالم الإسلامى بعدد ضخم من قادة الفتح والفاتحين.

فرضى الله عن سعد الفاتح العظيم.

وأخيرًا تبقى كلمة:

سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فارس اليمن عمرو بن معد يكرب عن سعد فقال: «متواضع فى خبائه، عربى فى نمرته[٢]، أسد فى تاموره[٣]؛ يعدل فى القضية، ويقسم بالسوية، ويبعد فى السرية؛ يعطف علينا

---

(١) الطبرى (٤/ ١٦).

(٢) كساء فيه خطوط بيض وسود، تلبسه الأعراب.

(٣) التامور: هو عرين الأسد، وهو بيته الذى يأوى إليه.

عطف الأم البرة؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذرة»[١] .[٢]

وعن عمر أنه لما أُصيب جعل الأمر شورى فى الستة، وقال: من استخلفوه فهو الخليفة بعدى، وإن أصابت سعدًا وإلا فليستعن به الخليفةُ بعدى، فإننى لم أنزعه ـ يعنى عن الكوفة ـ من ضعفٍ ولا خيانة.

قال الزهرى: ولما استُخلف عثمان عزل عن الكوفة (المغيرة) وأمَّر عليها (سعدًا)[٣].

وبعد مقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ ووقعت الفتنة وأطلّت برأسها بين (علىّ) و(معاوية) ـ رضى الله عنهما ـ وكان الصحابة مجتهدين ومتأولين. والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد.. فلم يكن منهم واحدٌ يريد سفك الدماء أو يريد زعامة أو يريد دنيا، وإنما كانوا جميعًا يريدون وجه الله ـ فرضى الله عنهم جميعًا وأرضاهم ـ.

اعتزاله للفتنة

وعندما وقعت الفتنة بين أصحاب الحبيب ﷺ اعتزل سعدٌ ـ رضى الله عنه ـ تلك الفتنة، وقال: «ما أزعم أنى بقميصى هذا أحقُّ منّى بالخلافة، جاهدت وأنا أعَرف بالجهاد ولا أبخع نفسى إن كان رجلاً خيراً منى، لا أقاتل حتى يأتونى بسيفٍ له عينان ولسانٌ فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر»[٤].

وعن على بن زيد عن الحسن قال: لما كان الهيجُ فى الناس، جعل رجل يسأل عن أفاضل الصحابة، فكان لا يسأل أحدًا إلا دلَّه على سعد بن مالك.

وروى عمر بن الحكم: عن عوانة قال: دخل سعد على معاوية، فلم يسلم

---

(١) أسد الغابة (٢/ ٢٩٢) والبيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٦٨).

(٢) نقلاً من صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (بتصرف).

(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ١٦٣) نقلاً من السير للإمام الذهبى (١/ ١١٨).

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٩٩): رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

عليه بالإمرة، فقال معاوية: لو شئت أن تقول غيرها لقلت، قال: فنحن المؤمنون ولم نؤمرك، فإنك معجب بما أنت فيه، والله ما يسرنى أنى على الذى أنت عليه وأنى هرقت محجمة دم(١).

وعن عمر بن سعد، عن أبيه، أنه جاءه ابنه عامر، فقال: «أى بنى، أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسًا؟ لا والله، حتى أُعطَى سيفًا، إن ضربت به مسلمًا، نبا عنه، وإن ضربت كافرًا قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغنى الخفى التقى»(٢).

اعتزل الفتنة ففاز بتلك المنقبة العظيمة

عن حسين بن خارجة الأشجعى قال: لما قُتل عثمان، أشكلت علىَّ الفتنة، فقلتُ: اللهم أرنى من الحق أمرًا أتمسك به، فرأيتُ فى النوم الدنيا والآخرة بينهما حائط، فهبطتُ الحائط، فإذا بنفر، فقالوا: نحن الملائكة، قلتُ: فأين الشهداء؟ قالوا: اصعد الدرجات، فصعدتُ درجةً ثم أخرى، فإذا محمد وإبراهيم (صلى الله عليهما) وإذا محمد يقول لإبراهيم: استغفر لأمتى، قال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم اهراقوا دماءهم، وقتلوا إمامهم، ألا فعلوا كما فعل خليلى سعد؟.

قال: قلتُ: لقد رأيتُ رؤيا، فأتيت سعدًا، فقصصتها عليه، فما أكثر فرحًا، وقال: قد خاب من لم يكن إبراهيم ــ عليه السلام ــ خليله، قلتُ: مع أىِّ الطائفتين أنتَ؟ قال: ما أنا مع واحد منهما، قلتُ: فما تأمرنى؟ قال: هل لك من غَنَم؟ قلتُ: لا، قال: فاشتر غنمًا، فكن فيها حتى تنجلى(٣).

وقال الإمام الذهبى: «اعتزل سعد الفتنة، فلا حضر الجمل ولا صفين ولا

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ١٢٢).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه أحمد (١/ ١٧٧) والحلية لأبى نعيم (١/ ٩٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الحاكم (٣/ ٥٠١ ــ ٥٠٢) وانظر الإصابة (٣/ ٨). تنجلى: تنكشف.

التحكيم، ولقد كان أهلاً للإمامة كبير الشأن ـ رضي الله عنه ـ»(١).

زهده في الإمارة

وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ لا يطمع في أي شيء من حطام الدنيا فهو يعلم أن كل نعيم دون الجنة فهو سراب، وأن كل عذاب دون النار فهو عافية. . فكان لا تطمح نفسه إلا في جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

عن عامر بن سعد أنَّ أباه سعدًا، كان في غنمٍ له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكون أعرابيًا في غنمك، والناسُ يتنازعون في الملك بالمدينة، فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ـ عز وجل ـ يُحبُّ العبدَ التقي الغنيَّ الخفيَّ»(٢).

دفاعه عن إخوانه

عن مصعب بن سعد، عن سعد أن رجلاً نال من (عليّ) ـ رضي الله عنه ـ فدعا عليه سعد بن مالك(٣)، فجاءته ناقة أو جمل فقتله فأعتق سعد نسمة وحلف أن لا يدعو على أحد(٤).

وفي رواية: عن قيس بن أبي حازم قال: كنت بالمدينة فبينا ـ فبينما ـ أنا أطوف في السوق إذ بلغت أحجار الزيت فرأيت قومًا مجتمعين على فارس قد ركب دابة وهو يشتم عليّ بن أبي طالب والناس وقوف حواليه إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل يشتم على بن أبي طالب فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه فقال: يا هذا علام تشتم عليّ بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٥) الزهد ـ وأحمد (١/ ١٦٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٤).

(٣) هو سعد بن أبي وقاص.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٩٩) وقال العدوي: إسناده حسن.

رسول الله ﷺ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر حتى قال: ألم يكن ختن رسول الله على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته؟، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم إن هذا يشتم وليًا من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك. قال قيس: فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته فى تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات[١].

صبره على البلاء

لما قدم سعد بن أبى وقاص مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحدٍ يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفنى. وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم. فذكر قصة، قال فى آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردّ عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بُنى قضاءُ الله سبحانه عندى أحسن من بصرى[٢].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد فى سبيل الله نام سعد ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليُسلم روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ وليلحق بالحبيب ﷺ فى جنة الرحمن.. فهو من العشرة المبشرين بالجنة.

عن مصعب بن سعد أنه قال: كان رأس أبى فى حجرى، وهو يُقضَى. فبكيتُ، فرفع رأسه إلىَّ، فقال: أى بُنىَّ ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبنى أبدًا. وإنى من أهل الجنة[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٨).
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٤) نقلاً من السير للذهبى (١/ ١٢٢).

قال الإمام الذهبى: قلتُ: صدق والله، فهنيئًا له.

وعن الزهرى أنّ سعد بن أبى وقاص لما احتُضر، دعا بخَلَقِ جبة صوف، فقال: كفنونى فيها، فإنى لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبأتها لهذا اليوم»[١].

وعن أم سلمة أنها قالت: لما مات سعد، وجىء بسريره، فأدخل عليها، جعلت تبكى وتقول: بقية أصحاب رسول الله ﷺ [٢].

ومات سعد فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، فحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة وصلى عليه مروان بن الحكم، وهو يومئذ والى المدينة، ثم صلى عليه أزواج النبى ﷺ فى حُجرهن، ودُفن بالبقيع[٣].

فرضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٦)، والطبرانى فى الكبير (٣١٦)، وذكره الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٥) وقال: ورجاله ثقات إلا أن الزهرى لم يدرك سعدًا.

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ١٢٣).

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٤٧).

سعيد بن زيد

أسدٌ في معركة اليرموك ... ومن العشرة المبشرين بالجنة

أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن السابقين الأولين البدريين، ومن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ـ ما خلا بدر ـ وشهد حصار دمشق وفتحها، فولاه عليها أبو عبيدة بن الجرَّاح، فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة[١].

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (زيد بن عمرو بن نفيل) والد سعيد بن زيد فريدًا فى عصره وزمانه، فقد كان الناس يعبدون الأصنام وهو يعبد الواحد الديّان. فخرج من صُلبه هذا الابن المبارك (سعيد بن زيد) ليكون واحدًا من العشرة الذين بشّرهم النبى ﷺ بالجنة.

وكان (زيد بن عمرو) يُحيى الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مَهْ! لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها[٢].

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٨٨) والإصابة (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخارى معلقًا (٣٨٢٨) فى المناقب ـ والحاكم ووصله وصححه (٣/ ٤٠٤) ووافقه الذهبى.

وكان يعيب على قريش، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟.

وحتى نسعد بتلك السيرة العطرة فتعالوا بنا لنرى كيف كان حال (زيد بن عمرو) وما هي قصته لنعرف كيف خرجت تلك الثمرة من أغصان هذه الشجرة المباركة.

رحلة التوحيد

اجتمعت قريش يومًا في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيدًا لهم [في] كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة [نفر] نجيًّا[1]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل ـ وهم: ورقة بن نوفل وعبيد الله ابن جحش، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب؛ وعثمان بن الحويرث؛ وزيد ابن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمُوا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! ما حَجر نُطيف به، لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع!؟ يا قوم! التمسوا لأنفسكم [دينًا] فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصّر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًا.

---

(١) النجي: جماعة يتحدثون سرًا يخفون حديثهم عن غيرهم.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصَّر، وحسُنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وعن أسماء بنت أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نُفيل شيخًا كبيرًا مُسندًا ظهرهُ إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذى نفسُ زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى، ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أىَّ الوجوه أحبَّ إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه، ثم يسجدُ على راحته.

قال ابن إسحاق: وحُدّثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وعمر بن الخطّاب ــ وهو ابن عمّه ــ قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفرُ لزيدِ بن عمرو؟ قال: نعم فإنه يُبعثُ أمةً وحدهُ[1].

وقال زيد بن عمرو بن نفيل فى فِراق دين قومه، وما كان لقى منهم فى ذلك:

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ ... أدينُ إذا تُقُسِّمت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعُزَّى جميعًا ... كذلكَ يفعلُ الجلدُ الصبورُ
فلا العُزى أدينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمى بنى عمرو أزُورُ
ولا هُبلاً أدينُ، وكان ربًا ... لنا فى الدهر إذ حِلمى يسيرُ

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١٦٤٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

عجبتُ وفى الليالى مُعجباتٌ ... وفى الأيام يعرفها البصير
بأنَّ الله قد أفنى رجالاً ... كثيرًا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرِّ قومٍ ... فيزبلُ منهم الطفلُ الصغيرُ(١)
وبينا المرءُ يُفترُ ثابَ . يومًا ... كما يتروَّح الغُصنُ المطيرُ(٢)
ولكنُ أعبُدُ الرحمن ربِّى ... ليغفرَ ذنبى الرَّبُّ الغفور
فتقوى الله ربكُم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبُورُوا
ترى الأبرار دارهُمُ جنانٌ ... وللكفَّارِ حامية سعير
وخِزىٌ فى الحياةِ، وإن يمُوتُوا ... يُلاقُوا ما تضيقُ بهِ الصدور

وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب فى الأرض يطلبُ الحنيفية دين إبراهيم ﷺ، فكانت صفيةُ بنتُ الحضرمى كلما رأتهُ قد تهيأ للخروج وأراده آذنت به الخطاب بن نفيل.

وكان يعاتبه على فراق دين قومه.

وكان الخطاب قد آذى زيدًا حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حِراء مقابل مكة، ووكَّل به الخطابُ شابًا من شبابِ قريش وسُفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة؛ فكان لا يدخلها إلا سرًا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراقه.

ثم خرج يطلبُ دينَ إبراهيم عليه السلام، ويسألُ الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، حتى انتهى إلى راهب

(١) يزبل: زَبلَ الطفل إذا شب وكبر.

(٢) يفتر: فتر الشيء يفتر. سكن بعد حدته. ثاب: رجع. يتروح: يهتز ويحتضر. وينبت ورقة بعد سقوطه.

بميفعة(١) من أرض البلقاء(٢) كانت ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم؛ فقال: إنك لتطلبُ دينًا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمانٌ نبى يخرجُ من بلادك التى خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوثٌ الآن، هذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئًا منهما، فخرج سريعًا، حين قال له ذلك الراهبُ ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسَّط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه(٣).

وفى آخر رمق من حياته رفع بصره إلى السماء، وقال: اللهم إن كنت حرمتنى من هذا الخير فلا تحرم منه ابنى «سعيداً».

واستجاب الله دعوته المباركة فكان ابنه سعيد من السابقين إلى الدخول فى الإسلام فقد أسلم قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم.

ولقد تحمَّل سعيد ــ رضى الله عنه ــ نصيبًا من العذاب بسبب إسلامه.

فعن قيس بن حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيتنى موثقى(٤) عمرُ على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم(٥)، ولو أن أحداً انقض(٦) لما صنعتم بعثمان لكان محقوقًا أن ينقض»(٧).

وأسلمت مع (سعيد) زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب.

---

(١) بميفعة: أصل الميفعة الموضع المرتفع من البقاع.

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة.. قاله ياقوت.

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ١٩١: ١٩٨) بتصرف.

(٤) أى أن عمر موثق سعيد بن زيد.

(٥) يعنى قبل أن يسلم عمر.

(٦) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٧٦): وقال الداودى: معناه لو تحركت القبائل وطلبت بثار عثمان لكان أهلاً لذلك. وفى هذا الحديث أفضلية سعيد بن زيد وأسبقيته هو وزوجته رضى الله عنهما إلى الإسلام.

(٧) أخرجه البخارى (٣٨٦٧) عن قيس بن حازم.

وجعلهما الله سببًا فى إسلامه ــ وإن كان السبب الأساسى فى إسلام عمر ــ رضى الله عنه ــ هو دعوة النبى ﷺ عندما قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب» وكان أحبهما إليه عمر[1].

منقبة عظيمة

عن سعيد بن زيد ــ أن النبى ﷺ قال: «اسكن حراءُ فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيد»، وعليه النبىُّ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىٌّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، وسعيد بن زيد[2].

الله يستجيب دعاءه

عن هشام بن عروة، عن أبيه أن أروى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها فخاصمتهُ إلى مروان بن الحكم فقال سعيدٌ: أنا كنت آخذُ من أرضها شيئًا بعد الذى سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبرًا من الأرض ظُلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بينة بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فعمٍّ ــ فأعم ــ بصرها واقتلها فى أرضها. قال: فما ماتت حتى ذهب بصرُها ثم بينا ــ بينما ــ هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حُفرةٍ فماتت[3].

أُهدى هذه القصة إلى كل ظالم على وجه الأرض ومعها قول الله ــ جل وعلا ــ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٩٠٧).

(٢) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٣١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

جهاده فى سبيل الله

لقد شهد سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ المشاهد كلها ما خلا بدراً، وذلك لأن النبى ﷺ كان قد أرسله فى مهمة، فلما عاد وجد النبى ﷺ عائداً من الغزوة فضرب له النبى ﷺ بسهمه، فكان كمن شهدها.

وما زال يشهد المشاهد بعد وفاة الرسول ﷺ يبحث عن الشهادة فى سبيل الله ولا يرضى عنها بديلاً.

بطولاته فى يوم أجنادين

كان سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ قائد الفرسان يوم أجنادين، وكان من أشد الناس، وهو الذى أشار على خالد ببدء القتال يوم أجنادين لما رمى الروم المسلمين بالنُّشَّاب، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلاً: «علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست(١) الخيل؟!». فأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «احملوا ـ رحمكم الله ـ على اسم الله». وحمل خالدٌ على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين.. على ميمنتهم مرة، ثمّ على ميسرتهم، ثم صبروا لرشق نبالهم، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا(٢)، وانهزموا هزيمةً شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وأصابوا معسكرهم وما حوى.

وعند الطبرى، عن ابن إسحاق: «فلما رأى القبقلار(٣) ما رأى من قتال

---

(١) أى امتنعت ظهورها عن الركوب.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت. والمراد: الزمن القصير.

(٣) قائد جيش الروم.

المسلمين، قال للروم: لفّوا رأسى بثوب. قالوا: لِمَ؟ قال: يوم البئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت فى الدنيا يومًا أشدَّ من هذا. فاحتزَّ المسلمون رأسه، وإنه لُملَفَّفٌ».

أسدٌ في معركة اليرموك

ولعلّ أروع بطولاته تلك التى سجّلها يوم اليرموك.

قال سعيد بن عمرو بن نُفيل: لَمّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك، فخرجت لنا الروم بعشرين ومائة ألف، وأقبلوا علينا بخُطى ثقيلة، كأنهم الجبال تُحركها أيدٍ خفيةٌ وسار أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسيسون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات، فيرددها الجيش من ورائهم، ولهم هزيمٌ كهزيم الرَّعد. فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه، هالتهم كثرتهم، وخالط قلوبهم شيءٌ من خوفهم. عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال، فقال: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب، ومدحضةٌ للعار. وأشرعوا الرماح، واستتروا بالتروس، والزموا الصمت إلا من ذكر الله عز وجل فى أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله.

قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبى عبيدة: إنى أزمعتُ[1] على أن أقضى أمرى الساعة[2]، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقال أبو عبيدة: نعم، تُقرئه منى ومن المسلمين السلام، وتقول له: يا رسول الله، إنا وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا. قال سعيد: فما إن سمعتُ كلامه، ورأيته يمتشق حُسامه ويمضى إلى لقاء أعداء الله، حتى اقتحمت[3] إلى الأرض، وجثوتُ على ركبتى، وأشرعتُ رمحى، وطعنت

(١) (٢) أزمعت: عزمتُ. وأقضى أمرى الساعة: أى أموت فى هذه الساعة.
(٣) اقتحمت إلى الأرض: رميتُ بنفسى بشدةٍ على الأرض.

أول فارس أقبل علينا، ثم وثبتُ على العدو، وقد انتزع الله كل ما فى قلبى من الخوف، فثار الناس فى وجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر»(١).

«قال حبيب بن سلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله درٌّ سعيد! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد، لما نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبته، حتى إذا دنوا منه وثب فى وجوههم مثل الليثِ، فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ ـ والله ـ يقاتل راجلاً ـ قتال الرجل الشجاع البأس ـ فارسًا، ويعطفُ الناسُ إليه»(٢).

وحان وقت الرحيل

وبعد تاريخ حافل بالعطاء والتضحية والجهاد فى سبيل الله رحل سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ عن دنيا الناس إلى جنة الرحمن، فهو من العشرة المبشرين بالجنة.

وتوفى بالعقيق فحُمل إلى المدينة ودُفن بها وغسّله سعد بن أبى وقاص ونزل فى قبره سعد وابن عمر، وذلك فى سنة خمسين أو إحدى وخمسين وكان يوم أن مات ابن بضعٍ وسبعين سنة.

فرضى الله عن سعيد وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) صُور من حياة الصحابة (١/ ١٥٥ ـ ١٥٨) للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ـ طبع مؤسسة الرسالة.
(٢) تاريخ ابن عساكر (١/ ٥٤١)، الأزدى (٢٢٦).

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة ... وفاتح بلاد الشام

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمةُ أبو عبيدة بن الجراح»(١).

قال العلماء: والأمانة مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، لكن النبى ﷺ خص بعضهم بصفات غلبت عليهم، وكانوا بها أخص(٢).

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: والأمين هو الثقة الرضى وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره لكن السياق يشعُر بأن له مزيدًا فى ذلك، لكن خص النبى ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعلى ونحو ذلك(٣).

وها نحن على موعدٍ مع أمين هذه الأمة.. أول من لُقِّب بـ«أمير الأمراء» إنه أحدُ السابقين الأولين، ومن عزم الصديقُ على توليته الخلافة، وأشار به يوم السقيفة، لكمال أهليته عند أبى بكر. يجتمع فى النسب هو والنبى ﷺ فى فهر (اسم جده) شهد له النبى ﷺ بالجنة، وسمَّاه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمَّة.

(١) أخرجه البخارى (٣٧٤٤) ـ ومسلم (٢٤١٩).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٢٧٣).

(٣) فتح البارى (٧/ ١١٧).

إسلامه ـ رضى الله عنه ـ

فى تلك اللحظة التاريخية التى أسلم فيها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ خرج يدعو إلى الله ليأخذ بأيدى الناس من حوله إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ فكان من جملة من أسلموا على يديه (أبو عبيدة بن الجراح) ـ رضى الله عنه ـ.

فكان بذلك ممن أسلموا مبكراً قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم. وكان ممن هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية.

وذلك بعد أن أعلنت قريش العداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فهاجر أبو عبيدة مع مَن هاجر إلى الحبشة.

وعلى الرغم من الحفاوة البالغة التى قابلهم بها النجاشى (ملك الحبشة) إلا أن أبا عبيدة كان لا يتحمل أبداً أن يبتعد عن حبيبه ﷺ فإن رؤية النبى ﷺ والجلوس معه والتعلم على يديه والاقتباس من هديه وأخلاقه لا يعدله أى نعيم ولا أى متاعٍ فى الدنيا بأسرها.

فسرعان ما عاد مرة أخرى إلى مكة مع إخوانه المهاجرين الذين وصل إلى مسامعهم تلك الإشاعة الكاذبة (بإسلام أهل مكة).

وما إن اقتربوا على أبواب مكة حتى علموا الحقيقة المؤلمة وعلموا أن قريشًا تنتظر رجوعهم لتسلط عليهم ألوانًا من العذاب لا تخطر ببالهم.

ولم يدم بقاء (أبى عبيدة) بمكة طويلاً حتى أذن النبى ﷺ له ولأصحابه بالهجرة إلى المدينة (يثرب) لتكون هذه المدينة هى القاعدة المباركة التى تقوم على أرضها للإسلام دولة تُخرج للكون كله نماذج من الرجال والأبطال الذين تربوا بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الله ـ جل وعلا ـ ليربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

وشاهدت الطريق الممتدة إلى المدينة فارسًا يطلق العنان لراحلته لتسابق الريح، وتطوى الأرض تحت أقدامها طيًا، حتى يلحق بالعصبة المؤمنة الفارة بدينها، ولم يكن هذا الفارس سوى أبى عبيدة بن الجراح الذى وقف أمام الرسول ﷺ ووجهه لا يكاد يُعرف من كثرة ما تراكم عليه من رمال الصحراء وعناء الطريق، فاستقبله الرسول ﷺ وهشَّ لمقدمه، وآخى بينه وبين سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ[1].

درس في الولاء والبراء يوم بدر

وفى غزوة (بدر) قاتل أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ قتالاً شديداً حتى كان المشركون يبتعدون عن البقعة التى يقاتل فيها.. ولكن كان هناك فارسٌ يتصدى له كثيراً.. وأبو عبيدة يحيده عنه فلما أكثر الرجل من التصدى لأبى عبيدة هجم عليه كالأسد الضارى فقتله شر قتلة!!!

أتدرون من هو المقتول؟!..

إنه ـ والد أبى عبيدة ـ.

وأنزل الله فى شأنه وشأن أبيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أُنزلت هذه الآية ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين

---

(١) رجال أنزل الله فيهم قرآنًا/ د. عبد الرحمن عميرة (٣/ ٣٤).

قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة ــ رضى الله عنهم ــ ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته[1].

فيا له من موقف عظيم لأبى عبيدة يلقِّن فيه الدنيا كلها درسًا عظيمًا ليعلموا أن الولاء إنما يكون لله ولرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وأن البراء لابد أن يكون من أعداء الله ــ جل وعلا ــ.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

دفاعه عن النبى ﷺ يوم (أحُد)

وفى يوم (أُحُد) لما عصى الرُماة أمر رسول الله ﷺ فانكشف المسلمون وأجهز عليهم المشركون، فأصابوا منهم مَن أصابوا، وكان يوم بلاءٍ وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأرادوا قتله والتمثيل بجثته.

عن أنس بن مالك، قال: كُسرت رباعية النبى ﷺ يوم أُحد، وشُجَّ فى وجهه، فجعل الدمُ يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يُفلح قومٌ خضَّبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم!» فأنزل الله ــ عز وجل ــ فى ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][1].

وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ وطمعوا فى القضاء عليه، رماه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقِّه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى، فشجه فى جبهته. وجاء فارس عنيد هو (عبد الله بن قمئة) فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ له، وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله»[2].

وكان أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ ممن ثبتوا مع النبى ﷺ وأبلى يوم أُحُدٍ بلاءً حسنًا، ونزع يومئذ الحلقتين اللتين دخلتا من المِغْفَر فى وجنة رسول الله ﷺ من ضربة أصابته، فانقلعت ثنيَّتاه، فحسُن ثغرُه بذهابهما، حتى قيل: ما رؤى هَتْمٌ قطٌّ أحسنُ من هتمِ أبى عبيدة[3].

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف بلغ الأدب بأبى عبيدة.. لا ينزع حلقتى المغفر بيده لئلا يؤذى رسول الله ﷺ بل ينزعهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه.

وظل أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ويثبت ثبات الجبال، وهو يحمل إيمانًا لا تعصف به الرياح ولا تزعزعه

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٧/ ٤٢٢) معلقًا.

(٢) وقد سمع الله دعاء رسول الله ﷺ، فعند ابن عائذ فى «المغازى» أن ابن قمئة انصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى [٧/ ٣٦٦، ٣٧٣]).

(٣) الطبقات (٣/ ١/ ٢٩٨) ـ الاستيعاب (٥/ ٢٩٢) ـ المستدرك (٣/ ٢٦٦).

الأعاصير.

وكان النبي ﷺ يحبه حبًا جمًا، بل ويفتخر به كل الفخر.

عن عبد الله قال: سألتُ عائشة: أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان أحبَّ إليه؟ قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبو عبيدة بن الجراح(١).

بل قال ﷺ: «.... نِعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح»(٢).

سرية (ذات السلاسل) وعدم حرصه على الإمارة

ولقد ظهر تواضعه ـ رضي الله عنه ـ وعدم حرصه على الإمارة في تلك السرية ـ ذات السلاسل ـ ولا أقصد بذلك أنه لم يتواضع في غيرها، ولكن الموقف هنا كان يدعونا للوقوف أمامه لنتعلم هذا الدرس العظيم ألا وهو: أن المؤمن عليه أن يعمل لخدمة دينه وإن لم يكن ظاهرًا أمام الناس، وذلك لأنه لابد أن يبتغي بعمله هذا وجه الله تعالى.

لقد بعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض «بَلِيّ» و«عذرة» ليدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أم عمرو من «بَلِيّ» فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ فسار عمرو حتى إذا كان على ماء بأرض جُذَام، يُقال له السلسل، وبذلك سميت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل؛ فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدُّه ـ يطلب مددًا ـ فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٥٧) في المناقب، وابن ماجة (١٠٢) في المقدمة: باب فضل عمر. ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم (٣/ ٧٣) وأبو يعلى الموصلي في مسنده، كما في الإصابة (٥/ ٢٨٧) من طريق: كهمس، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة... وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه البخاري (٣٦٦٢) في فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلاً، و(٤٣٥٨) في المغازي: باب غزوة ذات السلاسل، من حديث عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: أيّ الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً.

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٩٥٩) ـ الصحيحة (٢/ ٩٦٢) للشيخ الألباني.

ابن الجرّاح فى المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر؛ وقال لأبى عبيدة حين وجَّهه: «لا تختلفا»؛ فخرج أبو عبيدة حتى إذا قَدِم عليه، قال له عمرو: إنما جئت مدداً لى، قال أبو عبيدة: لا، ولكنى على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً ليِّنًا سهلاً، هيِّنًا عليه أمر الدنيا فقال له عمرو: بل أنت مددٌ لى، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لى: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتنى أطعتُك، قال: فإنى الأمير عليك، وأنت مددٌ لى، قال: فدونك، فصلَّى عمرو بالناس[1].

سرية أبى عبيدة إلى سيف البحر.. والرزق الذى ساقه الله إليهم

عن عُبادة بن الصامت، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر. عليهم أبو عبيدة بن الجراح، وزوَّدهم جرابًا من تمر، فجعل يقُوتهم إياه، حتى صار إلى أن يعده عليهم عدداً، قال: ثم نفد التمر، حتى كان يعطى كلَّ رجل منهم كل يوم تمرة. قال: فقسم يومًا بيننا. قال: فنقصت تمرةٌ عن رجل، فوجدنا فقدها ذلك اليوم، قال: فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر، فأصبنا من لحمها وودكها، وأقمنا عليها عشرين ليلة، حتى سمنَّا وابتللنا، وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها، فوضعها على طريقه، ثم أمر بأجسم بعير معنا، فحمل عليه أجسم رجل منا. قال: فجلس عليه. قال: فخرج من تحتها وما مسَّت رأسه. قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها، وسألناه عما صنعنا فى ذلك من أكلنا إياه، فقال: «رزقٌ رزقكموه الله»[2].

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٤/ ٣٩٩، ٤٠٠) وذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٧/ ٦٧٤) ومال إلى تحسينه، وللحديث شاهد عند البخارى ومسلم فى إرسال عمرو بن العاص فى هذه الغزوة أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة (٧/ ٣٦٦٢، ٤٣٥٨/ فتح) ومسلم فى فضائل الصحابة (٤/ ٨/ ١٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب «الصيد» باب «إباحة ميتة البحر» (٣/ ١٥٣٥/ ١٧، ١٨) بلفظ «هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا» وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٣١١).

هذا أمين هذه الأمة

ولما جاء وفد نجران إلى الحبيب ﷺ كانت هناك منقبة عظيمة لأبى عبيدة ــ رضى الله عنه ــ.

فإنه لما نزل الوفد بالمدينة، ولقى النبى ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول فى عيسى ــ عليه السلام ــ فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٩: ٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله فى عيسى بن مريم فى ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا فى أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال فى عيسى، فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله فى عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين فى خميل له، وفاطمة تمشى عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلَوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ فى أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفى حُلة، ألف فى رجب، وألف فى صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال

الصلح[١].

وفي رواية: قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»[٢].

صور مشرقة من جهاده في سبيل الله تعالى

وظل أبو عبيدة ملازمًا للعبادة والطاعة والدعوة إلى الله تعالى... بل وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ حتى توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

«وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا... يحمل مسئولياته فى أمانةٍ تكفى أهل الأرض لو اغترفوا منه جميعًا»[٣].

ولو لم يكن له إلا موقفه فى سقيفة بنى ساعدة لكفاه، وهو يجمع شمل المسلمين على أبى بكر.

ولقد سار تحت راية الإسلام أنَّى سارت جنديًا، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير.. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين.

ولاه أبو بكر القيادة العامة فى أرض الشام، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك، ولكن أبا بكر أصرَّ على رأيه، فلما تحرّج موقف المسلمين فى أرض الشام اجتمعوا باليرموك، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة فى الشام بدلًا من أبى عبيدة الذى بقى على جند (حِمص)، ولكن عمر بن الخطاب أعاد

(١) أخرجه البخارى (٤٣٨٠) ـ ومسلم (٥٥) (٢٤٢٠).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٦٩٥) المغازى.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٢٦٢).

إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبى بكر، وكان يقول عنه: «لا أمير على أبى عبيدة».

وصيّر خالدًا موضع أبى عبيدة، وذلك فى أثناء حصارهم لدمشق، الذى لم يتم فتح دمشق فيه، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر فى نفسه، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطن، أمين. . . . حتى انتهت المعركة. وعلم خالد بأمر عزله، فأقبل حتى دخل على أبى عبيدة، فقال: «يغفر الله لك، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تُعلمنى، وأنت تصلى خلفى، والسلطان سلطانك؟!» فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر الله لك، ما كنت لأُعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيرى، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضى ذلك كله، ثم قد كنتُ أُعلمك إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوالٍ وانقطاعٍ، وإنما نحن إخوانٌ وقوامٌ بأمر الله ــ عز وجل ــ وما يضرُّ الرجلَ أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالى أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة؛ لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله ــ عز وجل ــ وقليل ما هم».

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره.

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتى لأبى بكر قائلاً له ولمن كان عنده: «إنى أشهدكم أنى وإخوتى وفتيانى ومن أطاعنى من أهلى حبيس فى سبيل الله، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهلكهم الله أو نموت عن آخرنا» وينضم إلى جيش أبى عبيدة، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبى سفيان، ولما يُسأل عن ذلك يقول: «ابن عمى أحبُّ إلىَّ من هذا فى قرابته، وهذا أحب إلىّ من ابن عمى فى دينه، هذا كان أخى فى دينى على عهد رسول الله ﷺ ووليىٍّ وناصرى على ابن عمى قبل اليوم، وأنا أشدُّ استئناسًا إليه وأشد طمأنينة منى بغيره».

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد.

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام.. ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولاً وعرضًا.. عتادًا وعددًا.. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا؛ قام فيهم خطيبًا، فقال لمن يُفتنون بقوته، وعظمته وأمانته: «يا أيها الناس.. إنى مسلم من قريش.. وما منكم من أحدٍ ـ أحمر ولا أسود ـ يفضلنى بتقوى إلا وددتُ أنى فى إهابه، أو مسلاخه» ـ يعنى فى جلده ـ.

حياك الله يا أبا عبيدة.. وحيّا الله دينًا أنجبك، ورسولاً علّمك.

و«لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحربية سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام، فتحدث عنها العدو والصديق، فإن شهرة أبى عبيدة فى الحِلْم والرِّفق، وسعة الصدر، والأمانة والصدق، وحُب السلام، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام؛ لذلك أحبوه ويسروا له مهمته، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء، واطمأنت كثيرٌ من النفوس.

لقد كان أبو عبيدة قائدًا مكيثًا، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكيثُ، كما يقول عمر بن الخطاب[1]. وكان قائدًا مُتبعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُها بكل أمانةٍ وإخلاصٍ، وقد بقى بعد معركة اليرموك فى موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأىُ عمر وأمره[2]؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبى عبيدة، وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى».

ولعل هناك من يأخذ على أبى عبيدة تريثه الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه، ويرى هذه الفرية كبار الفرسان، فقد بلغ معاذ بن

(١) الطبرى (٢/ ٦٣١).
(٢) الطبرى (١/ ٥٩٩).

جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق، ورجَّح خالد ابن الوليد، فغضب مُعاذٌ وقال: أبأبى عبيدة يُظنُّ؟! والله إنه لمن خير من يمشى على الأرض»[١].

ولقد كان ــ رضى الله عنه ــ من القادة الذين يستشيرون رجالهم فى كل خُطوةٍ يخطونها، وعندما تحشّد الرومُ لاستعادة أرض الشام، استشار أصحابه، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار فى (حِمص) أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأى الأكثرية.

وكان ــ رضى الله عنه ــ مهيبًا؛ مؤثرًا فى نفوس رجاله حين كان يتجوَّل فى معسكراتهم وهو يقول: «ألا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنّسٌ لدينه، ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين غدًا! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات»[٢].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: بلغ عمر أن أبا عبيدة حُصر بالشام، ونال منه العدو، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمنٍ شدة، إلا جعل الله بعدها فرجًا، وإنه لا يغلب عُسر يُسرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾، الآية [آل عمران: ٢٠٠].

قال: فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فإن الله يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، قال

(١) الإصابة (٤/ ١٢).
(٢) نقلاً من صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (ص: ٥١٠: ٥١٣) بتصرف.

فخرج عمر بكتابه، فقرأه على المنبر فقال: يا أهل المدينة! إنما يُعرِّض بكم أبو عبيدة أو بى، ارغبوا فى الجهاد[1].

جهاده في (فحل) وفتحها

لقد كانت لأبى عبيدة فكرة سوقية ـ استراتيجية ـ ممتازة، فقد بعث بعض القوات لمشاغلة قوات الروم فى «فحل»، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها، ثم قصد «فحل» بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان فى «فحل» و«دمشق» على مقاومة المسلمين فى وقت واحد وفى مكان واحد.

كما أرسل خالدًا على رأس جيش؛ لضرب الجيش الرومى الذى كان متوجهًا إلى دمشق، مما أدى إلى فشل هذا الجيش فى مهمته؛ لأنه أصبح يقاتل فى جبهتين فى آن واحد؛ من الأمام يقاتل جيش يزيد بن أبى سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد.

جهاده في (اللاذقية) وفتحها

ولله دَرُّ القائد المكيث الذى يباغت قوات عدوه... وسلوا «اللاذقية» تُجبكم؛ فقد سار أبو عبيدة إلى «اللاذقية» وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه، إلا بجماعةٍ كبيرةٍ من الناس، فعسكر المسلمون على بُعدٍ منها، ثم أمر فحُفرت حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا فى تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرُعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم؛

---

(١) أورده ابن المبارك فى «الجهاد» وقال الأرنؤوط: وإسناده قوى ورجاله ثقات ــ نقلاً من السير للإمام الذهبى (١/ ١٥ ــ ١٦).

ودخلوا معهم المدينة، ففتحوها عنوة(١).

أمين الأمة والدعوة إلى الله

قام أبو عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ بدعوة الرُّوميين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم، فقد ذهب بنفسه، ومعه يزيد بن أبى سفيان وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وأبو جندل بن سهيل ـ رضى الله عنهم ـ إلى القائد الرومى أخى الملك «تذراق» ودعوه إلى الله عز وجل، وكان ذلك قبل معركة اليرموك(٢).

كما دعا أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ الرسول الرومى الذى وفد إليه من قِبَل ماهان ـ وزير ملك الروم ـ طالبًا منه إرسال خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ إلى ماهان كى يتفاهم معه، وشرح الله صدره للإسلام، فاستجاب لدعوة أبى عبيدة ـ رضى الله عنه ـ وصاح: «اشهدوا علىّ بأجمعكم؛ أنى من المسلمين». ففرح المسلمون بإسلامه وصافحوه، ودعوا له بخيرٍ، وقالوا له: «ما أعزَّك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا! وما أنت عند كل امرئٍ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه». قال الرومى: «فإنكم نعم ما رأيت»(٣). وكان هذا قبل معركة فحل.

تجرد وإنصاف ونجاحٌ باهر

ولقد كانت معارك التطهير، واستثمار فوز اليرموك أكبر المعارك التى أظهرت مقدرة أبى عبيدة الفذّة «فقد فضّل أبو عبيدة التخلى عن القيادة العامة فى معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد، ولكن أبا عبيدة عاد إلى تولى

(١) ابن الأثير (٢/ ١٩٠)، وفى البلاذرى ص١٣٧: أن الذى فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت. ولكنه بأمر أبى عبيدة ومشورته، أو تحت قيادته.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٩ ـ ١٠).

(٣) فتوح الشام للأزدى (ص ١٩٨) وكتاب الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٣٨).

القيادة العامة بعد اليرموك، فخاض معارك التطهير بنجاح باهر يكاد يعتبر معجزة عسكرية، إذا أدخلنا فى حسابنا تفوق الروم الساحق على المسلمين، وسرعة إنجاز الفتح، وقلة الخسائر بالأرواح التى ضحَّى بها المسلمون من أجل فتح البلاد كلها»(١).

لله دَرُّ أبى عبيدة... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ.

ومسك الختام فلسطين (إيلياء) بيت المقدس

ومسك الختام فلسطين «إيلياء» بيت المقدس، حاصرها حتى طلب أهلها من أبى عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وأن يكون المتولى لعقد الصُلح عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر وفتح بيت المقدس.

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة... لكأنى به ينادى من وراء الغيب: هل فتحنا فلسطين ليُسلمها أحفادنا لليهود؟ واحسرتاه! واأسفاه.

غيَّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة

وها هو أبو عبيدة ــ رضى الله عنه ــ لا تستطيع الدنيا أن تصل إلى قلبه بحالٍ من الأحوال.. فهو ــ إن كان ــ يعيش على الدنيا بجسده إلا أن روحه تسرح فى جنة الرحمن، فهو لا يريد سواها.

يرسل إليه عمر بن الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال لرسوله: «انظر ما يصنع»، فقسّمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا!»(٢).

---

(١) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب ص٨٠، دار الفكر.
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٣).

ولما قدم عمرُ الشامَ، تلقاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخى؟» فقالوا: مَنْ؟ قال: «أبو عبيدة». قالوا: يأتيك الآن، فجاء على ناقةٍ مخطومةٍ بحبلٍ، فسلّم عليه، فقال عمر للناس: «انصرفوا عنا!»، وسار مع أبى عبيدة حتى منزله فنزل عليه، فلم يَرَ فى بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «لو اتخذت متاعًا» ــ أو قال شيئًا ــ فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلّغنا المقيل»(١).

وفى رواية أن عمر قال: «اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة» فقال له: «وما تصنع عندى يا أمير المؤمنين؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علىّ!». ودخل عمر فلم ير فى البيت شيئًا، فقال: أين متاعُك؟ لا أرى إلا لبدًا، وصفحةً، وشنًا(٢)، وأنت أمير!، أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة(٣) فأخذ منها كُسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلتُ لك: إنك ستعصرُ عينيك علىَّ يا أمير المؤمنين! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل!! فقال عمر: «غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة»!(٤)

إيثار يفوق الخيال

روى مالك الدار قال: إن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صُرَّةٍ، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة ثم تَلَه ساعة فى البيت حتى تنظر ما يصنع.

قال: فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك. قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية: اذهبى بهذه

(١) الإصابة (٤/ ١٢) وأسد الغابة (٣/ ٨٦).

(٢) القربة الخلق.

(٣) السلة المستديرة.

(٤) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين (ص ٥١٤: ٥١٧) بتصرف.

السبعة إلى فلانٍ، وبهذه الخمسة إلى فلان... حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتله فى البيت ساعة، حتى تنظر ما يصنع.

فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله: تعالى يا جارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا، واذهبى إلى بيت فلان بكذا.

فاطلعت امرأة معاذ فقالت: نحن والله مساكين فأعطنا، ولم يتبق فى الخرقة إلا ديناران فدحا بهما[1] إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فسُرَّ بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[2].

وحان وقت الرحيل

عن الحارث بن عميرة قال: أخذ بيدى معاذ بن جبل فأرسله إلى أبى عبيدة فسأله كيف هو ــ وقد طُعِنًا ــ فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت فى كفه، فتكاثر شأنها فى نفس الحارث، وفَرِقَ منها ــ خاف منها ــ حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حُمر النَّعَمْ[3].

وعن قيس بن مسلم، عن طارق أن عمر كتب إلى أبى عبيدة فى الطاعون: إنه قد عرضت لى حاجة ولا غنى بى عنك فيها فعجِّل إلىَّ، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بباقٍ. فكتب: إنى قد عرفت حاجتك فحللنى من عزيمتك، فإنى فى جندٍ

(١) دَحَا بهما: أى رمى بهما.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٩١)، وحلية الأولياء (١/ ٢٣٧)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير برقم (٣٦٤) والحاكم (٣/ ٢٦٣) ورجاله ثقات سوي شهر بن حوشب، فهو مختلف فيه.

من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسى عنهم. فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قَدْ؟

قال: فتوفى أبو عبيدة وانكشف الطاعون[١].

وذات يوم، وأمير المؤمنين عمر الفاروق يُعالج ــ فى المدينة ــ شئون عالمه المسلم الواسع، جاءه الناعى، أن قد مات أبو عبيدة.

وأسبل الفاروق جفنيه على عينين غُصَّتا بالدموع... وغاض الدمع، ففتح عينيه فى استسلام... وترحّم على صاحبه، واستعاد ذكرياته معه ــ رضى الله عنه ــ فى حنان صابر...

أمنية عمرية

وها هو عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يتمنى تلك الأمنية الغالية وقد امتلأ قلبه حزنًا على فراق إخوانه وأحبابه، فقال يومًا لمن حوله: تمنوا، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله ثم قال: تمنوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا أو زبرجدًا أو جوهرًا، فأنفقه فى سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين، قال عمر: أتمنى، لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان[٢].

ومات أمين الأمة فوق الأرض التى طهرها من وثنية الفرس، واضطهاد الرومان...

وهناك اليوم تحت ثرى الأُردُن يثوى رفات نبيل، كان مستقرًا لروح خير، ونفس مطمئنة...

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ١٨ ــ ١٩).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.

وسواءٌ عليه ــ وعليكَ ــ أن يكون قبره اليوم معروفًا أو غير معروف. . .

فإنك إذا أردت أن تبلغه لن تكون بحاجة إلى من يقودك إليه. .

ذلك أنَّ عبير رُفاته، سيدُلك عليه. . !![1]

فرضي الله عن أبي عبيدة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٣١٠).

صهيب الرومى

ربح البيع أبا يحيى

محمد رسول الله ﷺ

نشأ صهيب فى بيئة مترفة يخيم عليها النعيم والسعادة، فقد كان أبوه حاكم «الأُبُلّة» وعاملاً عليها لكسرى. وكان يعيش معه ابنه صهيب فى القصر الذى يطل على شاطئ الفرات مما يلى الجزيرة والموصل. وكان أبوه من بنى نمير وأمه من بنى تميم، ولكنه سُمى بصهيب الرومى؛ لأنه عاش زمانًا طويلاً فى بلاد الروم.

من النعيم إلى الأسر

وبينما صهيب يعيش فى تلك السعادة ويرفل فى ذاك النعيم، وإذا بأمه تخرج به للنزهة ومعها الحَشَم والخدم إلى قرية «الثَّنِىّ» من أرض العراق، وإذا بالبلاد تتعرض لهجوم الروم، فقتلت الحُراس ونهبت الأموال، وأسرت الذرارى، وكان من جملة من أَسرَتهم (صهيب).

ويباع صهيب فى أسواق الرقيق، وظل يتنقل من مكان إلى مكان، ومن خدمة سيدٍ إلى خدمة سيدٍ آخر إلى أن انتهى به التطواف إلى مكة المكرمة.

قيل اشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه.. وقيل: بل هرب صهيب من رِق أسياده إلى مكة المكرمة، وحالف عبد الله بن جدعان، وظل يعمل معه فى

التجارة إلى أن أصبح عنده ثروة كبيرة.

حنينه إلى الإسلام

وظل صهيب يترقب ظهور النبى ﷺ وبخاصة بعد أن سمع كاهنًا من كهنة النصارى وهو يقول لسيدٍ من أسياده: لقد أظلَّ زمان يخرج فيه من مكة فى جزيرة العرب نبى يصدقُ رسالة عيسى بن مريم ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فلما وصل صهيب إلى مكة واشتغل بالتجارة وامتلك ثروة كبيرة ظل قلبه يتطلع لأعظم ثروة ألا وهى نعمة الإسلام. ولم يلبث إلا قليلاً حتى سمع بمبعث النبى ﷺ فكان من المسارعين إلى الإسلام.

مضى صهيبٌ إلى دار الأرقم حَذِراً يتلفت، فلما بلغها وجد عند الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تُريدُ يا عمار؟. فقال عمار: بل ما تريد أنت؟. فقال صهيبٌ: أردت أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول. فقال عمار: وأنا أُريد ذلك أيضًا. فقال صهيبٌ: إذن ندخل معًا على بركة الله.

دخل صهيب بن سنان الرومى، وعمار بن ياسر على رسول الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان فى صدريهما، وتسابقا فى مد أيديهما إليه، وشهدا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومهما عنده ينهلان من هَديه وينعمان بصحبته.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جُنح الظلام، وقد حمل كل منهما من النور فى صدره ما يكفى لإضاءة الدنيا بأسرها[1].

***

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ٢٠١ ــ ٢٠٢).

تحمل الأذى في سبيل الله

عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمَّار، وأُمُّهُ سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد ــ رضي الله عنهم ــ، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ(١).

فصبر صهيب على هذا الأذى راضيًا بقضاء الله تعالى راغبًا فيما عند الله مستعذبًا هذا العذاب في سبيل الله فهو يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ربح البيع أبا يحيى

وتأتي الهجرة المباركة ويهاجر النبي ﷺ وصاحبه، وتتوق نفس صهيب إلى الهجرة، فاعترضته قريش فضحَّى بماله كله من أجل أن يتركوه ليلحق بالنبي ﷺ وأبي بكر، ففاز بأعظم جائزة فقد أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، وقال له الحبيب ﷺ: ربح البيع أبا يحيى.

وها هي قصته التي تُثلج الصدر: لما خرج صهيب مهاجرًا تبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهمًا فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتين فهما لكم.

ونزلت على النبي ﷺ: **﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله﴾** فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع» قال: وتلا عليه الآية(٢).

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه.

وعن أبى عثمان: أن صهيبًا حين أراد الهجرة، قال له أهل مكة: أتيتنا صُعلوكًا حقيرًا، فتغيَّر حالُك! قال: أرأيتم إن تركت مالى، أمُخلُّون أنتم سبيلى؟ قالوا: نعم. فخلع لهم ماله. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «ربح صهيب! ربح صهيب»![1].

وعن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: أُريتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرة! فإما أن تكون هَجَر، أو يثرب.

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد كنت هممت بالخروج معه، فصدَّنى فتيانٌ من قريش، فجعلت ليلتى تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه ــ ولم أكن شاكيًا ــ فناموا، فذهبت، فلحقنى ناسٌ منهم على بريد. فقلت لهم: أُعطيكم أواقى من ذهب وتُخلُّونى؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أُسكفة الباب تجدوها، وخُذُوا من فلانة الحُلتين. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُباء فلما رآنى، قال: «يا أبا يحيى، ربح البيع»! ثلاثًا. فقلتُ: ما أخبرك إلا جبريل[2].

وتالله إن الدنيا بكل ما فيها من زُخرفٍ وزينة ومتاع لا تساوى أبدًا قول النبى ﷺ لصهيب: ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى.

خفة ظله

وكان صهيب ــ رضى الله عنه ــ يتمتع بخفة الظل التى تجعل الإنسان لا يملّ أبدًا من صحبته، بل يشتاق لمجالسته فى كل وقتٍ وحين.

فعن صهيب قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ قُباء، وقد رَمِدتُ فى الطريق وجُعتُ، وبين يديه رُطبٌ، فوقعت فيه. فقال عمر: يا رسول الله:

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٢٧ ــ ٢٢٨) ورجاله ثقات.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٧٢).

ألا ترى صهيبًا يأكل الرُّطَب وهو أرمد؟ فقال النبى ﷺ لى ذلك. قلت: إنما آكل على شق عينى الصحيحة. فتبسم.

وفى رواية أخرى: عن صهيب قال: قدمت على النبى ﷺ، وبين يديه خبز وتمر. فقال النبى ﷺ: «ادن فكل» فأخذت آكل من التمر، فقال النبى ﷺ: «تأكل تمرًا وبك رمد»؟ قال: فقلت: إنى أمضغ من ناحية أخرى، فتبسم رسول الله ﷺ (١).

جهاده في سبيل الله

لقد كان صهيب من كبار السابقين البدريين.

يقول صهيب عن نفسه: لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدًا قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة إلا كنت حاضرها، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره إلا كنت فيها عن يمينه أو عن شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو قط حتى توفى رسول الله ﷺ (٢).

مكانته عند الله وعند رسوله ﷺ

ولقد احتل صهيب مكانة مرموقة عند الله ـ جل وعلا ـ وعند رسوله ﷺ.

وإذا أردنا دليلاً على ذلك فما علينا إلا أن نتأمل هذا الحديث.

فعن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال: فقال

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٢٨) وابن ماجة فى الطب (٣٤٤٣). وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢١٣) إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٧).

أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفر الله لك يا أُخَىَّ[1].

ولقد علم أصحاب النبى ﷺ قدر صهيب فأنزلوه منزلته حتى إن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ لما طُعن استناب صهيبًا لكى يصلى بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام[2].

وكان صهيب موصوفًا بالكرم والسماحة ــ رضى الله عنه ــ.

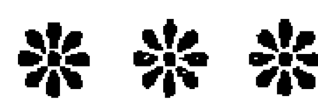
وذات يوم قال عمر ــ رضى الله عنه ــ لصهيب: «يا صهيب مالك تُكَنَّى أبا يحيى وليس لك ولد، وتقول: إنك من العرب وأنت رجل من الروم، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سرف فى المال؟» فقال صهيب ــ رضى الله عنه ــ: «إن رسول الله ﷺ كنَّانى أبا يحيى. وأما عن قولك فى النسب وادعائى إلى العرب، فإنى رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل، ولكن سُبيت، سبتنى الروم غلامًا صغيراً بعد أن عقلتُ أهلى وقومى وعرفت نسبى.

وأما قولك فى الطعام وإسرافى فيه فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن خياركم مَنْ أطعم الطعام ورد السلام» فذلك الذى يحملنى على أن أطعم الطعام»[3].

وكان ممن اعتزل الفتنة وأقبل على شأنه.

وبعد حياة مديدة مملوءة بالتضحية والعطاء، فاضت روحه الطاهرة، ومات بالمدينة فى شهر شوال سنة ثمان وثلاثين.

فرضى الله عن صهيب وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) وأحمد (٥/ ٦٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧٢).
(٢) السير للإمام الذهبى (٢/ ١٨).
(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٢٧).

سالم مولى أبى حذيفة

الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا

محمد رسول الله ﷺ

من السابقين الأولين البدريين المقربين العالمين.

كان غلامًا رقيقًا طيبًا مباركًا وكان (لثبية بنت يعار الأنصارى) وكانت ترى فيه من الخصال الطيبة ما حملها على أن تعتقه وتحرره.. فخشى زوجها (أبو حذيفة بن عتبة) على هذا الغلام الصغير من التيه والضياع فى دروب الحياة المتشابكة فأخذه ومضى به إلى الحرم ووقف على ملأٍ من قريش وقال لهم اشهدوا أنى قد تبنيت سالمًا وقد أصبح منى بمنزلة ابنى. فأصبح الناس ينادونه بسالم بن أبى حذيفة.

ادعوهم لآبائهم

وبعد فترة يسيرة أذن الله للنور الإلهى أن ينبثق من بين أرجاء مكة لينير الكون كله بأنوار الهدى والرحمة.

لقد بعث الله محمدًا ﷺ ليُخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وكان أبو حذيفة وابنه سالم من السابقين الأولين الذين شرح الله صدورهم للإسلام.

وبدأت أواصر المحبة بينهما تزداد يومًا بعد يوم، وذلك بعد أن جمع الإسلام بينهما وألقى الله المحبة الحقيقية بينهما. . . . قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وبعد فترة يسيرة أبطل الإسلام عادة التبنى وأمر الناس جميعًا أن يردّوا الأبناء إلى آبائهم، وذلك من أجل الحفاظ على الأنساب.. وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

أى انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناءً لآبائهم الأُصلاء فاستجاب المسلمون لأمر الخالق ــ جل وعلا ــ ولكن أبا حذيفة أخذ يبحث طويلاً عن والد سالم فلم يجده، فأصبح الناس يطلقون على سالم (سالم مولى أبى حذيفة) وظل هذا الاسم معروفًا به إلى أن فارق الحياة.

صلة وثيقة وفراق مؤلم

وأخذ الاثنان يعبدان ربهما فى إخبات وخضوع وخشوع راجين أن يجمعهما الله تعالى فى جنته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

وفى غمرة هذه المحبة أراد أبو حذيفة أن يزداد قُربًا وصلة بسالم ــ رضى الله عنهما ــ فزوَّجه من ابنة أخيه (فاطمة بنت الوليد بن عُتبة) ذات الحسب والنسب.

وظلت السعادة حينًا من الدهر ترفرف فى سماء حياتهما حتى اشتد إيذاء المشركين على أصحاب النبى ﷺ مما جعل النبى ﷺ يحثهم على الهجرة إلى

الحبشة فهاجر أبو حذيفة إلى الحبشة فارًا بدينه وعقيدته وإيمانه لكى تغسل شلالات الحبشة جراحاته هو وإخوانه من أصحاب الحبيب ﷺ.

أما سالم فلم يهاجر وآثر البقاء مع النبى ﷺ ليأخذ منه القرآن غضًا طريًا كما أُنزل وليتعلم العلم بين يدى الحبيب ﷺ.

منزلة عالية تناطح كواكب الجوزاء

وظل سالم ـ رضى الله عنه ـ على تلك الحالة ملاصقًا للنبى ﷺ يتلقى منه القرآن حتى أصبح واحداً من كبار حَمَلَة القرآن. . بل لقد بلغ منزلة عالية يعجز القلم عن وصفها.

فها هو ـ رضى الله عنه ـ يؤم المهاجرين الأولين فى مسجد قباء وفيهم أبو بكر وعمر.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما قدم المهاجرون الأولون العُصبة ـ موضعٌ بقُباء ـ قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالمٌ مولى أبى حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا»[1].

بل جعله النبى ﷺ واحداً من الأربعة الذين حثّ النبى ﷺ أصحابه بأن يأخذوا القرآن عنهم.

---

(١) أخرجه البخارى (٦٩٢) ـ وفى الحديث فضيلة ظاهرة لسالم ـ رضى الله عنه ـ إذ قدَّمه كبار الصحابة من المهاجرين الأولين السابقين لإمامتهم. وقد وقع عند البخارى هذا الحديث فى الأحكام أيضًا (٧١٧٥) بلفظ: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبى ﷺ فى مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد وعامر بن ربيعة، قال الحافظ فى الفتح (٢/ ١٨٦): واستشكل ذكر أبى بكر فيهم إذ فى الحديث أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ وأبو بكر كان رفيقه، ووجهه البيهقى باحتمال أن يكون سالم المذكور استمر على الصلاة بهم فيصح ذكر أبى بكر ولا يخفى ما فيه. وذكر الحافظ فى الفتح أيضًا (١٣/ ١٦٨) هذا الكلام بصياغة أخرى فقال: وقد تقدم الجواب عن استشكال عد أبى بكر الصديق فيهم لأنه إنما هاجر صحبة النبى ﷺ وقد وقع فى حديث ابن عمر أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ وذكرت جواب البيهقى بأنه يحتمل أن يكون سالم استمر يؤمهم بعد أن تحول النبى ﷺ إلى المدينة ونزل بدار أبى أيوب قبل بناء مسجده بها فيحتمل أن يقال فكان أبو بكر يصلى خلفه إذا جاء إلى قباء.

فعن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وأُبىٍّ، ومعاذ بن جبل»(١).

بل تدبروا معى جميعًا لهذا الوسام الذى وضعه النبى ﷺ على صدر هذا الصحابى الجليل.

فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال: «أين كنتِ؟» قلت: كنت أستمع قراءة رجلٍ من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلىَّ فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا»(٢).

بل لقد شهد له النبى ﷺ بالإيمان؛ فعن عمرو بن العاص، قال: كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبى حذيفة وهو مُحْتَبٍ بحمائل سيفه، فأخذت سيفى فاحتبيت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله؟» قال: «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان؟»(٣).

لقاء فى ميدان الشرف

وبعد غياب يلتقى (أبو حذيفة) بأخيه فى الله (سالم) ــ رضى الله عنهما ــ على أرض الشرف والجهاد ــ فى غزوة بدر ــ يقاتلان فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله فأثلج الله صدور المؤمنين بهذا النصر المؤزّر على المشركين.

(١) أخرجه البخارى (٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤) والترمذى (٣٨١٠).

(٢) رواه ابن ماجة (١٣٣٨) ورجاله ثقات ــ وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٧١)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٥ ــ ٢٢٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٠٣) والنسائى فى الفضائل (١٩٦) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

وظل أبو حذيفة وسالم ــ رضى الله عنهما ــ يجاهدان فى سبيل الله ــ جل وعلا ــ مع النبى ﷺ فى كل غزواته حتى توفى الحبيب ﷺ واستخلف المسلمون أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ وخاض المسلمون حروب الردة التى كانت فى قمة الشراسة والضراوة.

وحان وقت الرحيل

وفى معركة اليمامة التى كانت بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب قام أبو حذيفة وسالم ــ رضى الله عنهما ــ يضربان المثل فى الشجاعة والإقدام والبحث عن الشهادة فى سبيل الله أينما كانت.

وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة وراية الأنصار مع ثابت ابن قيس. . . واصطدم المسلمون والكفار.

وقاتلت بنو حنيفة (حلفاء مسيلمة الكذاب) قتالاً لم يُعهد مثله وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة: نخشى أن نؤتَى من قِبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى، فقُتل شهيداً ــ رضى الله عنه ــ وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب ــ رضى الله عنه ــ[1].

وأما سالم ــ رضى الله عنه ــ فقد أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، ثم تناولها بشماله، فقُطعت. ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ: ﴿**وما محمد إلا رسول قد**

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٣٢٩).

خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ إلى أن قُتل[١].

وقبل أن تخرج روحه الشريفة وهو فى الرمق الأخير يبحث عن رفيق عمره الذى كان يتمنى من أعماق قلبه أن يجمعه الله به فى جنته كما جمعه به فى تلك الحياة على طاعته.

وإذا بالحق ـ جل جلاله ـ يجمع بينهما ويرزقهما الشهادة فى يوم اليمامة بل إن سالمًا وُجد هو ومولاه أبو حذيفة رأس أحدهما عند رجلى الآخر صريعين[٢].

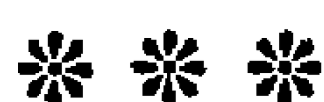
ولسان حال كل واحدٍ منهما: غداً نلتقى فى الجنة إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

أمنية عُمرية

وها هو الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ يتمنى أمنية غالية توضح لنا مكانة سالم من قلب عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

فعن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لأصحابه: تمنَّوا. فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةً ذهبًا أُنفقهُ فى سبيل الله وأتصدق، وقال رجلٌ: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجواهراً فأُنفقه فى سبيل الله وأتصدق ثم قال عمر: تمنوا فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان[٣].

فرضى الله عن سالم وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) صفة الصفوة (١/ ١٥٨).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٥) نقلاً من السير (١/ ١٦٩).

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.

مصعب بن عمير

سفير الدعوة الأول للمدينة.. والداعية الشهيد

الفاتح الأول للمدينة والداعية الشهيد. . إنه مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ.

الفائز بالآيات. . . المشرق بالهلات، جبل الرحمة والبركات. . . غاسل يثرب بالقرآن. . . الوجه الفاتح للإيمان ديار الكفر. . . الماهد أرض رسول الله ﷺ. . . نبراس الدعاة وإمام الفاتحين الفتى المُنَّعَم الذى صاغه الإسلام على يديه، تقدَّم حين نادت المغارم، وذهب إلى لقاء ربه قبل مجىء الغنائم، اختاره الله شهيداً بين يدى رسول الله ﷺ بعد أن أسلم على يديه: أُسيد بن حُضير الذى تنزَّلت الملائكة لتلاوته القرآن وسعد بن معاذ الذى اهتزَّ لموته عرش الرحمن. . . مصعب غرَّة فتيان قريش، وأوفاهم بهاء وجمالاً وشبابًا، ولؤلؤة أهل مكة ومجالسهم وندواتهم، وبعد الإسلام صار أسطورة من أساطير الإيمان والفداء[١].

ويا لها من دقائق ولحظات سعيدة لا تُحسب من العمر نقضيها مع السيد الشهيد السابق البدرى القرشى العبدرى (مصعب بن عمير) إنه سفير الدعوة الأول فهو أول من دعا إلى الله فى المدينة المنورة.

---

(١) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

لقد كان (مصعب) قبل الإسلام هو أنعم فتيان مكة، فلم يكن هناك مَن يلبس مثل ثيابه ولا يضع مثل عطره حتى إنه كان إذا مرَّ من طريقٍ وجاء بعده أُناس قالوا: لقد مرَّ مصعب بن عمير من هذا الطريق ــ مما يجدون من عطره الجميل ــ.

وفجأة تمر فوق رأسه سحابة الإيمان وتُسقط ماءها كله عليه فيشرب منه ويغتسل فيخالط الإيمان قلبه وجسده فى آنٍ واحدٍ. فإذا به يضع أقدامه على الأرض ورأسه تناطح كواكب الجوزاء.. يمشى بكل ثقة على طريق الحق والخير إلى دار الأرقم ليعلن للعالم كله أن الفتى المدلل (مصعب) قد أُسدل عليه الستار.

ومنذ تلك اللحظة سيتحول هذا الفتى الريَّان المنعَّم إلى أسطورة عظيمة من أساطير الدعوة والعطاء والفداء!!!

صناعة الرجال

إنها قضية من أعظم وأجلّ القضايا التى يعجز عنها أى منهج علمى أو تربوى... ولكن منهج الإسلام ونور الوحى وقوة العقيدة هى التى تصنع الرجال والأبطال، وكل ذلك بتقدير الكبير المتعال.

لقد جاء الإسلام إلى أمةٍ غارقةٍ فى أوحال الجاهلية فجاءهم الإسلام بمنهاج يحمل فى طياته الهدى والنور والخير كله، فهو منهج يُنشئ الأجيال ويربّى النفوس ويبنى الحضارات، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ــ ١٦].

فما إن يدخل الرجل فى هذا الدين حتى يستشعر من اللحظة الأولى تلك

الأمانة التى ألقاها الله على عاتقه.

فكان الرجل من أصحاب النبى ﷺ يحمل على كاهله أعباء الدعوة ويستعذب فى سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية ويواصل الليل والنهار من أجل أن ينشر الإسلام فى أرجاء المعمورة... فلما أخلصوا لله ـ جل وعلا ـ فتح الله بهم القلوب والأمصار فما بين عشية وضحاها قامت للمسلمين دولة وسلطان وتأسست لهم حكومة وقيادة وأخضعوا لحكمهم الفرس والروم ودانت لهم الأمم حتى وقف هارون الرشيد يصوّر للعالم بسطة العالم الإسلامى فلم يجد غير أن يخاطب السحابة فى كبد السماء قائلاً لها: أيتها السحابة أمطرى حيث شئتِ، فإن خراجُك سوف يأتينى إن شاء الله.

بل تأمل معى ما قاله شهيد الإسلام سيد قطب ـ رحمه الله ـ فى كتابه «دراسات إسلامية» فصل انتصار محمد بن عبد الله.

(وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه ـ عليهم رضوان الله ـ صوراً حية من إيمانه، تأكل الطعام، وتمشى فى الأسواق... يوم صاغ من كل واحدٍ منهم قرآنًا حيًا يدب على الأرض، يوم جعل من كل فرد نموذجًا مجسمًا للإسلام، يراه الناس فيرون الإسلام.

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئًا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكًا.

ومن ثَم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يُلقى مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يُدبج خُطبًا، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة... أما الفكرة ذاتها فقد تكفّل بها القرآن الكريم، وكان عمل محمد ﷺ أن يحوّل لفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدى، وتراهم العيون...

ولقد انتصر محمد بن عبد الله ﷺ، يوم أن صاغ من فكرة الإسلام

شُخوصًا، وحوّل إيمانهم بالإسلام عملاً، وطبع من المصحف عشراتٍ من النسخ ثم مئات وألوفًا، ولكنه لم يطبعها بالمداد ــ الحبر ــ على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب. وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله). ا.هـ.

ويكفى شريعة الإسلام فخرًا أن يشهد لها الخصوم والأعداء بنمائها وحيويتها وخلودها.

شهد الأنام بفضله حتى العِدا والفضل ما شهدت به الأعداء

ولم يأتِ هذا كله فى غمضة عين وانتباهتها، بل جاء ببذل الدماء والأموال فى سبيل الله فهؤلاء الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ الذين بلغوا المجد والعظمة بحملهم لرسالة الإسلام عقيدةً وقولاً وعملاً. . . فهذه هى مؤهلات النصر والتمكين: أن يتمسك المؤمن بعقيدةٍ راسخة ويحوّل تلك العقيدة إلى واقع عملى ينظر إليه أعداء الدين على أنه جبلٌ شامخ من القيم والأخلاقيات والمعاملات والعبادات، وبهذا يستطيع المسلم أن يحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ومن فيها فيجاهد ويضحى ويصبر ويُبلِّغ رسالة الإسلام[1].

وهذا مصعب بن عمير هو واحد ممن تربَّوا بين يدى مَن ربَّاه الله ليربّى به الأمم والأجيال ــ محمد بن عبد الله ﷺ ــ.

فإنه لم يكد مصعب يعلن إسلامه حتى علم أنه أُلقى على كاهله أمانة عظيمة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها. . . فقام يدعو إلى الله على بصيرة.

❊ ❊ ❊

---

(١) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٢٠ ــ ٢١).

يُبتلى الرجل على قدر دينه

وكان مصعب ـ رضى الله عنه ـ يكتم إسلامه فى بداية الأمر خوفًا من بطش أمه، فقد كانت تتمتع بقوة عجيبة فى شخصيتها تفوق الكثير من الرجال.

ولكن البلاء سُنة ثابتة، فلقد رآه «عثمان بن طلحة» وهو يدخل إلى دار الأرقم، ثم رآه مرة أخرى وهو يصلى، فذهب إلى أم مصعب ـ تسابق أقدامه الريح ـ وأخبرها بإسلام مصعب حتى كاد عقلها أن يطيش لهول المفاجأة التى وقعت عليها.

وهمّت أمه بإيذائه ـ بالضرب ـ ولكن نور الإيمان التى كسى وجهه جعلها تتراجع عن ذلك، وتكتفى بحبسه فى دارها.

وهنا نقول: إن صدق الإيمان يظهر واضحًا جليًا فى الصبر على المحن والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

[العنكبوت: ١ ـ ٣]

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وذلك التميز لا يكون إلا فى الابتلاء والامتحان الذى يفصل الصادقين عن الكاذبين.

ولقد جاءت المواقف الإيمانية التى وقفها الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ

لتكون لنا كالشمس الساطعة فى دنيا الحقيقة... فنتعلم منها كيف يكون الإيمان الحقيقى الصادق فنسير على آثار خطواتهم إلى أن تكون خاتمة السعادة بمرافقتهم فى جنات النعيم، فيكمل الله لنا النعمة بصحبة نبيه ﷺ ويسبغ علينا فضله ورحمته بالنظر إلى وجهه الكريم[1].

سيجعل الله بعد عسر يسراً

ولكن الله دائمًا وأبدًا لا يُسلم أولياءه لأعدائه... فسرعان ما جاء الفرج من عند الله. فلقد استطاع مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن يهرب من هذا الحبس وغافل أمه وحُرّاسه ومضى إلى بلاد الحبشة مهاجرًا ليغسل جراحاته بشلالات الحبشة، ثم عاد مع من عاد من الحبشة ولم يلبث إلا قليلاً حتى هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة فاراً بدينه وإيمانه.

وكان مصعب من أنعم الناس عيشًا قبل إسلامه فلما أسلم زهد فى الدنيا وترك زينتها وتفرغ للعبادة وطلب العلم.

ولقد منعته أمه من ثروتها وأبت أن ينال منها درهمًا واحدًا بعدما ترك عبادة الأصنام وسجد للواحد الديان.

يقول (علىّ) ـ رضي الله عنه ـ: جئت المسجد فطلع علينا مصعبُ بن عمير فى بُردة له مرقوعة بفروة، وكان أنعم غلام بمكة وأرفَه، فلما رآه رسول الله ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التى هو عليها، فذرفت عيناه عليه، ثم قال: أنتم اليوم خيرٌ أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم؟ فقلنا: نحن يومئذ خير، نُكفى المؤنة، ونتفرَّغُ للعبادة. فقال: بل أنتم اليوم خيرٌ منكم يومئذ[2].

---

(١) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص: ٦٢ ـ ٦٣).

(٢) أخرجه الترمذى (٢٤٧٨) فى صفة القيامة، وقال: حديث حسن غريب.

وخرج مصعب من النعمة الوارفة التى كان يعيش فيها مؤثرًا الشظف والفاقة (الفقر) وأصبح الفتى المتأنق المعطَّر، لا يُرى إلا مرتديًا أخشن الثياب، يأكل يومًا، ويجوع أيامًا، ولَكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الله، كانت قد جعلت منه إنسانًا آخر يملأ الأعين جلالاً، والأنفس روعة(١).

سفير الدعوة الأول

ويا لها من منقبة عظيمة أن يختار الحبيب ﷺ مصعبًا لأعظم وأجلّ مهمة فى الكون، ألا وهى الدعوة إلى الله.

فبعثه النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ليكون سفير الدعوة الأول، وذلك بعد أن بايع الأنصار البيعة الأولى يفقههم ويُقرؤهم القرآن، وكان يأتيهم فى دورهم، فيدعوهم إلى الإسلام فأسلم منهم خلق كثير وفشا الإسلام فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم فأذن له، فجمع بهم فى دار بنى خيثمة.

ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية، فأقام بمكة قليلاً ثم قدم قبل رسول الله ﷺ المدينة فهو أول من قدمها.

وعن ابن شهاب قال: لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ، ورجعوا إلى قومهم، فدعوهم إلى الإسلام سرًا، وتلوا عليهم القرآن، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك، أن ابعث إلينا رجلاً من قِبلك فليدع الناس بكتاب الله؛ فإنه قمن أن يُتبع. فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، فلم يزل يدعو آمنًا ويهدى اللهُ تعالى الناس على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافهم. فأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكان المسلمون أعز أهل المدينة. فرجع مصعب إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٤٦).

وكان يُدعى المقرئ(١).

هكذا فليكن الدعاة

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ (ابن خالة) أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَق(٢)، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّي حيث [ما] قد علمت كفيتُك ذلك، (هو ابن خالتي) ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم.. في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

(٢) بئر مَرَق: بئر بالمدينة.

رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم (أُسيد) بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك(١). قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذى ذُكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمت هذا منى(٢)، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ ــ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيِّدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ــ قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركَّز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهَّد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أُسيد ابن حُضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير

(١) ليخفروك: نقض عهده وخاس به وغدره وأخفر الذمة: لم يفِ بها.
(٢) ما رُمتَ هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغته.

الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة(١)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون(٢).

فى مثل هدوء البحر وقوَّته، وتهلُّل ضوء الفجر ووداعته، انساب نور الإيمان على يدى مصعب إلى سادات الأنصار: أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة... شاب يقود ويُسيِّر جبال الإيمان، ويكون فى ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج(٣).

فلله درّ مصعب بن عمير الداعية الذى على يديه أسلم الجبلان: سعد بن معاذ وأُسيد بن الحضير، ولله در سعد بن معاذ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، الداعية الذى أسلم بإسلامه قومه (الرجال والنساء). فليحسن الداعية خلقه مع أهله، وليجعل بينه وبينهم وصلاً، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلا حبًا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم.

قال ابن شهاب: وكان أول من جمع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ (٤) ـ يعنى مصعب ـ.

---

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل. وقال ابن بُزَرج: اللهم نقية أى نفاذ رأى، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩). وذكره ابن كثير فى البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق، وقال جمال ثابت فى تخريج السيرة النبوية لابن هشام: إسناده صحيح.

(٣) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

وعن البراء أنه قال: «أول من قَدِمَ علينا مُصعبُ بن عُمير وابن أم مكتوم، ثم قَدِمَ علينا عمارُ بن ياسر وبلال ـ رضى الله عنهم ـ»[١].

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

وشهد (مصعب بن عمير) بدرًا وقاتل قتالاً شديدًا، وبعد أن انقضت الغزوة بانتصار المسلمين... وأسر المسلمون عددًا من المشركين كان لمصعبٍ موقفًا عظيمًا فى الولاء والبراء.

قال ابن إسحاق: وحدثنى نبيه بن وهب أخو بنى عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأُسارى فرَّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيرًا».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأُسارى، قال: فقال أبو عزيز: مَرّ بى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى. فقال (مصعب): شُدَّ يدك به، فإن أمه ذات متاعٍ، لعلها تفديه منك. قال: وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصّونى بالخبز وأكلوا التمر. لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. قال: فأستحى فأردها على أحدهم. فيردها علىَّ ما يمسها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير (لأبى اليسر) وهو الذى أسره ما قال: قال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟! فقال له مصعب: إنه أخى دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فُدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[٢].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٢٤) وابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ٨٣).

(٢) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٤).

وقول مصعب ــ رضى الله عنه ــ لأبى اليسر: إنه أخى دونك؛ حقٌ وصدقٌ، فإن الأخوة الإيمانية مقدمة على أخوة الرحم، والعلاقة الدينية مقدمة على علاقة النسب. قال الله ــ عز وجل ــ لنوح ــ عليه السلام ــ فى حق ابنه الكافر: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

ومما يدل على ذلك كذلك أن الرجل إذا مات وليس له إلا ابن كافر، فإنه لا يرثه، ويعود ماله إلى إخوانه المؤمنين، وهذا يدل على أن معانى الولاء والبراء كانت قوية عند الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ[1].

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

ولقد حمل مصعب اللواء يوم أُحُد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قمِئة فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضربها فقطعها، فحنا على اللواء وضمَّه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه.

وقال ابن سعد: وقال عبد الله بن الفضل: قُتل مصعب، وأخذ اللواء مَلَكٌ فى صورته، فجعل النبى ﷺ يقول له فى آخر النهار: تقدَّم يا مصعب. فالتفت إليه الملك وقال: لست بمصعب فعرف النبى ﷺ أنه ملك أُيِّد به[2].

قال ابن إسحاق: وقاتَلَ مصعبُ بن عُمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، قتله ابن قمئة الليثى، وهو يظنه رسول الله. فرجع إلى قريش، فقال: قتلتُ محمدًا فلما قُتل مصعب، أعطى رسول الله ﷺ اللواء علىَّ بن أبى طالب،

(١) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٤٦١).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٦٢).

ورجالاً من المسلمين[١].

وعن عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من أُحد مرَّ على مصعب ابن عمير مقتولاً على طريقه فقرأ: ﴿**من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ادّخار الأجر لمصعب يوم القيامة

وبعد أن سالت دماء بطلنا على أرض الشرف والجهاد وقام الحبيب ﷺ يتفقد القتلى، فلما أشرف عليهم قال ﷺ : «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جريح يُجرحُ فى [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جُرحه، اللونُ لون دمٍ، والريحُ ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر» ــ وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر [الواحد][٢].

وعند جثمان مصعب سالت دموعه ﷺ .

قال خبّاب بن الأرتّ: هاجرنا مع النبى ﷺ نريدُ وجه الله فوقع أجرُنا على الله فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا منهم مصعبُ بن عُمير، قُتل يوم أُحد وترك نمرةً فكنا إذا غطينا بها رأسهُ بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من إذخر، ومنا من أينعت له ثمرتُهُ فهو يهدبُها[٣].

وظل أصحاب الحبيب ﷺ يذكرون مصعبًا فى كل وقت ولم يغب وجهه عنهم لحظة واحدة.

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٧٣) وابن سعد (٣/ ١/ ٨٥).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائى (٤/ ٧٨) وقال جمال ثابت فى تخريج السيرة النبوية لابن هشام: رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخارى (٣٨٩٧) ومسلم (٩٤٠).

فهذا عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أُتى بطعام ـ وكان صائمًا ـ فقال قُتل مصعب بن عمير ـ وهو خيرٌ منى ـ كُفِّن فى بُردة إن غُطِّى رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّى رجلاه بدا رأسُهُ، وأراه قال: وقُتِلَ حمزة ـ وهو خير منى ـ ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط أو قال أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا ـ ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام(١).

ولا أملك عند وداع هذا البطل إلا أن أقول:

رضى الله عن مصعب وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

زيد بن ثابت

كاتب الوحى ... وجامع القرآن

إن كل جهد ـ مادى أو أدبى، نفسى أو بدنى ـ يبذله المؤمن فى سبيل الله ـ مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له فى «رصيد» حسناته عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرة، حتى الخطوة التى تمشيها قدمه، وحتى الفلس يُنفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١].

فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يُقدِّم لنا ـ فى مرحلة قوته وازدهاره ـ نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعداد هائلة، تُقدِّم ما تملك من نفس ومال فى سبيل الله وهى قريرة العين[1].

وها نحن على موعدٍ مع رجل عظيم من هذا الصنف الكريم.

إننى عندما بدأت فى كتابة تلك السطور عن هذا الصحابى الجليل أحسست كأننى أقف أمام جبلٍ عظيم قد امتلأ بالحسنات والدرجات حتى ملأ ما بين

---

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى ـ ط. مكتبة وهبة.

السماوات والأرض.

ولِمَ لا؟ وما من مسلمٍ يفتح المصحف ويقرأ سورة أو آية من كتاب الله إلا وكان ذلك فى ميزان حسنات هذا الصحابى الجليل. فهو كاتب الوحى للنبى ﷺ، وهو جامع القرآن فى عهد أبى بكر وعثمان (رضى الله عنهم جميعًا).

إنه زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ الإمام الكبير، شيخُ المقرئين، والفرضيين، مفتى المدينة، وكان من حملة الحُجَّة، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه إذا حج على المدينة.

وهو الذى تولى قسمة الغنائم يوم اليرموك. وقد قُتِلَ أبوه قبل الهجرة يوم بُعاث، فربِّى زيدٌ يتيمًا. وكان أحد الأذكياء. فلما هاجر النبى ﷺ أسلم زيد وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وفى غزوة بدر أراد هذا الفتى الصغير أن ينال شرف الجهاد والشهادة فى سبيل الله.. فأقبل على النبى ﷺ وقال: جُعلت فداك يا رسول الله ائذن لى أن أكون معك وأجاهد أعداء الله تحت رايتك. فنظر إليه الرسول ﷺ نظرة سرورٍ وإعجاب وطيَّب خاطره وردَّه لصِغر سنه.

فعاد الغلام حزينًا وأمه أكثر حزنًا منه، فهى التى كانت تتمنى أن ترى ولدها الصغير مجاهدًا فى سبيل الله.

المسلم لابد أن يعلم ماذا يصنع لنُصرة دينه

وما إن ردَّ النبى ﷺ زيدًا حتى وقف مع نفسه وقفة صدقٍ ينظر ويتأمل فى مواهبه وإمكاناته وكيف يستخدمها لنُصرة الإسلام.. وإذا به يرى أن الله تعالى قد امتنّ عليه بنعمة الحفظ الجيد والذاكرة المتوقدة ومحبة العلم والإقبال على طلبه.

فأخبر أمه برغبته الشديدة فى طلب العلم، وقامت هى بدورها لتخبر

قومها برغبة ابنها، فقام رجال من قومه وأقبلوا به على رسول الله ﷺ.

فعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: أُتى بى النبى ﷺ مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بنى النجار، وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة... فقرأت على رسول الله ﷺ؛ فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلَّم لى كتاب يهود؛ فإنى والله ما آمنهم على كتابى».

قال: فتعلمته. فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته ـ أتقنته ـ وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم»[1].

وقال زيد: قال لى رسول الله ﷺ: «أتُحسن السريانية؟» قلت: لا. قال: «فتعلمها». فتعلمتها فى سبعة عشر يومًا[2].

وعن زيد بن ثابت قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود قال: «إنى والله ما آمن يهود على كتاب» قال: فما مرَّ بى نصف شهر حتى تعلمته له قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[3].

كاتب الوحى

وبعد فترة يسيرة رأى النبى ﷺ من زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ الخير الكثير من دقته وإتقانه فى الحفظ والكتابة وأمانته فى النقل، وفهمه للنصوص، فكلَّفه بأعظم مهمة وُجدت فى هذا الكون كله ـ ألا وهى كتابة الوحى الذى يتنزل على رسول الله ﷺ ـ ويا له من شرفٍ يعجز القلم عن وصفه.

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٠) وقال الأرنؤوط: وإسناده حسن.

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢) والحاكم (٣/ ٤٢٢) وإسناده صحيح.

(٣) رواه الترمذى (٢٧١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح..

إنها ثقة عظيمة وضعها النبى ﷺ فى زيد ـ رضى الله عنه ـ.

فكان زيد يتلقى القرآن من فم الصادق المصدوق ﷺ غضًا طريًا وهو يتعايش مع كل آية وسبب نزولها، بل ومكان نزولها.

فأشرقت نفسه واستنار عقله وهو يلامس ويباشر أنوار القرآن عن قريبٍ، بل ويزداد قُربًا فى كل يومٍ من الحبيب ﷺ. فيا لها من عيشة ما أجملها. ويا لها من لحظات ما أعذبها، ويا لها من مهمة مباركة ما أطيبها.

فلقد أصبح زيد ـ رضى الله عنه ـ هو المرجع الأول للقرآن فى أمة الحبيب ﷺ.

موقفه الخالد يوم السقيفة

وظل زيد ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ يكتب له الوحى حتى توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وفى يوم السقيفة حينما اجتمع المهاجرون والأنصار لاختيار خليفة المسلمين كادت أن تحدث فتنة عظيمة بينهم. وهنا جاء دور القرآن وحَمَلة القرآن... بل لقد جاء دور كاتب الوحى الذى استنار بنوره حتى إنه ليهتدى ـ بإذن الله ـ إلى أصوب رأيٍ فى تلك المواقف التى يحار فيها أولوا الألباب.

عن أبى سعيد، قال: لما تُوفى رسول الله، قام خطباء الأنصار، فتكلموا، وقالوا: رجلٌ منا، ورجلٌ منكم. فقام زيدُ بن ثابت، فقال: إنَّ رسول الله كان من المهاجرين ونحنُ أنصاره؛ وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره.

فقال أبو بكر: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبَّت قائلكم، لو قلتم غير هذا ما صالحناكم(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢) والطبرانى (٤٧٨٥) وقال الذهبى: إسناده صحيح. وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٣) رجاله رجال الصحيح.

وبهذا الموقف وُئدت نار الفتنة فى مهدها ولله الحمد.

جمع القرآن في عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

وفى أثناء حروب الرِّدة ـ وعلى وجه الخصوص فى معركة اليمامة ـ قُتل عددٌ كبير من حَفَظة القرآن، فكان لابد من جمع القرآن خوفًا من ضياعه.. وكان فى مقدمة الأبطال الذين نالوا شرف هذه المهمة التاريخية ـ زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ.

فعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: أرسل إلىَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ـ أى عقب مقتل أهل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده... قال أبو بكر ـ رضى الله عنه-: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استَحَرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن.. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبَّع القرآن فاجمعه... فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن.. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنه ـ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٦) فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن/ وأحمد (٥/ ١٨٨).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة، كلهم من الأنصار، أُبيّ، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد(١).

وقد غدا زيد بن ثابت بفضل القرآن وتفقهه فيه وطول ملازمته لرسول الله ﷺ منارةً للمسلمين. . . يستشيره خلفاؤهم فى المعضلات، ويستفتيه عامتهم فى المشكلات، ويرجعون إليه فى المواريث خاصةً؛ إذ لم يكن بين المسلمين ـ إذ ذاك ـ من هو أعلم منه بأحكامها وأحذق منه فى قسمتها؛ فقد خطب عمر ـ رضوان الله عليه ـ فى المسلمين يوم «الجابية»(٢) فقال:

أيها الناس؛ من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت. . .

ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل. . .

ومن أراد أن يسأل عن المال فليأت إلىَّ، فإن الله ـ عز وجل ـ جعلنى عليه واليًا، وله قاسمًا(٣).

مهمته الخالدة فى كتابة المصحف العثمانى

وكما وقف زيد ـ رضى الله عنه ـ هذا الموقف الخالد فى جمع القرآن فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ كان له دور عظيم فى كتابة المصحف فى عهد عثمان ـ رضى الله عنه ـ، وذلك لجمع المسلمين على مصحفٍ واحدٍ خوفًا عليهم من الفُرقة والاختلاف.

فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك

(١) أخرجه البخارى (٩/ ٤٦) فضائل القرآن ـ باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ.

(٢) الجابية: قرية غربى دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مع الصحابة للتداول فى شئون الفتح، وخطب فيها خطبته المشهورة فسُمى ذلك اليوم بيوم الجابية.

(٣) صور من حياة الصحابة (ص ٣٦٧).

هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق(١).

علمه ـ رضى الله عنه ـ ومكانته فى قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ

عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «أفرضُ أمتى زيدُ بنُ ثابت»(٢).

أى أعلمهم بعلم المواريث.

وقال جعفر بن بُرقان: سمعتُ الزهرى يقول: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض، لرأيتُ أنها ستذهبُ من الناس(٣).

وعن حميد بن الأسود قال: قال مالك: كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس عندنا بعد زيد ابن عمر(٤).

وقال أحمد بن عبد الله العجلى: الناس على قراءة زيد، وعلى فرض زيد.

وعن الشعبى، قال: القضاةُ أربعةٌ: عمر، وعلىّ، وزيدٌ، وابن مسعود(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ.

(٢) رواه أحمد والترمذى والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٣) تاريخ الفسوى (١/ ٤٨٦).

(٤) تاريخ الفسوى (١/ ٤٨٦ و٢/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٥٠).

وعن مسروق، قال: كان أصحاب الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر، وعليّ، وابن مسعود، وزيد، وأُبي، وأبو موسى(١).

وعن ابن عباس، قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن زيد بن ثابت، من الراسخين فى العلم(٢).

ولقد علم طلاب العلم من الصحابة والتابعين لزيد بن ثابت قدره ومنزلته، فكانوا يحملون له فى قلوبهم كل محبةٍ وتقديرٍ وإجلالٍ لمكانته العظيمة فى العلم.

فهذا هو تُرجمان القرآن وبحر العلم (عبد الله بن عباس) يعرف لزيد بن ثابت قدره ومنزلته السامية.

فعن أبى سلمة، أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت. فأخذ له بركابه، فقال: تنحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ! فقال: إنَّا هكذا نفعلُ بعلمائنا وكبرائنا(٣).

ولقد كان زيد ـ رضى الله عنه ـ مع انشغاله فى طلب العلم وتبليغه ـ يملأ بيته فرحًا وسعادة وسرورًا.

فعن ثابت بن عُبيد قال: كان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى أهله.

وهكذا يجب على الداعية الذى ينشغل عن أهل بيته بالدعوة ومدارسة العلم أن يكون مصدر الفرح والسرور والسعادة لأهل بيته وأولاده.

* * *

(١) تاريخ الفسوى (١/ ٤٨١) ـ وتهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٤٩). وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٥١) ونسبه الحافظ فى الإصابة (٤/ ٤٣) إلى البغوى. وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٠) وصححه الحاكم (٣/ ٤٢٣) وأقره الذهبى.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مباركة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية.. ساق الله فيها على يدى (زيد بن ثابت) الخير الكثير لنفسه وللأمة الإسلامية.. نام زيد ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت.

ولما مات ـ رضى الله عنه ـ قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ: مات حَبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس منه خَلَفًا.

وعن عمار بن أبى عمار قال: لما مات زيد بن ثابت قعدنا إلى ابن عباس فى ظل القصر فقال: هكذا ذهاب العلم، لقد دُفن اليوم علم كثير[1].

ورحل بطلنا عن هذه الدنيا.. وها نحن كلما قرأنا سورة أو آية من كتاب الله لا نستطيع أن ننسى أبدًا من كتب هذا القرآن ومن جَمَعه.

فرضى الله عن (زيد) وجزاه الله خير الجزاء عن كل مسلم قرأ القرآن من لدن محمد بن عبد الله ﷺ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٣٦١) والحاكم (٣/ ٤٢٨) ورجاله ثقات.

أنس بن مالك

اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه

محمد رسول الله ﷺ

إنه مما لا شك فيه أنه ما من مسلم فى هذه الحياة الدنيا إلا ويتمنى أن لو عاش فى عصر النبوة ورأى النبى محمداً ﷺ فتلك مكرمة لا تدانيها كل المكارم، فإن الصحابة الذين كانوا معه ﷺ تعلَّموا على يديه الخير الكثير، وكان أحدهم إذا أخطأ يجد الموجّه الأول ﷺ يصلح له مساره ويبين له طريقه، بل كان النبى يبشر هذا بالجنة، وذاك بمحبة الله، وهذا بدخول الجنة بغير حساب، فكان الخير واضحًا، والشر كذلك، أما الآن فقد اختلطت الأوراق وأصبح الرجل الصالح فى ظل هذه الغربة يشك حتى فى نفسه، بل ويظن أحيانًا من كثرة الفساد من حوله أنه ربما يكون مخطئًا فما إن يفتح كتاب الله وسنة رسول الله ويقرأ فيهما حتى يدرك، بل ويوقن أنه على الجادة وعلى طريق الحق. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بمن عاش مع النبى ﷺ وتلقّى الكلام مباشرة من فم الحبيب ﷺ(١).

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع عَلَمٍ من أعلام الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ لم يكن ملازمًا للحبيب ﷺ فحسب، بل كان من المقربين إليه وعاش فى خدمته عشر سنوات كانت هى أزهى وأجمل وأبهى سنوات

(١) «وأنذرهم يوم الحسرة» (ص: ٢٢) للمصنف ــ ط. مكتبة السنة.

عمره على الإطلاق.

ولِمَ لا؟ وهو الذى يرى الحبيب ويتلقى العلم والأدب والنصائح الغالية بين يديه فى كل لحظة. . . فى الوقت الذى يتمنى فيه أحدنا أن لو كان رأى النبى ﷺ مرة واحدة ــ لا أقول فى اليقظة بل فى المنام ــ.

فيا تُرى من هو هذا العَلَم؟

إنه الصحابى الجليل أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ.

الإمامُ، المُفتى، المُقرئُ، المحدِّث، راويةُ الإسلام، أبو حمزةَ الأنصاريُّ الخزرجى النجاريُّ المدنىُّ، خادمُ رسول الله ﷺ، وقرابته من النساء، وتلميذُه، وتبعُه، وآخرُ أصحابه موتًا.

روى عن النبى ﷺ علمًا جمًا. وعن أبى بكر، وعمر، وعثمان، ومعاذ، وأُسيد بن الحضير، وأبى طلحة، وأُمِّه أُمِّ سُليم بنت ملحان، وخالته أُمِّ حَرَام[1].

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (أنس) طفلاً صغيرًا، وكانت أمه هى (أم سليم) ـ الغُميصاء ــ التى أسلمت لله ــ جل وعلا ــ وكان زوجها (مالك) ــ والد أنس ــ ما زال على دينه وكان يريد منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء.

وفى يومٍ من الأيام خرج الرجل مُغضبًا فلقيه عدوٌ فقتله. . فنشأ (أنس) يتيمًا منذ تلك اللحظة.

ولكن أمه (أم سُليم) كانت امرأة مؤمنة راجحة العقل لم يشعر معها لحظة واحدة بمرارة اليُتم.

وكانت (أم سُليم) تلقنه الشهادتين وتعلّمه، بل وتغرس فى قلبه محبة الله

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٣٩٦).

ـ جل وعلا ـ ومحبة رسوله ﷺ قبل أن يراه، فأصبح (أنس) فى أشد شوقه لرؤية الحبيب ﷺ، بل لقد تمنّى أن لو كان كبيراً لسافر إليه ليراه ويلازمه.

وما هى إلا فترة يسيرة حتى أذِن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

وما إن علم (أنس) وكل من فى (يثرب) ـ المدينة ـ هذه البشرى العظيمة حتى امتلأت قلوبهم فرحًا وسعادة وسروراً بمقدم الحبيب ﷺ.

فكانوا يخرجون فى كل يوم لاستقباله فإذا حان وقت الغروب كانوا يعودون والحزن يملأ قلوبهم.

وفى اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلأت شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال... الكل يريد أن يرى خير مخلوقٍ عرفته البشرية كلها ﷺ.

فلو اجتمعت أعياد الكون كله فى تلك اللحظة ما كانت تساوى جزءاً من ألف جزءٍ من فرحة المسلمين بقدوم المصطفى ﷺ.

أنسٌ ـ رضى الله عنه ـ يتشرف بخدمة الحبيب ﷺ

وما إن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة حتى جاءته (أم سُليم) ـ رضى الله عنها ـ ومعها (أنس) ـ رضى الله عنه ـ فقالت له: يا رسول الله ﷺ، هذا أُنيس ابنى أتيتُك به يخدُمك، فادع الله له. فقال: «اللهمَّ أكثِر مالَهُ وَوَلَدَهَ». (قال أنس) فوالله إنَّ مالى لكثير، وإنَّ ولدى وولدَ ولدى يتعادُّون على نحو من مئةِ اليوم[1].

وكان أنسٌ يقول: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشر، ومات وأنا ابنُ عشرين. وكُنَّ أُمهاتى يَحثُثْنَنِى على خدمةِ رسول الله ﷺ [2].

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨١) (١٤٣) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أنس بن مالك.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٩) (١٢٥) وابن سعد (٧/ ٢٠).

وظل (أنس) ــ رضى الله عنه ــ ملازمًا للحبيب ﷺ وهو فى سعادة يعجز القلم عن وصفها.

ولقد أحب النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده وجوارحه.

قال أنس: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبى ﷺ ولا شممت ريحًا قط ــ أو عَرَفًا قط ــ أطيب من ريح ــ أو عرف ــ النبى ﷺ»(١).

ومن خلال ملازمته للحبيب ﷺ تعلَّم الكثير والكثير من سُنة الحبيب ﷺ ومن هديه وأخلاقه النبيلة وشمائله المباركة مما جعله من أكثر الصحابة علمًا بحديث النبى ﷺ، بل ومن أكثرهم تشبهًا بالنبى ﷺ فى صلاته وعبادته وأخلاقه.

المرء مع مَن أحب

ولقد رأى (أنس) من النبى ﷺ ومن أخلاقه العذبة ما لم يرهُ غيره حتى إنه كان لا يصدق نفسه أحيانًا... ولسان حاله: هل هناك رجلٌ فى هذا الكون كله بهذا الخُلق الرفيع؟!!!.

لقد كان النبى ﷺ مُحلًّى بصفات الكمال المنقطعة النظير، وأدَّبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مُثنيًا عليه فقال: ﴿وإنَّكَ لعلَى خُلُقٍ عظيم﴾ [القلم: ٤]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحبَّبه إلى القلوب وصيَّره قائدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا فى دين الله أفواجًا(٢).

ولقد كان أنس ــ رضى الله عنه ــ يصف للناس الكثير والكثير من أخلاق الحبيب ﷺ.

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٦٥٤) المناقب.

(٢) الرحيق المختوم/ للمباركفورى (ص ٥٣٧) ط. قرطبة.

فعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لى أخ يقال له: أبو عمير ــ قال أحسبه فطيمًا ــ وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُغير» لنُغَرٍ كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو فى بيتنا، فيأمر بالبساط الذى تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلى بنا»(١).

وعنه ــ رضى الله عنه ــ قال: «والله! لقد خدمته تسع سنين. ما علمته قال لشىء صنعته. لِمَ فعلت كذا وكذا؟ أو لشىء تركته هلا فعلت كذا وكذا»(٢).

وعنه ــ رضى الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، فأرسلنى يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله ﷺ فخرجت حتى أمُرَّ على صبيان وهم يلعبون فى السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «يا أنيس! أذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله»(٣).

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال: «كان النبى ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُر مقدِّمًا ركبتيه بين يدى جليسٍ له»(٤).

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ أيضًا قال: «كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلقُ به حيث شاءت»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٦٢٠٣) الأدب ــ ومسلم (٢١٥٠) الأدب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٩) الفضائل ــ باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٠) الفضائل ــ باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا.

(٤) رواه أبو داود (٤٧٩٤) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٠٠٩).

(٥) أخرجه البخارى (٦٠٧٢) فى الأدب ــ باب الكبر.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه. قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا. فإن محمداً يعطى عطاءً لا يخشى الفاقة»[1]. أى الفقر.

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: دخل علينا النبى ﷺ فقال (أى نام للقيلولة) عندنا، فعرق وجاءت أُمِّى بقارورة، فجعلت تسلُتُ العرق فيها، فاستيقظ النبى ﷺ فقال: «يا أم سليم! ما هذا الذى تصنعين؟» قالت: هذا عَرقك نجعله فى طِيبنا وهو من أطيب الطيب[2] أى تضع عرقه فى العطر.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس من قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت ـ وفى رواية: وقد استبرأ الخبر ـ وهو على فرس لأبى طلحة عُرْى[3] فى عنقه السيف، وهو يقول: «لم تُراعوا، لم تُراعوا، قال: وجدناه بحراً ـ أو إنه لبحر ـ قال: وكان فرسًا يُبطَّأُ»[4].

أى يُعرف بالبطء والعجز وسوء السير.

ومن هنا اشتاق أنس ـ رضى الله عنه ـ لمرافقة النبى ﷺ فى الجنة كما رافقه فى الدنيا وكانت مرافقته للنبى ﷺ هى جنة الدنيا.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبى ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أُحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» قال أنس:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) الفضائل ـ باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١) الفضائل ـ باب قُرب النبى ﷺ من الناس وتبركهم به.

(٣) الفرس العُرى: أى ليس عليه سرج ولا أداة.

(٤) أخرجه البخارى (٢٩٠٨) الجهاد والسير ـ ومسلم (٢٣٠٧) الأدب.

فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ : «أنت مع من أحببت» فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»(١).

فصحب أنسٌ نبيه ﷺ أتمَّ الصحبة، ولازمه أكمل الْمُلازمة منذ هاجر، وإلى أن مات، وغزا معه غير مرة، وبايع تحتَ الشجرة(٢).

حفظه لسر النبى ﷺ

عن ثابتٌ عن أنس، قال: أتى علىَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغلْمَان. قال: فسَلَّمَ علينا. فبعثنى إلى حاجة. فأبطأتُ على أُمى. فلمَّا جئتُ قالت: ما حَبَسَك؟ قُلتُ: بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجتُهُ؟ قلتُ: إنها سرٌ. قالت: لا تُحدثَّنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا.

قال أنسٌ: والله لو حدَّثتُ به أحدًا لحدَّثْتُكَ يا ثابتُ!(٣)

وفى رواية عن أنس بن مالك قال: أسرَّ إلىَّ نبىُّ الله ﷺ سرًا. فما أخبرتُ به أحدًا بَعْدُ. ولقد سألتنى عنه أُمُّ سُلَيم ــ أمه ــ فما أخبرتها به(٤).

الفوز بدعاء النبى ﷺ له

وها هو أنس ــ رضى الله عنه ــ يفوز بدعاء النبى ﷺ له.

عن أنس، قال: دَعَا لى رسول الله ﷺ فقال: «اللهمَّ أكثِر مالَهُ وَوَلَدهُ، وأطِل حياته»، فالله أكثر مالى حتى إنَّ كرمًا لى ــ شجرة ــ لتحملُ فى السنة مرتين، ووُلِدَ لصلبى مئة وستَّة(٥).

(١) متفق عليه عن أنس ــ صحيح الجامع (٦٦٨٩).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٣٩٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٥) فضائل الصحابة.
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٦) فضائل الصحابة.
(٥) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٨٠ ب) وأخرجه بنحوه البخارى فى الأدب المفرد (٦٥٣)، وابن سعد (٧/ ١٩) من طريقين عن سنان بن ربيعة، عن أنس... قال الأرنؤوط: وسنده حسن.

وعن أنس أن النبى ﷺ دخل على أُمِّ سُليم، فأتته بتمرٍ وسمنٍ، فقال: «أعيدوا تمركم فى وعائكم، وسمنكم فى سقائكم، فإنى صائم» ثم قام فى ناحية البيت، فصلَّى بنا صلاةً غير مكتوبة، فدعا لأُمِّ سُليم وأهل بيتها، فقالت: يا رسول الله! إنَّ لى خُوَيصَّة. قال: «وما هى»؟ قالت: خادمُك أنس. فما ترك خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لى به، ثم قال: «اللهم ارزُقهُ مالاً وولدًا، وبارك له فيه». قال: فإنى لمن أكثر الأنصار مالاً، وحدثتنى أمينةُ ابنتى: أنه دُفن من صُلبى إلى مَقْدَم (الحجَّاج) البصرة تسعةٌ وعشرون ومئة[1].

وعن أنس قال: دخل النبى ﷺ علينا، وما هو إلا أنا وأمى وأم حرام خالتى فقال: قوموا فلأصلى بكم (فى غير وقت صلاة) فصلى بنا فقال رجل لثابت: أين جعل أنسًا منه؟ قال: جعله عن يمينه. ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة فقالت أمى: يا رسول الله! خويدمك أنس ادع الله له. قال: فدعا لى بكل خير، وكان فى آخر ما دعا لى به أن قال: «اللهم أكثِر ماله وولده وبارك له فيه»[2].

حزنه لفراق الحبيب ﷺ

وبعد عشر سنوات قضاها أنس ـ رضى الله عنه ـ فى خدمة الحبيب ﷺ رحل الحبيب إلى الرفيق الأعلى فحزن أنس عليه أشد الحزن حتى إنه أحسَّ أن الكون كله قد تغيَّر لموت النبى ﷺ وأن الدنيا قد أظلمت من حوله.

عن أنس قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت

(١) أخرجه البخارى (٤/ ١٩٨، ١٩٩) فى الصوم: باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم.
(٢) أخرجه مسلم (٦٦٠) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ.

نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»[١].

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا»[٢].

قال الحافظ ابن رجب ــ رحمه الله ــ: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، وقال: إنما بُعث إليه[٣].

ولا شك أن موت النبى ﷺ من أعظم المصائب؛ لأن بموته انقطع الوحى من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين، فهو أول انقطاع عُرى الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيها.

قال ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بى، فإنها من أعظم المصائب»[٤].

فاصبر لكل مصيبةٍ وتجلدِ ... واعلم بأن المرء غير مخلَّدِ
واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوب تنوب اليوم تُكشف فى غدِ
أوَ ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصدِ
من لم يُصب ممن ترى بمصيبةٍ ... هذا سبيلٌ لست عنه بأوحدِ
فإذا ذكرت مصيبةً ومصابها ... فاذكر مُصابك بالنبى محمدِ

(١) رواه البخارى (٧/ ٧٥٥) المغازى ــ وابن ماجة (١٦٣٠) الجنائز.

(٢) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤) المناقب ــ وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.

(٣) لطائف المعارف (١١٣ ــ ١١٤) باختصار.

(٤) رواه البيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٧).

وعلى الرغم من ذلك فإن النبى ﷺ بيننا بشريعته الحية التى من سار عليها فلن يضل أبدًا، فقد قال ﷺ : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»(١).

وقد أخبر النبى ﷺ عن الأجر العظيم لمن تمسك بدينه فى زمان الفتن، فقال ﷺ : «يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»(٢).

وعجلت إليك رب لترضى

عاش أنسُ بن مالكٍ بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ نيِّفًا(٣) وثمانين عامًا؛ ملأ خلالها الصدور علمًا من علمِ الرسول الأعظم ﷺ، وأترعَ(٤) فيها العقولَ فقهًا من فقهِ النبوة. . .

وأحيا فيها القلوب بما بثهُ بين الصحابة والتابعين من هَدى النبى ﷺ، وما أذاعهُ فى الناس من شريف أقوالِ الرسولِ الأعظم ﷺ وجليل أفعالهِ.

وقد غدا أنس على طول هذا العُمر المديد مرجعًا للمسلمين، يفزعون إليه، كلما أشكل عليهم أمرٌ، ويُعوِّلون(٥) عليه كلما استغلق(٦) على أفهامهم حُكْمٌ.

ولقد ظل أنس بن مالك يعيشُ مع ذكرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما امتدت به الحياةُ. . .

فكان شديد البهجة بيوم لقائه، سَخِيَّ الدمعةِ على يوم فراقه، كثيرَ الترديد لكلامه. . .

---

(١) رواه الحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٣٧).

(٢) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٠٢).

(٣) نيِّفًا: زيادة على.

(٤) أترع: ملأ.

(٥) يعوِّلون: يعتمدون.

(٦) استغلق: أشكل عليهم وغمض.

حريصًا على متابعته فى أفعاله وأقواله، يُحبُّ ما أحبَّ، ويكرهُ ما كَرِه، وكان أكثر ما يذكره من أيامه يومان: يوم لقائهِ معه أول مرةٍ، ويوم مفارقته له آخر مرة.

فإذا ذكر اليوم الأول سَعِد به وانتشى[١]، وإذا خطر له اليوم الثانى انتحب وبكى، وأبكى مَن حوله من الناس.

وكثيرًا ما كان يقول: لقد رأيت النبى عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا، ورأيته يوم قُبض منا، فلم أرَ يومين يُشبهانهما[٢].

عبادته ـ رضى الله عنه ـ

قال أبو هريرة: ما رأيتُ أحدًا أشبه بصلاةِ رسول الله ﷺ من ابن أُم سُليم، ـ يعنى أنسًا[٣].

وقال أنسُ بنُ سيرين: كان أنسُ بنُ مالك أحسنَ الناس صلاة فى الحَضَرِ والسَّفرِ[٤].

وعن ثُمامة، قال: كان أنس يُصلِّى حتى تفطَّر قدماه دمًا، مما يُطيل القيامَ ـ رضى الله عنه ـ[٥].

وقال سليمان التيمىُّ: سمعتُ أنسًا يقولُ: ما بقى أحدٌ صلَّى القبلتين غيرى[٦].

وعن ثابت قال: كان أنس بن مالك إذا ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته

(١) انتشَى: كأنه شمَّ رائحة طيبة.
(٢) صور من حياة الصحابة (ص ١٣ : ١٤).
(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد ـ وهو عند ابن عساكر (٣/ ٨٤ ب).
(٤) ابن عساكر (٣/ ٨٤ ب) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٤٠٠).
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٤٠٠).
(٦) أخرجه البخارى (٨/ ١٣١) تفسير سورة البقرة ـ وابن سعد (٧/ ٢٠).

فدعا لهم(١).

كرامة ثابتة

عن ثابتُ البُنَانى قال: جاء قَيِّمُ أرضِ أنس، فقال: عطشت أرضُوك؛ فتردَّى أنسٌ، ثم خرج إلى البرِّيَّة، ثم صَلَّى، ودعا، فثارت سحابةٌ، وغشيت أرضه ومطرتْ، حتى ملأت صهريجه، وذلك فى الصيف، فأرسل بعض أهله، فقال: انظر أين بلغت؟ فإذا هى لم تعدُ أرضه إلا يسيراً(٢).

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: قلت: هذه كرامة بيِّنة ثبتت بإسنادين(٣).

أنس ـ رضى الله عنه ـ يرى النبى ﷺ كل ليلة فى منامه

قال المُثنى بن سعيد: سمعتُ أنسًا يقولُ: ما مِنْ ليلةٍ إلا وأنا أرى فيها حبيبى. ثم يبكى(٤).

الله أكبر!!! تالله إننا لنشتاق إلى رؤية الحبيب ﷺ ولو مرة واحدة... وأنس ـ رضى الله عنه ـ يراه كل ليلة فى منامه.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالسعادة والسرور لصحبته للحبيب ﷺ... وبالتضحية والبذل والعطاء ـ لرجائه فيما عند الله ـ نام أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليلحق بالحبيب ﷺ بعد أن ملأ الدنيا

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٠٤).

(٢) ابن عساكر (٣/ ٨٥) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٤٠٠).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٤٠١).

(٤) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٧/ ٢٠).

كلها بحديث رسول الله ﷺ.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.. وجمعنا الله به وبالحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته.

فرضى الله عن أنس وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

خبَّاب بن الأرت

رَحِمَ الله خبابًا فلقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

بينما كان هذا الصبى الذكى المبارك (خبّاب بن الأرت) يعيش بين أهله وأحبابه من قبيلة (بنى تميم) إذ أغارت قبيلة أخرى على قبيلته فسبت النساء واستاقت الأنعام وأخذت الذرارى وكان هو من بينهم.

وظل (خبّاب) تتداوله الأيدى حتى وصل إلى مكة فاشترته (أم أنمار الخُزاعية) من سوق النخاسين بعد أن رأت فيه ما يغريها على شرائه من صحة البدن وعلامات الذكاء والفطنة. ومضت به إلى بيتها، ثم دفعته بعد ذلك إلى قَيِّنٍ ـ حدّاد ـ ليتعلم منه فن صناعة السيوف.

وبالفعل لم تمضِ سوى فترة يسيرة حتى أتقن الغلام فن صناعة السيوف، بل وصار بارعًا فى صناعتها فاستأجرت له «أم أنمار» دُكّانًا ليتولى هو بنفسه صناعة السيوف ولتربح من ورائه الكثير والكثير.

وكان الناس تزداد ثقتهم به يومًا بعد يومٍ مما يرون من براعته فى صناعة السيوف، بل ومن صدقه وأمانته وأخلاقه الطيبة وبسمته التى لا تفارق وجهه.

النور يشقّ ظلام الجاهلية

وظل خباب على تلك الحالة وهو يفكر ليلاً ونهارًا ويقول فى نفسه: كيف

الخلاص من تلك الجاهلية التى يعيشها الناس فى تلك المجتمعات ــ والتى كان هو ضحية من ضحاياها ــ؟.

وإذا بالنور يأتى ليشقَّ ظلام الجاهلية.. فيسمع خبَّاب من الناس من حوله أن هناك فتىً يزعم أنه نبى، وأن الله أرسله إليهم.. فأحسّ خبّاب أن الله أحياه فى تلك اللحظة بهذا الخبر العظيم.

وفى التو واللحظة ترك دُكّانه ومضى إلى النبى ﷺ وأقدامه تسابق الريح.

إنه يبحث عن خيط، بل عن زورق النجاة فى بحار الفتن، وها هو زورق النجاة جاء قريبًا منه وما عليه إلا أن يمسك بطرف الخيط ليركب هذا الزورق الذى فيه النجاة.

وما إن رأى الحبيب ﷺ حتى دمعت عيناه وبسط يده ونطق الشهادتين، فكان سادس ستةٍ أسلموا فى هذا الكون كله لله ــ جل وعلا ــ.

ثبات على المبدأ

عن خبّاب، قال: كنت قينًا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تُبعث. فقال: إذا بُعثت كان لى مال، فسوف أقضيك. فقلت ذلك لرسول الله ﷺ. فأُنزلت: ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا﴾ [مريم: ٧٨][1].

رحلة العذاب في سبيل الله

وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه ــ الذى كان فى أشد شوقه لهذا النور ــ حتى قام لينفض غبار الجاهلية ويصدع بكلمة الحق لا يصدُّه صادّ ولا يردُّه رادّ فقام وأعلن إسلامه.

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٣٢٧) وهو فى الطبقات لابن سعد (٣/ ١٦٤).

وما إن وصل خبر إسلامه إلى «أم أنمار» حتى مضت إليه مع أخيها «سِباع ابن عبد العُزى» ومعهما مجموعة من فتيان «خُزاعة» ومضوا إلى خبّاب وبعد أن تيقنوا من خبر إسلامه قاموا جميعًا يضربونه ويعذبونه أشد أنواع التعذيب.

فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وكادت الشمس أن تُذيب الصخور أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ طلبوا منه أن يكفر بدين محمد ﷺ وأن يقول خيراً في اللات والعُزى.. فيأبى خبَّاب بكل عزةٍ وثباتٍ أن يفعل ما يريدون.

لقد كان حظ «خبّاب» من العذاب كبيراً، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

وكان ـ رضي الله عنه ـ مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجراً، حتى لا يستطيع أن يقوم[1].

لقد حوّلوا كل الحديد الذي كان عنده يصنع منه السيوف إلى قيودٍ وسلاسل يُحمى عليها في النار حتى تستعر وتتوهج ثم يُطوقون بها جسده ويديه وقدميه.

حتى قال خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدَة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمّن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

إن النبى ﷺ لا يدخر جهداً فى نُصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله ـ عز وجل ـ ووعده، فقد أتاه خباب بعد أن عُذب هذا العذاب الأليم والنبى ﷺ يُعلمه بل ويعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لابد لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله ـ عز وجل ـ وأعزهم. فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات(٢).

وتلك هى سُنة الله فى عباده المؤمنين.. تلك السُنة التى لا تتبدل ولا تتغير أبدًا.

قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التى تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذى لا يخلص ولا يصفو من غشّه إلا

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٣) مناقب الأنصار.

(٢) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٢٥٤).

بالامتحان، إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج فى هذه الدار وإلا ففى كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقِّى أُذن له فى دخول الجنة[1].

العدل الإلهى والهجرة المباركة

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهى أرض صِدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[2]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

ولما أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة إلى المدينة تهيأ خباب للخروج، غير أنه لم يُبارح[3] مكة إلا بعد أن استجاب الله دُعاءه على أم أنمار... فقد أُصيبت بصداع لم يُسمع بمثل آلامه قط؛ فكانت تعوى من شدة الوجع كما تعوى الكلابُ... وقام أبناؤها يستطبُّون[4] لها فى كل مكان، فقيل لهم: إنه لا شفاء لها من أوجاعها إلا إذا دأبت على كَى رأسها بالنار... فجعلت تكوى رأسها بالحديد المحمى، فتلقى من أوجاع الكى ما يُنسيها آلام الصداع[5].

---

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم (٣/ ١٨) ط. دار الرسالة.

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق ــ نقلاً من السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

(٣) يبارح: يغادر.

(٤) يستطبون لها: يبحثون لها عن الأطباء.

(٥) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٢٩).

وحان وقت العمل لهذا الدين

وبعد تلك الهجرة المباركة والنجاة من عذاب كفار قريش آن لهذا الجسد المُتعَب أن يستريح قليلاً ليستردَّ قواه وليبدأ مرحلة جديدة من العمل لهذا الدين.

فذاق خبّاب طعم الراحة التى حُرِم منها زمانًا طويلاً. ذاقها لأول مرة عندما أسلم بين يدى الحبيب ﷺ وذاقها مرة أخرى يوم أن هاجر إلى المدينة والتقى بإخوانه من الأنصار.

وها هو يبدأ صفحة جديدة مليئة بالجهاد والبذل والتضحية.. فيشهد مع النبى ﷺ غزوة بدر.

ثم يشهد غزوة أُحد ويثلج الله صدره ويقر عينه برؤية «سِباع بن عبد العُزى» أخى «أم أنمار» وهو يلقى مصرعه على يد أسد الله وأسد رسول الله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) ـ رضى الله عنه ـ.

وشهد (خبَّاب) المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو يتمنى أن ينال الشهادة فى سبيل الله.

وحان وقت الرحيل

وطالت الحياة بخبّاب حتى أدرك عهد الخلفاء الأربعة ـ رضى الله عنهم ـ وكانوا يحبونه ويوقرونه ويعرفون له قدره ومنزلته.

فها هو يدخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق منى... إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحدٌ يمنعنى، فلقد رأيتنى يومًا أخذونى فأوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها، ثم وضع رجلٌ رجله على صدرى، فما اتقيت الأرض ـ أو

قال: برد الأرض ـ إلا بظهرى، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد بَرَص[(١)].

وبعد عمرٍ طويلٍ مليءٍ بالعذاب والبذل والتضحية نام خبّاب على فراش الموت، وهو فى أشد الشوق للقاء الحبيب ﷺ.

عن طارق بن شهاب قال: جاء خبابًا نفرٌ من أصحاب محمدٍ ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غدًا. فبكى، وقال: أما إنه ليس بى جزع، ولكن ذكّرتمونى أقوامًا وسميتم لى إخوانًا، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هى، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم.

وعن أبى وائل شقيق بن سلمة قال: دخلنا على خباب بن الأرت فى مرضه فقال: إن فى هذا التابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط، ولا منعتها من سائل. ثم بكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكى أن أصحابى مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئًا وإنّا بقينا بعدهم حتى ما نجد موضعًا إلا التراب.

وعن قيس بن أبى حازم قال: أتينا خباب بن الأرت نعوده وقد اكتوى فى بطنه سبعًا، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت لدعوت به، فقد طال مرضى. ثم قال: إن أصحابنا الذين مضوا لم تنقصهم الدنيا شيئًا، وإنا أُعطينا بعدهم ما لا نجد له موضعًا إلا التراب[(٢)].

وهكذا لم يحجب نفسه عن دين الله لحظة واحدة ولم يحجب ماله عن الفقراء طرفة عين، وفاضت روحه إلى بارئها ليجبر الله كسره فى الجنة

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ١١٧).
(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٦).

وليَنسى العذاب الذى كان فى الدنيا ولينعم بصحبة الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

وتوفى خباب بالكوفة سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وصلى عليه على بن أبى طالب حين منصرفه من صفين، وهو أول من قُبر بظهر الكوفة[١].

وقال (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ وهو واقف على قبره: رحم الله خبابًا فلقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا.

فرضى الله عن خبّاب وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٧).

سعد بن معاذ

هذا الذى تحرَّك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفًا من الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

إنه الصحابى الجليل سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل.

السيد الكبيرُ الشهيد، أبو عمرو الأنصارى الأوسى الأشهلى، البدرى الذى اهتز العرش لموته[١].

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان فى بنى عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، وعباد بن بشر[٢].

قال المناوى: قال ابن القيم: كان سعد فى الأنصار بمنزلة الصدِّيق (أبو بكر) فى المهاجرين، لا تأخذه فى الله لومة لائم، وخُتم له بالشهادة، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وحلفائه، ووافق حُكْمُه حُكم الله من فوق سبع سموات، ونعاه جبريل عليه السلام يوم موته، فحق له أن يهتز العرش له[٣]. وهذا متواتر.

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٧٩).
(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٧١).
(٣) فيض القدير للمناوى (٣/ ٦٤).

أسلم (سعد) فأشرقت شمس الإسلام على المدينة كلها

لقد كان سعد سيدًا فى قومه، وكان مشركًا وقتها، فلما أرسل النبى ﷺ مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ سفيرًا للدعوة إلى الله تعالى فى المدينة المنورة. . . وأسلم سعد على يديه، فكان إسلامه فاتحة خيرٍ على المدينة كلها.

فلقد كان إسلامه سببًا فى أن تُشرق شمس الإسلام على المدينة كلها.

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن مُعاذ (ابن خالة أسعد بن زرارة)، فدخل به حائطًا من حوائط بنى ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَقٍ، فجلسا فى الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجُرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث [ما] قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أُسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعدُ بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أَوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيتَ أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مُصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم فى إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه،

وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك[1]. قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوّفًا للذى ذُكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمت هذا منى[2]، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ ـ وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ـ قال: فقال له مصعب: أَوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قال: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهَّد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أُسيد بن حضير.

---

(١) ليخفروك: وفى بعض النسخ «ليحفروك». وأخفره: نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر الذمة: لم يف بها.

(٢) ما رُمتَ هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغته.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة[1]؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[2]. . . . وهكذا أسلم سعد ـ رضى الله عنه ـ وحمل أمانة هذا الدين على أعناقه وذهب يدعو الناس إلى دين الملك ـ جل وعلا ـ وقلبه يتلهف شوقًا لرؤية الحبيب ﷺ.

فلما أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة فرح (سعد) بمقدم النبى ﷺ فرحًا لا يستطيع القلم وصفه وظل ملازمًا له يقبس من علمه وهديه وأخلاقه.

وأحبَّ النبى ﷺ حبًا جعله يتمنى أن يفديه بنفسه وماله.

موقف تاريخى فى غزوة بدر

لما تحوَّل الموقف يوم بدرٍ من مجرد الحصول على العير إلى قتالٍ بين المسلمين والمشركين أراد النبى ﷺ أن يعرف رأى الصحابة قبل الدخول فى

---

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل، وقال ابن بُزرج: اللهم نقيبة أى نفاذ رأى، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩) وذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ٤٢). وقال: رواه الطبرانى مرسلاً وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث. وذكره ابن كثير فى البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق وإسناده صحيح. وهذه قصة مشهورة صرح فيها ابن إسحاق بالسماع وذكره ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

تلك المعركة الحاسمة فاستشار أصحابه فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد بن عمرو، وهؤلاء القادة الثلاثة الذين كانوا من المهاجرين، وهم أقلِّية فى الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة ـ بيعة العقبة ـ لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «أشيروا علىّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار، وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل»، قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصُبُرٌ فى الحرب، صُدُقٌ فى اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وفى رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصِل حبل مَن شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى

مصارع القوم»[١].

والله لا نعطيهم إلا السيف

كلماتٌ لسعد بن معاذ تسطَّر بمدادٍ من نور في تاريخ أمتنا.

لما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة، وكادت تُغرق القلة المؤمنة، أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحًا منفردًا بينه وبين غطفان، وسيديها: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، على أن تفك غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزاب، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثلث ثمار نخل المدينة، واستشار رسول الله السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة)، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم ـ يعني غطفان ـ لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة، إلا قِرى[٢] أو بيعًا، وإن كانوا ليأكلونَ العِلْهز[٢] في الجاهلية في الجهد، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه نُقطعهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. ثم خرج سعد إلى سيدى غطفان وقد رفع صوته في تحدٍّ: ارجعا، ليس بيننا وبينكم غير السيف.

يا للرجال! في وقتٍ بلغت القلوب الحناجر من شدة الكرب وتقاطر البلايا؟! كلمات تصدر من فم الصادق سعد، تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة، فتبثُّ الأمل في نفوس المسلمين، وتُدهش سيدى غطفان؛ فيفيقوا، ويعلّمهم سعد أن الذى يصنع النصر قوةُ العقيدة، وزخم الإيمان بالله والثقة به[٣].

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٤٧) بدون سند، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨) (٨/ ٤٦٩)، والبيهقى في الدلائل (٣/ ٣٤)، وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٨) من حديث علقمة بن وقاص مرسلاً، وفي الباب عن أنس عند مسلم (١٧٧٩).

(٢) القِرَى: الضيافة، والعلهز: وبر يُخلط بدماء اللحم، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجَدْب.

(٣) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

(سعد) يحكم بحكم الله من فوق سبع سماوات

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى قصة جرح سعد بن معاذ وغزوة الخندق قالت ـ رضى الله عنها ـ: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائى ـ يعنى حس الأرض ـ قالت: فإذا أنا بسعد ابن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث بن أوس يحمل مجنة. قالت: فجلست إلى الأرض فمر (سعد) وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لبِّث قليلاً يُدرِكُ الهيجا حملُ ما أحسن الموتَ إذا حانَ الأجلُ

قالت: فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة[1] له يعنى المغفر، فقال عمر: ما جاء بك لعمرى إنك لجريئة، وما يؤمنك أن لا يكون تجوز. قالت: فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت لى ساعتئذ فدخلت فيها قال: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا طلحة بن عبيد الله. فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التجوز والفرار إلا إلى الله تعالى. قالت: ويرمى سعدًا رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهمٍ له فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه ـ العرق ـ فدعا الله سعد فقال: اللهم لا تُمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة فيخرجوا من صياصيهم[2]، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدم فضُربت على سعد فى المسجد قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته وأذَّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم، وهم جيران المسجد، فقال: مَن مر بكم؟ فقالوا: مر بنا دحية الكلبى، وكان دحية تشبه

(١) التسبغة: شىء من حلق الدروع والزرد يعلق بالخوذة دائرًا معها ليستر الرقبة وجيب الدرع.

(٢) أى حصونهم، وكل شىء امتنع به وتحصن فهو صيصة.

لحيته ووجهه جبريل عليه السلام. قالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لبابة بن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لى أن لا يأخذنى فى الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال أنزلوه فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم. قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله ـ عز وجل ـ وحكم رسوله. قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى إليك. قالت: فانفجر كَلمه ـ جُرحه ـ وكان قد برأ إلا مثل الخرص(١).

قالت: ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذى نفس محمد بيده إنى لأعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وأنا فى حجرتى، وكانوا كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿رُحماءُ بينهُم﴾. قال علقمة: فقلت: أى أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته(٢).

---

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

(٢) قال الهيثمى: فى الصحيح بعضه رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧، ١٣٨).

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

أدب صدّيق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبي ﷺ

وفي رواية: أنه لمّا وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبي ﷺ في بني قريظة؛ قال له النبي ﷺ: «احكمْ فيهم يا سعد». فقال: إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم. فقال النبي ﷺ: «قد أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم».. غير أن سعدًا ـ وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود ـ أحبَّ أن يستوثق من الجميع، ويأخذ عليهم العهد ـ الأوس وبني قريظة ـ بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش. ووقف سعد بن معاذ في المعسكر النبوي، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة، وإلى مَنْ في المعسكر عامَّة قائلاً: عليكم بذلك ـ عهد الله وميثاقه ـ أن الحكم كما حكمتُ؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها، ثم قال وهو مُعرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكبارًا: وعلى مَنْ هاهنا؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم»[1]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في المعسكر؛ ليستوثق منهم قائلاً: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم. فحكم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذُّرِّيَّة، وأن تقسَّم أموالهم. ولمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم، قال له النبي ﷺ: «حكمتَ فيهم بحكم الله مِن فوق سبع سماوات».

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو مُعرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٠).

عرش الرحمن يهتز لموته ويشيّعه سبعون ألفاً من الملائكة

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع تلك الكرامات التى حدثت لسعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ. تلك الكرامات التى تُبهر العقول وتحيِّر الألباب.

فها هو الحبيب ﷺ يدخل على سعد وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيرًا من سيد قومٍ، فقد أنجزت ما وعدته. وليُنجزنَّك الله ما وعدك»(١).

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن ـ جل جلاله ـ.

قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(٢).

وعن أسماء بنت يزيد بن سكن قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبى ﷺ: ألا يرقا دمعك ويذهب حزنك بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟(٣).

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: قوله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» اختلف العلماء فى تأويله. فقالت طائفة هو على ظاهره واهتزاز العرش: تحركه فرحًا بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى فى العرش تمييزًا، حصل به هذا ولا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار.

وقال المازرى: قال بعضهم: هو على حقيقته وأن العرش تحرك لموته، قال: وهذا لا يُنكر من جهة العقل؛ لأن العرش جسم من الأجسام يقبل الحركة والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك إلا أن يقال إن الله تعالى

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ٩).

(٢) متفق عليه عن جابر ـ وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

(٣) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى فى تلخيصه.

جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد اهتزاز أهل العرش وهم حملته وغيرهم من الملائكة، فحذف المضاف والمراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول، ومنه قول العرب فلان يهتز للمكارم. . . لا يريدون اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون ارتياحه إليها وإقباله عليها وقال الحربى: هو كناية عن تعظيم شأن وفاته والعرب تنسب الشىء المعظم إلى أعظم الأشياء فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة[1].

وقال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: والعرش خلقٌ لله مسخرٌ إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعوراً لحب سعد، كما جعل تعالى شعوراً فى جبل أُحُد بحبه النبى ﷺ. وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ثم عمَّم فقال: ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾. وهذا حق.

وفى صحيح البخارى قول ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[2]. وهذا باب واسع سبيله الإيمان[3].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يرفعه: «اهتز العرش لحب لقاء الله سعداً»[4].

الملائكة تحمل جنازة سعد

عن محمود بن لبيد قال: لما أُصيب أكحلُ سعد، فثقل، حوَّلوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تُداوى الجرحى. فكان النبى ﷺ إذا مر به يقول: كيف

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٢).

(٢) أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد (١/ ٤٦٠).

(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٩٧).

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٢) والحاكم (٣/ ٢٠٦) وصححه ووافقه الذهبى.

أمسيت، وكيف أصبحت؟ فيخبره حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله، فقيل: انطلقوا به. فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوعُ نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» فانتهى إلى البيت، وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويـل أم سـعدٍ سعـدا حزامـــةً وجِـــداً

فقال: «كُلُّ باكيةٍ تكذبُ إلا أمِ سعد» ثم خرج به. قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفَّ علينا منه. قال: «ما يمنعه أن يخفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم، قد حملوه معكم»[١].

سعد بن معاذ وضمة القبر

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد بن معاذ حين تُوفى. قال: فلما صلى عليه رسول الله، ووُضع فى قبره، وسُوى عليه سبّح رسول الله ﷺ تسبيحًا طويلاً. ثم كبَّر فكبرنا. فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبحت ثم كبرت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله ـ عز وجل ـ عنه[٢].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّةً ثم أُفرج عنه» يعنى سعداً[٣].

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٧، ٨) وحسنه الأرنؤوط فى السير (١/ ٢٨٧).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٦) مختصراً ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه النسائى (٤/ ١٠٠) فى الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

قال الإمام الذهبى ــ رحمه الله ــ: قلت: هذه الضمة ليست من عذاب القبر فى شىء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه فى الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله فى قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك. فهذه الأراجيفُ كُلها قد تنالُ العبد وما هى من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقى يرفُقُ الله به فى بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه. قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ وقال: ﴿وأنذرهم يوم الآزفةِ إذ القلوبُ لدى الحناجر﴾ فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفى. ومع هذه الهزات، فسعدٌ ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء ــ رضى الله عنه ــ كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا ينالُه هولٌ فى الدارين، ولا روع ولا ألم، ولا خوف. سل ربك العافية، وأن يحشرنا فى زمرة سعد[1].

يقول حسان بن ثابت يرثى سعد بن معاذ ــ رضى الله عنه ــ:

لقد سجمتْ[2] من دمع عينى عبرةٌ ... وحقَّ لعينى أن تفيض على سعدِ
قتيل سوى فى معرك فجعت به ... عيون ذوارى الدمع دائمة الوجدِ
على ملة الرحمن وارث جنة ... مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد ودعتنا وتركتنا ... وأمسيت فى غبراءَ مظلمة اللحدِ
فأنت الذى يا سعد أُبتَ بمشهدٍ ... كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك فى حىّ قريظة بالذى ... قضى الله فيهم ما قضيت على عمدِ

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٩٠ ــ ٢٩١).
(٢) سجمت: سالت.

فوافق حُكم الله حُكمك فيهمُ ولم تعفُ إذ ذكرتَ ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك فى الأُلى شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقين إذا دُعوا إلى الله يومًا للوجاهة والقصدِ(١)

مناديل سعد بن معاذ فى الجنة

عن أبى إسحق قال: سمعتُ البراء يقول: أُهديت لرسول الله ﷺ حُلةُ حريرٍ، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذٍ فى الجنة، خيرٌ منها وألين»(٢).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه أُهدى لرسول الله ﷺ جُبةٌ من سندسٍ، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده! إن مناديل سعد بن معاذٍ فى الجنة، أحسنُ من هذا»(٣).

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعد للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد(٤).

صدّيق الأنصار سعد بن معاذ؛ قمة سامقة فى علوّ الهمة فى الصدق بعد الصدّيق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ

قال سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ: «ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدَّثتُ نفسى حتى أفرغ منها.

ولا شيَّعتُ جنازةً فحدّثتُ نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقولٌ لها، حتى

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٣٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٨) عن البراء ـ رضى الله عنه ـ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.
(٤) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٤).

يُفرَغ من دفنها.

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول، إلا علمتُ أنه حق».

فقال ابن المسيب: ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبى ﷺ.

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية رحل سعد بن معاذ ليلحق بحبيبه ﷺ وأصحابه ــ رضى الله عنهم ــ.

فرضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عمير بن سعد

وددت أن لى رجالاً مثل عمير بن سعد
أستعين بهم فى أعمال المسلمين

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

إن الولاء والبراء أصلٌ عظيم من أصول العقيدة... ولقد أوجب الله علينا موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. أى فقد برئ من الله وبرئ الله منه.

وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة: ٢٢]

وقال ﷺ: «أوثق عُرى الإيمان: الموالاة فى الله والمعاداة فى الله، والحب فى الله والبُغض فى الله»(١).

(١) رواه أحمد وابن أبى شيبة والطبرانى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٣٩).

وعن جرير بن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلمٍ وتبرأ من الكافر»[(١)].

وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع هذا الصحابى الجليل ـ عمير بن سعد ـ الذى ضرب المثل العظيم فى الولاء والبراء.

ولنبدأ القصة من أولها لنرى كيف أن الإيمان يجعل المؤمن لا يؤثر أحدًا على ربه ـ جل وعلا ـ.

لقد نشأ (عمير) يتيمًا وتجرع مرارة اليُتم والفقر منذ نُعومة أظفاره، فقد مات أبوه وهو طفل صغير ولم يترك له شيئًا من حطام الدنيا.

وبعد فترة تزوجت أمه من رجلٍ ثرى اسمه (الجُلاس بن سُويد) فاحتضن الجلاس عميرًا واعتبره ابنًا له، وأغدق عليه من كل صنوف الخير حتى جعله ينسى أنه يتيم.

وتمر الأيام وتمضى الأعوام وما زالت المحبة تزداد بينهما شيئًا فشيئًا.

ولقد أسلم (عمير) وهو لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً وتغلغل الإيمان فى أعماق قلبه، ورسخت جذوره وارتفعت أغصانه حتى بلغت عنان السماء، وها هى شجرة الإيمان تثمر له الخشوع والخوف والحب والرجاء والإنابة، فقد كان (عمير) عابدًا زاهدًا.

وظل عمير يعيش حياة هادئة مطمئنة.. كيف لا وهو الذى امتلأ قلبه حبًا لله وحبًا لرسول الله ﷺ.

إنما وليكم الله

وفى السنة التاسعة من الهجرة المباركة علم النبى ﷺ أن الرومان يستعدون للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين.

فعزم النبى ﷺ على غزو الروم فى «تبوك».

(١) أخرجه البخارى (١/ ١٦٦) الإيمان ـ ومسلم (٥٦) الإيمان.

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قَلَّ ما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العُسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلَّى للناس أمرهم ـ وضَّح ـ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة ـ التوبة ـ تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال. ورغَّبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله.

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم، إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة ـ إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر ـ حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ[1] ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات، وكان عثمان بن عفان قد جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ فكان رسول الله ﷺ يُقلبها، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»[2]، ثم تصدق وتصدق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير، ومائة فرس، سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله. ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله ـ وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من

---

(١) يطلبون منه أن يحملهم.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٠٢) وأحمد (٥/ ٦٣) والحاكم (٣/ ١٠٢) وصححه ووافقه الذهبى.

جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًا أو مُدَّين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك، ومعاضد، وخلاخل، وقرط، وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[التوبة: ٧٩][(١)].

وكانت تلك المشاهد التاريخية التى رآها (عمير) أمام عينيه من البذل والإنفاق والتضحية تُعرَض أمام عينيه وكأنها خيال لا يحدث إلا فى دنيا الأحلام... وما زالت تلك المشاهد يراها بعينى قلبه حتى عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه سؤالاً لم يجد له إجابة: ما الذى جعل (الجُلاس) يُعرِض عن الإنفاق على الرغم من أنه يملك ثروة كبيرة؟!!!

وبينما هو فى هذا التساؤل وإذا به يجد الجُلاس أمام عينيه فاغتنمها فرصة لا تُعوَّض وأخذ يقص عليه ما رآه من تسابق الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ إلى البذل والإنفاق والتضحية.

وكان عمير يتوقع أن يذهب الجُلاس فى تلك الساعة لينفق من أمواله، ولكنه فوجئ بالجُلاس يقول كلمة تُخرجه من الإسلام جملة واحدة.

قال له الجُلاس: والله لئن كان هذا الرجل ـ يعنى النبى ﷺ ـ صادقًا فيما يقول لنحن شرٌ من الحمير!!!!

لقد شُدِهَ[(٢)] عُميرٌ مما سمع؛ فما كان يظن أن رجلاً له عقل الجُلاس وسنُّهُ،

(١) الرحيق المختوم (ص: ٤٦٨: ٤٧٠) بتصرف.
(٢) شُدِه: دُهِش وتَحيَّر.

تند[1] من فمه مثل هذه الكلمة التى تُخرجُ صاحبها من الإيمان دفعةً واحدة، وتُدخله فى الكفر من أوسع أبوابه.

وكما تنطلق الآلات الحاسبة الدقيقة فى حساب ما يُلقَى إليها من المسائل، انطلق عقل الفتى عمير بن سعد يفكر فيما يجب عليه أن يصنعه: لقد رأى أن فى السكوت عن الجُلاس والتستر عليه خيانة لله ورسوله، وإضراراً بالإسلام الذى يكيد له المنافقون ويأتمرون به[2].

وأن فى إذاعة ما سمعه عقوقًا بالرجل الذى ينزل من نفسه منزلة الوالد، ومجازاة لإحسانه إليه بالإساءة... فهو الذى آواه من يُتم وأغناه من فقر وعوَّضه عن فقد أبيه.

وكان على الفتى أن يختار بين أمرين أحلاهما مُر. وسرعان ما اختار... فالتفت إلى الجُلاس وقال: والله يا جُلاسُ ما كان على ظهر الأرض أحدٌ بعد محمد بن عبد الله أحبَّ إلىَّ منك...

فأنت آثرُ[3] الناس عندى، وأجلُّهم يداً[4] علىَّ، ولقد قلت مقالة إن ذكرتها فضحتك، وإن أخفيتها خُنت أمانتى وأهلكت نفسى ودينى، وقد عزمت على أن أمضى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فكن على بينةٍ من أمرك.

مضى الفتى عُمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبى عليه الصلاة والسلام بما سمع من الجُلاس بن سويد.

فاستبقاه الرسول ــ صلوات الله عليه ــ عنده، وأرسل أحد أصحابه ليدعو له الجُلاسَ.

---

(١) تند: تشردُ.

(٢) يأتمرون به: يحدث بعضهم بعضًا بإيذائه.

(٣) آثرُ الناس عندى: أحبُّ الناس وأقربهم إلىَّ.

(٤) اجلهم يدًا: أعظمهم نعمة علىَّ.

وما هو إلا قليلٌ حتى جاء الجُلاس فحيًّا رسول الله ﷺ وجلس بين يديه، فقال له النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ: «ما مقالة سمعها منك عمير ابن سعد؟!» . . . وذكر له ما قاله. فقال الجُلاسُ: كذب عليٌّ يا رسول الله وافترى، فما تفوَّهت بشيء من ذلك.

والتفت الرسول ــ صلوات الله عليه ــ إلى عمير فرأى وجهه قد احتقن[1] بالدم، والدموع تتحدَّرُ مدرارًا من عينيه؛ فتتساقط على خديه وصدره وهو يقول:

اللّهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به. . .

اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به. . .

فانبرى[2] الجُلاسُ وقال: إنَّ ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق، وإن شئت تحالفنا[3] بين يديك. وإني أحلف بالله أني ما قلت شيئًا مما نقله لك عمير. فما إن انتهى من حلفه وأخذت عيون الناس تنتقل عنه إلى عمير بن سعد حتى غشيت[4] رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ السكينة، فعرف الصحابة أنه الوحي، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت[5]، وتعلقت أبصارهم بالنبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ.

وهنا ظهر الخوف والوجلُ على الجُلاس. . . وبدا التلهفُ والتشوفُ[6] على عمير. . .

(١) احتقن بالدم: تجمع الدم فيه.

(٢) انبرى: برز واندفع.

(٣) تحالفنا: حلف كل منا على صحة كلامه.

(٤) غشيته السكينة: نزلت عليه وغطته.

(٥) لاذوا بالصمت: التزموا الصمت وانقطعوا عن الكلام.

(٦) التشوف: التطلع.

وظل الجميع كذلك حتى سُرِّىَ[١] عن رسول الله ﷺ، فتلا قوله جل وعلا: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فارتعد الجُلاس من هول ما سمع، وكاد ينعقد لسانه من الجزع، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: بل أتوبُ يا رسول الله... بل أتوبُ... صدق عمير ـ يا رسول الله ـ وكنت من الكاذبين. اسأل الله أن يقبل توبتى، جُعلتُ فداك يا رسول الله.

وهنا توجه الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلى الفتى عمير بن سعد، فإذا دموع الفرح تُبللُ وجهه المشرق بنور الإيمان. فمد الرسول يده الشريفة إلى أذنه وأمسكها برفق وقال: «وفَّتْ أُذُنُك ـ يا غلام ـ ما سمعت، وصدَّقك ربك».

عاد الجُلاسُ إلى حظيرة الإسلام وحَسُنَ إسلامه. وقد عرف الصحابة صلاح حاله مما كان يُغدقُه[٢] على عُمير من برٍ. وقد كان يقول كلما ذُكِرَ عمير: جزاه الله عنى خيراً، فقد أنقذنى من الكفر، وأعتق رقبتى من النار[٣].

حائط الإسلام العدل وبابه الحق

وها هو عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الذى كان لا يحابى أحداً ولا

(١) سُرِّى عن الرسول: زال عنه أثر الوحى.

(٢) يغدقه: يعطيه بسخاء.

(٣) نقلاً من صور من حياة الصحابة (٢٤٥: ٢٤٨) بتصرف.

يجامل أبداً فى دين الله . . أراد أن يختار واليًا على مدينة (حِمص).

وكان ــ رضى الله عنه ــ يشترط شروطًا فى هؤلاء الولاة لا تكاد تسمع عنها إلا فى دنيا الأحلام.

فكان يختارهم من الزاهدين الورعين الصادقين المخبتين الصائمين القائمين الذين يفرون من الإمارة ولا يرغبون فيها.

فكان يقول فى نفسه: [أُريد رجلاً إذا كان فى القوم، وليس أميرًا عليهم بدا وكأنه أميرهم . . وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير، بدا وكأنه واحد منهم]. . !!

أُريد واليًا، لا يميز نفسه على الناس فى ملبس، ولا فى مطعم، ولا فى مسكن . . .

يقيم فيهم الصلاة . . . ويقسم بينهم بالحق . . . ويحكم فيهم بالعدل . . . ولا يغلق بابه دون حوائجهم(١).

وفى تلك اللحظة تبادر إلى ذهن عمر (عمير بن سعد) فاختاره كما اختار من قبله (سعيد بن عامر) ليكمل من بعده مسيرة الزهد والورع والعدل والتضحية.

وكان عمير وقتها يجاهد فى سبيل الله فى بلاد الشام فدعاه أمير المؤمنين (عمر) وعهد إليه بولاية (حِمص) فحاول «عمير» أن يعتذر عنها، لكن أمير المؤمنين ألزمه بها إلزامًا. فأذعن «عمير» لأمره على كُرهٍ منه؛ لأنه كان يتمنى أن يظل عمره كله فى الجهاد لكى يرزقه الله الشهادة فى سبيله.

وذهب عمير إلى مدينة (حِمص) ليبدأ الولاية بتلك الكلمات التى سطَّره على جبين التاريخ بسطورٍ من نورٍ.

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ/ خالد محمد خالد (ص: ٤٨١).

فما إن دخل المدينة حتى جمع الناس إلى صلاةٍ جامعة، فلما انقض
الصلاة خطب فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه محم
ﷺ ثم قال: ألا إن الإسلام حائط منيع وبابٌ وثيق، فحائط الإسلام العد
وبابه الحق فإذا نُقض الحائط وحُطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسا
منيعًا ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسو
ولكن قضاءً بالحق وأخذًا بالعدل[1].

وبتلك الكلمات الناصعة بدأ عمير حياته فى مدينة حمص ومكث :
عامًا كاملاً لا يصل منه أى شىء إلى أمير المؤمنين فكتب إليه (عمر):
وصلت رسالتى فأقبل بما جبيت من الفَىء. فأخذ جرابه وقصعته، وع
إداواته، وأخذ عنزته[2]، وأقبَل راجلاً ـ يمشى على رجليه ـ فدخل المدين
وقد شحب، واغبرَّ، وطال شعره. فقال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنير
فقال: ما شأنك؟ قال: ألستُ صحيح البدن، معى الدنيا! فظنَّ عمر أنه -
بمال، فقال: جئت تمشى؟ قال: نعم. قال: أما كان أحدٌ يتبرع لك بداب
قال: ما فعلوا، ولا سألتهم. قال: بئس المسلمون!

قال: يا عمر، إن الله قد نهاك عن الغيبة. فقال: ما صنعت؟ قال: الذ
جبيته وضعته مواضعه، ولو نالك منه شىء، لأتيتك به. قال: جددوا لعُ
عهدًا. قال: لا عملتُ لك ولا لأحد[3].

واستأذن (عمير) (عُمرًا) أن يذهب إلى أهله فى قرية من ضواحى المد
فأذن له.

وبعد فترة ليست بالطويلة أراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يختبر صد
عمير ليطمئن قلبه من اختياره للولاة وحفظه للأمانة.

---

(١) الطبقات لابن سعد (٤/ ٢٧٧).
(٢) العنزة: عصا فى قدر نصف الرمح أو أكبر يتوكأ عليها.
(٣) السير للإمام الذهبى (٢/ ٥٦١) بتصرف.

فبعث رجلاً يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار وقال: انطلق إلى عمير حتى تنزل به كأنك ضيف فإن رأيت أثر شيء ـ من الثروة ـ فأقبل. وإن رأيت حالاً شديدًا فادفع إليه هذه المائة الدينار. فانطلق الحارث فإذا هو بعمير جالس يفلى قميصه إلى جنب الحائط فقال له عمير: انزل رحمك الله. فنزل ثم سأله فقال: من أين جئت؟ فقال: من المدينة. فقال: كيف تركت أمير المؤمنين؟ فقال صالحًا. قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين. قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلى ضرب ابنًا له على فاحشة. فقال عمير: اللهم أعن عمر فإنى لا أعلمه إلا شديد الحب لك.

قال: فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ويطوون حتى أتاهم الجهد. فقال له عمير: إنك قد أجعتنا فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل. قال: فأخرج الدنانير فدفعها إليه فقال: بعث بها أمير المؤمنين فاستعن بها. قال: فصاح وقال: لا حاجة لى فيها فردها.

فقالت له امرأته: إن احتجت إليها وإلا فضعها فى مواضعها. فقال عمير: والله مالى شيء أجعلها فيه. فشقت المرأة أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء.

فرجع الحارث إلى عمر فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين حالاً شديدًا. قال: فما صنع بالدنانير؟ قال: لا أدرى. قال: فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تُقبل. فأقبل إلى عمر فدخل عليه فقال له عمر: ما صنعت بالدنانير؟ قال: صنعت ما صنعت وما سؤالك عنها؟ قال: أنشد عليك لتخبرنى ما صنعت بها. قال: قدمتها لنفسى فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. قال: رحمك الله. فأمر له بوسق من طعام وثوبين. فقال: أما الطعام فلا حاجة لى فيه قد تركت فى المنزل صاعين من

شعير إلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله بالرزق (ولم يأخذ الطعام).

وأما الثوبان فإن أم فلان عارية ـ يعنى زوجته ـ فأخذهما وعاد إل أهله[١].

وددت أن لى رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم فى أعمال المسلمين

وظل حياته كلها زاهدًا ورعًا لا يريد الولاية ولا المناصب، بل لا يري الدنيا بأسرها فهو يريد أن يلحق بنبيه ﷺ ويخشى أن تحول الدنيا بينه وبين تلك الأمنية الغالية.

ولم يلبث طويلاً حتى فاضت روحه إلى بارئها ليلحق بحبيبه وقرة عين محمد ﷺ .. ومات الزاهد العابد.

فبلغ ذلك عمر فشق عليه وترحَّم عليه وخرج يمشى ومعه المشاؤون إل بقيع الغرقد. فقال لأصحابه: ليتمنَّ كل رجل منكم أمنيةً. فقال رجل: أمير المؤمنين وددت أن عندى مالاً فأنفقه فى سبيل الله، وقال آخر: وددت لى قوة فأميح بدلو زمزم لحجاج بيت الله، فقال عمر بن الخطاب: وددت لى رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم فى أعمال المسلمين[٢].

وعن عبد الرحمن بن عمير بن سعد قال: قال لى ابن عمر: ما كان م المسلمين رجلٌ من الصحابة أفضلُ من أبيك.

وعن ابن سيرين، قال: كان عمر من عُجبه بعمير بن سعد يسميه (نسي وحده).

وقال المفضل الغلابى: زُهَّادُ الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس وعمير بن سعد[٣].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨) بتصرف.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٩٨).

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ١٠٥).

وبعد حياة طويلة مليئة بالزهد والورع والخشية نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن عمير وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عبد الله بن مسعود

«ساقه فى الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أحدٍ»

مَن أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد (ابن مسعود)

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن على موعدٍ مع رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع ا
قمة تضيء سماء الإسلام، بل أصبح معجزة من معجزات الرسول ﷺ يـ
أن استطاع ـ بإذن الله ـ أن يصنع من كل صحابى قرآنًا يمشى بين النا
يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

لقد نسخ النبى ﷺ عشرات النسخ من المصحف، بل مئاتٍ، بل أُلوفً
ولكنه لم ينسخها بمدادٍ من الحبر على صفحات الورق، ولكنه نسخها بمد
من النور على صفحات القلوب[1].

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوى سلطانه على النفس، يمد صاحبه بيقينٍ لا يهن، وهمةٍ لا تنى، وأملٍ لا يخبو، ودافعٍ لا يتوقف وعزمٍ لا يخور. وهو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمع المال ولكنه يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تُبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهر

(١) من بديع كلام الشيخ/ سيد قطب ـ رحمه الله ـ.

لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوة إلى قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً.

من كان يُصدِّق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العُدة، من جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا بزمام، وترث مُلك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتنشر دينًا جديدًا، وحضارة جديدة فى الآفاق، وفى أقل من ربع قرن من الزمان(١).

إننا على موعد مع عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ الإمام الحبرُ، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهُذلىُّ المكىُّ المهاجرىُّ البدرى.

كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علمًا كثيرًا(٢).

أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. ويقال: كان سادسًا فى الإسلام. وشهد المشاهد كلها. وكان صاحب سر رسول الله ﷺ ووساده، وسواكه، ونعليه، وطهوره فى السفر. وكان يُشبَّه بالنبى ﷺ فى هديه، ودله، وسمته. وكان خفيف اللحم قصيرًا شديد الأدمة.

وكان من أجود الناس ثوبًا ومن أطيب الناس ريحًا. وولى قضاء الكوفة وبيت المال لعمر وصدرًا من خلافة عثمان ثم صار إلى المدينة، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين(٣).

* * *

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٧٨).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٦١).
(٣) صفة الصفوة (١/ ١٦٣).

كيف كانت قصة إسلامه؟!!

ولقد كان لإسلامه قصة يحلو ذكرها وتأنس النفوس وتطيب القلوب بتكرارها.

فقد كان ابن مسعود يرعى الغنم لسيدٍ من سادات قريش ألا وهو: عقبة بن أبي معيط.

وكان ابن مسعود مخلصًا أمينًا ورعًا على الرغم من أنه لم يسمع بعدُ عن الإسلام وما يدعو إليه من الأمانة والصدق والإخلاص.

وفي يومٍ من الأيام كان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ على موعدٍ مع شمس الهداية ومع النور الإلهي فقد جاءه الحبيب ﷺ بخيري الدنيا والآخرة.

ولنترك الحديث لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ليقصَّ علينا قصته مع النبي ﷺ.

عن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غلام! هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكني مؤتَمن، قال: فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟ ـ أي لا تُدر لبنًا ـ فأتيته بشاة، فمسح ضرعَها، فنزل لبنٌ، فحلب في إناء، فشرب، وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: اقلُصْ ـ أي انضم وأمسِك عن إنزال اللبن ـ فقلص. (زاد الإمام أحمد) قال: ثم أتيته بعد هذا، ثم اتفقا فقلت: يا رسول الله! علِّمني من هذا القول، فمسح رأسي، وقال: يرحمك الله إنك غُلَيِّمٌ معلَّم[1].

وفي رواية قال ابن مسعود: فأتيته بعد ذلك فقلت علمني من هذا القول قال: إنك غلام معلَّم فأخذت من فيه ـ فمه ـ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[2].

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٣٧).

(٢) قال الأرنؤوط: رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١١١) وأحمد (١/ ٤٦٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٢٥) وإسناده حسن.

لقد انبهر عبد الله بن مسعود حين رأى عبد الله الصالح ورسوله الأمين ﷺ يدعو ربه، ويمسح ضرعًا لا عهد له باللبن بعدُ، فإذا هو يُعطى من خير الله ورزقه لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين. . !!

وما كان يدرى يومها، أنه إنما يشهد أهون المعجزات وأقلها شأنًا، وأنه عمّا قريب سيشهد من هذا الرسول الكريم معجزات تهز الدنيا، وتملؤها هدى ونورًا. .

بل ما كان يدرى يومها، أنه وهو ذلك الغلام الفقير الضعيف الأجير الذى يرعى غنم عُقبة بن أبى مُعيط، سيكون إحدى هذه المعجزات، يوم يخلق الإسلام منه مُؤمنًا يهزم بإيمانه كبرياء قريش، ويقهر جبروت سادتها[1].

لم يمض غيرُ قليل حتى أسلم عبد الله بن مسعود وجعل نفسه فى خدمة النبى ﷺ.

ويا لها من مكانة عظيمة تناطح كواكب الجوزاء. . . فبعد أن كان ابن مسعود يرعى الغنم وإذا به ينتقل إلى خدمة سيد الأنام والأمم ﷺ.

مكانته عند الله ـ عز وجل ـ

ولقد كان ــ رضى الله عنه ــ من بين هؤلاء الصحب الكرام الذين أنزل الله فى شأنهم قرآنًا يوصى فيه النبى ﷺ بألا يطردهم من مجلسه، بل يقربهم إليه فهم الذين سيبذلون دماءهم وأموالهم وأنفسهم لنُصرة هذا الدين.

عن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة، فقال المشركون: اطرُد هؤلاء عنك فلا يجترئون علينا، وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان نسيت اسمهما، فوقع فى نفس النبى ﷺ ما شاء الله وحدث به

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٢٩).

نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢][(١)].

وعن حذيفة أنه قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله بن مسعود من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة[(٢)].

أول من جهر بالقرآن

عن يحيى بن عُروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أولَ من جهر بالقرآن ـ بعد رسول الله ﷺ ـ بمكة عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: اجتمع يومًا أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دَعُونى فإن الله سيمنعنى. قال: فغدا ابنُ مسعود حتى أتى المقام فى الضُّحى، وقريشٌ فى أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمنِ الرحيمِ﴾ رافعًا بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن ١: ٢] قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أُمِّ عبدٍ؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمدٌ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه، وجعل يقرأُ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغَ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا فى وجهه، فقالوا له: هذا الذى خشينا عليك، فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ علىَّ منهُمُ الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غدًا، قالوا: لا، حسبُك، قد أسمعتهم ما يكرهون[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) ·· ا·ا الصحابة.

(٢) رواه أحمد في فضائل الص ١٥٤) والحاكم (٣/ ٣١٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) إسناده صحيح متصل. وذكره القرطبى فى تفسيره عن عروة بن الزبير (٧/ ١٤٧) وأخرجه الطبرى فى تاريخه (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

نشأة في ظلال الوحي

وظل ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ لا يفارقه في ليله أو نهاره. . . في حِلِّه أو ترحاله.

فاقتبس الكثير والكثير من هدى النبى ﷺ وأخلاقه وعلمه حتى أصبح من أقرب الناس سمتًا وهديًا بالنبى ﷺ.

فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «سألنا حذيفة عن رجل قريب السَّمت والهَدى من النبى ﷺ حتى نأخذ عنه فقال: ما أعرِف أحدًا أقرب سمتًا وهديًا ودلاً بالنبى ﷺ من ابن أُمِّ عبد»[1]. [2] ـ يعنى ابن مسعود ـ.

وبلغت مكانته ـ رضى الله عنه ـ عند النبى ﷺ درجة عظيمة لا تخطر ببالٍ فقد أذِن له النبى ﷺ بالدخول عليه متى شاء فقال له ذات مرة:

«إذنك علىَّ أن يُرفع الحجابُ وأن تستمع سِوادى حتى أنهاك»[3].

السِواد: السر.

حتى إن بعض الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كانوا يظنون فى بادئ الأمر أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ من آل بيت النبى ﷺ من كثرة دخوله عليه.

فعن الأسود بن يزيد قال: سمعت أبا موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ يقولُ: «قَدِمتُ أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينًا ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيتِ النبى ﷺ لما نرى من دُخوله ودخول أمه على

(١) أخرجه البخارى (٣٧٦٢) والترمذى (٣٨٠٧) وأحمد (٥/ ٣٨٩، ٤٠١).

(٢) فى رواية البخارى (٦٠٩٧): إن أشبه الناس دلاً وسمتًا وهديًا برسول الله ﷺ لابن أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه لا ندرى ما يصنع في أهله إذا خلا. قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٠٣): سمتًا أي خشوعًا، وهديًا أي طريقة ودلاً بفتح المهملة والتشديد: أى سيرة وحالة وهيئة وكأنه مأخوذ مما يدل ظاهر حاله على حُسن فعاله.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٩) وأحمد (١/ ٣٨٨، ٤٠٤) وابن ماجة (١٣٩).

النبى ﷺ(١) .(٢)

جهاده في سبيل الله

ولقد شهد ابن مسعود المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما تخلف أبدًا عن مشهدٍ منها.

بل لقد كان له فى يوم بدرٍ موقفًا عظيمًا عندما قتل أبا جهل، وذلك بعد أن أثبته (ابنا عفراء) فقال النبى ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟». فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: أأنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه(٣).

فائدة: ولقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات فيمن قتل أبا جهل من الأربعة المتقدمين «معاذ بن عمرو بن الجموح، معاذ ومعوذ ابنى عفراء وابن مسعود» فقال: فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شدَّ عليه مع معاذ بن عمرو، كما فى الصحيح وضربه بعد ذلك (معوذ) حتى أثبته، ثم حزَّ رأسه ابن مسعود فتجمع الأقوال كلها. اهـ(٤).

الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا

وكان من بين هؤلاء الذى رفع الله شأنهم وأعلى قدرهم (عبد الله بن مسعود) الذى كان ملازمًا للحبيب ﷺ يأخذ منه القرآن غضًا طريًا حتى أصبح واحدًا من أفضل الصحابة فى قراءة القرآن وعلومه، مما دعا النبى ﷺ أن يوصى أصحابه بأنه يتعلموا القرآن من عبد الله بن مسعود.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٦٣) ـ ومسلم (٢٤٦٠) والترمذى (٣٨٠٦).

(٢) قال الحافظ في الإصابة (٢/ ٢٦٠): أمه (أى أم عبد الله بن مسعود) أم عبد الله بنت عبد ود بن سواءة أسلمت وصحبت. وقال فى الفتح (٧/ ١٠٣) وكانت تكنى أم عبد.

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٣٩٦٢) المغازى ـ ومسلم (٣/ ١١٨/ ١٤٢٤) واللفظ للبخارى.

(٤) فتح البارى (٧/ ٣٤٥).

فعن مسروق قال: «ذُكر عبد الله عند (عبد الله بن عمرو) فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود ــ فبدأ به ــ وسالمٍ مولى أبى حذيفة وأُبيٍّ بن كعبٍ ومعاذ بن جبل»(١).

ولِمَ لا يكون (ابن مسعود) فى تلك المكانة وهو الذى أخذ القرآن من فم النبى ﷺ مباشرة، وتعلمه من نبعه الصافى... ولك أن تتخيل معى أيها الأخ الكريم أنك تسمع القرآن من فم مَن أُنزل عليه القرآن ﷺ.

قال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ: «والله الذى لا إله غيره ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أُنزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ فيمن أُنزلت ولو أعلمُ أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلُغُهُ الإبلُ لَركبتُ إليه»(٢).

وعن شقيق بن سلمة قال: «خطبنا ابن مسعود فقال: والله لقد أخذتُ من فيِّ ــ فم ــ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة. والله لقد عَلِمَ أصحابُ النبى ﷺ أنّى من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست فى الحِلَقِ أسمع ما يقولون فما سمعت رادًا يقول غير ذلك(٣).

كان القرآن يخرج من فمه غضًا طريًا كما أنزل

عن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبى بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلى، فافتتح سورة النساء يسجلها ــ يقرؤها قراءة مفصلة ــ فقال ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ قراءة ابن أُمِّ عبد» [فأخذ] عبد الله فى الدعاء. فجعل رسول الله ﷺ يقول: «سَل تُعط». [فكان] فيما سأل: اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفدُ، ومرافقةَ نبيك محمد

(١) أخرجه البخارى (٣٧٥٨) ــ ومسلم (٢٤٦٤) والترمذى (٣٨١٠).
(٢) أخرجه البخارى (٥٠٠٢) ــ ومسلم (٢٤٦٢).
(٣) أخرجه البخارى (٥٠٠٠) ــ ومسلم (٢٤٦٢).

ﷺ فى أعلى جنان الخُلد. فأتى عمرُ (عبد الله) يبشره، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه، فقال: إنك لسبّاقٌ بالخير(١).

الحبيب ﷺ يبكي لسماع القرآن من ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ

ولقد أحب النبى ﷺ عبد الله بن مسعود حُباً شديداً كان يزداد يومًا بعد يومٍ، وكان يقرّبه إليه لما يرى فيه من أمارات الذكاء والنجابة والأخلاق الرفيعة وحُسن الاتباع.

وفى مرة اشتاق الحبيب ﷺ أن يسمع القرآن من فم ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

عن عبد الله قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىَّ القرآن. قلت: يا رسول الله أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى. فقرأتُ عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١] فغمزنى برجله، فإذا عيناهُ تَذْرِفان»(٢).

ساق أثقل من جبل أحُد

وتتعاقب الأيام والليالى ويأتى موقف عظيم يبين للناس مكانة عبد الله بن مسعود عند الله وعند رسول الله ﷺ.

فعن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤهُ فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبى الله من دقة ساقيه، فقال: والذى نفسى بيده لهما

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: وهو فى المسند (١/ ٤٤٥، ٤٥٤) وأخرجه الحاكم بنحوه (٣/ ٣١٧).
(٢) أخرجه مسلم (٨٠٠) فى المسافرين ــ باب فضل استماع القرآن ــ والبخارى (٤٠٤٩) فضائل القرآن.

أثقل فى الميزان من أُحُدٍ[١]. ــ أى من جبل أُحُدٍ ــ.

بل يشهد له النبى ﷺ بأنه من أهل الإيمان والتقوى.

فعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾ إلى آخر الآية. قال لى رسول الله ﷺ: «قيل لى: أنت منهم»[٢].

بل قال الحبيب ﷺ ذات مرة لأصحابه: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكرٍ وعمر واهتدوا بهدى عمّار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود»[٣]. فكانت وصية عظيمة لأصحابه علموا من خلالها قَدر ابن مسعود ومكانته ومنزلته السامقة.

ولِمَ لا؟ ولقد كان ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ يتابع النبى ﷺ ويأخذ عنه القرآن حتى آخر يومٍ فى حياته فعلم كل شىء عن القرآن وتفوّق على غيره من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ فى القرآن وعلومه.

فعن أبى ظبيان قال: قال لنا ابن عباس: أى القراءتين تقرءون؟ قلنا: قراءة عبد الله. قال: إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن فى كل عام مرة، وإنه عرض عليه فى العام الذى قُبض فيه مرتين فشهد عبد الله ما نُسخ[٤].

وظل ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ ملازمًا للحبيب ﷺ ثابتًا على دينه وإيمانه.. تاليًا لكتاب ربه... حافظًا لسُنة حبيبه ﷺ إلى أن جاء اليوم الذى أظلمت فيه المدينة كلها بموت النبى ﷺ، فحزن عليه ابن مسعود حُزنًا شديدًا، فقد كان ﷺ حبيبه ورسوله ومُعلمه وأستاذه.. ففقد كل ذلك فى

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٢٠ ــ ٤٢١) والطبرانى فى الكبير (٩/ ٧٥) وهو صحيح بمجموع طُرقه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٩) والترمذى (٣٠٥٣) وأبو يعلى (٨/ ٤٧٥ ــ ٤٧٦).

(٣) رواه الترمذى (٣٨١٠) وابن ماجة (٩٧) والحاكم (٣/ ٧٥) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٥٤) والكبرى (٥/ ٧١، ٧٢) وقال العدوى: إسناده صحيح.

لحظة واحدة.

وبعد وفاة النبى ﷺ كان أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ يعلمون قدر ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ويعرفون مكانته ومنزلته.

وفى عهد أمير المؤمنين (عمر) ـ رضى الله عنه ـ كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة: إننى قد بعثتُ إليكم عماراً أميراً، وابنَ مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقتدُوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى[١].

ولقد أحبَّه أهل الكوفة حبًا جَمًا لم يظفر به أحدٌ قبله ولا بعده.

خوفه ـ رضى الله عنه ـ وبكاؤه

عن مسروق قال: قال رجل عن عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلىَّ. فقال عبد الله: لكن ها هنا رجل ودَّ أنه إذا مات لا يُبعث... يعنى نفسه.

وعن الحسن قال: قال عبد الله بن مسعود: لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لى اختر نخيِّرك من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رمادًا؟ لأحببت أن أكون رمادًا.

وعن أبى وائل قال: قال عبد الله: وددت أن الله غفر لى ذنبًا من ذنوبى، وأنه لا يُعرف نسبى[٢].

وعن عون بن عبد الله، عن أخيه عُبيد الله قال: كان عبد الله إذا هدأت العيونُ، قام فسمعتُ له دويًا كدوىِّ النحلِ[٣].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) والحاكم (٣/ ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٦٧).

(٣) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٤٨) وابن سعد (٣/ ١/ ١١٠).

تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

عن حبيب بن أبى ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشى معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله لو تعلمون ما أعلم من نفسى لحثيتم على رأسى التراب[1].

توقيره للنبى ﷺ حيًا وميتًا

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ يحب النبى ﷺ حبًا جمًا ويوقره ويخاف أن يحدّث بحديثٍ واحدٍ يزيد فيه كلمةً أو يُنقص منه حرفًا.

عن مسروق قال: حدثنا عبد الله يومًا فقال: قال رسول الله ﷺ فرَعُد حتى رعُدت ثيابه، ثم قال: نحو ذا أو شبيهًا بذا[2].

يقول عمرو بن ميمون: [اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سَنةً، ما سمعته يُحدث فيها عن رسول الله ﷺ، إلا أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه: قال رسول الله، فعلاهُ الكَرْبُ حتى رأيتُ العَرَق يتحدَّر عن جبهته، ثم قال ـ مُستدركًا ـ قريبًا من هذا قال الرسول]..!!

ويقول علقمةُ بن قيس: [كان عبد الله بن مسعود يقوم عَشيةَ كل خميس مُتحدثًا، فما سمعتهُ فى عشيةٍ منها يقول: قال رسول الله غيرَ مرة واحدة.. فنظرتُ إليه وهو مُعتمدٌ على عَصا، فإذا عصاهُ ترتجف، وتتزعزع]..!!

إيثاره ثواب الآخرة على شهوات النفس

عن الأحوص الجشمى قال: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون له، ثلاثة

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أحمد (١/ ٤٢٣) وابن سعد (٣/ ١/ ١١١).

غلمان، كأنهم الدنانير حُسنًا، فجعلنا نتعجب من حُسنهم فقال لنا: كأنكم تغبطوني بهم. قلنا: والله إي والله، بمثل هؤلاء يُغبط المرء المسلم.

فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير، قد عشش فيه خُطَّاف وباض، فقال: والذى نفسى بيده لأن أكون قد نفضت يدى عن تراب قبورهم أحب إلىَّ أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وعن قيس بن جبير قال: قال عبد الله: حبَّذا المكروهان الموت والفقر، وايم الله إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالى بأيهما بليت، إن حق الله فى كل واحد منهما واجب، وإن كان الغنى إن فيه للعطف ـ على المساكين ـ وإن كان الفقر إن فيه للصبر(1).

مكانته ومنزلته في قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ

وعن زيد بن وهب قال: إنى لجالسٌ مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابنُ مسعود، فكاد الجلوس يُوارونه من قِصَره، فضحك عمرُ حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهللُ وجهه، ويضاحكه، وهو قائم عليه، ثم ولَّى، فأتبعه عمرُ بصره حتى توارى، فقال: كُنيف مُلئَ علمًا(2). الكنيف: الوعاء.

وفى رواية: فقال: كُنَيف مُلئ فقهًا(3).

وعن الشعبى قال: ذكروا أن عمر بن الخطاب لقى ركبًا فى سفر له فيهم عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفج العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ فقال عبد الله: البيت

(1) صفة الصفوة (1/ ١٦٨).

(2) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١١٠) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٢٩) وأخرجه الفسوى (٢/ ٥٤٣) فى المعرفة والتاريخ، من طريق: عبد الرزاق عن الثورى، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، . . . وإسناده صحيح. وكُنَيف: تصغير كنف، وهو الوعاء، وهو تصغير تعظيم كقول الحباب بن المنذر: أنا جُذَيلها المحكك، وعُذَيقها المرجب. . .».

(3) رواه الحاكم (٣/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

العتيق. فقال عمر: إن فيهم عالمًا. وأمر رجلاً فناداهم: أى القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ حتى ختم الآية.

قال: نادهم أى القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية.. فقال عمر: نادهم، أى القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾. فقال عمر: نادهم أى القرآن أخوف؟ فقال ابن مسعود: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به﴾ الآية. فقال عمر: نادهم أى القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: ﴿يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ فقال عمر: نادهم: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم[1].

وعن حَبَّة بن جُوَين قال: لما قدم (علىٌّ) الكوفة، أتاه نفرٌ من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال: وأنا أقول فيه مثل الذى قالوا وأفضل، قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرَّم حرامه، فقيه فى الدين، عالمٌ بالسنة[2].

وعن أبى الأحوص، قال: أتينا أبا موسى، فوجدتُ عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون فى مصحف، فتحدثنا ساعةً، ثم راح عبدُ الله، فقال أبو مسعود: لا والله، لا أعلمُ رسول الله ﷺ ترك أحدًا أعلمَ بكتاب الله من هذا القائم[3]. يقصد ابن مسعود.

وعن تميم بن حذلم، قال: جالست أصحاب النبى ﷺ أبا بكر وعمر، وما رأيت أحدًا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة، ولا أحب إلىَّ أن أكون فى مسلاخه منك يا عبد الله بن مسعود.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٥).

(٢) قال الأرنؤوط: سنده حسن: أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦١) (١١٣) والفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢/ ٤١٤).

وعن مسروق، قال: شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر منهم: عمر، وعليّ، وعبد الله، وأُبيّ بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين: عليّ، وعبد الله (ابن مسعود).

وعنه قال: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى المائة، وكالإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم. فوجدت عبد الله من ذلك الإخاذ[1].

وعن أبى إسحاق قال: سمعت أبا الأحوص قال: «شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود فقال أحدُهُما لصاحبه: أتُرَاه ترك بعده مثلَهَ؟ فقال: إن قلتَ ذاكَ إن كان ليُؤذَنُ له إذا حُجِبنَا ويشهدُ إذا غِبْنَا»[2].

كلمات تملأ القلب نوراً

ولا يتعجب أحدنا ـ بعد تلك المناقب ـ أن يجد ينابيع الحكمة تجرى على لسان ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ولذا فإننى أُهدى إليكم تلك الباقة العطرة من مواعظه وكلامه النفيس.

عن معن قال: قال عبد الله بن مسعود: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وإدبارها».

وعن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية».

وعن منذر قال: جاء ناس من الدهاقين إلى عبد الله بن مسعود، فتعجب

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦١) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٥٦).

الناس من غلظ رقابهم وصحتهم، فقال عبد الله: «إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا، وايم الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجُعلان».

وعن عبد الله قال: «مع كل فرحة ترحة، وما ملئ بيت حبرة إلا ملئ عبرة».

وعن الضحاك بن مزاحم قال: قال عبد الله: «ما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة إلى أهلها»(١).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: أتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمنى كلمات جوامع نوافع، فقال له عبد الله: لا تشرك بالله شيئًا، وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا.

وقال عبد الله: «الحق ثقيل مرئ، والباطل خفيف وبيء ورُب شهوة تورث حزنًا طويلاً».

وعن عنبس بن عقبة قال: قال عبد الله بن مسعود: «والله الذى لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان».

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أُذن بهلاكها».

وعن أبى عبيدة قال: قال عبد الله: «من استطاع منكم أن يجعل كنزه فى السماء حيث لا تأكله السوس ولا يناله السُراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه».

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٢).

وعن القاسم قال: قال رجل لعبد الله: أوصنى يا أبا عبد الرحمن قال: «ليسعك بيتك، واكفف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك».

وعن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم قيل له: بأى شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة منكم.

وعن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: يؤتَى بالعبد يوم القيامة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: من أين يارب؟ قد ذهبت الدنيا، فتُمثّل على هيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها حتى إذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى فى إثرها أبد الآبدين[1].

وعن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن وإن كفر كفر، وإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإن الحى لا تُؤمَن عليه الفتنة.

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: لا تكونن إمّعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال: يقول أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت.

ألا ليوطنن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر.

وعن سليمان بن مهران قال: بينما ابن مسعود يومًا معه نفر من أصحابه إذ مر أعرابى فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه[2].

وعن هُزيل بن شُرحبيل، عن عبد الله قال: من أراد الآخرة أضرَّ بالدنيا، ومن أراد الدنيا، أضرَّ بالآخرة، يا قوم فأضرُّوا بالفانى للباقى[3].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ــ نقلاً من السير للذهبى (١/ ٤٩٦).

وعن عبد الرحمن بن حجيرة أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ كان يقول إذا قعد: إنكم فى ممرِّ الليل والنهار فى آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموتُ يأتى بغتة، من زرع خيرًا يُوشكُ أن يحصُدَ رغبة، ومن زرع شرًا يُوشكُ أن يحصد ندامةً، ولكل زارع مثلُ ما زرع، لا يُسبقُ بطىءٌ بحظه، ولا يُدركُ حريصٌ ما لم يُقدَّر له، فمن أُعطىَ خيرًا، فالله أعطاه، ومن وُقى شرًا، فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاءُ قادة، ومجالستهم زيادة.

وعن عبد الله قال: ارضَ بما قسم الله تكن من أغنى الناس، واجتنب المحارمَ تكن من أورع الناس، وأدِّ ما افتُرِضَ عليك تكن من أعبد الناس[1].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالعلم والخشية والجهاد والبذل والتضحية والرحمة والتواضع.. نام ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت، فقد آن الأوان ليلحق بحبيبه ﷺ الذى لطالما ملأ عليه قلبه ولطالما تعلم على يديه.

وبينما هو ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت، وإذا بعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ يأتى إليه يعوده ـ يزوره فى مرضه ـ.

عن أبى ظبية قال: مرض عبد الله، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكى؟ قال: ذُنوبى، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربى، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضنى، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه[2].

ومات ابن مسعود بالمدينة ودُفن بالبقيع ليلحق بأحبابه.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٩٧).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٩٨).

ثابت بن قيس

يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة

محمد رسول الله ﷺ

يا لها من ثُلة فازت ورب الكعبة بكل المكارم. لقد علم الكثيرون من أصحاب النبى ﷺ وهو ما زال حيًا يُرزق أنه من أهل الجنة!!!

وأنا أسألكم بالله ـ جل وعلا ـ أى أقدام تحمل الإنسان بعد تلك البشرى لتمشى على الأرض.

ونحن الآن على موعدٍ مع صحابى جليل من هذا الصنف الكريم الذى علم أنه من أهل الجنة.

إنه (ثابت بن قيس) سيد من سادات الخزرج وكان من نُجباء أصحاب محمد ﷺ وكان خطيبًا للأنصار.

فقد كان حسان بن ثابت شاعراً للرسول ﷺ، وكان ثابت بن قيس خطيبًا له ﷺ ـ وذلك بعد إسلامه ـ.

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ إلى المدينة يقرئ أهلها القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين.

ونزل مصعب بن عمير بالمدينة على أسعد بن زرارة مِن بنى النجار فأقام عنده، وكان أسعد من النفر الخزرجيين الذين أسلموا يوم عرض الرسول ﷺ

دعوته، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان مصعب بن عمير مثال الداعية اللبق الفطن، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حباه الله ـ تعالى ـ الحلم والصبر والأناة، فاستطاع أن ينشر الإسلام فى المدينة. وذات يوم سمع ثابت بن قيس بالداعية المكى الذى ينزل بدار أسعد بن زرارة الخزرجى، وما كاد يستمع إلى القرآن الكريم يرتله مصعب بن عمير حتى أصاخ إليه بسمعه وقلبه، فأَسَرَت معانى القرآن وروعته لُبّه وفؤاده وما لبث أن شَرح الله صدره للإيمان، فانطلق ينطق بالشهادة، وانضوى تحت لواء الإسلام، كما أسلمت أمه «كبشة بنت واقد» وكانت ذا عقل وافر، وحكمة ورويّة.

كما أسلمت حبيبة بنت سهل فتزوجها ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ[1]. وحين قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً وآخى بين المهاجرين والأنصار كان نصيبُ ثابت بن قيس فى المؤاخاة «عامر بن أبى البكير»[2].

وكان خطيبًا بليغًا جهير الصوت إذا خطب وقع كلامه فى القلب مباشرة بلا تردد ولا تلعثم فلما شرح الله صدره للإسلام فى بادئ الأمر وعلم بقدوم النبى ﷺ إلى المدينة قام يستقبل الحبيب ﷺ مع باقة عطرة من فرسان قومه.

عن أنس قال: خطب ثابتُ بنُ قيس مَقْدِم رسول الله ﷺ المدينة، فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا[3].

فأثلجت تلك الكلمة قلوب الأنصار وشرحت صدورهم.

ولِمَ لا؟ وقد وعدهم الحبيب ﷺ بالجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ٤٤٥).

(٢) عامر بن أبى البكير صحابى جليل، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، أسلم مع إخوته الثلاثة (عاقل وخالد وإياس) وما شهد بدراً إخوة أربعة سواهم. واستشهد عامر يوم اليمامة (سير أعلام النبلاء: ١/ ١٨٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤) وصححه وأقره الذهبى.

ومنذ ذلك اليوم وأصبح ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ، فكان إذا جاءت الوفود بخطبائها وشعرائها قام لهم ثابت بن قيس لمنازلة الخطباء.

فلما دخل وفدُ بنى تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجُراته:

أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك نُفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنتُ لخطيبكم فليقل»، فقام عُطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل [والمنُّ] وهو أهلُه، الذى جعلنا مُلوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا رءُوسَ الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعددْ مثل ما عدَّدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَف بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشمَّاس، أخى بنى الحارث بن الخزرج: «قُم، فأجِب الرجل فى خُطبته»، فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهنَّ أمره، ووسع كُرسيه علمه، ولم يك شىء قطُّ إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه وأئمه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه؛ أكرمُ الناس حسبًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فِعالاً. ثم كان أوّل الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاهُ رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منَّا ماله

ودمه، ومَنْ كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم(١).

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة والجنة

ولقد كان ثابت ــ رضى الله عنه ــ يحمل قلبًا خاشعًا مخبتًا، وكان يتحلى بالخشية والخوف من كل ما يُغضب الله ــ عز وجل ــ وإذا به فى يوم من الأيام يقول للحبيب ﷺ: يا رسول الله! إنى أخشى أن أكون قد هلكت، ينهانا الله أن نُحِبَّ أن نُحمدَ بما لا نفعلُ، وأجدنى أحبُّ الحمد. وينهانا الله عن الخُيلاء، وإنى امرؤ أُحب الجمال، وينهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل رفيعُ الصوت، فقال: «يا ثابت! أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة»(٢)؟.

فيا لها من بشرى لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها.

إنها سعادة الدنيا والآخرة: يعيش حميدًا ويُقتل شهيدًا ويدخل الجنة.

بل ها هى بشرى من النبى ﷺ له بالجنة مرة ثانية.

فعن أنس بن مالك أنه قال: لما نزلت هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** إلى آخر الآية... جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال: «أنا من أهل النار» واحتبس عن النبى ﷺ فسأل النبىُ ﷺ سعد بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» قال سعد: إنه لجارى وما علمت له بشكوى ــ مرض ــ قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ فقال

(١) أخرجه الطبرى فى التاريخ (٢/ ١٨٨: ١٩٠) ــ السيرة لابن هشام (٤/ ١٨٧ ــ ١٨٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبى ــ وقال الحافظ فى الفتح (٦/ ٦٢١): إسناده قوى، لكنه مرسل.

رسول الله ﷺ : «بل هو من أهل الجنة»[١].

شهيدٌ يبحث عن الشهادة

لقد شهد ثابت ـ رضى الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ سوى (بدر) ولقد علمنا أن الحبيب ﷺ بشَّره بالشهادة في سبيل الله بل وبشَّره بأنه من أهل الجنة.

فما زال ثابت يبحث عن الشهادة فى مظانها... ففى كل غزوة غزاها يقول فى نفسه: لعلى أنال الشهادة هنا.... وظل هكذا يتلهف شوقًا لهذا اليوم الذى يلقى الله فيه شهيداً فى سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

إلى أن جاءت حروب الردة التى كانت الدولة فيها في أكثر المعارك لمسيلمة الكذاب حتى وصل الأمر أن اقتحموا فسطاط ـ خيمة ـ خالد بن الوليد وهمّوا بقتل زوجته أم تميم.

وكان ثابت بن قيس وقتها هو حامل لواء الأنصار.

فلما رأى الضعف والوهن قد دبَّ فى صفوف المسلمين قام فقال: أُفٍّ لهؤلاء ولِمَا يعبدون! وأُف لهؤلاء ولِما يصنعون! يا معشر الأنصار، خلُّوا سَنَنى لعلى أصلى بحرها ساعةً، ورجل قائم على ثُلْمَةٍ، فقتله وقُتل.

وعن أنس قال: جئته وهو يتحنط، فقلت: ألا ترى؟ فقال: الآن يا ابن أخى. ثم أقبل، فقال: هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم، بئس ما عوَّدتم أقرانكم، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ، فقاتل حتى قُتل[٢].

وعن أنس: أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنَّط وليس ثوبين أبيضين، فكُفِّن فيهما، وقد انهزم القوم، فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء

---

(١) أخرجه مسلم (١١٩) وأحمد (٣/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٤٥) الجهاد.

به هؤلاء، وأعتذر من صنيع هؤلاء، بئس ما عوّدتم أقرانكم، خلُّوا بيننا وبينهم ساعة، فحمل، فقاتل حتى قُتل»(١).

وخرَّ البطل صريعًا على أرض الشرف والجهاد، وقد نال الشهادة التى لطالما كان يتمناها والتى بشَّره بها حبيبه ﷺ وأسلم البطل نفسه ليكون فى حواصل طير خُضر تأوى إلى تلك القناديل المعلقة عند عرش الرحمن وليسرح فى أنهار الجنة وليكون من تلك الثلة المؤمنة **﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا﴾** [النساء: ٦٩]

لك الله يا ثابت من فارس مغوار وبطل كرّار.. تلبس الكفن ببطولة وفدائية، وغيرك من أقزام عصرنا أولى بلُبْس الكفن من الأموات ذلاً وخِزيًا وهوانًا!!

لقد جفتْ سواقينا وهدّ الذلُّ مأوانا
ولم يترك لنا الأعداءُ غرسًا فى أراضينا
سوى أجياف موتانا
أخى إن ضجّ بعد الحرب (يهودى) بأعمالهْ
وقدس ذِكْرَ من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمتْ بمن دانا
بل اتبعنى لنحفر خندقًا بالرفش والمعول
نُوارى فيه موتانا
بل اركع خاشعًا مثلى لنبكى حظَّ موتانا
أخى مَنْ نحن لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا إذا قُمنا ردانا الخزىُ والعارُ

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) وصححه ووافقه الذهبى.

لقد خمّتْ بنا الدنيا كما خُمَّتْ بموتانا
فهاتِ الرّفش واتبعنى لنحفرَ خندقًا آخرْ
نوارى فيه أحيانا(١)

وهكذا نال ثابت بن قيس الشهادة فى سبيل الله مع ثُلَّة من الصحابة الكرام ــ رضوان الله عليهم ــ وكأن دماءهم التى سالت على أرض المعركة كانت بداية النصر الكبير من الله ــ عز وجل ــ لمن خرجوا من ديارهم لا يرجون إلا أن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى(٢).

لقد نال ثابتٌ الشهادة فى سبيل الله بعد أن ترك أثرًا حميداً لمن بعده، وفتح ثغرة فى صفوف العدو، استطاع فرسان المسلمين من خلالها أن ينفذوا إلى قلب الأعداء وينتصروا عليهم.

لقد كان ثابتٌ من الرجال النجباء الذين صهرهم الإسلام ونقَّاهم، وهو أحد الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام الأولى، وتشربت قلوبهم مبادئه، فكانوا من الصفوة المختارة التى مدحها رسول الله ﷺ وأثنى عليها، وقال فيه: «نِعم الرجل ثابت بن قيس بن شمَّاس»(٣).

ولم يتوقف عطاء ثابت بن قيس بعد أن سقط شهيداً فى ساحة الإيمان؛ لأن غراسه ما تزال تؤتى أكلها، فقد كان له من البنين ثلاثة: محمد ويحيى وعبد الله، رباهم على حُب الجهاد والموت فى سبيل الله، فقُتلوا جميعًا فى سبيل الله(٤)، ونالوا شرف الشهادة، وسالت دماؤهم الطاهرة فوَّارة لتروى الثرى الطيب، وليكونوا نموذج صدقٍ لمن يريد العزة والكرامة ممن يأتى

(١) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٤٥ ــ ٣٤٦).
(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٧٥).
(٣) أخرجه الترمذى والحاكم (٣/ ٢٣٣) وصححه ووافقه الذهبى ــ صحيح الجامع (٦٧٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٣).

بعدهم. وهكذا سُجل اسم ثابت بن قيس ــ رضى الله عنه ــ فى سجل أولئك الرجل الأفذاذ الذين ضربوا أروع الأمثلة فى الإسلام، وكانوا بحق ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

تنفيذ وصيته بعد موته !!!

لما استشهد ثابت ــ رضى الله عنه ــ رآه رجل ــ أى فى المنام ــ فقال له: «إنى لما قُتلتُ، انتزع درعى رجل من المسلمين، وخبَّأه، فأكبَّ عليه برمة[1]، وجعل عليها رحلاً، فائت الأمير، فأخبِره، وإياك أن تقول: هذا حُلمٌ، فتضيعه، وإذا أتيت المدينة، فقل لخليفة رسول الله ﷺ: إن علىَّ من الدَين كذا وكذا، وغلامى فلان عتيق، وإياك أن تقول هذا حُلم، فتضيعه، فأتاه فأخبره الخبر، فنفذ وصيته!!

فلا نعلم أحدًا بعدما مات أُنفذت وصيته غير ثابت بن قيس ــ رضى الله عنه ــ[2].

فرضى الله عن ثابت وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) البرُمة: قدرٌ من الحجارة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٥) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢) وقال: رواه الطبرانى، وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله ثقات. وقال البوصيرى: أصله فى البخارى (٣٦١٣) و(٤٨٤٦) ومسلم (١١٩).

أبو طلحة الأنصارى

لصوت أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من ألف رجل

محمد رسول الله ﷺ

إننا مع كل صفحة من هذا الكتاب نعيش فيها بأرواحنا مع واحدٍ من هؤلاء الأتقياء الأنقياء الذين ربَّاهم الحبيب ﷺ على العقيدة الراسخة والإيمان الذى لا تزعزعه الجبال.... وكأننا نطير فوق السحاب ونلامس كواكب الجوزاء بمجرد أن نتعايش مع صفحة مضيئة من حياتهم.

ولذلك قال الحبيب ﷺ: «الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١).

وها نحن نعيش، بل ونتعايش مع رجلٍ أسلم لله ـ جل وعلا ـ وكان إسلامُه مهراً لامرأة من نساء أهل الجنة.

إنه أبو طلحة الأنصارى صاحبُ رسول الله ﷺ، ومن بنى أخواله، وأحدُ أعيان البدريين وأحدُ النُّقباء الاثنى عشر ليلة العقبة.

قصة إسلامه.. وزواجه من أم سُليم

لقد أسلمت أم سُليم ـ رضى الله عنها ـ وكان زوجها مالك ـ والد أنس ـ ما زال كافراً. وذات مرة سمع مالك زوجته تردد بعزيمة أقوى من

---

(١) أخرجه البخارى عن عائشة ـ ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٧٦٨).

الصخر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، خرج من البيت غاضبًا فلقيه عدوٌ له فقتله.

ولما علمت أم سليم، بمقتل زوجها احتسبت وقالت: لا جرم، لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدى، ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس.

وذهبت أم أنس إلى الرسول ﷺ على استحياء وعرضت عليه أن يكون أنس خادمًا عنده، فرحب وأقر عينها بذلك.

ومضى الناس يتحدثون عن أنس بن مالك وأمه بإعجاب وتقدير... ويسمع أبو طلحة بالخبر، فيتقدم للزواج من أم سليم ويعرض عليها مهراً غاليًا، إلا أن المفاجأة أذهلته وعقلت لسانه عندما رفضت أم سليم كل ذلك بعزة وكرامة، وهى تقول: إنه لا ينبغى أن أتزوج مشركًا، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها آل فلان، وإنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت[1]. فأحس أبو طلحة بضيقٍ شديد، فانصرف وهو لا يكاد يصدق ما يرى ويسمع، لكنه عاد فى اليوم التالى يمنيها بمهرٍ أكبر وعيشة رغيدة عساها تلين وتقبل. ولكن أم سليم الداعية اللبيبة الذكية ـ التى ترى الدنيا تتراقص أمام عينيها، حيث المال والجاه والشباب ـ تشعر بأن قلعة الإسلام فى قلبها أقوى من كل نعيم الدنيا، فقالت بأدبٍ جَم: «والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لى أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهرى ولا أسألك غيره»[2].

لقد هزت هذه الكلمات أعماقه وملأت كيانه، فقد تمكنت أم سليم من قلبه تمامًا، فليست هى المرأة اللعوب التى تنهار أمام المغريات.

إنها المرأة العاقلة التى تفرض وجودها، وهل يجد خيراً منها تكون زوجًا

(١) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤٢٦) ـ الإصابة لابن حجر (٨/ ٣٤٣) بتصرف.
(٢) الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٤٣) ـ الحلية (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) بتصرف.

له، وأمًّا لأولاده؟؟!(١)

فألقى اللهُ الإسلام في قلبه وأحسَّ بعظمة هذا الدين الذي يجعل تلكم المرأة لا تتأثر بمغريات الدنيا وزينتها، بل إنها تستعلي بإيمانها فوق ذلك كله.

فأراد أبو طلحة أن يعلن إسلامه فقال لها: فمن لي بذلك؟ قالت: النبي ﷺ فانطلق يريده. فقال النبي ﷺ «جاءكم أبو طلحة وغُرّة الإسلام بين عينيه»(٢).

ما شعر إلا ولسانه يردد (أنا على مثل ما أنت عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله). فالتفتت أم سليم إلى ابنها أنس، وهي تقول بسعادة بالغة بعد أن هدى الله على يديها أبا طلحة: قم يا أنس فزوِّج أبا طلحة. . . . فزوَّجها، وكان صداقها الإسلام.

وبذلك قال ثابت ـ راوي الحديث عن أنس ـ: فما سمعنا بمهرٍ كان قَط أكرم من مهر أم سُليم: الإسلام(٣) ـ أي كان مهرها الإسلام ـ.

ومنذ تلك اللحظة عاش أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ في رحاب الوحي ونوره وخالط الإيمان شغاف قلبه حتى أحسَّ وكأنه أسعد إنسان في الدنيا كلها. ولِمَ لا؟ وهو يعيش في جنة الدنيا بإيمانه، بل وتعيش في بيته امرأة من أهل الجنة!!!

فقد قال ﷺ ذات مرة: «دخلت الجنة فسمعت خشفةً بين يديَّ فقلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: الغُميصاء بنت ملحان»(٤).

والغميصاء بنت ملحان هي أم سليم ـ رضي الله عنها ـ.

(١) إنها الجنة يا أختاه/ للمصنف (ص ٣٠) ط. دار الفردوس.
(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢/ ١٥٩، ١٦٠).
(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق (١٠٤١٧) والطيالسي في مسنده (٢٥٩٠).
(٤) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٣٦٨).

وفوق هذا النعيم كله أنه أَحَبَّ رسول الله ﷺ حبًا مَلَكَ عليه فؤاده وجوارحه حتى كان يتمنى فى أى لحظة أن يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك.

ولقد كان (أبو طلحة) أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة ومعه زوجه (أم سليم)، بل كان أحد النُقباء الاثنى عشر الذين أمَّرهم الرسول ﷺ فى تلك الليلة على مسلمى «يثرب».

إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب

وشاء الله ــ عز وجل ــ أن يرزقه بولدٍ من أم سُليم ملأ عليهما حياتهما.

وشاء الله أن يمتحنهما بهذا الطفل الجميل، فمرض الولد مرضًا شديدًا، وذات مرة خرج أبو طلحة فمات الولد فتلقت (أم سليم) موت ابنها بصبرٍ وثبات ورضاءٍ بقضاء الله فقالت: الحمد لله إنّا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا أترك الحديث لأنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ ليقص علينا القصة كاملة.

فعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، فقال: ثم تصنّعت له أحسن ما كان تصنّع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتنى حتى تلطخت ثم أخبرتنى بابنى، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» قال: فحملت. قال: فكان رسول الله ﷺ فى سفر وهى معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا[1] فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها

(١) يعنى لا يدخل على أهل بيته فى الليل إلا بعد أن يُخبرهم فينزل أولاً على المسجد فيصلى ركعتين. وهذا من أدبه ﷺ حتى تتجهز المرأة لزوجها فلا يرى منها ما يكره.

أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يارب إنه يعجبنى أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجد، انطلق، فانطلقنا قال: وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا فقالت لى أمى: يا أنس لا يُرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم. فلما رآنى قال: «لعل أم سليم ولدت» قلت: نعم فوضع الميسم قال: وجئت به فوضعته فى حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها فى فيه ـ فمه ـ حتى ذابت ثم قذفها فى (فىّ) الصبى، فجعل الصبى يتلمظها قال: فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حب الأنصار التمر» قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله[1].

قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن[2].

فيا لها من ذرية مباركة، ويا له من أجرٍ عظيم فى الدنيا لمن صبر على البلاء ـ هذا مع الخير الذى ينتظره فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ.

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من ألف رجل»[3].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبى

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٤) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.
(٢) أخرجه البخارى (٣/ ٢٦٩) الجنائز ـ ومسلم (١٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥).
(٣) صحيح، رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر، وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم (١٢٧٥) وصحيح الجامع (٥٠٨١).

طلحةَ في الجيش خيرٌ من فئةٍ»(١).

بربك قل لى: إن كان هذا حال صوته، فكيف زنده ونبله، وسيفه ورمحه؟!

لقد كان أبو طلحة ــ رضى الله عنه ــ ممن شهدوا بدراً وأبلى فى تلك الغزوة بلاءً حسنًا.

وفى يوم (أُحُد) كان من الأبطال الذين ثبتوا مع النبى ﷺ ودافع عنه بكل ما يملك.

عن أنس قال: لما كان يوم أُحُد، انهزم ناسٌ عن رسول الله، وأبو طلحة بين يديه مُجوِّباً عليه بحجفة، وكان راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة. وكان الرجلُ يمر معه الجُعبةُ من النبل، فيقول ﷺ: «انثُرها لأبى طلحة». ثم يُشرفُ إلى القوم. فيقولُ أبو طلحة: يا نبى الله، بأبى أنت، لا تُشرف، لا يُصيبك سهم، نحرى دون نحرك.

قال: فلقد رأيتُ عائشة وأم سليم وإنهما لَمُشمرات(٢)، أرى خدم سوقهما، تنقُزان القِرَبُ على مُتونهما، وتُفرغانها فى أفواه القوم، وترجعان، فتملآنها. فلقد وقع السيفُ من يد أبى طلحة مرتين أو ثلاثًا من النُّعاس(٣).

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال: «كان أبو طلحة يتترَّس مع النبى ﷺ بترسٍ واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمى، فكان إذا رمى يشرف

(١) صحيح، رواه أحمد والحاكم وابن سعد وأبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٥٠٨٢).

(٢) المشمرات: من التشمير.

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٨، ٢٧٩) فى المغازى: باب غزوة أُحُد. والحجفة: التُرس. ومُجوبًا: بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة، أى مترسًا عليه. وخدم سوقهما، هى، الخلاخيل، جمع خدمة. تنقُزان: تثبان، والنقز: الوثب والقفز، كناية عن سرعة السير.

النبى ﷺ فينظر إلى موضع نبله»[١]. [٢]

عن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن أبا طلحة كان يرمى بين يدى رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ، وكان رجلاً راميًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رمى أبو طلحة، رفع بصره ينظر أين يقع سهمه. وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده، ويقول: يا رسول الله، هكذا لا يُصيبك سهم[٣].

وكان إذا بقى مع النبى ﷺ، جثا بين يديه، وقال: نفسى لنفسك الفداءُ، ووجهى لوجهك الوقاءُ.

وفي يوم حنين

«وعن أنس ــ رضى اللّه عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال يوم حُنين: «مَنْ قتل قتيلاً فله سلبُه». فقتل أبو طلحة يومئذٍ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم»[٤].

إنفاقه في سبيل الله تعالى

وكان ــ رضى الله عنه ــ كريمًا لا يضن ولا يبخل بالمال أبدًا.

فعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال: أنس فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قام أبو طلحة

(١) عند عبد بن حميد فى المنتخب من الزيادة (من طريق ثابت عن أنس) وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله إنى قوى جلد فوجهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت.
وسندها صحيح.

(٢) أخرجه البخارى (٢٩٠٢) وأحمد (٣/ ٢٦٥).

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٦، ٢٨٧) وابن سعد (٣/ ٥٠٦).

(٤) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أبو داود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالى إلىّ بيرُحَاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه[1].

أبو طلحة يظفر بشعر النبى ﷺ

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، والحجام جالس وقال بيده على رأسه فحلق شِقه الأيمن فقسمه فيمن يليه ثم قال: «احلق الشِق الآخر» فقال: «أين أبو طلحة» فأعطاه إياه[2].

ويا لها من منقبة عظيمة أن يخصّه الحبيب ﷺ من بين الصحابة ـ رضى الله عنه ـ بتلك الهدية الغالية.

عبادته ـ رضى الله عنه ـ

وعاش أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ حياته عابدًا صائمًا قائمًا مجاهدًا فى سبيل الله.

عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سَرَد الصوم بعد وفاة رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يفطر إلا يوم فطر أو أضحى أو فى مرض[3].

وفى رواية عن أنس قال: كان أبو طلحة بعد النبى ﷺ لا يُفطر إلا فى

(١) أخرجه البخارى (١٤٦١) ـ ومسلم (٩٩٨) وأحمد (٣/ ١٤١).
(٢) أخرجه مسلم (١٣٠٥) والترمذى فى الحج (٧٣) وأبو داود (١٩٨١).
(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٥٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

سفرٍ أو مرضٍ[١].

كرامة ثابتة لأبى طلحة بعد موته

وها هو فى آخر أيامه ـ رضى الله عنه ـ لكن شيخوخته ما حالت بينه وبين الجهاد فى سبيل الله حتى آخر قطرة من دمه.

عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافًا وثقالاً﴾ فقال: ألا أرى ربى يستنفرنى شابًا وشيخًا؟ جهزونى.

فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى قُبض، وغزوت مع أبى بكر حتى مات، وغزوت مع عمر، فنحن نغزو عنك فقال: جهِّزونى فجهَّزوه، فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير[٢].

وهناك فى هذا المكان البعيد عن الأهل والعشيرة والأصحاب يُدفن أبو طلحة.

وإن كان مكانه بعيداً عن أعيننا إلا أنه ليس بعيداً عن عين الله ـ جل وعلا ـ الذى سيجبر كَسره يوم القيامة فى جنات النعيم مع الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

فرضى الله عن أبى طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ٥٠٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٥٣) وابن حبان (٢٢٥١) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣١٣) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

بلال بن رباح

سمع النبى ﷺ صوت نعليه فى الجنة

إن اسم «بلال» ـ رضى الله عنه ـ لا يسمعه أحدٌ فى الكون كله إلا ويَشعر بمعنى العزة والاستعلاء على حظوظ النفس. إنك لا تكاد تجد مسلمًا فى هذا الكون على مدار السنين واختلاف الأماكن إلا وهو يعرف بلالاً.

إنه صوت الإسلام الذى بدأ فى مكة ووصل إلى أطراف الأرض فى الصين واستراليا والأمريكتين وجنوب إفريقيا.

إنه بلال بن رباح مولى أبى بكر الصديق، ومُؤذِّن رسول الله ﷺ من السابقين الأولين الذين عُذِّبوا فى الله، شهد بدرًا، وشهد له النبىُّ ﷺ على التعيين بالجنة.

فضل الأذان

وقبل أن نبدأ تلك القصة التى يحلو ذكرها والله فى كل وقتٍ وحين. أريد أن أذكر بعض الأحاديث التى ذكرها الحبيب ﷺ فى فضل الأذان لكى نعلم قدر الرجل الذى سنذكر سيرته.

قال ﷺ: «من أذَّن ثنتى عشرة سنة وجبت له الجنة، وكُتب له بتأذينه فى كل يومٍ ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة»(١).

---

(١) رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٠٢).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مَدَّ صوته وأجره مثل أجر من صلى معه»(١).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطبٍ ويابس»(٢).

وقال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»(٣).

قصة إسلامه

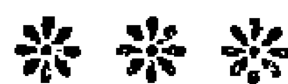
لقد كان بلالٌ عبدًا لأُناسٍ من بنى جُمَح بمكة، فقد كانت أُمّهُ إحدى إمائهم وجواريهم.

وكان يترامى إلى سمعه أخبار النبى ﷺ، حيث كان يسمع أمية بن خلف ـ وهو أحد شيوخ بنى جُمَح ـ وهو يتحدث مع أصدقائه ورجال قبيلته عن الحبيب ﷺ وقلوبهم تمتلئ غيظًا وكُرهًا له ﷺ.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا لا ينكرون أبدًا أمانة النبى ﷺ ولا رجولته ولا أخلاقه الطيبة ولا صدقه ورجاحة عقله. . . وكل ذلك يصل إلى سمع بلال ـ رضى الله عنه ـ حتى أحسَّ من داخله بأن هذا الدين هو الدين الحق وبأن هذا النبى ﷺ هو طوق النجاة الذى أرسله الله إلى تلك الأمة لينتشلها من أوحال الجاهلية إلى أنوار التوحيد، ومن ثَم إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

ويستجيب بلال لنداء الحق ويُفسح قلبه كله ليستقبل هذا النور الذى جاء به الحبيب ﷺ من عند ربه ـ جل وعلا ـ.

فيذهب إلى النبى ﷺ ويُعلن إسلامه فيشعر وكأنه وُلد فى تلك اللحظة.



(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٣).
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٤).
(٣) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجة عن معاوية ـ صحيح الجامع (٦٦٤٥).

يستعذب العذاب في سبيل الله

وما هى إلا ساعات معدودة حتى شاع خبر إسلامه ـ رضى الله عنه ـ وإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان فى عقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم وفروجهم... يعرفون خبر إسلام بلال ـ رضى الله عنه ـ فيصبون عليه العذاب صبًا، ولا يرقُبون فيه إلاً ولا ذمة.

عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمَّار، وأُمُّهُ سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد ـ رضى الله عنهم ـ، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم فى الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه فى الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شِعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ[1].

وروى ابن إسحاق وهو يصف شيئًا من عذاب قريش لبلال ـ رضى الله عنه ـ وغيره من المستضعفين.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استُضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذى يُصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

وكان بلالٌ، مولى أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ لبعض بنى جُمَح مُولدًا

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى: صحيح، ورواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر فى الاستيعاب.

من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسمُ أُمه حَمامة، وكان صادقَ الإسلام، طاهر القلب، وكان أُمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح يُخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول له: [لا والله] لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعُزى؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ(١).

وهكذا يستعلى بلال ــ رضى الله عنه ــ بإيمانه بالله ــ جل وعلا ــ فكان يستعذب العذاب فى سبيل الله مع أن الله قد رخَّص للمؤمنين وقتها أن ينطقوا بكلمة الكفر طالما أن قلبهم مطمئنٌ بالإيمان لكى ينجو كل واحدٍ منهم من بطش هؤلاء المجرمين، ولكن بلال كره أن يُشمت أعداء الإسلام بالإسلام وأهله وأراد أن يعرف الكون كله أن المؤمن لو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها فلن تستطيع أن تُحرك ذرة واحدة من جبال الإيمان الراسخة فى قلبه. . . وذلك لأن الذى ثبَّت تلك الجبال هو الخالق ــ جل جلاله ــ.

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا

وذات مرة يمر أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ فيجد بلالاً ــ رضى الله عنه ــ يُعذَّب فى رمضاء مكة، وقد هانت عليه نفسه فى سبيل الله وهو يردد هذا النداء الخالد: أحدٌ. . أحدٌ.

فيذهب أبو بكر فى التو واللحظة ويصفّى التجارات ويأتى بالأموال ليشترى العبيد والأرقّاء ليعتقهم خشية أن يُفتنوا فى دينهم.

قال عطاء الخراسانى: كنت عند ابن المسيِّب فذكر بلالاً، فقال: كان شحيحًا على دينه، وكان يُعذَّب فى الله، فلقى النبى ﷺ فقال: لو كان عندنا

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٢).

شيء، ابتعنا بلالاً، فلقى أبو بكر (العباس)، فقال اشتر لى بلالاً، فاشتراه العباس، وبعث به إلى أبى بكر، فأعتقه[١].

وفى السيرة أن أبا بكر اشتراه بعبد أسود مشرك من أمية بن خلف[٢].

وعن ابن سيرين أن بلالاً لما ظهر مواليه على إسلامه مَطُّوه فى الشمس، وعذَّبوه، وجعلوا يقولون: إلهك اللات والعُزَّى، وهو يقول: أحدٌ أحد. فبلغ أبا بكر، فأتاهم، فقال: علامَ تقتلونه؟ فإنه غير مطيعكم، قالوا: اشتره. فاشتراه بسبع أواقٍ، فأعتقه[٣].

وعن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون فى الحجارة بخمس أواقٍ ذهبًا، فقالوا: لو أبيتَ إلا أوقيةً لبعناكه، قال: لو أبيتُم إلا مئة أوقية لأخذته[٤].

فكان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا ذُكر عنده أبو بكر قال: «أبو بكرٍ سيدُنا وأعتق بلالاً سيدَنا»[٥].

بل لقد قال المفسرون فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزَى إلا ابتغاء وجهِ ربه الأعلى ولَسوفَ يرضى﴾.

قالوا: نزلت الآيات فى حق أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين اشترى بلالاً وأعتقه فى سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿إلا ابتغاءَ وجهِ ربهِ الأعلى ولسوفَ يرضى﴾[٦].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/ ٣٢) ـ وهو فى أسد الغابة (١/ ٢٤٣).
(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣١٨).
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٦٥) ـ ومطَّ الشيء يمطه مطًا إذا مدَّه.
(٤) أخرجه ابن نعيم فى الحلية (١/ ١٥٠) ـ نقلاً من السير للذهبى (١/٣٥٣).
(٥) أخرجه البخارى (٣٧٥٤) المناقب ـ وابن سعد (٣/ ١/ ١٦٦).
(٦) صفوة التفاسير (٣/ ٥٧٠).

القرآن ينزل فيه ـ رضى الله عنه ـ

عن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فلا يجترؤون علينا، وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل وآخران، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣][١].

الله يغضب لغضبه ـ رضى الله عنه ـ

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سَلمَان وصُهيب وبلال فى نَفَر، فقالوا: والله! ما أخذت سيوف الله من عُنُق عدو الله مأخذها قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكرٍ! لعلك أغضبتهم... لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

«فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفرُ الله لك يا أُخَيَّ»[٢].

فيا لها من مناقب لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

الجنة تشتاق إلى بلال ـ رضى الله عنه ـ

ويعيش بلال ـ رضى الله عنه ـ بل ويتعايش مع الإسلام قلبًا وقالبًا حتى أحبه النبى ﷺ حبًا يعجز القلم عن وصفه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) فضائل الصحابة ـ وابن ماجة (٤١٢٨) الزهد.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) ـ والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧٢).

وذات مرة دخل النبى ﷺ على بلال وعنده صبرة من تمر قال: ما هذا يا بلال؟ قال: يا رسول الله ادخرته لك ولضيفانك. فقال: أما تخشى أن يكون له بخار فى النار؟ أنفقِ بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا(١).

ويأتى النبى ﷺ مرة أخرى بأعظم بشرى لبلال ـ رضى الله عنه ـ فيقول ﷺ: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علىّ وعمَّار وبلال»(٢).

الله أكبر!!!... الجنة تشتاق إلى بلال!!!.

كيف استطاع بلال ـ رضى الله عنه ـ بعد تلك البشرى أن تحمله قدماه ليمشى على الأرض بين الناس؟!

فمنذ فترة يسيرة كان عبدًا حبشيًا، والآن أصبح معروفًا فى الأرض، بل وفى السماوات حتى اشتاقت الجنة إليه.

إن كثيرين من علية البشر، وذوى الجاه والنفوذ والثروة فيهم، لم يظفروا بمعشار الخلود الذى ظفر به «بلال» العبد الحبشى...!!

بل إن كثيرين من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعضِ الذى ناله بلال.

إن سواد بشرته وتواضع حسبه ونسبه وهوانه على الناس كعبدٍ رقيق لم يحرمه حين آثر الإسلام دينًا من أن يتبوأ المكان الرفيع الذى يؤهله له صدقه ويقينه وطُهره وتفانيه(٣).

***

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود والبزار عن بلال وعن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥١٢).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) المناقب ـ والحاكم (٣/ ١٣٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١٠٣ ـ ١٠٤) بتصرف.

النبى ﷺ يسمع صوت نعليه في الجنة

بل تصبح تلك البشرى حقيقة يسمعها النبى ﷺ بأذنيه.

فعن بريدة ـ رضى الله عنه ـ قال: «دعا رسول الله ﷺ بلالاً، فقال: يا بلال بِمَ سبقتنى إلى الجنة؟ إنى دخلت الجنة البارحة فسمعت خشخشتك أمامى، فأتيت على قصر من ذهب مُربع فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: فأنا محمد. لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من العرب. قلت: أنا عربى. لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش. قلت: فأنا قرشى، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب. فقال بلال: يا رسول الله ما أذّنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابنى حَدَثٌ قَط إلا توضأت عندها، فقال رسول الله ﷺ: بهذا»(١).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ «أن النبى، قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلالُ حدِّثنى بأرجى عمل عملتَهُ فى الإسلام فإنى سمعتُ دَفَّ نعليك بين يدىَّ فى الجنة. قال: ما عملت عملاً أرجى عندى من أنى لم أتطهرَّ طُهوراً فى ساعة من ليلٍ أو نهارٍ إلا صليتُ بذلك الطُّهور ما كُتبَ لى أن أُصلى»(٢).

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال النبى ﷺ: «رأيتُنى دخلتُ الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة وسمعت خشفةً، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيتُ قصراً بفنائه جاريةٌ فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردتُ أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غَيرتك. فقال عمر: بأبى وأمى يا رسول الله أعليك أغار»(٣).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٠) والترمذى (٣٦٨٩) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٨٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.
(٢) أخرجه البخارى (١١٤٩) ـ ومسلم (٢٤٥٨) ـ قال أبو عبد الله: دف نعليك: يعنى تحريك نعليك.
(٣) أخرجه البخارى (٣٦٧٩) ومسلم مختصراً (٢٤٥٧).

قلت: وهذا كله ثمرة من ثمرات المداومة على العمل الصالح.

والجزاء من جنس العمل.

لما مشى بالأذان بين يدى النبى ﷺ فاتفق مثله فى الجنة.

ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبى ﷺ؛ لأنه فى مقام التابع، وكأنه أشار ﷺ إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته، واستمراره على قرب منزلته، وفيه منقبة عظيمة لبلال[1].

الهجرة المباركة

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة المباركة إلى المدينة هاجر «بلال» ـ رضى الله عنه ـ مع من هاجر من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.

ونزل فى رحاب الأنصار الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وما إن وصل بلال إلى المدينة المنورة حتى أصابته الحمّى.

قالت عائشة: لما قدم النبىُّ ﷺ المدينة، وُعِك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كُلُّ امـرئٍ مُصبَّـح فى أهلِـهِ والموتُ أدنى مِنْ شـراكِ نَعْلِـهِ

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته[2] ويقول:

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٣).

(٢) يرفع عقيرته: يرفع صوته.

ألا لَيْتَ شِعْرى هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذخِـر[١] وجليـلُ
وهل أردنْ يومًا مـياهَ مَجَنـة[٢] وهل يبْدُون لى شامةٌ وطَفيلُ[٣]

اللهم العن عُتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء[٤].

فكان بلال ــ رضى الله عنه ــ يحنّ ويشتاق إلى مكة، على الرغم من العذاب الذى كان يعانيه فيها، لكنه لم ينسَ أبدًا أنه ذاق حلاوة الإيمان لأول مرة فى حياته ــ فى مكة ــ.

بداية الأذان

عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يومًا فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أوَ لا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة.

وبداية الأذان لها قصة تطيب القلوب بذكرها.

قال ابن إسحاق: فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانهُ من المهاجرين، واجتمع أمرُ الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة،

(١) الإذخر: نبات طيب الرائحة.
(٢) مجنة: اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية.
(٣) شامة وطفيل: جبلان بقرب مكة.
(٤) أخرجه البخارى (١٨٨٩) فى فضائل المدينة: باب (١٢)، و(٣٩٢٦) فى مناقب الأنصار: باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة، و(٥٦٥٤) فى المرض: باب عيادة الرجال النساء، و(٥٦٧٧) فيه: باب من دعا برفع الوباء والحمى. وأحمد (٦/ ٢٦٠)، وابن سعد (٣/ ١/ ١٦٥) كلهم من طريق: هشام، عن أبيه، عن عائشة... وتمامه، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فى صاعنا، وفى مُدنا، وصححها لنا. وانقل حُماها إلى الجحفة.

وفُرضت الزكاةُ والصيام، وقامت الحدود، وفُرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله ﷺ ــ حين قَدِمها ــ إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها، بغير دعوةٍ، فهمَّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقًا كبُوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه؛ ثم أمر بالناقوس، فنُحت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بلحارث بن الخزرج (النداء) ــ الأذان ــ فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله [إنه] طاف بى هذه الليلة طائف: مرَّ بى رجلٌ عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده، فقلت [له]: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلُّك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حىّ على الصلاة، حى على الصلاة، حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حقّ، إن شاء الله، فقُم مع بلال فألقها عليه، فليُؤذن بها، فإنه أندى صوتًا منك». فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب، وهو فى بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرُّ رداءه، وهو يقول: يا نبىّ الله، والذى بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذى رأى؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد [على ذلك]»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب «الصلاة» باب «بدء الأذان» (١/ ح ٤٩٩) والبخارى فى «خلق أفعال العباد» (ص ٤٨) والدارمى فى كتاب «الأذان» باب «فى بدء الأذان» (١/ ١١٨٧) والترمذى فى كتاب «الصلاة» باب «ما جاء فى بدء الأذان» (١/ ح ١٨٩) وأحمد فى «مسنده» (٤/ ٤٣) وابن خزيمة (١/ ٣٧٠) =

وبذلك كان بلال ــ رضى الله عنه ــ أول مؤذنٍ فى الإسلام.

الله يقتص لبلال من أمية بن خلف في يوم «بدر»

ولقد شهد بلال مع نبيهﷺ غزوة بدر، وقاتل فيها قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسنًا.

وشاء الله ــ عز وجل ــ أن يقتص له من «أمية بن خلف» الذى كان يعذبه فى رمضاء مكة.

وها هو الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ يقص علينا كيف مكَّن الله لبلالٍ من أمية بن خلف.

قال عبد الرحمن بن عوف: كان أمية بن خَلَف صديقًا لى بمكة، وكان اسمى عبد عمرو، فتسمّيت ــ حين أسلمتُ ــ عبدَ الرحمن. . . . حتى إذا كان يومُ بدر، مررتُ به وهو واقفٌ مع ابنه، علىّ بن أمية، آخذ بيده، ومعى أدراع، قد استلبتُها، فأنا أحملها. فلما رآنى قال [لى]: يا عبد عمرو، فلم أُجبه؛ فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم؛ قال: هل لك فىّ، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدرع التى معك؟ قال: قلت: نعم، ها الله إذًا. قال: فطرحتُ الأدراع من يدى، وأخذتُ بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أما لكم حاجةٌ فى اللبن؟ [قال] ثم خرجتُ أمشى بهما(1).

وفى رواية: قال ابن عوف ــ رضى الله عنه ــ: قال لى أمية بن خلف،

= والبيهقى فى «السنن الكبرى» (١/ ٣٩١) (٤٢٧). وهو حديث صحيح صححه جماعة من الأئمة كالبخارى والذهبى والنووى وغيرهم، وانظر تلخيص الحبير لابن حجر (٢/ ٢٠٨).

(1) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٣٥) وابن الأثير في الكامل (٢/ ١٢٧) وابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٣٩٩) وقالوا: أخرجه ابن إسحاق من طريقين الأول قال فيه: حدثني يحيى بن عباد عن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال. . . به. والثاني قال: وحدثني عبد الله بن أبي بكر وغيرهما أن عبد الرحمن بن عوف ثقة أمين. . . فذكره وإسنادهما صحيح.

وأنا بينه وبين ابنه آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلَّم بريشة نعامة فى صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب؛ قال: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل؛ قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ــ وكان هو الذى يعذِّب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيُخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيُضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزالُ هكذا أو تُفارق دين محمد؛ فيقول بلال: أحدٌ أحد. قال: فلما رآه قال: رأس الكُفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا. قال: قلت: أى بلال، أبأسيرىّ! قال: لا نجوت إن نجا. قال: قلت: أتسمع يا بن السوداء؟ قال: لا نجوت إن نجا. قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكُفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة وأنا أذبُّ عنه ــ أدافع عنه ــ قال: فأخلف رجلٌ السيف، فضرب رِجْلَ ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعتُ مثلها قط. قال: فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاءَ بك، فوالله ما أُغنى عنك شيئًا. قال: فهبرُوهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرىّ[1].

بلال يؤذن فوق الكعبة في يوم فتح مكة

عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ فى المسجد، فأمره أن يأتى بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهارًا طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «الوكالة» باب «إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب» (٤/ ح٢٣٠١/ فتح) وفى كتاب «المغازى» (٧/ ٣٩٧١) مختصرًا.

من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائمًا، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذى صلى فيه. قال عبد الله: فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة»(١).

قال الإمام ابن القيم ــ رحمه الله ــ: وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة(٢).

ويؤذن بلال. . . فيا لروعة الزمان، والمكان، والمناسبة. . !!

كفّت الحياة فى مكة عن الحركة، ووقفت «الألوف المسلمة» كالنسمة الساكنة، تردد فى خشوعٍ وهمسٍ كلمات الأذان وراء بلال.

والمشركون فى بيوتهم لا يكادون يصدِّقون: أهذا هو محمد وفقراؤه الذين أُخرجوا بالأمس من هذه الديار. .؟؟

أهذا هو حقًا، ومعه عشرة آلاف من المؤمنين. .؟؟

أهذا هو حقًا الذى طاردناه، وقاتلناه، وقتلنا أحبَّ أهله وقُرباه إليه. . .؟؟

أهذا هو حقًا، الذى كان يخاطبنا من لحظات ورقابنا بين يديه، ويقول لنا: [اذهبوا. . فأنتمُ الطلقاء]. . !!

ولكن ثلاثة من أشراف قريش، كانوا جلوسًا بفناء الكعبة، وكأنما يلفحهم مشهد بلال وهو يدوس أصنامهم بقدميه، ويرسل من فوق رُكامِها المَهِيل صوته بالأذان المنتشر فى آفاق «مكة» كلها كعبير الربيع. . .

أما هؤلاء الثلاثة، فهم: أبو سفيان بن حرب ــ وكان قد أسلم منذ ساعات ــ وعتّاب بن أُسيد، والحارث بن هشام ــ وكانا لم يُسلما بعدُ ــ(٣).

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٦١١) المغازى.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٤١١).
(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١١٦، ١١٧) بتصرف.

فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعته ـ يقصد النبى ﷺ ـ فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذا الحصى، فخرج عليهم النبى ﷺ، فقال: «قد علمتُ الذى قُلتم»، ثم ذكر ذلك لهم؛ فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك[١].

وحان وقت الرحيل

وظل بلال ـ رضى الله عنه ـ يؤذن لرسول الله ﷺ طوال حياته، فلما انتقل الحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحان وقت الصلاة قام بلال يؤذن فى الناس ـ والنبى الكريم ﷺ مُسجّى[٢] لم يُدفن بعد ـ فلما وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله»... خنقته العَبَراتُ... واحتبس[٣] صوته فى حلقه... وأجهشَ المسلمون فى البكاء، وأغرقوا فى النحيب. ثم أذَّن بعد ذلك ثلاثة أيام. فكان كلما وصل إلى قوله: «أشهدُ أن محمداً رسول الله»؛ بكى وأبكى... عند ذلك طلب من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ أن يُعفيهُ من الأذان بعد أن أصبح لا يحتملهُ[٤].[٥]

وطلب من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أن يأذن له بالخروج إلى الشام للجهاد والمرابطة.. وكان الصدّيق يحبه حبًا جماً، فتردد فى بادئ الأمر، فقال له بلال: «إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت إنما

---

(١) هكذا ذكره ابن هشام من غير إسناد، وكذلك ذكره ابن كثير فى «التفسير» (٣/ ١٣٢) من طريق ابن إسحاق من غير سند.

(٢) مُسجًّى: مغطًّى.

(٣) احتبس صوته فى حلقه: لم يستطع الكلام.

(٤) لا يحتمله: لا يطيق أن يؤذن فى غياب رسول الله ﷺ.

(٥) صور من حياة الصحابة (ص ٣٢١).

اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله»[١].

وفى رواية: «فذرنى أعمل لله». فأذن له أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ ولما توفى رسول الله ﷺ كان ـ بلال ـ فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبى بكر أيام خلافته والأول أصحّ وأشهر[٢].

وظل فى بلاد الشام عابداً زاهداً ينتظر اليوم الذى يلحق فيه بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

ونام أول وأعظم مؤذّن عرفته الدنيا (على فراش الموت).

قال سعيدُ بن عبد العزيز: لما احتُضرَ بلال قال: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه، قال: تقولُ امرأته: واويلاه! فقال: وافرحاه![٣].

ولفظ أنفاسه الأخيرة ـ رضى الله عنه ـ وخلّد الله اسمه فى العالمين وأعلى قدره فى الآخرة فى جنات النعيم.

وإنى والله أسأله تعالى أن يجمعنى وإياكم مع النبى ﷺ وأصحابه لننعم بصحبتهم فى الجنة لتصبح الجنة جنتين.

وإن كنا حُرمنا من سماع بلال ـ رضى الله عنه ـ وهو يؤذن فى الدنيا فلسوف نسمع أذانه فى الجنة!!!

أليس الله هو القائل ـ سبحانه وتعالى: ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾ [فصلت: ٣١].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٥٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٨٩).

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٥٩).

فإننا إذا دخلنا الجنة ـ برحمة الله ـ وأردنا أن نسمع أذان بلالٍ ـ رضى الله عنه ـ فسوف يُسمعنا الله هذا الأذان فهو القادر على كل شىء.

فالسلام عليك يا مؤذن رسول الله ﷺ حتى نلتقى بك فى جنة الرحمن ـ إن شاء الله ـ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين لننعم بجوار الحبيب ﷺ فى الجنة فـ«المرء مع من أحب»(١).

فرضى الله عن بلال وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٦٨٩).

عكرمة بن أبى جهل

بايع على الموت فى معركة اليرموك

إنه الصحابى الجليل عكرمة بن أبى جهل الذى يصدق عليه قول الحق ـ جل وعلا ـ ﴿تُخرج الحى من الميت﴾ فلقد كان أبوه (أبو جهل) صاحب القلب الميت الذى لم يعرف الله يومًا ولم يؤمن به أبدًا، وعلى الرغم من ذلك يُخرج الله من صُلبه هذا الصحابى الجليل صاحب القلب الحى الذى جاء إسلامه متأخرًا، ولكنه أراد أن يبذل الخير، وأن يجود بنفسه وماله فى اللحظات الأخيرة من عمره، وكأنه فى سباق مع الزمن ليعوّض ما فاته من الخير مع رسول الله ﷺ.

رحلة مريرة

وتبدأ رحلة هذا الصحابى الجليل عندما نشأ فى أحضان هذا الأب الكافر الذى أخذ على نفسه العهد بعداوة رسول الله ﷺ فوجد (عكرمة) نفسه مدفوعًا إلى عداوة النبى ﷺ ومحاربته طاعة لأبيه الذى كان يعتمد عليه فى كل صغيرة وكبيرة.

وجاءت غزوة بدر فدخلها عكرمة، وكان أبوه قد أقام ثلاثة أيام ينحر الجَزور ويشرب الخمور وتعزف له القيان بالمعارف. وما إن بدأ القتال فى تلك

المعركة الفاصلة حتى قُتل أبو جهل ــ قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء واحتز رأسه عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنهم ــ.

وعاد عكرمة إلى مكة بعد أن ترك جثة أبيه خلفه فى بدر فلم يستطع أن يأتى بها ليدفنها فى مكة.

وهناك تغيرت الأحوال.. وأصبحت عداوة عكرمة للإسلام ليست حمية لقومه ولدينه فحسب... وإنما ثأراً لمقتل أبيه.

فأخذ يحرض الناس من حوله على عداوة الإسلام والمسلمين إلى أن جاءت غزوة أُحد فخرج عكرمة، وأخرج معه زوجه (أم حكيم) لتكون مع النسوة وراء الصفوف لتضرب معهن على الدفوف تحريضًا لقريش على القتال وتثبيتًا لفرسانهم إذا حدثتهم أنفسهم بالفرار.

وكان خالد بن الوليد على ميمنة الجيش، وعكرمة بن أبى جهل على الميسرة... وقاتلا قتالاً شديداً إلى أن أخطأ الرماة من أصحاب النبى ﷺ وتركوا الجبل فانقضّ خالد وعكرمة ومن معهما على المسلمين فقتلوا سبعين من أصحاب النبى ﷺ. ففرح عكرمة بهذا وقال أبو سفيان: هذا بيوم بدر.

وفى يوم الخندق لما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة ـ كما قالوا ـ مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد وُد، وعكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب، وقال كلمة حمي لأجلها ــ وكان من شجعان المشركين وأبطالهم ــ فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ، فتجاولا وتصاولا، حتى قتله عليّ ــ رضى الله عنه ــ وانهزم الباقون، حتى اقتحموا من الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو[1].

فراره يوم فتح مكة

عن سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسولُ الله ﷺ الناسَ إلا أربعة نفرٍ وامرأتين. . . فذكر الحديث؛ وفيه: وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئًا. فقال عكرمة: والله لئن لم يُنجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره، اللهم إنَّ لك علىَّ عهدًا إن عافيتنى مما أنا فيه أنْ آتى محمدًا حتى أضعَ يدى فى يده، فلا أجدنَّه إلا عفوًا كريمًا. قال: فجاء فأسلم[2].

* * *

(١) الرحيق المختوم (ص ٣٣٠ ــ ٣٣١).

(٢) رواه أبو داود والنسائى عن سعد بن أبى وقاص.

قصة إسلامه

لما تسلل عكرمة هاربًا من مكة إلى اليمن.. مضت زوجه أم حكيم إلى النبى ﷺ وطلبت منه الأمان لزوجها عكرمة بعد أن أسلمت بين يدى رسول الله ﷺ فأعطاها الأمان لزوجها.

فخرجت فى طلبه فأدركته عند ساحل البحر فى منطقة تهامة، فجاءت به إلى النبى ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

وبدأ عكرمة صفحة جديدة مشرقة كلها تضحية وبذل وفداء.. وكان عكرمة إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذى نجانى يوم بدر[1].

وكان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربى.. كتاب ربى. وهو يبكى على تلك الأيام التى قضاها فى عداوته لرسول الله ﷺ.

الشهادة فى سبيل الله

لما كان يوم اليرموك، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو أن يُنشِئا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز ـ المبارزة ـ وتنازل الأبطال وتجاولوا، وحمِى الحرب وقامت على ساقٍ. فنادى عكرمة: «قاتلتُ رسول الله ﷺ فى كل موطن، وأفّر منكم اليوم؟! مَنْ يبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وُجوه المسلمين وفرسانهم، فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار ابن الأزور، فاستبسلوا وقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد، حتى أُثبتوا جميعًا جراحًا. وأُتى خالد بعكرمة جريحًا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجهيهما، ويُقطِرُ الماءَ فى حلقيهما.

فرضى الله عن شهيد اليرموك عكرمة، الذى قال فيه ابن كثير: «يُقال: إنه

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٢٣).

لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسلم»(١).

قال الشافعي: كان محمودَ البلاء في الإسلام، رضى الله عنه.

قال أبو إسحاق السبيعى: نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالاً شديداً، ثم استشهد، فوجدوا به بضعًا وسبعين من طعنة ورمية وضربة(٢).

وهكذا يجب على المسلم أن يستدرك ما فاته وأن يبدأ صفحة جديدة كلها طاعة لله وتضحية وبذل وعطاء من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

فرضى الله عن عكرمة الذى سالت دماؤه على أرض الشرف والقتال... تلك الدماء التى لطالما امتزجت بحُب الله وحُب رسوله ﷺ واشتاقت إلى نُصرة دين الله.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١) (٧/ ٣٥) والطبرى (٣/ ٤٠١).
(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٢٤).

حمزة بن عبد المطلب

حمزة سيدُ الشهداء يوم القيامة

محمد رسول الله ﷺ

ما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتُذلل له العقبات، وتقهر أمامه الصعاب، وتُنير له الطريق. . .

وليست هذه القوة المنشودة إلا فى ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذى يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يُبالى بشىء فى جنب الله، إنه قوى وإن لم يكن فى يديه سلاح، غنى وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان[1].

ولكن مع كل هذا فقد علَّمنا الحق ـ جل وعلا ـ أن نأخذ أيضًا بأسباب القوة المادية التى تتمثل فى الرجال الأقوياء الأتقياء الذين يحملون همَّ الإسلام، وقبل ذلك كله هم يحملون أكفانهم بين أيديهم ويُقدِّمون أرواحهم ودماءهم من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

ولذلك كان الحبيب ﷺ يتمنى من أعماق قلبه أن يشرح الله صدر عمه وأخيه فى الرضاعة ـ حمزة ـ للإسلام.

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٦١).

ومن هنا كانت البداية

كان حمزة ـ رضى الله عنه ـ يعيش فى أحد البيوتات المحيطة بالكعبة وعاش هناك طفولته وشبابه بين أترابه من أطفال قريشٍ وشبابها.

ولقد كان سريع الحركة.. قوى البنية.. يتقن الرمى غاية الإتقان، ولذلك كان يحب الصيد حبًا شديدًا فكان يخرج إلى الوديان الفسيحة ويصعد فوق قمم الجبال يمارس هوايته التى لا تفارقه أبدًا ـ ألا وهى الصيد ـ وعند غروب الشمس يعود مرة أخرى إلى أدراجه ليشارك فتيان قريش فى اللهو واللعب والانغماس فى شهوات الدنيا.

وما علم (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ أنه سيترك هذا كله فى وقتٍ قريب ليحمل همَّ هذا الدين وليكون أسد الله وأسد رسوله ﷺ، بل وليصبح سيد الشهداء يوم القيامة.

وفى تلك الأثناء بُعث الحبيب ﷺ وقامت قريش تناصبه العداء وتصبّ على أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ من العذاب ألوانًا.

وكان (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ يتعجب لهذا العداء، فهو يعلم ابن أخيه جيدًا ويعرف عنه رقة الشمائل ومكارم الأخلاق وفوق ذلك كله فهو الصادق الأمين الذى اجتمع الناس على محبته وإجلاله وتوقيره.

وفى يوم من الأيام يخرج (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ كعادته لممارسة هوايته المفضَّلة ـ الصيد ـ وبعدما قضى وقته فى تلك الهواية وعاد ومعه من الخير الكثير والكثير.

وفى طريق عودته يحدث أمرٌ لم يكن فى الحُسبان فيكون سببًا فى إسلامه... فيا تُرى ما الذى حدث؟!

تعالوا بنا لنفتح سويًا صفحة نعرف من خلالها كيف أسلم أسد الله ـ

رضى الله عنه ـــ.

إسلام حمزة ـ رضى الله عنه ـ

إن الأُفق المتلبد بالسُحب قد يتولد منه برق يضىء.

لقد غبرت على المسلمين فى مكة أيام غلاظ، اضطرت بيوتًا عديدة أن تفر بدينها، وبقى من بقى منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم، إلا أن عناصر جديدة دخلت فى الإسلام جعلت قريشًا تتروى فى أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيتة.

أسلم «حمزة» بن عبد المطلب، عم النبى ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وأخوه من الرضاع، وهو رجل قوى الشكيمة(1).

ولقد كان إسلامه فى بداية الأمر أَنَفة ثم شرح الله صدره بنور اليقين، فاستمسك بالعروة الوثقى وصار من أفاضل المؤمنين واعتز به المسلمون أيما إعزازٍ.

أما عن قصة إسلامه فيروى لنا ابن إسحاق أن أبا جهل مَرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العَيْب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول الله ﷺ . . ومولاة لعبد الله بن جُدعان فى مسكن لها تسمع ذلك [منه]، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ـــ رضى الله عنه ـــ أقبل متوشحًا قوسه(2) راجعًا من قنص له ـــ كان يصطاد ـــ وكان صاحب قَنَص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف

(1) فقه السيرة للغزالى (ص ١٣٦).

(2) متوشحًا: أى يتقلده كما يتقلد السيف والرجل يتوشح بحمالة سيفه فتقع الحمائل على عاتقه اليسرى وتكون اليمنى مكشوفة. [لسان مادة/ وشح].

وسلم وتحدث معهم، وكان أعزَّ فتى فى قريش وأشدهم شكيمةً. فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابنُ أخيك محمدٌ آنفًا من أبى الحكم بن هشام؛ وجده هاهنا جالسًا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمدٌ ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعدًا لأبى جهل إذا لقيه أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجهُ شجةً مُنكَرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول؟ فَرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت. فقامت رجالٌ من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعُوا أبا عُمارة، فإنى والله قد سببتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا... وتمّ حمزة ــ رضى الله عنه ــ على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأنَّ حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(١).

ومنذ تلك اللحظة التى أسلم فيها حمزة ــ رضى الله عنه ــ واستقر الإيمان فى قلبه وهو يحمل همَّ هذا الدين ويتمنى أن يبذل من أجله الغالى والنفيس، بل وأن يضحى فى سبيله بالنفس والمال وبكل ما يملك.

وظل حمزة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة الرجل لظله، فلا يفارقه فى حِلِّه وترحاله.

سرية سيف البحر

وها هى أول سرية خرج فيها المسلمون للقاء العدو كان أميرها حمزة.

ففى شهر رمضان سنة ١هـ أرسل رسول الله ﷺ سرية وأمَّر عليها حمزة

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح.

ابن عبد المطلب.

وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العِيص[١]، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتتلوا[٢].

(أسد الله) وجهاده في سبيل الله

وها هو أسد الله وأسد رسوله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) يقودها حملة ـ لا تُبقي ولا تذر ـ ضد المشركين.

جهاده في غزوة بدر

ولما وقف المسلمون والمشركون وجهًا لوجهٍ في غزوة بدر كان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخُب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد ـ [زعم] ـ أن يُبرَّ يمينه، وأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض[٣].

المبارزة يوم بدر

وبعد أن استطاع حمزة أن يقتل الأسود بن عبد الأسد المخزومي في الحوض خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن

---

(١) العيص: ـ بالكسر ـ: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٠٠) بتصرف.

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٢٨).

عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتيةٌ من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومعوذ ابنا الحارث ــ وأمهما عفراء ــ ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد. أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث. وقم يا حمزة. وقم يا علي». فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة. وقال حمزة: حمزة. وقال عليّ: عليّ. قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة. وكان أسنّ القوم. عتبة [بن] ربيعة. وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يُمهل شيبة أن قتله. وأما عليّ فلم يُمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه. وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عُتبة فذَفَّفا عليه. واحتملا صاحبهما. فحازاه إلى أصحابه[1].

وعن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ أنه كان يقسم فيها قسمًا إن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر[2].

جهاده في غزوة أحُد

لم يهدأ بال قريش مذ غشيها في «بدر» ما غشيها وكان ما جَدَّ من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضرامًا، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله.

(١) هكذا رواه ابن إسحاق بدون إسناد وأخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في المبارزة» (٣/ ح/ ٢٦٦٥) وأحمد في «مسنده» (٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣) وابن ماجة (٢٨٣٥).

فخرج الجيش الثائر فى عدد يربو ـ يزيد ـ على ثلاثة آلاف.

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تُصاب حرماتهم وأعراضهم؟[1]

وكان زعماء قريش يهدفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجُلين اثنين: الرسول ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وحمزة ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ.

أجل... والذى كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول، بيت القصيد وهدف المعركة..

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجلَ الذى وكَّلوا إليه أمر حمزة، وهو عبدٌ حبشى، كان ذا مهارة خارقة فى قذف الحربة.. جعلوا كل دوره فى المعركة أن يتصيَّد «حمزة» ويُصوِّب إليه ضربةً قاتلة من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشىء آخر، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعدوه بثمن غالٍ وعظيم ـ هو: حُريته.. فقد كان الرجُل واسمه «وحشى» عبداً لجُبير بن مُطعم.. وكان عم جبير قد لقى مصرعه يوم بدر، فقال له جُبير: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمدٍ بعمى طُعيمة ابن عدىّ فأنت عتيق.

ثم أحالوه إلى «هند بنت عُتبة» زوجة أبى سفيان لتزيده تحريضًا ودفعًا إلى الهدف الذى يريدون..

وكانت هندٌ قد فقدت فى معركة «بدر» أباها، وعمها، وأخاها، وابنها.. وقيل لها: إن «حمزة» هو الذى قتل بعض هؤلاء، وأجهَزَ على البعض الآخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشىء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذى تتطلبه

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٨٨).

المغامرة. . !![1]

ولقد لبثت أيامًا قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدها في صدر «وحشيٍّ» ورسم الدور الذى عليه أن يقوم به. .

ولقد وعدته إن هو نجح فى قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة ـ فلقد أمسكت بأناملها قُرطها اللؤلؤى الثمين وقلائدها الذهبية التى تزدحم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدِّقان فى وحشيّ: [كُلُّ هذا لك، إن قتلت حمزة]. . !!!

وسالَ لُعاب وحشيّ. . وطارت خواطره توَّاقةً مُشتاقةً إلى المعركة التى سيربح فيها حريته، فلا يصير بَعدُ عبدًا أو رقيقًا، والتى سيخرج منها بكل هذا الحلى الذى يُزيِّن عُنق زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيدها. . !!

كانت المؤامرة إذن. . وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» ـ رضى الله عنه ـ بشكل واضح وحاسم[2].

الأسد في أرض المعركة يقاتل بسيفين

والتقى الجيشان وحمى الوطيس. . وقام أسد الله (حمزة) يصول ويجول فى أرض المعركة يشق الصفوف شقًا ويهدّ المشركين بسيفه هدًا.

بل لقد كان يقاتل قتال الليوث المهتاجة فصدَّ حَمَلَة اللواء من بنى عبد الدار واقتنص أرواحهم فردًا فردًا.

عن سعد بن أبى وقاص قال: كان حمزة يُقاتل يوم أُحُد بين يدى رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسدُ الله[3].

---

(١) مع العلم بأنها أسلمت بعد ذلك وحَسُن إسلامها ـ رضى الله عنها ـ.

(٢) رجال حول الرسول ﷺ/ لخالد محمد خالد (ص ٢١٥: ٢١٦).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٦) والحاكم (٣/ ١٩٤) وصححه ووافقه الذهبى.

ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم.. لولا تركهم مكانهم وفتحهم الثغرة الواسعة لفرسان قريش لكانت «غزوة أُحُد» مقبرة لقريش كلها: رجالها.. ونسائها.. بل وخيلها.. وإبلها..!!

لقد دَهَمَ فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة، وأعملوا فيهم سيوفهم الظامئة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون أنفسهم من جديد، ويحملون سلاحهم الذى كان بعضهم قد وضعه حين رأى جيش قريش ينسحب ويُولى الأدبار.. ولكن المفاجأة كانت قاسية وعنيفة.

ورأى «حمزة» ما حدَث فضاعف قوته ونشاطه وبلاءَه..

وأخذ يضرب عن يمينه وشماله... وبين يديه ومن خلفه... و«وحشىّ» هناك يرقبه، ويتحيَّن الفرصة الغادرة ليوجِّه نحوه ضربته[1].

سيد الشهداء

وها هى رياح الموت تهبّ على أرض المعركة، وها هى اللحظة التى قدَّرها الله ـ جل وعلا ـ ليرحل حمزة ـ رضى الله عنه ـ عن الدنيا وليصبح سيد الشهداء.

قال ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة»[2]

وها هو (وحشى) يحكى كيف استطاع أن يقتل (حمزة).

يقول وحشى: كُنتُ غلامًا لجُبير بن مُطعم، وكان عمه طُعيمة بن عدىّ قد أُصيب يوم بدر ـ قُتل ـ فلما سارت قريش إلى أُحد، قال لى جُبير: إن

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢١٧).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ١٩٥) والشيرازى فى الألقاب، عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٥٨) ـ الصحيحة (٣٧٤).

قتلتَ حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، قال: فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلَّما أُخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة، وأتبصَّره، حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق، يهُدُّ الناس بسيفه هدًا، ما يقومُ له شىء، فوالله إنى لأتهيأ له، أُريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباعُ بن عبد العُزى؛ فلما رآه حمزة قال: هَلُمَّ يابن مُقطعة البُظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززتُ حربتى، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتُها عليه، فوقعت فى ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى، فغُلب، وتركتُه وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذتُ حربتى، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدتُ فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلتُه لأُعتق. فلما قدمت مكة أُعتقتُ، ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسولُ الله ﷺ مكة هربتُ إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسْلموا تعيَّتْ علىَّ المذاهب فقلت: ألحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنى لفى ذلك من همِّى إذ قال لى رجل: ويحك! إنه والله ما يقتُل أحدًا من الناس دخل فى دينه، وتشهَّد شهادته.

فلما قال لى ذلك، خرجتُ حتى قَدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرُعْهُ إلا بى قائمًا على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ، [فلما] رآنى قال: «أوحشى؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «اقعُد فحدثنى كيف قتلت حمزة»، قال: فحدّثته، فلما فرغتُ من حديثى قال: «وَيْحكَ! غيِّب عنى وجهك»، فلا أُرَيَنَّك. قال: فكنتُ أتنكَّبُ رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يرانى، حتى قبضهُ الله ﷺ(١) ـ أى حتى توفاه الله ـ.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «المغازى» باب «قتل حمزة بن عبد المطلب» (٧/ ٤٠٧٢/ فتح) وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٥٠١) من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى وليس فيه ذكر أنه غلب عليه الخمر، وأخرج أبو داود الطيالسى فى «مسنده» (ص ١٨٦/ ١٣١٤) بلفظه. وإسناده صحيح.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة! خرجتُ معهم بحربتى التى قتلتُ بها حمزة. فلما التقى الناس، نظرتُ إلى مُسيلمة وفى يده السيف، فوالله ما أعرفه، وإذا رجل من الأنصار يُريده من ناحية أخرى، فكلانا يتهيأ له. حتى إذا أمكننى، دفعتُ عليه حربتى، فوقعتْ فيه. وشدّ الأنصارى عليه، فضربَه بالسيف، فربُّك أعلم أيُّنا قَتله، فإن أنا قتلتُه، فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شرَّ الناس(١).

روحه في جوف طيرٍ خُضر تردُ أنهار الجنة

هكذا رحل (أسد الله) عن الدنيا ــ ليس شهيدًا فحسب، بل سيدًا للشهداء ــ وفاز بتلك المنقبة العظيمة التى أخبر عنها الحبيب ﷺ بعد الغزوة.

عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيرٍ خُضرٍ تردُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: مَنْ يُبلِّغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نُرزق لئلا ينكلوا عند الحرب ولا يزهدوا فى الجهاد، قال الله: أنا أبلغهم عنكم. فأُنزلت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩](٢).

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده قوى إلى وحشى. وأخرجه ابن هشام ٢/ ٧٠ ــ ٧٣ وابن الأثير فى «أسد الغابة» ٥/ ٤٣٨ ــ ٤٤٠، وابن عبد البر فى «الاستيعاب» ١١/ ٥١ وكلهم من هذا الطريق. وأخرجه البخارى (٤٠٧٢) فى المغازى: باب قتل حمزة ــ رضى الله عنه ــ.

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، ورواه أبو داود (٢٥٢٠) فى الجهاد: باب فى فضل الشهادة، والحاكم (٢/ ٨٨، ٢٩٧). وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٧) من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أىّ شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

التمثيل بجسده الطاهر - رضى الله عنه -

ولم يكتفِ أعداء الله بقتله، بل مثّلوا بجسده، فإنه عندما بحث الصحابة ومعهم الحبيب ﷺ عن (حمزة) وجدوه قد بُقر بطنه، واحتمل وحشيٌّ كبده إلى (هند) فى نذر نذرته حين قتل أباها يوم بدر.

فدُفن فى نمرة كانت عليه، إذا رُفعت إلى رأسه، بدتْ قدماه، فغطوا قدميه بشىء من الشجر[1].

وعن أنس قال: لما كان يومُ أُحُد وقف رسولُ الله ﷺ على حمزة وقد جُدع ومُثِّل به، فقال: «لولا أن تجد صفيةُ فى نفسها، لتركتُه حتى يحشره الله من بطون السباع والطير». وكُفن فى نمرةٍ إذا خُمِّر رأسه، بدت رجلاه، وإذا خُمرت رجلاه بدا رأسه. ولم يُصلِّ على أحدٍ من الشهداء. وقال: «أنا شهيدٌ عليكم» وكان يجمعُ الثلاثة فى قبر، والاثنين فيسأل: أيهما أكثرُ قرآنًا فيقدمه فى اللحد، وكفن الرجلين والثلاثة فى ثوب[2].

وعن ابن عمر قال: رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهُنَّ. فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكى له» فجئن نساءُ الأنصار، فبكين على حمزة عنده، فرقد، فاستيقظ وهن يبكين. فقال: «يا ويحهنَّ! أهُنَّ ها هنا حتى الآن، مُروهنَّ، فليرجعن، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم»[3].

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون فى رثاء «حمزة» وتمجيد مناقبه العظمى..

فقال حسَّان بن ثابت فى قصيدة طويلة له:

دع عنك داراً قد عفا رسمُها وابكِ على حمزةَ ذى النائل

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ١٧٩).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) وأبو داود (٣١٣٦) الجنائز.

(٣) قال الأرنؤوط: سنده قوى. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٤) وابن ماجة (١٥٩١).

اللابس الخيل إذا أحجمت كالليث فى غابته، الباسل
أبيضُ فى الذروة من هاشم لم يَمْرِ دون الحق بالباطل

* * *

وقال عبد الله بن رواحة:

بكت عينى وحقَّ لها بُكاها وما يُغنى البكاء ولا العويل
على أسدِ الإله غداةَ قالوا: أحمزةُ ذاكُم الرجُل القتيل
أُصيب المسلمون به جميعًا هناك وقد أُصيب به الرسول
أبا يعلى، لك الأركان هُدَّت وأنتَ الماجدُ البرُّ الوصول

* * *

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ وأخت حمزة:

دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرش دعوةً إلى جنة يحيا بها، وسرورِ
فذلك ما كنا نُرجِّى ونرتجى لحمزةَ يوم الحشر خير مصيرِ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصبا بكاءً وحزنًا، محضرى ومسيرى
على أسدِ الله الذى كان مِدرهًا يذودُ عن الإسلام كلّ كفُورِ
أقولُ وقد أعلى النعىُّ عشيرتى جزى اللهُ خيرًا من أخٍ ونصيرِ

وعن عُقبة أن النبى ﷺ صلَّى على قَتلى أُحدٍ صلاته على الميت، فهذا كان قبل موته بأيام(١).

* * *

(١) أخرجه البخارى (١٣٤٤) الجنائز ــ ومسلم (٢٢٩٦) الفضائل.

ابن عوف ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ وشهادته (لحمزة) بأنه خيرٌ منه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أُتى بطعام ـ وكان صائمًا ـ فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير منى كُفِّن فى بُردة إن غُطِّى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتل حمزة ـ وهو خير منى ـ ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسط ـ أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام[1].

كرامة ثابتة (لأسد الله) بعد موته

عن جابر بن عبد الله، قال: لما أراد معاويةُ أن يُجرى عينه التى بأُحُد كتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نُجريها إلا على قبور الشهداء، قال فكتب: انبُشوهم. قال: فرأيتُهُم يُحملَون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاةُ طرف رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعثت دمًا[2].

وهكذا يؤيد الله أولياءه بالنُصرة والتأييد وبالكرامات فى حياتهم وبعد موتهم، ثم يرزقهم بالنعيم المقيم فى جنته.

فرضى الله عن حمزة وعن سائر الصحابة أجمعين

ونسأل الله أن يجمعنا بهم وبالحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته

* * *

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٧).

عمير بن وهب

شيطان قريش يصبح داعية إلى الله تعالى

حقًا إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ــ جل وعلا ــ يقلّبها كيف يشاء.

فبينما كان عمير بن وهب الذى كان أهل مكة يلقبونه بـ«شيطان قريش» يجول بفكره وبجسده وبكل ما يملك من أجل أن يحارب النبى ﷺ وأصحابه ــ رضى الله عنهم ــ وقلبه قد امتلأ حقدًا على الإسلام وأهله. وإذا بالحق جل جلاله يأخذ بناصيته إلى الإسلام ليكون واحدًا من أصحاب النبى ﷺ.

ففى يوم بدر كان (عمير) واحدًا ممن حملوا السيوف ليقضوا على الإسلام فى مهده.

ونظرًا لخفّته وحُسن تقديره فإن كفار قريش بعثوه وقالوا له: أحزِر لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مئة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أملهونى حتى أنظر ألِلقوم كمينٌ أو مدد؟ قال: فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما وجدتُ شيئًا، ولكنى قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَروْا رأيكم ــ يعنى ما

رأيكم ـ.

وكان كلام عمير يفتّ فى عضدهم إلا أن أبا جهل أفسد عليهم رأيهم وأصر على ملاقاة المسلمين.

وبدأت ملحمة بدرٍ الكبرى التى أعز الله فيها جُنده وهزم المشركين شر هزيمة وأنزل ملائكته.

وعصفت الهزيمة بقلوب قريش وجلس عمير بن وهب ـ الذى ترك ولده أسيرًا فى أيدى المسلمين ـ حزينًا على ابنه وعلى تلك الهزيمة التى حلّت بكفار قريش.

وهو الذى كان يؤذى النبى ﷺ وأصحابه ويلقون منه العناء وهو بمكة.

فجلس مع صفوان بن أمية فى الحِجر بيسير فذكر أصحاب القليب ـ أى المشركين الذين قُتلوا وأُلقوا فى بئر قليب ـ ومُصابهم.

فقال صفوان: والله ما فى العيش بعدهم خير.

قال له عُمير: صدقت والله، أما والله لولا دينٌ علىّ ليس له عندى قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضّيعة بعدى، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإنّ لى قبلهم علة: ابنى أسيرٌ فى أيديهم؛ قال: فاغتنمها صفوان وقال: علىّ دَيْنُك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالى أُواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شىءٌ ويعجز عنهم؛ فقال له عُمير: فاكتُم [عنى] شأنى وشأنك، قال: أفعل.

قال: ثم أمر عُميرٌ بسيفه، فشُحذ له[1] وسُمَّ ـ أى وضع فيه السم ـ ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عُمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال:

(١) فشحذ له: أى أحد له، تقول شحذت السكين إذا أحددتها.

هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذى حرّش(١) بيننا، وحَزَرَنَا(٢) للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمرُ على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير ابن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «فأدخله عليّ»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحِمَالة سيفه فى عُنقه فلبّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غيرُ مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمرُ آخذٌ بحمالة سيفه فى عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عُمير»، فدنا ثم قال: انعموا صباحًا، (وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم)، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد؛ قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه؛ قال: «فما بال السيف فى عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا! قال: «اصدقنى، ما الذى جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك؛ قال ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ علىّ وعيالٌ عندى لخرجتُ حتى أقتل محمدًا، فتحمَّل لك صفوان [بن أمية] بدينك وعيالك، على أن تقتلنى له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك»، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا

---

(١) حرش بيننا: أفسد، والتحريش: الإفساد بين الناس وإغراء بعضهما ببعض.

(٢) حزرنا: قدر عددنا، تقول هم محذورة ألف، تريد أنهم يقدرون بألف.

المساق. ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «فقِّهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا[1].

وقف عمير وقفة صادقة مع نفسه يتذكر كيف استطاع أن يحمل سيفه لقتل النبى ﷺ الذى جعله الله سببًا لخروجه من الظلمات إلى النور.

وتمر تلك الذكريات المؤلمة وهو يتمنى أن يقدِّم شيئًا لدين الله ليمحو تلك الصفحات السوداء التى امتلأت بها صحيفته من عداوته للإسلام وأهله.

ثم هو أيضًا جلس يفكر فى عظمة هذا الدين!!!

وكيف أنه منذ ساعات جاء يحمل سيفه يريد قتل الحبيب ﷺ، وما إن أعلن إسلامه لله ـ جل وعلا ـ أصبح أخًا لكل هؤلاء الصحب الكرام يحتل مكانًا عظيمًا فى قلوبهم.

أى سماحة تلك التى جاء بها الإسلام؟!.. وأى دين هذا الذى يحوِّل تلك العداوة فى لحظة واحدة إلى محبة صادقة لا يشوبها شىء من الكذب أو النفاق؟! إنه دين عظيم.... إنه هو الدين الحق وما سواه فهو باطل.

وتحولت تلك الخواطر فجأة إلى واقعٍ عملى.. فلقد أحس عمير بأنه لابد أن يقوم وينفض غبار الغفلة ويحمل أمانة هذا الدين ويدعو الدنيا كلها إليه.

قال: يا رسول الله، إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ـ عز وجل ـ وأحب أن تأذن لى، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أُوذِى أصحابك فى دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان بن أُمية ـ حين خرج عُمير بن وهب ـ يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام، تُنسيكم وقعة بدر، وكان

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

صفوان يسأل عن الرُّكبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفعٍ أبدًا.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويُؤذى من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه ناسٌ كثير[١].

واكتملت السعادة فى قلبه

لم ينسَ عمير صديقه الذى دعاه لقتل النبى ﷺ «صفوان بن أمية» فبعد أن لامس الإيمان شغاف قلب عمير أراد الخير لصفوان فذهب يدعوه إلى الإسلام لتكتمل فرحته بإسلامه.

ففر صفوان عامدًا للبحر، وأقبل عمير بن وهب، إلى رسول الله، فسأله أمانًا لصفوان، وقال: قد هرب، وأخشى أن يهلك، وإنك قد أمَّنت الأحمر والأسود. قال: «أدرك ابن عمك فهو آمن»[٢].

فبعث إليه رسول الله ﷺ ابن عمه بردائه أمانًا لصفوان، ودعاه إلى الإسلام وأن يقدم، فإن رضى أمرًا، وإلا سيَّره شهرين.

فلما قدم على النبى ﷺ ناداه على رؤوس الناس: يا محمد، هذا جاءنى بردائك، ودعوتنى إلى القدوم عليك، فإن رضيت، وإلا سيرتنى شهرين. فقال: «انزل أبا وهب» فقال: لا والله حتى تُبين لى. قال: لك تسيير أربعة أشهر.

فخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن بحنين؛ فأرسل إلى صفوان يستعيره أداةً وسلاحًا كان عنده. فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال: «لا، بل طوعًا».

---

(١) قال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٣٤٤): أخرجه الطبرانى وأبو نعيم من طريق أبى عمران الجوفى عن أنس موصولاً بسند صحيح ـ وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٤٣٢) نقلاً من السير (٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦).

ثمَّ خرج معه كافرًا، فشهد حُنينًا والطائف كافرًا، وامرأته مُسلمةٌ؛ فلم يُفرِّق بينهما حتى أسلم، واستقرت عنده بذلك النكاح[١].

فاكتملت سعادة عمير بإسلام صفوان ليكون أخًا له فى الإسلام كما كان صديقًا له فى الجاهلية.

واستمر عمير فى تلك المسيرة العطرة يدعو إلى الله ولا يفتر أبدًا لأنه يعلم أن هؤلاء جميعًا سيكونون فى ميزان حسناته يوم القيامة.

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية فى سبيل الله والدعوة إلى الله نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها ــ جل وعلا ــ ليلحق بالحبيب ﷺ فى جنات النعيم.

فرضى الله عن عمير وعن صفوان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه مالك (٢/ ٧٥ ــ ٧٦) فى النكاح: باب نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، وهو من بلاغات مالك التى لا يعلم اتصاله من وجه صحيح، قال ابن عبد البر: وهو حديث مشهور معلوم عند أهل السير، وابن شهاب إمام أهل السير، وكذلك الشعبى.

حذيفة بن اليمان

صاحب سرّ رسول الله ﷺ ورفيقه فى الجنة

إننى أشعر وأنا أكتب تلك السطور عن هذا الصحابى الجليل وكأن الكون كله ينظر ويتأمل ويقول: كيف نستطيع أن نترجم عن هذا الصحابى ترجمة تليق بقدره ومكانته.

أيها المسلمون: أعيرونى القلوب قبل الأبصار لتعلموا كيف استطاع رجل من أصحاب النبى ﷺ أن يقدِّم لدين الله ما لا يستطيع جيلٌ بكل طاقاته وإمكانياته أن يقدِّم نصف ما قدَّم. ولست مبالغًا فى ذلك فهو واحدٌ ممن تربَّو بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الله ـ جل وعلا ـ وصنعه على عينه ليربِّى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه حذيفة بن اليمان من نجباء أصحاب محمد ﷺ وهو صاحب السر[1].

وكان والد حذيفة مكِّى من «بنى عبس».

وكان قد أصاب دمًا فى قومه، فهرب إلى المدينة، وحالف بنى عبد الأشهل، فسمَّاه قومه «اليمان» لحلفه لليمانية، وهم الأنصار[2].

---

(١) أى: صاحب سر النبى ﷺ الذى لا يعلمه أحد غيره، والمراد بالسر: ما أعلمه به النبى ﷺ من أحوال المنافقين. انظر البخارى (٧/ ٧١ ـ ٧٣) فى المناقب: باب مناقب عمار وحذيفة ـ رضى الله عنهما ـ والمسند (٦/ ٤٤٩).

(٢) المستدرك (٣/ ٣٣٠) والإصابة (٢/ ٢٢٣) وتاريخ الإسلام للذهبى (٢/ ١٥٢).

وتزوج اليمان والدة حذيفة فوُلد له بالمدينة.. ولما أشرقت شمس النبوة كان حذيفة ووالده من المسارعين للدخول فى الإسلام.... وأسلم حذيفة وأبوه وأعلنوا إسلامهم بين يدى رسول الله ﷺ، وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة، ومن هنا كان حذيفة مكّى الأصل مدنىّ النشأة.

ولذلك قال له الحبيب ﷺ : «إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار فاختر أحب الأمرين إلى نفسك» فقال حذيفة ــ رضى الله عنه ــ «بل أنا أنصارىٌ يا رسول الله ﷺ».

ولما أذِن الله لنبيه ﷺ بالهجرة فرح حذيفة فرحًا شديدًا ولازم النبى ﷺ ملازمة الحبيب لحبيبه.

ولقد أحبَّه النبى ﷺ حُبًا جمًا وكان النبى ﷺ بنظرة واحدة إلى أى رجلٍ يعلم صفاته وإمكاناته ومزاياه من أول وهلة... فأحسَّ النبى ﷺ أن حذيفة يملك ذكاءً يندر وجوده وسرعة بديهة تجعله يعالج أعتى المواقف والأزمات بيُسرٍ وسهولة وهو فى الوقت ذاته يؤتمن على أخطر الأسرار ولا يذيعها ولو انطبقت السماوات على الأرض.

وكان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ويستخدم طاقات أصحابه فيما يخدم الدين على أعلى مستوى.

وكانت أكبر مشكلة تواجه المسلمين فى المدينة هى وجود المنافقين[1] من اليهود وأشياعهم[2]، وما يحيكونه للنبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأصحابه من مكائد ودسائس.

فأفضى[3] النبى ــ صلوات الله عليه ــ لحذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين ــ

(١) المنافق: هو من ستر الكفر بقلبه وأظهر الإيمان بلسانه.

(٢) أشياعهم: أنصارهم.

(٣) أفضى النبى لحذيفة: أسر إليه وأخبره.

وهو سرٌّ لم يُطلع عليه أحدًا من أصحابه ــ وعهد إليه برصد حركاتهم، وتتبع نشاطهم، ودرءِ خطرهم[١] عن الإسلام والمسلمين. . .

ومنذ ذلك اليوم دُعى حذيفة بن اليمان «بصاحب سر رسول اللهﷺ»[٢].

فعن إبراهيم قال: ذهب علقمة إلى الشام فأتى المسجد فصلى ركعتين فقال: اللهم ارزقنى جليسًا فقعد إلى أبى الدرداء فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة قال: أليس فيكم صاحب السر الذى كان لا يعلمه غيره ــ يعنى حذيفة ــ. . . . »[٣].

حتى كان أمير المؤمنين عمر ــ رضى الله عنه ــ وهو الملهمُ الفَطِنُ الأريب، يستدلُّ برأى حذيفة، وببصيرته فى اختيار الرجال ومعرفتهم.

ولقد أُوتى «حذيفة» من الحصافة ما جعله يدرك أن الخير فى هذه الحياة واضح لمن يريده. . وإنما الشر هو الذى يتنكَّر ويتخفى، ومن ثم يجب على الأريب أن يُعنى بدراسة الشرِّ فى مآتيه، ومظانه[٤].

أعلم الناس بالفتن إلى قيام الساعة

عن حذيفة ــ رضى الله عنه ــ قال: «كان الناس يسألون رسول اللهﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَن، قلت: وما دَخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديى تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دُعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها: قلت: يا رسول الله صِفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا،

(١) درء خطرهم: دفع خطرهم.
(٢) صور من حياة الصحابة (٣٠١ ــ ٣٠٢) بتصرف.
(٣) أخرجه البخارى (٦٢٧٨) والنسائى فى الفضائل (١٩٤) وأحمد (٦/ ٤٤٩ ــ ٤٥١).
(٤) رجال حول الرسول/ خالد محمد خالد (ص: ٢٤٦).

ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفِرق كلها ولو أن تعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»(١).

وعنه أيضًا أنه قال: والله إنى لأعلم الناس بكل فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة(٢).

وعنه أيضًا أنه قال: قام فينا رسول الله مقامًا، فحدثنا بما هو كائن إلى قيام الساعة، فحفظه من حفظه، ونسيه من نسيه(٣).

قال الإمام الذهبى ــ رحمه الله ــ: قلتُ: قد كان ﷺ يُرتِّل كلامه ويفسره، فلعله قال فى مجلسه ذلك ما يُكتب فى جزء؛ فذكر أكبر الكوائن، ولو ذكر أكثر ما هو كائن فى الوجود، لما تهيأ أن يقوله فى سَنَةٍ، بل ولا فى أعوام، ففكِّر فى هذا(٤).

عن زاذان: أن عليًا سُئل عن حذيفة، فقال: علم المنافقين، وسأل عن المعضلات؛ فإن تسألوه تجدوه بها عالمًا(٥).

وهكذا عكف حذيفة ــ رضى الله عنه ــ على دراسة الشر والأشرار والنفاق والمنافقين لكى يحذر منهم، بل ويحذِّر الأمة من شرورهم.

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٤٥٣ ــ ٤٥٤) علامات النبوة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩١) الفتن ــ وأحمد (٥/ ٣٨٨ ، ٤٠٧).

(٣) أخرجه البخارى (١١/ ٤٣٣) القدر ــ ومسلم (٣٨٩١) (٢٣).

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ٣٦٦).

(٥) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط فى تخريج السير: رجاله ثقات، وفى المستدرك (٣/ ٣٨١) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة وإسماعيل، عن قيس قال: سُئل علىّ ــ رضى الله عنه ــ عن ابن مسعود، فقال: قرأ القرآن، ثم وقف عند شبهاته، فأحل حلاله، وحرم حرامه، وسئل عن عمار، فقال: مؤمن نسى، وإذا ذُكر ذكر، وسئل عن حذيفة، فقال: كان أعلم الناس بالمنافقين.

وعن أبى يحيى، قال: سأل رجل حذيفة، وأنا عنده، فقال: ما النفاق؟ قال: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به[١].

وكان النبى ﷺ قد أسرَّ إلى حذيفة أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة فى الأمة[٢].

وقد ناشده عمر: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أُزكى أحدًا بعدك[٣].

وظل حذيفة بن اليمان مؤتمنًا على أسرار المنافقين ما امتدت به الحياة، وظل الخلفاء يرجعون إليه فى أمرهم، حتى إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان إذا مات أحد المسلمين يسأل: أحضرَ حذيفة للصلاة عليه؟... فإن قالوا: نعم، صلى عليه، وإن قالوا: لا، شك فيه، وأمسك عن الصلاة عليه.

وقد سأله ذات مرة: أفى عُمالى أحدٌ من المنافقين؟ فقال: واحدٌ، فقال: دُلنى عليه، فقال: لا أفعل... قال حذيفة: لكنَّ عمر ما لبث أن عزله كأنما هُدى إليه.

استغفار النبى ﷺ له ولأمه

عن حذيفة بن اليمان قال: سألتنى أمى: منذ متى عهدك بالنبى ﷺ؟ فقلت: منذ كذا وكذا. فنالت منى وسبتنى فقلت لها: دعينى فإنى آتى النبى ﷺ فأصلى معه المغرب ولا أدعه حتى يستغفر لى ولك، فصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء ثم انفتل وتبعته فعرض له عارض وأخذه وذهب فاتبعته فسمع صوتى فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. فقال: «مالك؟» فحدثته بالأمر فقال: «غفر الله لك ولأمك، أما رأيت العارض الذى عرض لى

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ٣٦٣).

(٢) انظر البخارى (١٣/ ٤٠، ٤١) فى الفتن، ومسلم (١٤٤) والترمذى (٢٢٥٩).

(٣) نسبه فى الكنز (١٣/ ٣٤٤) إلى رستة ـ نقلاً من السير (٢/ ٣٦٤) للذهبى.

قبل؟» قلت: بلى، قال: «هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يُسلِّم عليَّ ويبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»(١).

ولقد كان حذيفة ــ رضى الله عنه ــ يخشى ربه فى السر والعلانية، وكان لا يحب أن يطَّلع أحدٌ على عمله وكان يحب العزلة خوفًا على نفسه وعلى دينه من الفتن التى هو أعلم الناس بها بعد النبى ﷺ.

قال حذيفة ــ رضى الله عنه ــ: والله لوددت أن لى إنسانًا يكون فى مالي ثم أُغلق عليَّ بابًا فلا يدخل عليَّ أحد حتى ألحق بالله ــ عز وجل ــ.

وعن الأعمش قال: بكى حذيفة فى صلاته، فلما فرغ التفت فإذا رجل خلفه فقال: لا تُعلمن بهذا أحدًا(٢).

ما السبب في تغيبه عن غزوة بدر

ولعل السؤال الذى يخطر على البال فى تلك اللحظة: ما السبب الذى جعل حذيفة ــ رضى الله عنه ــ يتغيب عن غزوة بدر؟.

ويتولى حذيفة بنفسه الجواب على هذا السؤال فيقول: ما منعنى أن أشهد بدرًا إلا أنى خرجت أنا وأبى، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تُريدون محمدًا! فقلنا: ما نريدُ إلا المدينة؛ فأخذوا العهد علينا: لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأخبرنا النبى ﷺ. فقال: «نفى بعهدهم، ونستعين الله عليهم»(٣).

***

(١) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٩٣) والكبرى (٥/ ٨٠ ــ ٨١) وحسنه شعيب الأرنؤوط فى السير..

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٨) الجهاد ــ المسند (٥/ ٣٩٥).

موقف يوم (أحدٍ) زاده عند رسول الله ﷺ خيراً

ولما جاء يوم أُحد وخاض المسلمون تلك الغزوة أمام مشركى قريش، وكان فى جند المسلمين (حذيفة) مع أبيه اليمان.. فأما حذيفة فقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها، وأما أبوه فقد استُشهد يومئذ. قتله بعضُ الصحابة غلطًا، ولم يعرفه؛ لأن الجيش يختفون فى لأمة الحرب، ويسترون وجوههم؛ فإن لم يكن لهم علامة بيِّنة، وإلا ربما قتل الأخُ أخاه، ولا يشعر.

ولما شدُّوا على اليمان يومئذ بقى حذيفة يصيح: أبى! أبى! يا قوم! فراح خطأ. فتصدَّق حذيفة عليهم بديته[1].

وفى رواية: عن محمود بن لبيد، قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد، رُفعَ حُسيل بن جابر، وهو اليمان أو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش، فى الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقى لواحد منا من عمره إلا ظمء حمار[2]، إنما نحن هامةٌ[3] اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا، حتى دخلا فى الناس، ولم يُعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حُسيل ابن جابر، فاختلف عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه[4]، فقال حذيفة: أبى، فقالوا: والله إن عرفناه ـ يعنى: ما عرفناه ـ وصدَقوا. قال حذيفة: يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَهُ ـ يعطيه الديّة ـ فتصدَّق حذيفة بديَّته على المسلمين؛ فزاده ذلك عند رسول الله

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٩) وابن سعد (٢/ ٤٥).

(٢) ظمء الحمار: الظمء: مقدار ما يكون بين الشربتين وأقصر الإظماء ظمء الحمار؛ لأنه لا يصبر عن الماء فضُرب مثلاً بقرب الأجل.

(٣) الهامة: طائر يخرج من رأس القتيل إذا قُتل «فزعموا» أنه لا يزال يصيح اسقونى ـ اسقونى ـ اسقونى حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلاً للموت.

(٤) قيل إن الذى قتله خطأ هو عتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود، وعتبة هو أول من سمى المصحف مصحفًا.

ﷺ خيراً[١].

يوم الخندق ومرافقة النبي ﷺ في الجنة

عن محمد بن كعب القرظى، قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: فقال حذيفة: يا ابن أخى، والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل[٢]، ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع» ـ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة؟ فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله فلم يكن لى بُدّ من القيام حين دعانى، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثنّ شيئًا حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

---

(١) ذكره ابن حجر فى الفتح (٧/ ٤٢٠) وقال ابن حجر فى الإصابة (١/ ٢٠٤) بعد ذكر الحديث تحت ترجمة ثابت بن وقش بن زغبة وقصة والد حذيفة فى ذلك فى الصحيح من حديث عائشة، ولكن ليس فيه ذكر ثابت.

وأخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب «المغازى» باب «إذ همت طائفتان...» (٧/ح ٤٠٦٥/ فتح) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى حديث أوله: لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصاح إبليس أى عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمانى فقال: أى عباد الله أبى أبى فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه فقال حذيفة غفر الله لكم. قال عروة فما زالت فى حذيفة منه بقية صبر حتى لحق بالله. ا.هـ.

(٢) هويًا من الليل: قطعة منه.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع[١] والخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جَمله وهو معقول ـ مربوط ـ فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أُطلق عِقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىَّ «أن لا تُحدث شيئًا حتى تأتينى»، ثم شئت، لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط[٢] لبعض نسائه، مَرَاجِل.

قال ابن هشام: المراجل: ضرب من وشى اليمن.

فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه، وطرح علىَّ طرف المرط. ثم رجع وسجد، وإنى لفيه، فلما سلَّم أخبرتُه الخبر، وسمعت غطفان بم فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم[٣].

قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح[٤].

وبهذا الموقف الذى وقفه (حذيفة) واستجابته لأمر رسول الله ﷺ أصبح واحدًا ممن فازوا برفقة الحبيب فى الجنة.. ويا لها من بشرى لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من زينة ومتاعٍ زائل.

* * *

(١) الكراع: الخيل. والخف: الإبل.

(٢) المرط: الكساء.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٩٢، ٣٩٣) وذكره ابن كثير فى البداية (٤/ ١١٣) وأخرجه الحاكم (٣/ ٣١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٤) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢) بتصرف.

ولايته على المدائن

وبعد أن انتقل الحبيب ﷺ إلى جوار ربه ظل (حذيفة) على عهده عابداً صائمًا قائمًا مجاهداً فى سبيل الله ــ جل وعلا ــ.

عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب إذا بعث أميراً كتب إليهم: إنى قد بعثت إليكم فلانًا وأمرته بكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا.

فلما بعث حذيفة إلى المدائن كتب إليهم إنى قد بعثت إليكم فلانًا فأطيعوه. فقالوا: هذا رجل له شأن. فركبوا ليتلقوه فلقوه على بغل تحته إكاف، وهو معترض عليه، رجلاً من جانب واحد. فلم يعرفوه فأجازوه.

فلقيهم الناس فقالوا: أين الأمير؟ قالوا: هو الذى لقيتم. قال: فركضوا فى أثره، فأدركوه وفى يده رغيف وفى الأخرى عرق وهو يأكل. فسلموا عليه فنظر إلى عظيم منهم فناوله العرق والرغيف قال: فلما غفل ألقاه، وقال: أعطاه خادمه.

وفى رواية أخرى عن ابن سيرين: أن حذيفة كان راكبًا على حمار له إكاف، وبيده رغيف وعرق من لحم فقالوا: سلنا ما شئت. فقال: أسألكم طعامًا آكله وعلفًا لحمارى هذا ما دمت فيكم. فأقام ما شاء الله ثم كتب إليه عمر أن أقدم. فقدم فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق ــ اختبأ له ــ فى مكان لا يراه. فلما رآه على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه ــ احتضنه ــ وقال: أنت أخى وأنا أخوك.

عن ابن سيرين قال: إن حذيفة لما قدم المدائن قَدِم على حمار له إكاف وبيده رغيف وعرق، وهو يأكل على الحمار[1].

وكان يكره أن يدخل عليه رجل ليُثنى عليه أو ليمدحه، بل كان يحب من

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٥٥).

يأتى إليه ويذكر له عيوبه ليُصلح من نفسه ما خفى عليه، ولذلك كان لا يكره شيئًا أكثر من الكذب والنفاق.

فعن عمارة بن عبد، عن حذيفة قال: إياكم ومواقف الفتن. قيل وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه(١).

صور مشرقة من جهاده في الفتوحات الإسلامية

ولعل قليلاً من الناس من يعلم أن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ كان من أصحاب السبق العظيم فى فتوحات العراق كلها.

ففى (همدان والرىّ والدينور) تم الفتح على يديه.

وفى معركة (نهاوند) كانت المعركة الكبرى، حيث احتشد الفُرس فى مائة ألف مقاتلٍ وخمسين ألفًا، والمسلمون فى ثلاثين ألفًا يقودهم الإيمان بالله والعقيدة الراسخة التى سكبها الحبيب ﷺ فى قلوب أصحابه حتى كان الواحد منهم يقابل جيشًا بأكمله فلا يخاف ولا يخشى إلا الله وحده.

وكتب عمر كتابه فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغنى أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة(٢)، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك. فسِر فى وجهك ذلك حتى تأتى (ماه) فإنى قد

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).

(٢) الغيضة: المكان الملتف الشجر.

كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومَن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب عمر إلى نائب الكوفة ــ عبد الله بن عبد الله ــ أن يعيّن جيشًا ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النعمان بن مقرن، فإن قُتل النعمان فحذيفة، فإن قُتل فنعيم بن مقرن. وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم. فسار حذيفة فى جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماه، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد فى كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس فى كل ناحية، واحتاطوا احتياطًا عظيمًا، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فدفع حذيفة ابن اليمان إلى النعمان كتاب عمر وفيه الأمر له بما يعتمده فى هذه الوقعة، فكمل جيش المسلمين فى ثلاثين ألفًا من المقاتلة.

وتعبئت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفًا هائلة. فى عدد وعُدد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم فى بعض وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز. ثم إن النعمان بن مقرن ــ رضى الله عنه ــ كبَّر الأولى وهز الراية فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضًا، ثم كبَّر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين وجعلت راية النعمان تنقض على الفرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله فى موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، قُتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دمًا، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه فى ذلك الدم فوقع وجاءه سهم فى خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه

سويد، وقيل نعيم، وقيل غطاه بثوبه وأخفى موته ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيمًا مكانه، وأمر بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس. فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفًا بالسلاسل وحفروا حولهم خندقًا، فلما انهزموا وقعوا فى الخندق وفى تلك الأودية نحو مائة ألف وجعلوا يتساقطون فى أودية بلادهم، فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قُتل فى المعركة ولم يفلت منهم إلا الشريد[1].

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للفرس على أيدى الموحدين الذين امتلأت قلوبهم حبًا لله ولرسول الله ﷺ ولنُصرة دين الله.

حكمة وخبرة نادرة

إن حذيفة بن اليمان ــ رضى الله عنهما ــ كان عبقريًا فى حكمته حين تضمه صومعته، وعبقريًا فى فدائيته حين يقف على أرض القتال، وهو كذلك، العبقرى فى كل مهمة تُوكل إليه، ومشورة تُطلب منه.. فحين انتقل «سعد بن أبى وقاص» والمسلمون معه من المدائن إلى الكوفة، واستوطنوها.. وذلك بعد أن أنزل مُناخ المدائن بالعرب المسلمين أذىً بليغًا، مما جعل عمر يكتب لسعد كى يغادرها فوراً بعد أن يبحث عن أكثر البقاع مُلاءمة، فينتقل بالمسلمين إليها... يومئذ، مَن الذى وُكل إليه أمر اختيار البقعة والمكان..؟

إنه «حذيفة بن اليمان».. ذهب ومعه «سلمان بن زياد»، يرتادان للمسلمين المكان الملائم..

فلما بلغا أرض الكوفة، وكانت حصباء جرداء مرملة، شمَّ حذيفة عليها أنسام العافية، فقال لصاحبه: هنا المنزل إن شاء الله.

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١١٠: ١١٣) بتصرف.

وهكذا خُططت الكوفة وأحالتها يدُ التعمير إلى مدينة عامرة.. وما كاد المسلمون ينتقلون إليها، حتى شُفى سقيمهم، وقوى ضعيفهم، ونبضت بالعافية عروقهم...!!

لقد كان «حذيفة» واسع الذكاء، متنوع الخبرة، وكان يقول للمسلمين دائمًا:

[ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة.. ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين يأخذون من هذه.. ومن هذه](١).

حرصه على الاتباع

وفى الصحيح أنه قال: «يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا...»، وفى رواية ابن المبارك: «فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا».

وعنه ـــ رضى الله عنه ـــ: «أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون».

وعنه: «أنه أخذ حجرين، ووضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله، ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً. قال: والذى نفسى بيده، لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا تُرك منها شىء قالوا: تُركت السنة».

وعنه أنه قال: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، ولتنقُضن عُرى الإسلام عروة عروة، وليطأن نساؤكم وهن حُيَّض،

(١) رجال حول الرسول ﷺ: (ص: ٢٥٥).

ولتسلكن طريق مَن كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئن طريقهم، ولا تخطئ بكم، وحتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة، تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا، إنما قال الله: ﴿أقم الصلاةَ طرفي النَّهارِ وزُلَفى من الليل﴾ لا تصلون إلا ثلاثًا. وتقول الأخرى: إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة، ما فيها كافر ولا منافق. حق على الله أن يحشرهما مع الدجال».

كان سببًا في جمع المسلمين على مصحف واحد

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق»[1].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالزهد والكفاح والبذل والتضحية نام رفيق النبى ﷺ فى الجنة على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى ربها ـ عز وجل ـ الذى

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) كتاب فضائل القرآن.

كتب الموت على الخلائق وهو الحى الذى لا يموت.

عن النزَّال بن سبرة، قال: قلت لأبى مسعود الأنصارى: ماذا قال حذيفة عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباحٍ إلى النار. ثلاثًا. ثم قال: اشتروا لى ثوبين أبيضين؛ فإنهما لن يتركا علىَّ إلا قليلاً حتى أُبدل بهما خيرًا منهما، أو أُسلبهما سلبًا قبيحًا[1].

وعن زياد، مولى ابن عياش، قال: حدثنى من دخل على حذيفة فى مرضه الذى مات فيه فقال: لولا أنى أرى أن هذا اليوم آخر يوم وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به، اللهم إنك تعلم أنى كنت أحب الفقر على الغنى، وأحب الذلة على العز، وأحب الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم، ثم مات رحمه الله[2].

ومات حذيفة ـ رضى الله عنه ـ بعد قتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ بأشهر.

فرضى الله عن حذيفة وعن سائر الصحابة أجمعين

***

---

(١) المستدرك (٣/ ٣٨١) نقلاً من السير للإمام الذهبى (٢/ ٣٦٨).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).

عمار بن ياسر

«إن الجنة لتشتاق إلى عمار»

«صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»

محمد رسول الله ﷺ

إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجُندًا لا يُهزم وحصنًا حصينًا لا يُثلم.

قال ﷺ: «ما أُعطى أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

ولقد ذكر الله الصبر فى القرآن فى نحو من تسعين موضعًا فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لذا قال الإمام ابن تيمية: بالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فوالله لو لم يكن فى القرآن آية عن الصبر سوى هذه الآية لكانت كافية، فإن الذى سيُعطى هو الله سبحانه وتعالى.

ولقد جمع الله للصابرين أمورًا لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧](٢).

---

(١) متفق عليه عن أبى سعيد ــ صحيح الجامع (٥٨١٩).

(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ٩٨ ــ ٩٩).

وها نحن نعيش بل ونتعايش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء.

إنها قصة تتكرر فى كل يوم، بل فى كل مكان وزمان.

إنه الصراع الدائم بين الإيمان والكفر الذى قال عنه الحق ــ جل وعلا ــ ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]

فهيا بنا لنتعايش مع تلك القصة ولنقترب أكثر من هذا الصحابى الجليل.

إنه عمار بن ياسر ــ رضى الله عنهما ــ الإمام الكبير أبو اليقظان العنسىُّ المكىُّ مولى بنى مخزوم، أحدُ السابقين الأولين، والأعيان البدريين. وأمه: هى سُمية مولاة بنى مخزوم، من كبار الصحابيات وهى أول شهيدة فى الإسلام.

وتبدأ القصة عندما قدم ياسر ــ والد عمار ــ من اليمن مع أخويه الحارث ومالك إلى مكة ليبحثوا عن أخٍ لهم فقدوه منذ سنوات، ومن هذا الوقت وهم يطوفون فى البُلدان بحثًا عنه فانتهى بهم المطاف فى أرض مكة فبحثوا عنه فلم يجدوه فعاد (الحارث ومالك)

وأما (ياسر) فلم يعد لأنه أحسَّ بسعادة عجيبة ونشوةٍ غريبة جعلته يؤثر البقاء فى مكة وهو لا يعلم أنه بذلك قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، بل وأشرفها.

وكان من عادة العرب أنه إذا دخل رجلٌ غريب إلى أى بلدة واستقر بها فلا بد أن يحالف سيدًا من سادات القوم ليمنعه من أذى الناس وليستطيع أن

يعيش حياة هادئة مطمئنة فى ذلك المكان.

فحالف (ياسر) (أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى) فأحبَّه الرجل من أعماق قلبه لما رأى منه من نبيل الخصال وكريم الفعال ونفاسة معدنه، وأراد أن يتقرب منه أكثر من ذلك فزوّجه من أمةٍ له تُدعى «سمية بنت خِباط» فأنجبت له غلامًا مباركًا ألا وهو «عمار بن ياسر».

واكتملت الفرحة يوم أن أعتقه أبو حذيفة وحرَّره من العبودية.. ثم مات أبو حذيفة.

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

وبعد قرونٍ طويلة عاشتها البشرية فى ظلمات الشرك والجاهلية، وإذا بشمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة لتُخرج الناس من ظُلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان ولتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة... إلى جنة الدنيا التى تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

إنهم على موعدٍ مع حياة جديدة.. بل إن صحّ القول ـ مع مولدٍ جديد ـ وفى تلك الساعات يسمع عمار ـ رضى الله عنه ـ عن تلك الرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فانفتح قلبه لنداء الإيمان، وذهب إلى دار الأرقم وأقدامه تسابق الريح وكأنه يسابق الزمن. فما إن وصل ورأى النبى ﷺ وسمع منه حتى كاد يطير من شدة الفرح.

نعم إن هذا الدين هو طوق النجاة للبشرية كلها. فما كان منه إلا أن بسط يده للحبيب ﷺ وقال بقلبه ولسانه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ

من أعظم البر بالوالدين

ولما لامس الإيمان شغاف قلب (عمار) ـ رضى الله عنه ـ عاد إلى أبويه

يحمل لهما النور والخير والإيمان.. لقد عاد إليهما ومعه جنة الدنيا.

فما إن عرض عليهما الإسلام حتى استجابا فى التو واللحظة ما تلعثم واحد منهما ولا تلكّأ.

وهذا والله هو أعظم البر بالوالدين.. أن يكون الولد سببًا فى دخولهما الجنة ونجاتهما من النار.

وانطلقت الأسرة الكريمة المباركة فى رحلتها إلى جنة الرحمن.. وعلى الرغم من أن الطريق صعب وشاق وطويل، لكن عاقبته محمودة وغالية.. ويكفى أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق ويستعين بالملك ـ جل وعلا ـ.

صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وما هى إلا ساعات معدودة حتى طار خبر إسلامهم إلى «بنى مخزوم» فاستشاطوا غضبًا.

وصبّوا على آل ياسرٍ أشد العذاب.

فكانوا إذا حميت الظهيرة يأخذونهم إلى بطحاء مكة ويُلبسونهم دُروع الحديد، ويمنعون عنهم الماء ويُصهرونهم فى الشمس المحرقة ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألوانًا؛ حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغًا أعادوا معهم الكرّة فى اليوم الذى يليه.

وكان هذا شأن كل من أظهر إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم.

عن عبد الله قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمية، وصهيبٌ، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ

فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فألبسهم المشركون أدراع الحديد، وصفَّدوهم فى الشمس، وما فيهم أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه فى الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدانَ يطوفون به فى شِعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد(١).

وبينما هم على تلك الحالة من العذاب والتنكيل وإذا بالحبيب المصطفى ﷺ يمر عليهم ويقول لهم: «أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة»(٢).

وعن عمرو بن ميمون قال: عذَّب المشركون عماراً بالنار. فكان النبى ﷺ يمرُّ به، فيمر يده على رأسه، ويقول: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً﴾، على عمار كما كُنتِ على إبراهيم. تقتلك الفئةُ الباغية»(٣).

وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة.. وبدلاً من المعاناة التى كانوا يجدونها من أثر التعذيب أصبحوا يستعذبون العذاب فى سبيل الله ويحلمون بالجنة ليلاً ونهاراً.

وهكذا فإنه لابد أن نعلم أن الدين الذى رفع محمدٌ ﷺ لواءه، ليس حركة إصلاح عابرة وعارضة.. إنما هو نَهجُ حياة للبشرية المؤمنة.. ولابد للبشرية المؤمنة هذه أن ترث مع الدين تاريخه بكل بطولاته، وتضحياته، ومُخاطراته.

إن هذه التضحيات النبيلة الهائلة، هى «الخرسانة» التى تهبُ الدين والعقيدة ثباتًا لا يزول، وخلوداً لا يبلى..!!

إنها «العَبير» يملأ أفئدة المؤمنين ولاءً، وغبطة، وحُبوراً. وإنها «المنار»

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٩) والحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. وقال الذهبى: صحيح..

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٨٨) وقال مصطفى العدوى: صحيح لشواهده. أما قوله ﷺ: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فرواه الحاكم (٣/ ٣٨٣) وسكت عنه الحاكم والذهبى لأنه منقطع.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١٧٧) نقلاً من السير للذهبى (١/ ٤١٠).

الذى يهدى الأجيال الوافدة إلى حقيقة الدين، وصدقه وعظمته..

وهكذا، لم يكن هناك بُدّ من أن يكون للإسلام تضحياته وضحاياه.

ولقد أضاء القرآن الكريم هذا المعنى للمسلمين فى أكثر من آية..

فهو يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أجل.. هكذا علّم القرآن حَمَلته وأبناءه أن التضحية جوهر الإيمان، وأن مقاومة التحديات الغاشمة الظالمة بالثبات وبالصبر وبالإصرار... إنما تُشكل أبهى فضائل الإيمان وأروعها...

ومن ثَم فإن دين الله هذا وهو يضع قواعده، ويُرسى دعائمه، ويُعطى مُثلَه، لابد له أن يدعم وجوده بالتضحية، ويُزكى نفسه بالفداء، مختاراً لهذه المهمة الجليلة نفراً من أبنائه وأوليائه وأبراره يكونون قُدوةً سامقة ومثلاً عاليًا للمؤمنين القادمين(١).

أول شهيدة فى الإسلام

وبدأت المحنة تتحول إلى منحة ربانية بعد أن بشّرهم النبى ﷺ بالجنة، وهنا تقوم (أم عمار) سمية ــ رضى الله عنها ــ لتكتب بدمها سطوراً من النور على جبين التاريخ لتكون أول شهيدة فى الإسلام. وذلك عندما تعرّض لها الهالك أبو جهل ــ عليه من الله ما يستحقه ــ فطعنها فى موطن عفتها فقتلها.

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٦٠ ــ ٢٦١) بتصرف.

واستشهد ياسر (والد عمار) ـ رضى الله عنه ـ تحت وطأة التعذيب.

فإن عادوا فعُد

فلما لم يبق سوى (عمار) ـ رضى الله عنه ـ اشتد الكفار عليه وأذاقوه من العذاب ألوانًا.

عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمارًا، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ. وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبى ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شرٌّ يا رسول الله. والله ما تُركتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإيمان. قال: «فإن عادوا فَعُدْ»(١).

وعن قتادة ﴿إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾ نزلت فى عمار(٢).

الهجرة المباركة

وكتب الله النجاة لعمار ـ رضى الله عنه ـ ولأمثاله من المستضعفين عندما أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وهاجر عمار ـ رضى الله عنه ـ فرارًا بدينه.

فلما وصل إلى «قباء» دعاهم لبناء مسجدٍ ليقيموا فيه الصلاة فاستجابوا له.. وتم بناء المسجد.

فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أول من بنى مسجدًا يصلَّى فيه عمار(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة، فى ترجمة عمار بن ياسر: واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية. وانظر ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٩).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٨) والحاكم (٣/ ٣٥٨).

وعاش عمار ـ رضى الله عنه ـ مع إخوانه من الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ فنسى كل العذاب الذى نزل بجسده وأحسَّ وكأنه بين أبويه لم يفقد واحدًا منهما.. من كثرة ما يجد من رحمة الأنصار ورقّة قلوبهم.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة تمت فرحة عمار ـ رضى الله عنه ـ بقدومه.. فكان ملازمًا للنبى ﷺ لا يفارقه أبدًا.

وكان النبى ﷺ يحبه من أعماق قلبه ويقرّبه إليه دائمًا.

مناقبه وفضائله ـ رضى الله عنه ـ

وها هى جملة من مناقبه وفضائله ـ رضى الله عنه ـ.

عن (علىٍّ) قال: استأذن عمَّار على النبى ﷺ فقال: «من هذا؟» قال: عمار، قال: «مَرْحَبًا بالطيب المُطَيَّب»[1].

وعن أنس أن النبى ﷺ قال: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىٍّ وعمّار وسلمان»[2].

وعن خالد بن الوليد قال: كان بينى وبين عمار كلام، فأغلظتُ له، فشكانى إلى رسول الله ﷺ، فقال: «مَنْ عادى عمارًا عاداه الله، ومَنْ أبغضَ عمارًا أبغضهُ الله» فخرجت، فما شىء أحبَّ إلىَّ من رِضى عمار، فلقيته فرضى[3].

وقال ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر واهتدوا بهَدى عمّار وتمسّكوا بعهد ابن مسعود»[4].

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٧٩٩) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٩٣): رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه الترمذى عن ابن مسعود والرويانى عن حذيفة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»(١).

وعن (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عمار مُلِئ إيمانًا إلى مُشاشه»(٢).

وعن عكرمة قال: قال لى ابن عباس ولابنه علىّ: انطلقا إلى أبى سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو فى حائط يُصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى عَلَى ذكر بناء المسجد فقال: «كنا نحمل لبنةً لبنةً وعمارُ لَبنتين لَبنتين فرآه النبى ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: ويحَ عمار تقتلُه الفئةُ الباغيةُ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قال: يقول عمار: أعوذُ بالله من الفتن(٣).

عمّارٌ أجير من الشيطان

عن علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت: اللهم يسِّر لى جليسًا صالحًا.

فأتيت قومًا فجلست إليهم. فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبى.

قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء. فقلت: إنى دعوت الله أن ييسر لى جليسًا صالحًا فيسَّرك لى. قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة قال: أوَ ليس عندكم ابن أم عبد ـ ابن مسعود ـ صاحبُ النعلين والوساد والمطهرة؟ أفيكم الذى أجارهُ الله من الشيطان يعنى على لسان نبيه ﷺ(٤)؟ ـ يعنى عمار

(١) رواه الترمذى (٣٧٩٩) وأحمد (٦/ ١١٣) وابن ماجة (١٤٦) ـ صحيح الجامع (٤١٠٢).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٠٣).

(٣) أخرجه البخارى (٤٤٧) وأحمد (٣/ ٩٠ ـ ٩١).

(٤) والمراد به عمار، وانظر رواية البخارى (٣٢٨٧)، (٦٢٧٨)، وأحمد (٦/ ٤٤٩) وقد أورد الحافظ فى هذا المعنى أقوالاً منها: أن المراد بقوله (على لسان نبيه) قول النبى ﷺ: «ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ويحتمل أن يكون المراد بذلك حديث عائشة مرفوعًا: «ما خير عمار بين أمرين إلا =

ـ أوَ ليس فيكم صاحبُ سرٍّ النبى ﷺ الذى لا يعلم أحدٌ غيره؟ ثم قال: كيف يقرأ عبدُ الله ﴿والليل إذا يغشى﴾ فقرأتُ عليه: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى﴾ قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ من فيه إلى فيَّ(١).

وكان من نفيس كلام (عمار) ـ رضى الله ـ: ثلاثة من كُنَّ فيه، فقد استكمل الإيمان، أو قال: من كمال الإيمان: الإنفاقُ من الإقتار، والإنصافُ من نفسك، وبذلُ السلام للعالم(٢).

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

ولقد شهد عمار ـ رضى الله عنه ـ بدراً مع رسول الله ﷺ وكان المسلم الوحيد الذى خاض المعركة وأبواه مؤمنان شهيدان.

وشهد مع النبى ﷺ كل المشاهد.

ولما توفى رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ارتدت أكثر قبائل العرب عن الإسلام، فكان لعمار ـ رضى الله عنه ـ موقفًا عظيمًا فى يوم «اليمامة».

قال ابن عمر: رأيت عماراً يوم اليمامة على صخرة، وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرُّون؟! أنا عمار بن ياسر، هلمُّوا إلىَّ. وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قُطعت فهى تُذبذب، وهو يقاتل أشدَّ القتال(٣).

= اختار أرشدهما» فكونه يختار أرشد الأمرين دائمًا يقتضى أنه قد أجير من الشيطان الذى من شأنه الأمر بالغى قال: ويحتمل أن تكون الإشارة بالإجارة المذكورة إلى ثباته على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر.

(١) أخرجه البخارى (٣٧٤٢) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٩٤).

(٢) علقه البخارى فى الإيمان ـ ووصله عبد الرزاق فى المصنف (١٩٤٣٩) وأحمد فى كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨١).

ولايته على الكوفة

ولقد ضرب عمار ـ رضى الله عنه ـ فى ولايته المثل الأعلى فى الرحمة والعدل والتواضع والإنصاف.

عن حارثة بن مضرب قال: قُرِئ علينا كتابُ عمر: أما بعد، فإنى بعثتُ إليكم عمارَ بن ياسر أميرًا، وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما، وقد آثرتُكم بابن أمِّ عبد ـ ابن مسعود ـ على نفسى.

(رواه شريك) فقال: آثرتكم بهما على نفسى[1].

قال عبد الله بن أبى الهذيل: رأيت عمارًا اشترى قتًّا بدرهم، وحمله على ظهره وهو أميرُ الكوفة[2].

وهذا مثلٌ عظيم فى التواضع.. بل تدبر معى هذا التواضع الذى يعجز القلم عن وصفه.

فعن طارق بن شهاب قال: إن أهل البصرة غزوا نهاوند، فأمدهم أهل الكوفة وعليهم عمار، فظفروا، فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة شيئًا. فقال رجل تميمى: أيها الأجدع! تُريد أن تشاركنا فى غنائمنا؟ فقال عمار: خير أذنىَّ سببت، فإنها أُصيبت مع رسول الله ﷺ. قال: فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: إن الغنيمة لمن شهد الوقعة[3].

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ كعادته يسأل الناس عن الولاة خشية أن يحيدوا عن العدل ويجور أحدهم فى حُكمه.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) نقلاً من السير للذهبى (١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) والقت: الفِصفِصة وهى الرطبة من علف الدواب.

(٣) قال شعيب الأرنؤوط فى تخريج السير: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨١ ـ ١٨٢) والبيهقى فى سننه (٩/ ٥٠).

فسأل (عمر) أهل الكوفة عن (عمار) فأثنوا عليه، وقالوا: والله ما أنت أمَّرته علينا، ولكن الله أمَّره، فقال عمر: اتقوا الله وقولوا كما يُقال، فوالله لأنا أمَّرْتُه عليكم، فإن كان صوابًا، فمن قِبَل الله، وإن كان خطأ إنه من قِبلى.

وعن الحارث بن سويد: أن رجلاً من الكوفة وشى بعمار إلى عمر، فقال له عمار: إن كنت كاذبًا، فأكثر الله مالك وولدك، وجعلك موطأ العقبين.

ويقال: سعوا بعمّار إلى عمر فى أشياء كرهها له، فعزله، ولم يُؤنبه.

وعن الشعبى، قال عمر لعمار: أساءك عزلُنا إياك؟ قال: لئن قلتَ ذاك لقد ساءنى حين استعملتنى وساءنى حين عزلتنى[1].

موقفه يوم صفين (وساعة الرحيل)

ولما وقعت الفتنة بين (على) و(معاوية) ـ رضى الله عنهما ـ كان عمار ـ رضى الله عنه ـ فى صفّ (على) ـ رضى الله عنه ـ.

وكان قد بلغ من العمر يومئذ ثلاثًا وتسعين سنة. وكان عمار بن ياسر قليل الكلام، طويل السكوت، وكان عامةُ قوله: عائذٌ بالرحمن من فتنة، عائذ بالرحمن من فتنة، فعرضت له فتنة عظيمة[2].

وعن عمار بن ياسر أنه قال: وهو يسير إلى (صفين) إلى جنب الفرات: اللهم لو أعلم أنه أرضَى لك عنى أن أرمى بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فأُغرق نفسى فعلت، وإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك وأنا أرجو أن لا تخيِّبنى وأنا أريد وجهك.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٣) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٥).

وعن أبى البخترى قال: قال عمَّار يوم صفين: ائتونى بشربة لبن، قال: فشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخر شربةٍ تشربها من الدنيا شربةُ لبنٍ» ثم تقدم فقُتل[(١)].

وعن الزهرى: عن أبيه، عمَّن حدثه: سمع عماراً بصفِّين يقول: أزفت الجنان، وزُوِّجت الحور العين. اليوم نلقى حبيبنا محمداً ﷺ[(٢)].

وقُتل عمار ـ رضى الله عنه ـ ونزفت دماؤه الشريفة التى لطالما امتزجت بُحب الله وحُب رسوله ﷺ ولطالما احترقت شوقًا لنُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ.

قتله رجل اسمه ـ أبو الغادية ـ ويقال: قتله رجل آخر فالله أعلم.

ولما قُتل عمار، دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار. وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئةُ الباغية» فقام عمرو فزعًا إلى معاوية فقال: ما شأنك؟ قال: قُتلَ عمار. قال: قُتل عمار، فكان ماذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، قال: أنحن قتلناه؟ وإنما قتله (علىٌّ) وأصحابه، جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال: بين سيوفنا[(٣)].

وفى رواية: أنه لما أُخبر عمرو بن العاص بقتل عمار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قاتله وسالبه فى النار»[(٤)].

قال الإمام الذهبى معلقًا على الفتنة التى حدثت بين (على) و(معاوية) ـ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٩) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٤) والحاكم (٣/ ٣٨٩).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٢٥).

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٢٧)، ومن طريقه أخرجه أحمد (٤/ ١٩٩) وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٢) (٩/ ٢٩٧).

(٤) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١٩٨) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٦).

رضى الله عنهما ــ: «. . . فسبيلنا الكفُّ والاستغفارُ للصحابة، ولا نحب ما شجر بينهم، ونعوذ بالله منه، ونتولى أمير المؤمنين عليًا»(١).

أما (عمار) فقد حمله الإمام (علىّ) فوق صدره إلى حيث صلّى عليه والمسلمون معه.. ثم دفنه فى ثيابه..

أجل ــ فى ثيابه المُضمَّخةِ بدمه الزكىِّ الطهور.. فما فى كُلِّ حرير الدنيا وديباجها ما يصلُح أن يكون كفنًا لشهيدٍ جليل من طراز عمار.

ووقف المسلمون على قبره يعجبون..!! منذ ساعات كان (عمار) يُغرِّدُ بينهم فوق أرض المعركة... تملؤ نفسه غبطة الغريب المُضنى يُزفُّ إلى وطنه، وهو يصيح: [اليوم ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه]..!!!(٢)

وكيف لا يلقاهم وقد «اشتاقت الجنة إلى عمار».

فهنيئًا لك أيها الصحابى الجليل.. وهنيئًا لمن اكتحلت عيناه برؤيتك ورؤية أصحاب الحبيب ﷺ.. وهنيئًا ثم هنيئًا لمن اكتحلت عيناه وانشرح صدره برؤية الحبيب ﷺ.

فرضى الله عن عمار وعن سائر الصحابة أجمعين

***

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٣٩).

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٧٩).

عكاشة بن محصن

يدخل الجنة بغير حساب .. يضيء وجهه كالقمر ليلة البدر

وها نحن نقترب شيئًا فشيئًا من واحدٍ من عمالقة الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ الذين حملوا أمانة الدين فوق أعناقهم.

إنه الرجل الذى لا يدخل الجنة فحسب!!! بل إنه يدخلها بغير حساب ولا عذاب.

فتعالوا بنا لنعيش قصته من أولها . . . فمرحبًا برياح الجنة.

بعد أن بُعث النبى ﷺ وأخذ يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عملها فى أصحاب الأفئدة والضمائر الحية بدأت قريش تقف فى وجه الدعوة وقوف المعارض، وتدافع عن وثنيتها دفاع المستميت، وقرر المشركون محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان العذاب والنكال.

بيد أن هذه الحرب المستعرة جعلت بعض الشباب من ذوى العقول الواعية ينظرون إلى الإسلام نظرة صافية، خالية من شوائب الجاهلية ورواسبها، فكان بعضهم يقبل على الإسلام فى صفاء تام، ويعلن إسلامه وانضمامه إلى الدين الحنيف.

نبهت دعوة الإسلام أحد الشباب الذين عُرفوا بوفرة العقل وصدق

الإحساس وصفاء السريرة، وحركت فى نفسه نوازع الخير والركون إلى الإسلام وترك الشرك، وألْفَت الدعوة مكانًا خاليًا فى قلبه فتمكنت منه، وأشرقت نفسه بالحقيقة، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه. ولم يكن هذا الشاب سوى «عكاشة بن محصن» حليف بنى عبد شمس.

وكان عكاشة معروفًا بجمال الطلعة وحُسن الهيئة والجرأة والإقدام وقد تلقَّى الأذى من قريش مع من تلقَّى من المؤمنين.

لكنه لم يزدد إلا إيمانًا وتسليمًا، وإصرارًا على التمسك بدينه، ولم تفتر قريش فى الحملة على الإسلام، ورجاله لحظة واحدة، فلقد ضيقوا عليهم سُبل العيش، وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم[١].

ولما رأى الحبيب ﷺ ما ينزل بأصحابه من العذاب والأذى والبلاء أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة.. فكان (عكاشة) من بين من هاجر إلى يثرب (المدينة) وما إن وصل إلى هناك حتى استنشق نسيم الأُنس والراحة والأمان لأول مرة منذ أن أسلم.

وعاش فى المدينة أجمل وأبهى أيام عمره فى رحاب إخوانه من الأنصار الذين بذلوا لإخوانهم المال والنفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى وطمعًا فيما عنده من الرحمة والرضوان والجنة..

وبعد أن التقط أنفاسه هناك بين إخوانه كان فى أشد شوقه لخدمة هذا الدين العظيم والذود عن حياضه.

فاستعمله النبى ﷺ على سرية (الغمر) فى أربعين رجلاً، فذهبوا إلى الغمر فعلم القوم بمجيئه فهربوا ونزل على مياههم وأرسل عيونه فعرفوا مكان ماشيتهم فغزاها فوجد مائتى بعيرٍ فساقها إلى المدينة[٢].

---

(١) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى (ص ٣٨٩: ٣٩٠).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٠٧).

ولقد شهد بدرًا وأبلى يومئذٍ بلاءً حسنًا وشهد أُحُدًا والخندق وما بعدها[١].

لقد أسلم بطلنا مبكرًا ولازم الحبيب ﷺ ليقتبس من علمه وهديه وأخلاقه.. وجعل حياته كلها لله ولخدمة دين الله ـ جل وعلا ـ حتى بشَّره النبى ﷺ بأنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب فأصبح منذ تلك اللحظة يبحث عن الشهادة فى مظانها ليفوز بتلك البشرى العظيمة التى خرجت من فم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.

سعادة لا شقاء بعدها أبداً

يا لها من كرامة لا توازيها الدنيا بكل زخارفها الفانية ونعيمها الزائل.

إنه رجل يأتى يوم القيامة فيدخل مع الحبيب ﷺ الجنة بغير حساب ولا عذاب!!!

فبينما الناس وقوفٌ فى أرض المحشر خمسين ألف سنة بلا طعام ولا شراب ولا ظل والشمس فوق الرؤوس، وقد حُشر الناس حُفاة عُراة غُرلاً، وإذا بالحق ـ جل جلاله ـ يأمر حبيبه محمد ﷺ أن يدخل الجنة ومعه تلك النخبة السعيدة التى تدخل الجنة بغير حساب، والذين لم نعرف منهم سوى (عكاشة بن محِصن).

فهنيئًا له والله، فقد قال ﷺ «من نُوقش الحساب عُذِّب»[٢].

وفى رواية: «من نُوقش المحاسبة هلك»[٣].

فلو علم الإنسان أنه سيدخل الجنة، ولكن بعد الحساب بين يدى الله ـ جل وعلا ـ لكان ذلك عذابًا شديدًا، فما ظنك بمن لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧).

(٢) متفق عليه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ صحيح الجامع (٦٥٧٨).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).

أسأل الله جل وعلا أن يجمعنى وإياكم فى جنته بغير حساب ولا عذاب.

تدبروا واسألوا الله من فضله

والآن أترككم مع تلك الأحاديث التى خرجت من فم الصادق المصدوق ﷺ لتخبر عن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب... فتدبر واسأل الله من فضله بأن تكون منهم.

قال ﷺ: «وعدنى ربي أن يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربى»(١).

وقال ﷺ: «سألت الله الشفاعة لأمتى فقال: لك سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. قلت: رب زدنى فحثا لى بيديه مرتين وعن يمينه وعن شماله»(٢).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنة من أمتى زُمرةٌ هم سبعون ألفًا تُضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. وقال أبو هريرة: فقام عُكاشة بن محصن الأسدى يرفع نمرةً عليه فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال: سبقك بها عكَّاشة»(٣).

وقال سعيد بن جبير: حدَّثنا ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَت علىَّ الأُمم(٤)، فرأيت النبى يمرُّ ومعه الرَّهط، والنبى يمرّ ومعه الثلاثة والاثنان، والنبى يمرّ ومعه الرجل الواحد، والنبى يمرّ وليس معه أحد، إلى أن

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى أمامة ـ صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) رواه هناد عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٩٠).

(٣) أخرجه البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٦).

(٤) فى رواية الترمذى والنسائى ـ وهى صحيحة ـ أن عرض الأمم كان ليلة الإسراء.

رُفِعَ لى سوادٌ عظيم فقلت: هذه أُمَّتى. قيل: ليس بأُمتك، هذا موسى وقومه. إلى أن رفع لى سواد عظيم. قد سدَّ الأفق، فقيل: هذه أُمّتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب». قال: ثم دخل النبى ﷺ فخضنا فى أولئك السبعين، وجعلنا نقول: من الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب؟ أهم الذين صحبوا النبى ﷺ؟ أم هم الذين وُلدوا فى الإسلامِ ولم يُشركوا بالله شيئًا؟

إلى أن خرج النبى ﷺ فقال: «ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه؟». قال: فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يكتوون، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون». فقام عكاشة بن محصن فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم». وقام رجل آخر من المهاجرين فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «سبقك بها عكاشة»[1].

نعمة التوكل

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله فى استجلاب المصالح ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة.

- ووالله إن الأمة الإسلامية قد ذلت بعد عزة وافتقرت بعد غنى، وضعفت بعد قوة وجهلت بعد علم لأنها تركت التوكل على ربها، وذهبت تلتمس العزة عند الشرق الملحد تارة وعند الغرب الكافر تارة ونسيت أنه لا يملك خزائن السموات والأرض إلا الله، ونسيت قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر: ١٠).

- فهل جنَّدت نفسك أيها الأخ الكريم لتكون واحداً من هؤلاء.

---

(١) أخرجه أحمد والبخارى، ومن طريقه البغوى فى شرح السنة، ومسلم والترمذى، وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى ــ كما فى تحفة الأشراف ــ.

- يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

قال المفسرون: إن هذه الآية عامة وقد نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى. أسر المشركون ابنه فأتى النبى ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال إن العدو أسر إبنى وجزعت أمه فما تأمرنى قال ﷺ: اتق الله واصبر وآمرك واياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله ففعل هو وامرأته فبينا هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا....﴾[1].

قال ﷺ «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[2].

- فانظر لهذا الطير الضعيف الذى لايملك من أسباب الرزق الا القليل ولكنه متوكل على الله يسبحّ بحمده ليلاً ونهاراً.... كما قال الحق جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ (النور: ٤١).

- فها هو الطير الضعيف يتوكل على الله ولا ينشغل عن طاعة الله - وفى المقابل- ها هم الكثيرون من بنى جلدتنا من الذين أكرمهم الله بنعمة الإسلام قد هجروا التوكل على خالقهم فتركوا الصلوات وتركوا طاعة رب الأرض والسموات خوفاً من الانشغال عن الأرزاق... ولا حول ولا قوة الا بالله.

- أتخشى أيها المسلم على الرزق الذى قدّره الله قبل أن يخلق السموات

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسير الآية بلفظ: وقال السدى.. وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وساق القصة.. رواه ابن جرير - وروى أيضًا من طريق سالم بن أبى الجعد مرسلاً نحوه.

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم عن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٥٤).

والأرض بخمسين ألف سنة.

قال ﷺ «فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، ومضجعه، وشقى أو سعيد»(١).

وفى رواية مسلم «كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»(٢).

- فيا من تخشى على الأرزاق استمع لتلك القصة لتعلم من الذى يرزق ومَن الذى يجب أن تُفرده بالعبادة.

- يقول أحد العلماء والله لقد رأيت ثعباناً أعمى يعيش فوق نخلة عالية ويأتيه بين الوقت والآخر عصفور صغير فيقف عند هذا الثعبان ويُصدر له أصواتاً فيفتح الثعبان فمه فيلقى العصفور الطعام فى فم الثعبان الأعمى !!! فمن الذى سخّر هذا العصفور لذاك الثعبان؟ ومن الذى جعل الثعبان لا يفترس العصفور؟! إنه رب السموات والأرض الذى يرزق الدود فى بطن الحجر.

وها هى أم موسى عليه السلام يقول: الحق تبارك وتعالى عنها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ فماذا تصنع؟ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⁽٧⁾﴾ (القصص: ٧).

فما كان منها إلا أن انقادت لأمر الله وهى واثقة فى موعود الله. فماذا كانت النتيجة؟

- يتربى موسى عليه السلام فى بيت عدو الله فرعون... قال الله تعالى مصوراً تلك الحالة: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٠١).

(٢) رواه مسلم عن ابن عمرو، باب كتب المقادير قبل الخلق، كتاب القدر ـ صحيح الجامع (٤٤٧٤).

فيقذف الله محبته فى قلوب الناس فما من إنسان يراه الا ويحبه من كل قلبه وهذا من تمام نعمة الله عليه.

ثم يتحقق موعود الله ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(القصص ١٢: ١٣)

وتتحقق البشارة الثانية ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (القصص: ١٤).

- فكانت أم موسى مثالاً عظيماً لليقين والتوكل على الله والثقة فيما عند الله جل وعلا.

- بل إن موسى عليه السلام لما أدركه فرعون عند البحر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء ٦١)، فقال لهم بلسان التوكل والثقة بنصر الله ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء ٦٢)، فكانت ثمرة التوكل تأتيه فى التو واللحظة ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء٦٣)، الله أكبر!! من أطاع الله طوّع الله له كل شئ.

- البحر ينفلق وليس ذلك فحسب بل يجعل الله لهم فى البحر اثنى عشر طريقاً[1] لكى تمر كل قبيلة من طريقها وتنجو من بطش فرعون.

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسير لسورة الشعراء.. الآية (٦٣)، هكذا: وقال ابن عباس: صار البحر اثنى عشر طريقًا لكل سبط طريق.. ولم يذكر ابن عباس فى حديثه الموقوف المسند (حديث الفتون) تعدد الطرق. وقال ابن كثير: كأنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات.

- حتى إن أصحاب موسى عليه السلام أرادوا أن يتأكدوا من موت فرعون فأمر الله البحر أن يلفظ جسد فرعون بعد غرقه وموته وفى ذلك يقول الله جل وعلا ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (يونس ٩٢)

- وها هو صلة بن أشيم كما أورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء وقال هذه قصة ثابته عن صلة بن أشيم .هذا التابعى المخضرم لما كان فى طريق عودته من إحدى المعارك مات فرسه فقال اللهم لا تجعل لأحد علىَّ منّه (أى فضل) فإنى استحيى أن أسأل غيرك فأحيا الله له الفرس فركبه ولما وصل إلى بيته قال لابنه محمد: يابنى إنزع السَرَج من على الفرس فإنها عارية (أى أننى استعرتها من الله) فنزع السَرَج فمات الفرس!!!

- وها هم أصحاب النبى ﷺ لما حققوا التوكل على الله ساروا على الأنهار بخيولهم... بل وخاطبوا دواب الأرض حتى وقف عقبة بن نافع على أبواب مدينة القيروان وقال أيتها الدواب أيتها الأُسود إنّا أصحاب محمد ﷺ جئنا لنُعلى كلمة لا إله إلا الله فأفسحوا لنا الطريق فخرجت الأسود بولدانها وخرجت الحيّات والعقارب!!! وكل ذلك لأنهم علموا أن لهم رباً قد تكفل بالأرزاق، بل هو المالك والمتصرف فى الكون كله، فهو الواحد الديان الذى قال وقوله الحق.

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) ﴾ (المزمل ٩)

- ولذا كان من دعاء النبى ﷺ «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون»(١).

وعن ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلقى

(١) متفق عليه عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (١٣٠٩).

فى النار وقالها: محمد حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(١).

وروى أن حاتم الأصمّ قال لأولاده: إنى أريد الحج.... فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟. وكان له ابنة مباركة قد رزقها الله بنعمة التوكل واليقين، فقالت: دعوه يذهب فليس برازق.... فخرج فباتوا جياعًا فجعلوا يوبخون تلك البنت فقالت: اللهم لا تخجلنى بينهم.... فمر بهم أمير البلد فقال لبعض أصحابه: اطلب لى ماء.... فناوله أهل حاتم كوزًا جديدًا وماءً باردًا فشرب فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم فرمى فيها صرة من ذهب وقال: من أحبنى فليصنع مثلما صنعت.... فرمى العسكر ما معهم من المال فى هذا الإناء فجعلت البنت تبكى فقالت أمها: ما يبكيك وقد وسّع الله علينا... فقالت: لأن مخلوقًا نظر إلينا نظرةً فاغتنينا فكيف لو نظر الخالق إلينا؟.

الصدق والتوكل وطريقنا إلى المسجد الأقصى

إن الشواهد والعقائد والتاريخ الإسلامى ليُقر لنا بحقيقةٍ واحدة ألا وهى أنه لا طريق إلى عودة المسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل الكامل على الخالق جل وعلا.

- واستمعوا لتعرِفوا وتوقنوا بتلك الحقيقة الثابتة التى لا تتبدل ولا تتغير.

- ها هو موسى عليه السلام لما أراد أن يدخل بقومه لتحرير الأرض المقدسة أخذ يذكّرهم أولاً بنعم الله عليهم فقال ﴿ **يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** (٢٠) ﴾ (المائدة ٢٠).

(١) رواه البخارى عن ابن عباس موقوفًا عليه برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

ثم بعد ذلك وضع أمامهم التكليف الربّانى ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾ (المائدة ٢١، ٢٢)

وفجأة قام رجلان أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والتوكل وهما ــ يوشع ابن نون وكالب بن يوفنا ــ وقالا إن سلاحكم العظيم الذى ستفتحون به المسجد الأقصى هو التوكل على الله. ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. فما هو السلاح الذى يحقق لهم هذا الفتح؟ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة ٢٣).

وعلى الرغم من ذلك قالوا ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فكانت العقوبة من الله لبنى إسرائيل ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٢٦)

- وكان الجزاء والأجر العظيم ليوشع ين نون أنه بعد وفاة موسى عليه السلام أقام يوشع نبياً خليفة عن موسى عليه السلام، ومات أكثر بنى إسرائيل فى تلك الفترة (التيه) ويُقال أنه لم يبق أحد سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع أو بمن بقى منهم وبسائر الجيل الثانى فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة وبعد العصر فلما تضيفت الشمس للغروب وخشى دخول السبت عليهم قال يوشع للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علىَّ.... فحبسها الله حتى فتحها

ودخل منتصراً فهذا هو جزاء التوكل ولذا قال النبى ﷺ: «ماحُبست الشمس على بشرٍ قط إلا على يوشع بن نون ليالى سار إلى بيت المقدس»(١).

- فيا أمة الإسلام لا طريق للمسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل على الحى الذى لا يموت ولا يغرنكم تكالب اليهود ولا ما يملكون من السلاح والعتاد فإن كلمة (الله أكبر) لا يقف أمامها الصواريخ والدبابات والطائرات ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال ١٧).

- واعلموا اننا جميعاً سنُسأل أمام الله عن تضييع تلك الأمانة وترك المسجد الأقصى فى أيدى اليهود... ولا عذر لنا عند الله فلا بد أن نسعى لإعادة المسجد الأقصى.

- وقد تكفل الله لنا بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

- فيا أحفاد عمر وصلاح الدين لا تنسوا المسجد الأقصى(٢).

ذكر ابن إسحاق فى سيرته أنه (عكاشة) أدرك فى غزوة الغابة (أوبارًا) وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعيرٍ واحدٍ، فانتظمهما بالرُّمحِ فقتلهما جميعًا، واستنقذ بعض اللقاح(٣).

وقاتَل عكاشةُ يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكّاشة». فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه فعاد سيفًا فى يده طويلَ القامة شديدَ المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يُسمّى: العوْن، ثم لم يزل عنده يشهد به المَشَاهدَ مع رسول الله ﷺ حتى قتله طليحة الأسدى أيامَ الرِّدَّة(٤).

(١) أخرجه الخطيب البغدادى وأحمد وابن عساكر عن أبى هريرة ــ صحيح الجامع (٥٦١٢).
(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ١١٢ : ١١٨) بتصرف.
(٣) مشارع الأشواق (٢/ ٩٨٥).
(٤) البداية والنهاية (٣/ ٢٩٠).

وظل (عكاشة) يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ. . وفى غزوة (بنى قريظة) كان من الفرسان الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ.

الرحيل إلى النعيم المقيم

وبعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والتضحية والطاعة لله ـ جل وعلا ـ رحل السعيد الشهيد (عكاشة بن محصن) من دنيا الناس إلى النعيم المقيم.

روي الإمام أحمد من طريق وحشى بن حرب، أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نِعم عبد الله وأخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين، ولما توجه خالد من ذى القصة وفارقه الصديق، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء ـ وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب ـ وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدى، ثم يذهب بعده إلى بنى تميم، وكان طليحة بن خويلد فى قومه بنى أسد، وفى غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بنى جديلة والغوث وطيء يستدعيهم إليه، فبعثوا أقوامًا منهم بين أيديهم، ليلحقوهم على أثرهم سريعًا، وكان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدى إلى قومه بنى طيء فأمرهم أن يبايعوا الصدِّيق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبدًا ـ يعنون أبا بكر رضى الله عنه ـ فقال: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدى يفتل لهم فى الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد فى الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن (طليعة)، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما، فلما وجدا ثابتًا وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة، وقيل: بل

كان قتل جبالاً قبل ذلك وأخذ ما معه، وحمل عليه طليحة فقتله وقتل هو وأخوه سلمة، ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين... ثم أمر بهما فدفنا فى ثيابهما[1].

وهكذا رحل هذا الصحابى الجليل ليدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فاللهم اجمعنا بالصالحين من أمة حبيبك ﷺ فى جنتك ودار كرامتك.

فرضى الله عن عكاشة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٣٢١).

جعفر بن أبى طالب

يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين

محمد رسول الله ﷺ

يا لها من صفحة تُبهر العقول وتُحير الألباب.

إنها صفحة صدق نعيشها مع جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

إنه السيدُ الشهيدُ، الكبيرُ الشأن، عَلَم المجاهدين، أبو عبد الله، ابن عم رسول الله ﷺ أخو علىّ بن أبى طالب، وهو أسنُّ من علىّ بعشر سنين[1].

ولنبدأ القصة من أولها:

لما أسلم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ علم أن الإسلام أمانة عظيمة فخرج من عند النبى ﷺ داعيًا إلى الله ـ جل وعلا ـ يدعو الناس جميعًا إلى جنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من جملة من أسلموا على يديه ـ جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عُميس ـ وكان إسلامهما مبكراً قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم.

المناقب وأوسمة الشرف التى فاز بها ـ رضى الله عنه ـ

وإذا أردنا أن نتعرض لشىء من مناقبه ـ رضى الله عنه ـ فسوف يطول بنا

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٠٦).

المقام، ولكن حسبنا منها القليل ـ فالقليل منها لو وُزِّع على أهل الأرض لملأ قلوبهم غبطة وسعادة وسروراً ـ.

فعن محمد بن أسامة، عن أبيه قال: اجتمع جعفر وعليّ وزيد بن حارثة. فقال جعفر: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، وقال عليّ: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله، فقال أسامة بن زيد: فجاؤوا يستأذنونه، فقال: اخرج فانظر من هؤلاء. فقلت: هذا جعفر وعليّ وزيد. ما أقول أبى. قال: ائذن، لهم. ودخلوا فقالوا: من أحب إليك؟ قال: فاطمة. قالوا: نسألك عن الرجال. قال: أما أنت يا جعفر فأشبه خَلقُك خَلقى وأشبه خُلقى خُلقك وأنت منى وشجرتى. وأما أنت يا علىّ فختنى وأبو ولدىَّ وأنا منك وأنت منى. وأما أنت يا زيد فمولاى ومنى وإلىَّ وأحب القوم إلىَّ»[1].

وعن أبى هريرة قال: «ما احتذى النِّعال ولا انتعل ولا ركب المطايا ولا ركب الكُور بعد رسول الله ﷺ أفضلُ من جعفر بن أبى طالب»[2].

أى فى الجود والكرم.

ولقد كان فى بنى عبد مناف خمسة رجال يُشبهون رسول الله ﷺ أشدَّ الشَّبه وهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابنُ عم الرسول ﷺ، وأخوه من الرضاع.

وقُثم بن العباس بن عبد المطلب، وهو ابن عم النبى ﷺ أيضًا.

والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم جدُّ الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٠٤) وابن سعد (٤/ ١/ ٢٤) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رواه الترمذى (٣٧٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب ـ وهو موقوف صحيح. والكُور: الرَّحل.

والحسنُ بن عليّ سبط رسول الله ﷺ، وكان أشدَّ الخمسة شبهًا بالنبى صلوات الله عليه.

وجعفر بن أبى طالب، وهو أخُو أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

سنة لا تتبدل

ولقى جعفر وزوجه من أذى قريش ونكالها ما لا يعلمه إلا الله، ولكنهما صبرا على الأذى والابتلاء؛ لأنهما يعلمان أن البلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وأن طريق الجنة محفوفٌ بالمكاره، وما هى إلا ساعات معدودة ثم يجبر الله لهما كل كسرٍ فى جنته ومستقر رحمته.

فقد قال ﷺ: «يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغُ فى جهنم صبغةً، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويُؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغُ فى الجنة صبغةً، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرَّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط»[(1)].

ففروا إلى الله

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلمُ عنده أحدٌ، وهى أرضُ صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[(2)]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى وابن ماجة عن أنس ــ صحيح الجامع (٨٠٠٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق ــ نقلاً من السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمِنُوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمرُوا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشى، فيردَّهُم عليهم، ليفتنوهم فى دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته[1].

لقاؤه مع النجاشي وشجاعته في الحق - رضي الله عنه -

وها هو موقف عظيم لجعفر بن أبى طالب يقفه أمام النجاشى ليصدع بكلمة الحق التى أثمرت للمسلمين الخير كله..

فعن أم سلمة، قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفُتِنُوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو فى مَنَعَةٍ من قومه وعمه، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينالُ أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا»، فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جار، وأمنَّا على ديننا»[2].

وفى رواية: أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار «النجاشى»، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُوذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥). والبطارقة: جمع بطريق وهو القائد أو الحاذق فى الحرب.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن هشام (١/ ٣٣٤) مطولاً ــ أبو نعيم فى الحلية (١/ ١١٥).

منهم جلدين، وأن يُهدوا للنجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم(١)، فحملوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه، ثم سلاه أن يُسلّمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق، إلا دفعا إليه هديته قبل أن يُكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى(٢) إلى بلد الملك منَّا غلمانٌ، سفُهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلَّما الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا(٣)، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشى، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منَّا غلمان سفُهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت (أم سلمة): ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص(٤) من أن يسمع كلامهم النجاشىُّ. قالت: فقالت بطارقته

(١) الأدم: الجلود وهو اسم جمع.

(٢) ضوى: لجأ وأتى ليلاً.

(٣) أعلى بهم عينًا: أى أبصر بهم.

(٤) كانت هذه القصة قبل إسلام عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ.

حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشى، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أُسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاورونى، ونزلوا بلادى، واختارونى على مَنْ سواى، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ كائنًا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشىُّ أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم حوله.

سألهم النجاشى، فقال لهم: ما هذا الدينُ الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذى كلَّمه جعفرُ بن أبى طالب (رضوان الله عليه).

فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبهُ وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن

(١) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.

الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشىُ: هل معك مما جاء به عن الله من شىء؟

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشى: فاقرأه علىَّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١].

قالت: فبكى والله النجاشىُّ حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال [لهم] النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصلُ به خضراءهم[١].

قالت: فقال له عبد الله بن أبى ربيعة، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ.

(١) خضراءهم: أى شجرتهم التى تفرعوا منها.

قالت: ثم غدا عليه [من] الغد، فقال [له]: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسِل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القومُ، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟:

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا فى ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبيُّنا ﷺ [يقول]: هو عبد الله ورسوله ورُوحُه وكلمتهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشىُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضى، (والشيوم: الآمنون) مَنْ سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحبّ أن لى دبراً من ذهب، وأنى آذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام: [ويقال دِبراً من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر (بلسان الحبشة): الجبل]، ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىَّ ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

---

(١) تناخرت: أى تكلمت، وكأنه كلام من غضب ونفور.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به ــ يعنى من ينازعه فى ملكه ــ قالت: فوالله ما علمنا حزنًا قط كان أشد من حزنٍ حزنّاه عند ذلك تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَن رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟. قالت: فقال الزبير بن العوام ــ رضى الله عنه ــ: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سنًا قالت: فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة»(١).

لكم أنتم أهل السفينة هجرتان

عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال: بلغنا مخرجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوانٍ لى أنا أصغرهم: أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رُهم، إما قال: فى بضع وإما قال: ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى ــ فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أُناس من الناس يقولون لنا ــ يعنى لأهل السفينة ــ سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عُميس ــ وهى ممن قدم معنا ــ على حفصة زوج النبى ﷺ زائرةً وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر، فدخل عُمر على حفصة ــ وأسماء عندها ــ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء بنت عميس. قال عمر: آلحبشيةُ هذه؟ البحريةُ هذه؟ قالت

(١) قال الشيخ الألبانى فى تخريج فقه السيرة للغزالى: أخرج هذه القصة ابن إسحاق فى المغازى (١/ ٢١١ ــ ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسندٍ صحيح.

أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله يُطعمُ جائعكم ويعظُ جاهلكم، وكنا فى دار ــ أو فى أرض ــ البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ، وايمُ الله لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخافُ وسأذكر ذلك للنبى ﷺ وأسألُهُ، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليه».

«فلما جاء النبىُّ ﷺ قالت: يا نبىَّ الله إن عمر قال كذا وكذا. قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحقَّ بى منكم وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث، ما من الدنيا شىءٌ هم به أفرحُ ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ»(١).

غداً نلقى الأحبّة

وبعد أن مكث (جعفر وزوجه) عشر سنوات فى رحاب النجاشى آمنين مطمئنين يرفلون فى حُلل السعادة ويعبدون الله بلا قيود ولا مؤامرات تُدبَّر لهم بالليل والنهار، ولا عذاب يُسلَّط عليهم من كفار قريش... عاد مرة أخرى إلى المدينة وأقدامه تسابق الريح من أجل رؤية الحبيب ﷺ الذى طال والله شوقه إليه، وما إن وصل حتى كان النبى ﷺ عائدًا من فتح خيبر.

فعن الشَّعبى: أن جعفر بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبَّل رسول الله ﷺ بين عينيه، والتزمه وقال: ما أدرى بأيهما أنا أسرُّ: «بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»(٢).

(١) أخرجه البخارى (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢١١) عن الشعبى مرسلاً وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبى ووصله الحاكم من طريق آخر (٣/ ٢٠٨) وسكت عليه وتعقبه الذهبى بقوله منقطعًا وفيه الواقدى. =

فرحة المساكين بقدوم جعفر

ولم تكن فرحة المساكين بقُدوم جعفر ـ رضى الله عنه ـ بأقل من فرحة رسول الله ﷺ بقدومه.

فلقد كان جعفر من أرحم الناس بالفقراء والمساكين.

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة ـ أى من رواية الأحاديث ـ وإنى كنت ألزمُ رسول الله بشبع بطنى حتى لا آكلُ الخمير ولا ألبسُ الحبير ولا يخدمنى فلانٌ ولا فلانة، وكنت ألصق بطنى بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هى معى كى ينقلبُ بى فيُطعمنى وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب: كان ينقلبُ بنا فيُطعمنا ما كان فى بيته حتى إن كان ليُخرِجُ إلينا العكة التى ليس فيها شىء فيشقها فنلعق ما فيها(١).

وحان وقت الرحيل

وركب رسول الله ﷺ إلى مكة حيث اعتمروا عُمرة القضاء وعادوا إلى المدينة.. وفى الطريق سمع جعفر من إخوانه ـ الذين خاضوا مع النبى ﷺ غزوة بدرٍ وأُحد وغيرهما من المشاهد ـ الكثير والكثير مما جعله يتلهف شوقًا للجهاد فى سبيل الله وللفوز بالشهادة.

ولم يطل انتظاره فقد بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة فى جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال ﷺ: «إن

= وأخرج البيهقى فى السنن (٧/ ١٠١) عن الشعبى مرسلاً فله شاهد من حديث أبى جحفة أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (ص: ٨) وسنده ضعيف. وله طريق آخر فى المعجم الكبير كما ذكر الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧٢) وقال: رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح وقال الألبانى: وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق وقد صححه الحاكم.

(١) أخرجه البخارى (٣٧٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١١٧).

أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر، فعبد الله ابن رواحة على الناس».

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا (معانًا) من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عَبَدة الصُلبان، عليهم لعائن الرحمن، فى ذلك الزمان، وفى كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ فى الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيبةٌ وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

علىّ إنْ لاقيتها ضِرابها

قال ابن هشام:

وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وفى رواية: عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: «أمَّرَ رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قُتل زيدٌ فجعفرٌ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله: كُنتُ فيهم فى

تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنةٍ ورمية»(١).

ولقد نعى النبى ﷺ الثلاثة لأصحابه وبشّرهم بشهادتهم فى سبيل الله.

فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: «قال النبى ﷺ: أخذ الراية زيدٌ فأُصيب ثم أخذها جعفرٌ فأُصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب ـ وإن عينى رسول الله ﷺ لتذرفان ـ ثم أخذها خالدُ بن الوليد من غير إمرة ففُتِحَ له»(٢).

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيلٌ فعددتُ به خمسين طعنةٍ وضربةٍ، ليس منها شىءٌ فى دُبُرِهِ، يعنى فى ظهره»(٣).

وها هو يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»(٤).

«وكان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»(٥).

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين فى الجنة»(٦).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت

(١) أخرجه البخارى (٤٢٦١) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.
(٢) أخرجه البخارى (١٢٤٦) والنسائى (٤/ ٢٦).
(٣) أخرجه البخارى (٤٢٦٠) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.
(٤) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٥٨).
(٥) رواه البخارى (٣٧٠٩) المغازى.
(٦) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٥٦).

جعفر بن أبى طالب مَلَكًا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين»(١).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبى طالب ملكًا فى الجنة، مضرجة قوادمه بالدماء، يطير فى الجنة»(٢).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مرَّ بى جعفر الليلة فى ملأ من الملائكة، وهو مخضّب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد»(٣).

وقال عبد الله بن جعفر: قال لى رسول الله ﷺ: «هنيئًا لك!! أبوك يطير مع الملائكة فى السماء»(٤).

وعن ابن عباس مرفوعًا: «إن جعفراً يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوّضه الله من يديه»(٥).

حُزن النبى ﷺ على جعفر ـ رضى الله عنه ـ

عن أسماء ابنة عُميس، قالت: لما أُصيب جعفر وأصحابه دخل عَلَىَّ رسول الله ﷺ وقد دبغتُ أربعين مَنا ـ ويقال منيئة ـ وعجنت عجينى، وغسلت بنىَّ ودَهنتهم ونظّفتهم قالت: فقال لى رسول الله ﷺ: «ائتنى ببنى جعفر»، قالت: فأتيته بهم، فشمَّهم وذَرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء؟ قال: «نعم، أُصيبوا هذا اليوم». قالت: فقُمت أصيحُ، واجتمعتْ إلىَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم

---

(١) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٤٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وكذلك هو فى الاستيعاب، وقال الحافظ فى الفتح: أخرجه الحاكم والطبرانى عن ابن عباس، وإسناده جيد.

(٣) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٤) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الطبرانى بإسناد حسن.

(٥) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): وإسناد هذه جيد.

طعامًا، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم»(١).

حسان بن ثابت يرثى أهل مؤتة

ولما بلغ حسان مقتل هؤلاء الأطهار قام يرثى من مات فى غزوة مؤتة، ويقول:

رأيتُ خيارَ المؤمنينَ تواردُوا شعوب وقد خُلفتُ ممن يُؤخَّرُ
فلا يُبعدنَّ الله قتلى تتابعوا بمُؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبدُ الله حين تتابعوا جميعًا وأسبابُ المنيَّة تخطرُ
وكنَّا نرى فى جعفرٍ من مُحَمَّدٍ وفاءً وأمرًا صارمًا حيثُ يُؤمرُ
فلا زال فى الإسلامِ من آل هاشمٍ دعائمُ عِزٍّ لا تزُولُ ومَفْخَرُ(٢)

فرضى الله عن جعفر وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣١٣٢) وابن ماجة (١/ ١٦١٠) والترمذى (٣/ ٩٩٨) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٧٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبى. والبيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ٦١) وذكره الألبانى فى صحيح ابن ماجة وقال: حديث حسن.
(٢) الإصابة للإمام ابن حجر العسقلانى (١/ ٥٩٤) بتصرف.

جابر بن عبد الله

صاحب الطعام المبارك والإيثار على النفس

إنه الصحابى الجليل جابر بن عبد الله الإمام الكبير، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى السلمى المدنى الفقيه.

من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتًا.

روى علمًا كثيرًا عن النبى ﷺ وعن عمر وعلىّ وأبى بكر وأبى عبيدة ومعاذ بن جبل والزبير وطائفة[1].

ومن هنا كانت البداية

ما أجمل السفر إذا كان لله ـ جل وعلا ـ.

وها هو (جابر) الذى فتح الله قلبه لدعوة (مصعب بن عمير) فأسلم قبل أبيه (عبد الله) وكان عمره وقتها لا يتجاوز أربعة عشر عامًا.

وفى موسم الحج خرج مجموعة من أهل يثرب لمبايعة الحبيب ﷺ ـ بيعة العقبة الثانية ـ وإذا بعبد الله (والد جابر) يخرج معهم يريد الحج ـ ولم يُسلم بعد ـ وهو لا يدرى أنه بعد ساعات سيدخل التاريخ من أعظم أبوابه، وأن الكون كله سوف يقص سيرته العطرة وكيف أن الله ـ جل وعلا ـ

(١) السير للإمام الذهبى (٣/ ١٨٩).

سيكلمه كفاحًا ـ بغير حجاب ـ وكيف أن الملائكة سوف تظله بأجنحتها ـ بعد استشهاده ـ.

كان (عبد الله) لا يعلم عن هذا الخير شيئًا.

وإذا به يسمع كلامًا طيبًا من بعض الرجال الذين كانوا بصحبته فينفتح قلبه للإسلام فيُسلم ويذهب معهم للقاء الحبيب ﷺ ليبايعه ومعه ابنه (جابر).

ووضع (عبد الله) يده في يد الحبيب ﷺ وبايعه تلك المبايعة التي لا تتكرر عبر التاريخ مرة أخرى.

ثم أراد النبي ﷺ أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم فكان (عبد الله بن عمرو بن حرام) من نُقباء الخزرج.

ومن هنا كانت البداية لجابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ الذي لامس الإيمان شغاف قلبه وهو صغير فنشأ في طاعة الله ليكون ـ بإذن الله ـ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ورجع جابر مع والده إلى المدينة مرة أخرى وهو لا يستطيع أن ينسى أبدًا حبيبه ﷺ فكان في أشد شوقه لصحبته ومرافقته.

ولما أَذِن الله لنبيه ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) سَعِد (جابر) سعادة ملأت قلبه سرورًا وفرحًا يكفي الكون كله من حوله.

فكان في استقباله وظل بعد ذلك ملازمًا للحبيب ﷺ ينهل من علمه وهديه وأخلاقه العذبة حتى أصبح (جابر) واحدًا من أكثر الصحابة حفظًا لكتاب الله ورواية لحديث رسول الله ﷺ.

ولما حمي الوطيس ونادى منادي الجهاد: ـ يا خيل الله اركبي ـ لم يشهد جابر غزوة بدرٍ ولا غزوة أُحُد.. وذلك لأنه كان صغيرًا في السن، وكذلك

لأن والده كان يأمره أن يبقى مع أخواته (التسع) خوفًا عليهن من أن يصيبهن مكروه.

وها هو (عبد الله بن عمرو بن حرام) قبل استشهاده بليلة واحدة يدعو ابنه (جابر) ليوصيه تلك الوصية الغالية... حرصًا منه على أداء دَينه قبل موته.

فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: «لما حَضر (أُحدٌ) دعانى أبى من الليل فقال: ما أُرانى إلا مقتولاً فى أول من يُقتل من أصحاب النبى ﷺ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفسِ رسول الله ﷺ، وإن علىَّ دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيراً... فأصبحنا فكان أول قتيل، ودُفن معه آخرُ فى قبرٍ ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعتُهُ هُنَيَّةً غير أُذنه»[1].

وفى رواية: أن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: فقلت: يا رسول الله إنَّ أبى ترك دَينًا عليه... وليس عندى ما أفيه به إلا ما يُخرجهُ ثمرُ نخيله، ولو عمدتُ إلى وفاء دَينه من ذلك الثمر لما أديته فى سنين...

ولا مال لأخواتى أُنفقُ عليهنَّ منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معى إلى بيدر[2] تمرنا وقال لى: «أُدعُ غُرماء[3] أبيك»، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبى دَينه كله من تمر تلك السنة. ثم إنى نظرتُ إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه تمرةٌ واحدةٌ[4]...

ويؤثرون على أنفسهم

وها هو موقف لجابر ـ رضى الله عنه ـ تتجلى فيه صفة الإيثار التى

---

(١) أخرجه البخارى (١٣٥١).

(٢) البيدر: الموضع الذى يُكوم ويجمع فيه التمر.

(٣) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

ملأت عليه قلبه وجوارحه.

فها هو بعد استشهاد أبيه فى غزوة أُحد يترك له أبوه تسعة من البنات ليقوم بتربيتهن فيحرص جابر على مصلحة أخواته وبدلاً من أن يتزوج بكراً تملأ حياته بالفرح والسرور إذا به يتزوج امرأة ثيبًا لتربى أخواته وتحافظ عليهن فيفوز بدعاء النبى ﷺ له.

فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: هلك أبى وترك سبع بنات ـ أو ـ تسع بنات ـ فتزوجت امرأة ثيبًا فقال لى رسول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكراً أم ثيبًا؟ قلت: بل ثيبًا. قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك؟ قال: فقلت له: إن عبد الله هلك ـ يعنى أباه ـ وترك بنات، وإنى كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن فقال: بارك الله لك أو خيراً[1].

وبعد استشهاد والده شهد (جابر) المشاهد كلها، وكان أول تلك المشاهد (غزوة الخندق).

وفى تلك الغزوة كان هذا الموقف العظيم لجابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ.

صاحب الطعام المبارك

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: «لما حُفر الخندقُ رأيت بالنبى ﷺ خَمصًا شديدًا ـ من أثر الجوع ـ فانكفيتُ إلى امرأتى فقلتُ: هل عندك شىء؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خَمصًا شديدًا. فأخرجت إلىَّ جرابًا فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى بُرمتها. ثم وليتُ إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخارى (٥٣٦٧).

فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته ــ كلمته سراً ــ فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمةً لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبيُّ ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سُوراً، فحيَّ هلا بكم فقال رسول الله ﷺ: لا تُنزلنَّ برمتكم، ولا تخبزنَّ عجينكم حتى أجيء، فجئتُ وجاء رسول الله ﷺ يقدُمُ الناس، حتى جئتُ امرأتى فقالت: بك وبك ــ تعاتبه ــ فقلت: قد فعلتُ الذى قلت. فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك. ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبزْ معى. واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها، (وهم ألف)، فأقسَم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هى، وإن عجيننا ليُخبز كما هو»[1].

ولقد كان (جابر) واحدًا ممن بايعوا الحبيب ﷺ بيعة الرضوان.

الذين قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ــ ١٩].

قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربع مئة[2].

وظل (جابر) ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها إلى أن تُوفى النبى ﷺ فأظلمت الدنيا كلها فى عينيه وكاد قلبه أن يتمزق حُزنًا عليه.

ولِمَ لا؟ ولقد كان رسول الله ﷺ هو رسوله ومُعلمه وكل شىء فى حياته هو وأصحابه ــ رضى الله عنهم ــ.

---

(١) أخرجه البخارى عن جابر (٤١٠٢)..

(٢) السير للإمام الذهبى (٣/ ١٩٠).

وظل جابر مصدرًا ومرجعًا للصحابة ومَن بعدهم ـ لحديث رسول الله ﷺ ـ لكثرة علمه وروايته.

وكان مفتى المدينة فى زمانه.

وعاش جابر خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ رضى الله عنهم ـ وكانوا جميعًا يعرفون قدره ومكانته.

جابر ـ رضى الله عنه ـ يرحل في طلب حديث واحد

قال جابر بن عبد الله: «بلغنى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريتُ بعيرًا، ثم شددتُ رحلى، فسرْتُ إليه شهرًا، حتى قدمتُ الشامَ، فإذا هو عبد الله بن أُنَيس، فقلتُ للبوَّاب: قل له: جابرٌ على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلتُ: نعم، فخرج عبد الله بن أُنيس فاعتنقنى، فقلتُ: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً غُرْلاً بُهْمًا، قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: ليس معهم شىء، فيُناديهم بصوت يسمعُه مَنْ بَعُدَ كما يسمعُه من قَرُبَ:

أنا الملكُ، أنا الديَّان، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنةَ، وأحدٌ من أهل النار يطلبُه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة، حتى اللَّطمة. قال: قلنا: كيف هو، وإنما نأتى الله تعالى عُراةً غُرْلاً بُهْمًا؟! قال: بالحسنات والسيئات»[1].

ولقد خرج ذات سنة إلى بلاد الروم غازيًا فى سبيل الله. وكان الجيش بقيادة مالك بن عبد الله الخثعمى. وكان مالك يطوف بجنوده وهم منطلقون ليقف على أحوالهم، ويشد من أزرهم، ويُولى كبارهم ما يستحقـونه من

(١) أخرجه أحمد فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد، «باب المعانقة» وذكره فى صحيحه بصيغة الجزم فى كتاب العلم، «باب الخروج فى طلب العلم». والحاكم فى المستدرك وصححه، ووافقه الذهبى.

عناية ورعاية. فمر بجابر بن عبد الله، فوجده ماشيًا... ومعه بغلٌ له يمسك بزمامه، ويقوده. فقال له: ما بك يا أبا عبد الله؟ لِمَ لا تركب؟! وقد يسَّر الله لك ظهرًا يحملك عليه. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرَّت قدماهُ فى سبيلِ الله حرَّمه الله على النار». فتركه «مالكٌ» ومضى حتى غدا فى مُقدمة الجيش. ثم التفت إليه، وناداه بأعلى صوته، وقال: يا أبا عبد الله، مالك لا تركب بغلك، وهو فى حوزتك؟! فعرف جابرٌ قصده، وأجابه بصوتٍ عالٍ وقال: لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرَّت قدماه فى سبيلِ الله حرَّمه الله على النار».

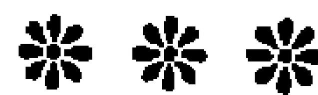
فتواثب الناس عن دوابهم... وكلٌ منهم يريد أن يفوز بهذا الأجر. فما رُئى جيش أكثر مُشاةً من ذلك الجيش.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالطاعة والعلم والدعوة والتضحية والجهاد فى سبيل الله تعالى نام جابر على فراش الموت بعد أن قارب التسعين من عمره، وذهب بصره فى الوقت الذى أنار الله به بصائر مئاتٍ من البشر بعلمه وورعه وتقواه لله.

ورحل (جابر) عن الدنيا ليلحق بالحبيب ﷺ وبأبيه (عبد الله بن عمرو بن حرام) وبسائر الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن جابر وعن سائر الصحابة أجمعين



عمرو بن الجموح

كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان بلا إيمان ريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال ولا تسكن إلى قرار أينما تميلها الريح تميل ـ والفرد بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور ـ إنسانٌ قَلِقٌ متبرم حائر لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده.

لا يدرى من ألبسه ثوب الحياة ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه وأذنه لا تسمع، وعينه لا تُبصر، والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى.

فهو مجتمع شقاء وإن ذخر بأدوات الرفاهية والرخاء ـ فالمجتمع بلا إيمان مجتمعٌ مهين رخيص؛ لأن غاية أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم وفروجهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوة ولا تقوى من ضعف ولا ترتقى من هبوط إلا بعد أن يلامس الإيمان شغاف القلوب، ونحن نعلم جميعًا أن هدم الجبال أو تحويل مياه النيل أو تغيير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول، وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان هو الشيء الوحيد الذى تغيرت

به القلوب وتنورت به العقول، فالإيمان بالله وحده هو الذى يصنع العجائب ويغير وجهة الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة ـ فلو أنك كنت تعرف إنسانًا فى جاهليته ثم رأيته مرة أخرى بعد إسلامه أو بعد توبته (إن كان من عصاة المسلمين) لرأيت إنسانًا آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته!!![1].

وها نحن على موعدٍ مع معجزة من معجزات الإيمان التى تصور لنا مشهدًا عظيمًا لسيدٍ من سادات (بنى سلمة) كان قد اتخذ صنمًا يُدعى «مناف» ليتبرك به ويذبح له ويدعوه ليلاً ونهارًا.

ولقد كان يحب هذا الصنم حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده، مما جعله يعتنى به أشد العناية فيأتى إليه بأطيب أنواع العطور، ويضمِّخه بها، ولا يُقدم على أى أمرٍ إلا بعد أن يأذن له ذاك الصنم ـ فيما يزعم ـ وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه حتى رأى الحقيقة التى جعلته يخجل مما كان يفعله أيام الجاهلية، وأقبل بقلبه وجوارحه على خدمة هذا الدين والذود عن حياضه... مستعذبًا العذاب فى سبيل الله، فلقد جعل نفسه وماله وولده فى خدمة هذا الدين العظيم.

قصة إسلامه

عن عكرمة، قال: قَدِم مصعب بن عمير المدينة يُعلِّم الناس. فبعث إليه عمرو بن الجموح: ما هذا الذى جئتمونا؟ قالوا: إن شئت جئناك، فأسمعناك القرآن؟ قال: نعم. فقرأ صدرًا من سورة «يوسف».

فقال عمرو: إن لنا مؤامرة[2] فى قومنا. وكان سيد بنى سلمة. فخرجوا، ودخل على مناف[3].

(١) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون/ للمصنف (ص ٦٥ : ٦٧) ط. دار الفردوس.

(٢) المؤامرة: المشاورة.

(٣) مناف: صنم كان يُعبد قبل الإسلام.

فقال: يا مناف! تعلم والله ما يريد القوم غيرك، فهل عندك من نكير؟ قال: فقلده السيف وخرج، فقام أهله فأخذوا السيف، فلما رجع، قال: أين السيف يا مناف؟ ويحك! إن العنز لتمنع إسْتها[1]، والله ما أرى فى أبى جعار غدًا من خير.

ثم قال لهم: إنى ذاهب إلى مالى فاستوصوا بمناف خيرًا. فذهب، فأخذوه فكسروه وربطوه مع كلب ميت وألقوه فى بئر، فلما جاء قال: كيف أنتم؟ قالوا: بخير يا سيدنا، طهر الله بيوتنا من الرجس.

قال: والله إنى أراكم قد أسأتم خلافتى فى مناف. قالوا: هو ذاك، فانظر إليه فى ذلك البئر. فأشرف فرآه، فبعث إلى قومه فجاءوا فقال: ألستم على ما أنا عليه؟ قالوا: بلى، أنت سيدنا، قال: فأُشهدكم أنى قد آمنتُ بما أُنزل على محمد[2].

وفى رواية[3]: أنه كان عمرو بن الجموح سيدًا من سادات بنى سلمة، وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب، يقال له: مناة ــ أو مناف ــ كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويُظهره، فلما أسلم فتيان بنى سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ ابن عمرو [بن الجموح]، فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يُدلجون[4] بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حُفر بنى سلمة، وفيها عذَر الناس ــ مخلفاتهم ــ مُنكسًا على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم! مَن عدا على إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله

(١) تمنع إستها: تحفظ عورتها.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٢٥٣ ــ ٢٥٤).

(٣) هذه القصة ذكرها الذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٣، ٢٥٤) وأسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٢٠٧ ــ ٢٠٨) وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٤) يدلجون: يسيروا من آخر الليل وقيل: ساروا الليل كله.

وطهَّره وطيَّبه؛ ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخزينَّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويُطهره ويُطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيّبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنى والله ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه. فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة، فيها عِذَر من عِذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به.

فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلبٍ ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من [رجال] قومه، فأسلم برحمة الله وحَسُن إسلامه.

فقال حين أسلم وعَرَف من الله ما عرف، وهو يذكر صَنَمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العَمَى والضلالة:

والله لو كنتَ إلهًا لم تكنْ ... أنت وكلبٌ وسط بئرٍ فى قرن(١)
أُفٍّ لملقاك إلهًا مُستدنْ ... الآن فتشناك عن سُوء الغبنْ(٢)
الحمدُ لله العلىِّ ذى المِنَنْ ... الواهبِ الرزّاق ديّان الدِّين(٣)

---

(١) القرن: بفتح القاف والراء قيل: هو شىء من لحاء شجر يفتل منه حبل. وقيل: الحبل من اللحاء. وقيل: هو الخصلة المفتولة من العهن.

(٢) مستدن: أى ذليل مستعبد، وقال السهيلى فى «الروض» هو من السدانة وهى خدمة البيت. والغبن: يكون فى الرأى تقول غبن رأى فلان كما تقول سفهت نفس فلان.

(٣) الدين: جمع دينة وهى العادة. ويجوز أن يكون أراد الأديان أى: هو ديان أهل الأديان ولكنه جمعها على دين كما يجمع نحول نحل وملل..

ومنذ اللحظة الأولى التى أعلن فيها عمرو بن الجموح إسلامه اجتث الإيمانُ الضلال والزيف من قلبه، ووجد فى الإسلام متعة ولذة، حيث اكتشف حياته من جديد بعد أن قضى زمنًا طويلاً فى ظلمات الجاهلية ومتاهاتها، ورأى بعينه ما فى الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك ليس له قرار، ورأى كذلك أن أُفُقَه أخذ يتسع، وأموره بدأت تستقيم، ونفسه الكبيرة قد تحولت إلى الخير، وعمله أضحى ذا هدف بعد أن كان لا معنى له[1].

وهكذا أضحى عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنه ـ واحدًا من الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله منذ أن عرف طريق الهداية، وقد بدأ إيمانُه يثمر منذ الدقائق الأولى، وبدأت ثماره تؤتى أُكُلها، وطرح كل أدران الجاهلية عن نفسه، وراح يشكر الله ـ تعالى ـ الذى أخرجه من الظلمات إلى النور، وأنقذه مما كان فيه من الضلالة، وقد عبّر عن ذلك في قصيدة له يقول فيها:

أتوب إلى الله مما مضى ... وأستنقذ اللهَ من ناره
وأُثنى عليه بنعمائه ... إليه الحرام وأستاره
فسبحانه عدد الخاطئين ... وقطر السماء ومدرارَه
هدانى وقد كنت فى ظلمة ... حليف مناة وأحجاره
وأنقذنى بعد شيب القُذا ... ل[2] من شين ذاك ومن عاره
فقد كدتُ أهلك فى ظلمة ... تدارك ذاك بمقداره
فحمدًا وشكرًا له ... ما بقيت إله الأنام جبارَه
أريد بذلك إذا قلتُهُ ... مجاورة الله فى داره[3]

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٤٨).
(٢) القُذال: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.
(٣) حياة الصحابة (١/ ٢٣٢).

وعاش (عمرو) ـ رضى الله عنه ـ أسعد أيامه فى ظل هذا الدين العظيم، وفى صحبة الحبيب ﷺ الذى أحبَّه من أعماق قلبه حبًا جمًا.

وكانت نفسه قد اشتاقت إلى الجهاد فى سبيل الله والشهادة في سبيله ليكفِّر الله عنه ما أسلف من الذنوب والسيئات.. وذلك لأنه أسلم وكان عمره قد جاوز الستين من عُمره.

فلما كانت غزوة بدر أراد (عمرو) أن يخوضها فمنعه أولاده خوفًا عليه لكبر سنه وضعفه.. فتألم لذلك ألمًا شديدًا.

وفى تلك الغزوة سطَّر ابنه (معاذ بن عمرو) صفحة مضيئة على جبين التاريخ عندما شارك فى قتل أبى جهل.

يقول معاذ: «جعلت أبا جهل يوم بدر من شأنى. فلما أمكننى حملتُ عليه، فضربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه، وضربنى ابنه عكرمة بن أبى جهل على عاتقى، فطرح يدى وبقيت معلقة بجلدة بجنبى وأجهضنى عنها القتال، فقاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت قدمى عليها ثم تمطأت عليها حتى طرحتها»[1]... قال الإمام الذهبى:

فهذه والله الشجاعة، لا كآخر ينقطع قلبه وتخور قواه من خَدْش بسهم.

وانطلقت سيوف المسلمين تحز فى الأعناق، وتبتر الأيدى، وتبعثر الأشلاء، وقد ألقى الله ـ تعالى ـ الرعب فى قلوب المشركين، ولم تمض ساعات قليلة حتى تحقق النصر للمسلمين، وعادوا وبشاراتُ النصر قد سبقتهم إلى المدينة، ونادى أن قُتل أبو جهل وقُتل معه عدد من كفار قريش وفرسانهم، واستطار فؤاد عمرو بن الجموح فرحًا بصنيع ولده معاذ وقتله أبا جهل، وحمد الله الذى جعل أولاده يكسبون شرف الجهاد وغايته[2].

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١). وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٥١).

النبي ﷺ يزكيه بين قومه

لقد كان (عمرو) ـ رضى الله عنه ـ مفطوراً على الجود والكرم والسخاء وعلى الرغم من ذلك فإنه لما أسلم وخالط الإيمان شغاف قلبه زاد جوده وكرمه، فجعل ماله وولده فى خدمة دينه وإخوانه.

وها هو الحبيب ﷺ يوضح ويبين منزلة عمرو بن الجموح بين قومه وعشيرته.

فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا بنى سلمة! مَن سيدكم؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، وإنا لنبخّله ـ نتهمه بالبُخل ـ قال: «وأى داءٍ أدوى من البُخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح»(١).

وحان وقت الرحيل

لقد كان ـ رضى الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجه إلى أُحُد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنَّى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى فى الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ، فقُتل يوم أُحُد شهيداً»(٢).

قالت امرأته هند أخت عبد الله بن عمرو بن حرام: كأنى أنظر إليه قد

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأبو نعيم فى الحلية، وقال الأرنؤوط: وهذا سند قوى.

(٢) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه فى المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبى قتادة، وصحح الألبانى إسناده فى تحقيق فقه السيرة هامش (٢٨١).

أخذ دَرَقته وهو يقول: اللهم لا تردَّنى.

هكذا كان يتمنى الشهادة من كل قلبه ولا يتمنى أن يرجع سالمًا غانمًا فقد علم أن الغنيمة التى لا يجب أن تفوته أبدًا هى الفوز بالشهادة، ومن ثَم بالخلود فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ فلما كان يوم أُحُد قال رسول الله ﷺ «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين» فقام وهو أعرج فقال: «والله لأقحزنَّ(١) عليها فى الجنة»، فقاتل حتى قُتل(٢).

وفى رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قاتلتُ فى سبيل الله حتى أُقتل، أأمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ «نعم». فقُتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمر رسول الله ﷺ فقال: «كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا فى قبرٍ واحد(٣).

لقاء الأحباب بعد الشهادة

عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير العُذرى، حليف بنى زُهرة: أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على القتلى يوم أُحُد، قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جريح يُجرحُ فى [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جُرحه، اللون لون دم، والريحُ ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر» ـ وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر [الواحد](٤).

---

(١) القحز: الوثب والقلق.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٢٥٣).

(٣) قال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن ـ رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).

(٤) أورده الهيثمى فى المجمع (٦/ ١١٩) وقال: رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائي والبيهقى (٤/ ١١) ورجاله رجال الصحيح.

وقال ابن إسحاق: عن أشياخ من بنى سلمة: أن رسول الله ﷺ، قال يومئذ، حين أمر بدفن القتلى: «انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حَرام فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبرٍ واحد»[1].

كرامة ثابتة (لعمرو) بعد موته

وفى أيام معاوية ـ رضى الله عنه ـ كان السيلُ قد خرَّب قبرهما، فحفر عنهما ليُغيَّرا من مكانهما، فوُجدا لم يتغيَّرا، كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرح، فوضع يده على جرحه، فدفن كذلك. فأُميطت يدُه عن جُرحه، ثم أُرسلت، فرجعت كما كانت. وكان بين يوم أُحُد ويوم حُفِرَ عنهما ستٌ وأربعون سنة[2].

وهكذا رحل الشهيد عن دنيانا ليمشى برجله فى الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن (عمرو) وعن سائر الصحابة أجمعين



(١) رواه أحمد (٥/ ٢٩٩) وابن سعد (٢/ ٥٦٢) وذكره ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) وعزاه إلى أحمد فى مسنده بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن سعد، وقال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): صحيح.

سعد بن الربيع

يا رسول الله ﷺ أجد ريح الجنة

سعد بن الربيع (رضي الله عنه)

إن الأخوة الصادقة أصبحت عُملة نادرة فى زمن الغربة الثانى الذى نعيشه الآن. . . فلا تكاد ترى أخًا صادقًا فى أُخوته ـ إلا من رحم الله ـ.

ولقد ضرب أصحاب النبى ﷺ المثل والأسوة والقدوة فى الأخوة الصادقة.

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع هذا الصحابى الجليل سعد بن الربيع الأنصارى الخزرجى البدرى النقيب الشهيد الذى لا يستطيع إنسان أن يذكر معنى الأخوة الصادقة إلا ويجعل سعدًا متربعًا على عرش الأخوة.

كان سعد ـ رضى الله عنه ـ أحد النقباء ليلة العقبة واستشهد يوم أُحد.

الأخوة الصادقة

لقد صدق أصحاب النبى ﷺ فى كل شىء حتى فى محبتهم لإخوانهم، فلم يطمع أحدهم فيما عند أخيه بقدر طمعه فى حُب أخيه، فلم يحمل أحدهم شيئًا فى صدره لأخيه، بل حملوا الحب والوفاء لإخوانهم.

قال الإمام الشافعى:

أُحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنال بهم شفاعة
وأكره مَن تجارتهم معاصى وإن كنا سويًا فى البضاعة

فقال له الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ومنكم سوف يلقون الشفاعة
وتكره مَن تجارتهم معاصى وقاك الله من شر البضاعة

ولذا فإن المؤمن لابد أن يحرص على صحبة المؤمنين الصادقين ولابد أن يتعاهدوا من الآن على أن يشفعوا لبعضهم البعض فى هذا اليوم العصيب، وبذلك تكتمل معانى الأخوة فى الدنيا والآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك يجب أن تحرص على أن تحمل فى قلبك كل المحبة لإخوانك ولا تجعل فى قلبك غشًا ولا حسدًا لأحد من المسلمين.

ولعلكم تعلمون قصة الرجل الذى قال عنه النبى ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إنى لاحيت أبى، فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت. قال: «نعم»... قال أنس: فكان عبد الله يحدِّث أنه

بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار (تقلَّب على فراشه) ذكر الله وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر... قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التى بلغت بك، وهى التى لا تُطاق[1].

يقول النبى ﷺ: «مَن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[2].

وليس هذا فحسب، بل إن المحبة من أجل الله توجب محبة الله للعبد.

إن الله تعالى يقول: «حقت محبتى للمتحابين فىَّ وحقت محبتى للمتواصلين فىَّ وحقت محبتى للمتناصحين فىَّ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ، المتحابون فىَّ على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء»[3].

بل يصبح من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله.

فقد قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: ـ وذكر

---

(١) رواه أحمد والنسائى وقال ابن [illegible] فى تفسيره (٤/ ٣٣٨) وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

(٢) رواه أبو داود والضياء عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٥).

(٣) رواه أحمد والحاكم والطبرانى فى الكبير عن عبادة بن الصامت ـ صحيح الجامع (٤٣٢١).

منهم ـ ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(١).

ولقد كانت تلك المحبة سببًا فى وجوب الجنة لرجلٍ يحب أخاه من أجل الله عز وجل.

قال ﷺ: «إن رجلاً زار أخًا له فى الله فأرصد الله له ملكًا، فقال أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخى فلانًا، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا. قال: فبنعمة لك عنده؟ قال: لا. قال: فبِمَ؟ قال: أحبه فى الله. قال: فإن الله أرسلنى إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة»(٢).

يقول الشافعى رحمة الله عليه:

إذا المرءُ لا يرعاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تُكثر عليه التأسفا
ففى الناس إبدالٌ وفى الترك راحةٌ ... وفى القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبُه ... ولا كل من صافيتَه لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً ... فلا خير فى خِلٍّ يجىء تكلفا
ولا خير فى خِلٍّ يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشًا قد تقادم عهدُه ... ويُظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن ... بها صديقٌ صدوقٌ صادق الوعد منصفا(٣)

* * *

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٦٠٣)، ورواه أحمد والترمذى والنسائى ومالك.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٥٦٧) بطرف «زار رجل....» الصحيحة (١٠٤٤) البخارى فى الأدب المفرد (٥٥/ ٥).

(٣) نقلاً من كتاب «صدقوا ما عاهدوا» للمصنف ـ ط. دار الفردوس.

ولقد بدأت حديثى عن الصحابى الجليل (سعد بن الربيع) ـ رضى الله عنه ـ بالكلام عن الأُخوة، وذلك لأنه ضرب المثل الأعلى فى الأخوة حتى إننا لا نستطيع أن نتحدث عن أمر الأخوة إلا ونذكره بقلوبنا قبل ألسنتنا.

لقد نشأ (سعد) فى أسرة عريقة فلقد كان والده (الربيع بن عمرو) من سادات بنى الحارث الخزرجيين.

وأمه هزيلة بنت عنبة من القبيلة نفسها.

ولما كان اليهود يعيرون العرب بأنهم أمة أمية.. أرسل الربيع ولده (سعدًا) ليتلقى الكتابة والقراءة.

وأصبح (سعد) سيدًا وتحلَّى بالأخلاق والآداب التى يتحلى بها رئيس القوم، بل وأصبح جديرًا بحب الخزرج واحترامهم.

ولقد امتن الله عليه بعقلٍ سليمٍ ناضج وقلبٍ يحب الخير لكل مَن حوله، ولذلك كان يبغض الخلافات والحروب التى تدور من حوله.

وها هو على موعدٍ مع القدر ومع السعادة الأبدية.

فلقد كان النبى ﷺ يدعو الناس فى مواسم الحج.

وذات يومٍ خرج رسولُ الله ﷺ فى المَوْسم الذى لقيه فيه النفرُ من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كلّ مَوْسم، فبينما هو عند العقبة لَقِيَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا.

فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نَفَر من الخزرج، قال: «أمِنْ موالى يَهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلّمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعَرض عليهم الإسلامَ، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام، أنَّ يهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهلَ شِركٍ وأصحابَ

أوثان وكانوا قد غَزَوْهم[١] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا لهم: إن نبيًا مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانُه، نَتَّبعه فنقتلكم قتلَ عاد وإرَم. فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلَّمُوا والله إنه للنبيّ الذى توعَّدُكم به يهود، فلا يسبقُنّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدّقوه وقَبِلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنَا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدمَ عليهم، فَندعوهم إلى أمرك، ونَعْرِض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدِّين، فإنْ يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزَّ منك.

ثم انصرفوا عن رسولِ الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا[٢].

فلما قَدِمُوا المدينة إلى قومهم ذَكَروا لهم رسول الله ﷺ وَدَعوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ.

قال: حتى إذا كان العامُ المُقْبِل وَافَى المَوْسِمَ من الأنصار اثنا عشرَ رجلاً، فَلَقُوهُ بالعقبة. [قال]: وهى العقبة الأولى، فبايعوا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب.

وقام مصعب ـ رضى الله عنه ـ يحمل أمانة الدعوة إلى الله فاستطاع أن يستميل القلوب وأن يأخذ بأيدي العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الآخرة. حتى أسلم على يديه سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وغيرهم من الصادقين ـ

(١) غزوهم: أى غلبوهم، وقهروهم. وفى بعض النسخ: «عزوهم».

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤) والطبرى فى تاريخه (١/ ٥٨٨)، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/ ٢٦٢) وذكره الغزالى فى فقه السيرة (ص ١٧٢) وحسنه الألبانى.

رضى الله عنهم ــ وكان من بينهم سعد بن الربيع ــ رضى الله عنه ــ الذى كان على موعدٍ مع سعادة الأبد وخيرى الدنيا والآخرة.. فلقد لامس الإيمان شغاف قلبه.

وما إن أسلم (سعد) حتى تاقت نفسه إلى لقاء الحبيب ﷺ.

لقاء مع الحبيب ﷺ

ثم بعث رسولُ الله ﷺ معهم مُصعب بن عُمير، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويُعلِّمهم الإسلام، ويُفقِّههم فى الدِّين، فكان يُسمَّى المقرئ بالمدينة: مُصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة، أبى أمامة(١).

وكان من بين مَن خرج لمبايعة النبى ﷺ بيعة العقبة الثانية (سعد بن الربيع) ــ رضى الله عنه ــ الذى كان فى أشد شوقه للقاء الحبيب ﷺ لينهل من هذا المعين الصافى ما يُثلج صدره وليقبس من هديه وحكمته وأخلاقه العذبة.

وامتدت يده لتصافح الحبيب ﷺ ولتبايعه.

ثم عاد (سعد) إلى المدينة وقد امتلأ قلبه بالسعادة التى لو قُسمت على أهل الأرض لوسعتهم أجمعين.

الهجرة المباركة

ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب ﷺ أذِن لهم بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة).

وخرج المهاجرون إلى يثرب فراراً بدينهم من بطش قريش، فنزلوا فى رحاب إخوانهم من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان... الذين قال الله عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ

---

(١) أخرجه الطبرى فى تاريخه (١/ ٥٥٩) عن ابن إسحاق... به وذكره ابن حجر فى الفتح (٧/ ٢٦٤)، وقال: وذكر ابن إسحاق... الحديث.

فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ولما استقر المقام بالحبيب ﷺ في المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وهنا ظهرت نوادر الإخاء والحب والتضحية بصورة لا يتصورها عقل ولا تخطر ببال أحدٍ من البشر، فكانت تلك الأخوة التي لا تتكرر أبدًا عبر العصور والأزمان.

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وها هو سعد بن الربيع الذي تعايش مع كل آية من آيات القرآن ومع كل حديث من أحاديث النبي ﷺ... يحقق معنى الأخوة كما أرادها الحق ــ جل جلاله ــ.

فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ــ وكان كثير المال ــ فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً سأقسم مالي بيني وبينك شطرين ــ نصفين ــ ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلَّت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن وأقط[1]، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضرٌ من صفرة فقال له رسول الله ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «ما سُقت فيها؟» قال: وزن نواة من ذهب ــ أو نواة من ذهب ــ فقال: «أولِم ولو بشاة»[2].

وإن إعجاب المرء بسماحة (سعد) لا يعدله إلا إعجابه بنُبل (عبد الرحمن)

---

(١) الأقط: قطع الجبن.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨١) والطبراني في الكبير (٥٤٠٤).

الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبزّهم فى ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه.. ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان(١).

نعم فإن الإسلام دين يحث على العمل ولا يرضى بالتواكل ولا يرضى بأن يخدش المسلم حياءه أو يُذهب ماء وجهه من أجل أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

قال الحسن البصرى: والله لقد رأيتُ أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيتُ أقوامًا يُمسى أحدُهم ولا يَجدُ عنده إلا قوتًا، فيقول: لا أجعل هذا كلَّه فى بطنى، فيتصدَّق ببعضه، ولعلّه أحوج إليه ممن يتصدق عليه.

فانظر عندما تعفف عبد الرحمن بن عوف ورفض العطاء الذى عرضه عليه سعد بن الربيع عوّضه الله خيراً كثيراً وتزوج فى وقت قياسى «ومن يستعفف يُعفه الله»(٢). فلقد كان زواج المسلمين ميسوراً بأمر الله.

ولم يكن هذا الموقف الإيمانى فى تحقيق معنى الأخوة الصادقة مقصور على (سعد بن الربيع) فحسب، بل لقد كان الأنصار يضربون المثل والأسوة فى الحرص على القيام بحقوق الأخوة الصادقة.

وقد مدح الله ـ عز وجل ـ الأنصار بالإيمان والإيثار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) فقه السيرة للشيخ الغزالى (ص: ١٩٣).

(٢) أخرجه البخارى وأحمد عن حكيم بن حزام ـ صحيح الجامع (٨١٩٦).

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «من يضم ــ أو يضيف ــ هذا» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى فقال: هيئى طعامك، وأصبحى سراجك، ونوِّمى صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها. ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غَدَا إلى رسول الله ﷺ. فقال: «ضحك الله الليلة ــ أو عجب ــ من فعلكما فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] [الحشر: ٩].

وعن ابن الأعرابى قال: استشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل، وسهيل ابن أبى جهل، وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وجماعة من بنى المغيرة، فأُتوا بالماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا، ولم يذوقوه؛ أُتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا به، فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسى أنتم[2].

وعن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلىَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمى إلىَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات،

(١) أخرجه البخارى (٧/ ١٤٩) مناقب الأنصار.
(٢) التبصرة (٢/ ٢٥٩).

فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ[١].

يا رسول الله أجد ريح الجنة !!!

وفى غزوة أُحد قاتل سعد بن الربيع قتالاً شديدًا ليظفر بتلك الأمنية التى كانت تشغل قلوب الصحابة جميعًا ـ ألا وهى الشهادة فى سبيل الله ـ.

ولما انتهت تلك الغزوة بدأ النبى ﷺ يتفقد القتلى والجرحى.

قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب (سعد بن الربيع) فقال لى: «إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنةٍ برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرنى كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته[٢].

وفى رواية: أنه «لما كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رجلٌ ينظرُ لى ما فعل سعدُ بن الربيع؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فخرج يطوف فى القتلى، حتى وجد سعدًا جريحًا مثبتًا بآخر رمق، فقال: يا سعد، إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر: أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟! قال: فإنى فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ السلام، وقل: إن سعدًا يقول: جزاك الله عنى خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك منى السلام، وقل لهم: إن سعدًا يقول لكم: إنه لا عُذرَ لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم ـ أى أصابه

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى (٣/ ٢٧٤).

(٢) رواه ابن هشام (٢/ ٩٤ ـ ٩٥) والحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبى.

مكروه ـ وفيكم عين تطرف»[١].

حفظ الله لذريته من بعده

عن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد، فقالت: يا رسول الله! هاتان بنتا سعد، قُتل أبوهما معك يوم أُحُد شهيداً، وإنَّ عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك» فأُنزلت آيةُ المواريث، فبعث إلى عمهما فقال: «أعطِ بنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك»[٢].

وهكذا يحفظ الله العبد الصالح وذريته من بعده كما جاء في سورة الكهف في شأن الغلامين اليتيمين.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فرضي الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) الإصابة (٤/ ١٤٤) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٤٥) والسيرة لابن هشام (٢/ ٩٤ ــ ٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) والترمذي (٢٠٩٣) وصححه.. ونقل المنذري تحسينه له وهو الأصح.

حارثة بن النعمان

سمعه النبى ﷺ يقرأ القرآن فى الجنة

إننى أُهدى تلك الكلمات لكل شابٍ مسلمٍ، ولكل أختٍ مسلمة... إلى كل من يريد أن يعرف قدر الوالدين وبر الوالدين فعليه أن يعيش بين حنايا تلك السطور.

إننا مع مثالٍ ضرب القدوة لكل شباب الأمة فى البر بالوالدين. إنه حارثة ابن النعمان الذى سمعه النبى ﷺ يقرأ القرآن فى الجنة!!!.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «نمت فرأيتنى فى الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان فقال لها رسول الله ﷺ كذاك البر كذاك البر». وكان أبر الناس بأمه[1].

قال عنه الإمام الذهبى: شهد بدراً والمشاهد ولا نعلم له رواية وكان ديِّنًا خيِّرًا برًا بأمه[2].

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ من كان فى هذه الأُمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان ـ رضى الله عنهما ـ أما عثمان: فإنه قال: ما قدرتُ أتأمَّل وجه أمى منذ

(١) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (٦/ ١٥١) وأبو يعلى (٧/ ٣٩٩) والحاكم (٣/ ٢٠٨) بسند صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٨).

أسلمتُ. وأما حارثة: فكان يُطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قطُّ تأمُر به، حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمى؟»[1].

وتعالوا بنا لنبدأ قصته المباركة من أولها.

فإنه فى موسم من مواسم الحج لقى رسول الله ﷺ نفرًا من الخزرج اليثربيين، وعرض عليهم الإسلام، وقد تعرَّف على هويتهم، وتأكد أنهم من موالى اليهود، ولم يستغرب هؤلاء النفر الحديث عن الله وعن الرسل، والكتب المنزلة، فهذا الحديث قد طرق مسامعهم من قبل، إذ سمعوه من اليهود (جيرانهم) أكثر من مرة، ولما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتلا عليهم القرآن الكريم وجد الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً، فأعلنوا إسلامهم، وواعدوا الرسول الكريم ﷺ أن يدعوا إلى الله، وإلى الإسلام فى بلدهم يثرب.

انطلق الخزرجيون الستة نحو بلدهم، ووفَّوا بوعدهم لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونشروا الإسلام بين صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام فى المدينة، ولما كان العام المقبل جاء اثنا عشر رجلاً منهم، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، ولما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ أحد أصحابه النُجباء، وهو مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، فقام مصعب بن عمير بمهمته خير قيام، واستطاع بما آتاه الله من حِكمة وأناة أن يستميل قلوب أهل المدينة من أوس وخزرج، وقد وصلت أنباء الدعوة إلى الإسلام إلى سمع «حارثة بن النعمان» فانطلق إلى الداعية المكى، وأعلن إسلامه، واستطار قلبه فرحًا حينما أسلمت أمُّه «جعدة بنت عبيد»؛ لأنه كان بارًا بها أشد البر، وأسلمت كذلك

(١) التبصرة (١/ ١٨٨).

أسرته كلها[١].

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى (يثرب) المدينة المنورة قام الأنصار على قلب رجلٍ واحدٍ لاستقبال الحبيب ﷺ وصاحبه ـ رضى الله عنه ـ وقلوبهم قد امتلأت بالبهجة والسعادة والفرحة.

وكان من بين هؤلاء الذين خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ (حارثة بن النعمان).

وازدادت فرحة (حارثة) عندما رأى النبى ﷺ قد نزل فى دار أبى أيوب الأنصارى، وذلك لأن حارثة كان من بنى النجار فضمن بذلك أن يكون قريبًا من النبى ﷺ.

فكان (حارثة) يتردد كثيراً على الحبيب ﷺ يتعلم على يديه ويقبس من هديه وأخلاقه السامية، فازداد حبًا للنبى ﷺ وكان الحبيب ﷺ يبادله الحب لما رأى عليه من نقاء القلب وصفاء السريرة وعلامات المروءة والصدق.

وكان حارثة ـ رضى الله عنه ـ يتمنى من كل قلبه أن يفدى الحبيب ﷺ بنفسه وبماله وبكل ما يملك.

فلما كانت غزوة بدر كان (حارثة) من بين فرسان المسلمين فخاض المعركة بكل بسالة وفداء وقوة وثبات.

وفى تلك المعركة انقضَّ على (عثمان بن عبد شمس) فأسره، ولما بعثت قريش فى فداء الأسرى.. أرسل (جبير بن مطعم) فى فداء (عثمان بن عبد شمس) ففاز حارثة بالأجر والفداء.

وشهد حارثة ـ رضى الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسطَّر على جبين التاريخ سطوراً من النور.

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٣٠٢) لأحمد خليل جمعة.

وفى يوم حُنين كان من المائة الصابرة فى ذلك اليوم. . . بل كان حريصًا على أن يكون قريبًا من النبى ﷺ خوفًا عليه من أن يصيبه مكروه.

جبريل ـ عليه السلام ـ يرد السلام على حارثة

قد يتفاخر الإنسان بأنه ذات يومٍ التقى برجلٍ من سادة القوم أو من أصحاب الشهرة فسلَّم عليه. . ولا يستطيع أن ينسى أبدًا هذا اليوم. . . فما ظنك بمن يسلم عليه أمير الملائكة جبريل ـ عليه السلام ـ.

عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل ـ عليه السلام ـ جالس فى المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبى ﷺ قال: «هل رأيت الذى كان معى؟» قلت: نعم. قال: «فإنه جبريل وقد رد عليك السلام»(١).

تكفّل الله برزق (حارثة) فى الجنة

عن حارثة بنَ النعمان أنه قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين: يوم الصَّوْرَيْن(٢) حين خرج رسولُ الله إلى بنى قريظة، مرَّ بنا فى صورة دحية، فأمرنا بلبس السلاح؛ ويوم موضعِ الجنائز حين رجعنا من حُنين، مررتُ وهو يكلم النبى ﷺ فلم أُسلِّم. فقال جبريل: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: حارثةُ ابنُ النعمان. فقال: أما إنه من المئة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم فى الجنة، ولو سَلَّم لرددنا عليه(٣).

واستمر حارثة ـ رضى الله عنه ـ يتابع رحلة جهاده ونضاله، ولما توفى رسول الله ﷺ ظل حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ مثال الجندى

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٣٣) بسندٍ صحيح ـ وذكره الحافظ فى الإصابة (١/ ٢٩٨). وقال: إسناده صحيح.

(٢) الصوران: موضع بالمدينة بالبقيع. وفى سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤): ومر رسول الله ﷺ وسلم بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بنى قريظة.

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣١٤) ونسبه للطبرانى والبزار وقال: إسناده حسن.

الأمين المخلص فى حياة الخلفاء الراشدين، ولم يتوقف جهاده وعطاؤه حتى لقى ربه. . . ورُوى أنه وقف موقفًا طيبًا من عثمان ــ رضى الله عنه ــ حيث قال له حينما حوصر: «إن شئت قاتلنا دونك»(١).

وبقى هذا الصحابى الجليل إلى خلافة معاوية ــ رضى الله عنه ــ ومات أثناء خلافته.

ومن ذريته: المحدِّث أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حارثة بن النعمان الأنصارى ولد عمرة الفقيهة التى أكثرت عن عائشة ــ أى فى الرواية ــ روى حديثها الستة(٢).

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن حارثة ــ رضى الله عنه ــ الذى ضرب المثل فى بره بأمه أن نُلقى الضوء على نبذة يسيرة من بر الوالدين.

بر الوالدين يفرج الله به الكربات

إن بر الوالدين جعله الله سببًا فى تفريج الكروب. . . ولذا أورد الإمام البخارى فى صحيحه حديثًا فى ذلك وبوّب له عنوانًا قال فيه: «باب إجابة دعاء مَن برَّ والديه».

قال ﷺ: بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحةً فادعوا الله بها لعلهُ يفرجُها. فقال أحدُهم: اللهم إنه كان لى ولدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار كنتُ أرعى عليهم، فإذا رُحتُ عليهم فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى، وإنه ناء بى الشجر فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما

(١) الإصابة (١/ ٢٩٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠) بتصرف.

قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما... والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرجْ لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء....»[١].

الفوز بدعوة الوالدين يجلب التوفيق في الدنيا والنجاة في الآخرة

رضا الرب في رضى الوالدين

فقد قال ﷺ: «ثلاث دعوات لا تُرد: دعوة الوالد لولده...»[٢].

فمن فاز بدعوة الوالدين فهو من الفائزين في الدنيا والآخرة لأن النبي ﷺ قال: «رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»[٣]... ومن فاز برضا الله فهو الفائز ومن باء بسخط الله فهو الخاسر.

بر الوالدين سبب لسعة الرزق وزيادة العمر

قال ﷺ: «من سره أن يُعظم الله رزقه وأن يمدّ في أجله فليصل رحمه»[٤].

وفي رواية للبيهقي: «فليبر والديه وليصل رحمه»... وبر الوالدين هو في الحقيقة شكرٌ لله فهو القائل: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]... فمن كان بارًا بوالديه كان شاكرًا لهما ومن كان شاكرًا لهما كان شاكرًا لله ومن كان شاكرًا لله فهو من أهل الزيادة... فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤١٨) (ح ٥٩٧٤) عن ابن عمر.
(٢) رواه الضياء عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٢).
(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٠٧).
(٤) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٢٩١).

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولن يُحرم العبد من المزيد حتى ينقطع من شكره لله ولوالديه.

بر الوالدين كفارة للكبائر

قال مكحول: «بر الوالدين كفارة للكبائر، ولا يزال الرجل قادراً على البر ما دام فى فصيلته من هو أكبر منه»(١).

وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال: (إنى خطبت امرأة، فأبت أن تنكحنى، وخطبها غيرى فأحبّت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لى من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تُب إلى الله ـ عز وجل ـ وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لِمَ سألته عن حياة أمه؟ فقال: إنى لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ـ عز وجل ـ من بر الوالدة)(٢).

بر الوالدين يعدل الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله!!

أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والديك أحدٌ حى؟» قال: نعم، بل كلاهما حى... قال: «فتبتغى الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسِن صحبتهما»(٣)... قال الإمام النووى: فى الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين، وأنه آكد من الجهاد. ا.هـ.

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه قال: «هل بقى من والديك أحد؟» قال: أمى. قال: «فاسأل الله فى

(١) شرح السنة للبغوى (١٣/ ١٣).
(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد.
(٣) أخرجه مسلم عن ابن عمرو (٤/ ١٩٧٥).

برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»[١].

بر الوالدين من أسباب حسن الخاتمة

نعم يا إخوانى فإن بر الوالدين طاعة لله ـ جل وعلا ـ ولقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ومن مات على شىء بُعث عليه... فمن عاش على بر الوالدين يموت على تلك الطاعة لله ـ جل وعلا ـ وها هو شاب عاش على بر الوالدين فلما حضرته سكرات الموت جاء الناس يلقنونه الشهادة فكان يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله.

بر الوالدين سبب للفوز برحمة الله ومغفرته

فإن كان الله قد غفر لامرأة من البغايا لأنها سقت كلبًا فكيف بمن يكون بارًا بوالديه يقدم لهما الطعام والشراب ويحسن معاملتهما ويرحمهما... فقد قال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى: ارحموا مَن فى الأرض يرحمكم مَن فى السماء»[٢].

بر الوالدين سبب لقبول الأعمال والتجاوز عن السيئات

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

---

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٣٨) عن أنس... وقال: رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون ووثقه ابن حبان.

(٢) رواه أحمد والترمذى عن ابن عمرو ـ صحيح الجامع (٣٥٢٢).

بر الوالدين سبب لدخول الجنة

فعن طيسلة بن مياس قال: (كنت مع النجدات فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر، قال: ما هى؟ قلت: كذا وكذا.

قال: ليست هذه من الكبائر) إلى أن قال: (قال لى ابن عمر: أتفرق من النار ـ أى أتخاف من النار؟ وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إى والله! قال: أحى والداك؟ قلت: عندى أمى، قال: فوالله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر)[١].

بابان من الجنة لمن بر والديه!!

روى البخارى (فى الأدب المفرد) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين ـ يعنى من الجنة ـ وإن كان واحدًا فواحد، وإن غضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه».

بر الوالدين بعد موتهما

إن بر الوالدين لا ينقطع أبدًا بموتهما... فعن أبى أسيد مالك بن ربيعة أنه قال: كنا عند النبى ﷺ، فقال رجل: «يا رسول الله! هل بقى علىَّ من برّ أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به؟» قال: «نعم، خصالٌ أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما»[٢].

ومن البر بهما بعد موتهما: قضاء ولى الميت صوم النذر عنه.

قال ﷺ: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»[٣].

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد والطبرى فى تفسيره.

(٢) رواه أبو داود فى الأدب ـ باب بر الوالدين (٥١٤٢) وإسناده حسن.

(٣) متفق عليه عن عائشة ـ صحيح الجامع (٦٥٤٧).

ومن البر بهما بعد موتهما: التصدق عنهما.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: (أن رجلاً قال: «إن أمى افتُلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولى أجر؟» قال: «نعم، فتصدق عنها»)(١).

فعلى الولد أن يكثر من الدعاء والاستغفار لوالديه وأن يتصدق عنهما وأن يحج عنهما بشرط أن يكون قد حج عن نفسه و.... بل عليه أن يجتهد فى طاعة الله فإن ذلك كله من البر بوالديه؛ لأنه من سعى والديه فأجر تلك الطاعات يُكتب له ولوالديه... فقد قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ـ وذكر منهم ـ أو ولد صالح يدعو له»(٢).

إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه

فعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمارٍ كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير... فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أبرَّ البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه». وفى رواية: «إنَّ من أبر البرّ صلة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولى»(٣).

وفى رواية: «احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك».

وعن ثابت البنانى عن أبى بردة قال: (قدمت المدينة، فأتانى عبد الله بن عمر، فقال: «أتدرى لِمَ أتيتك؟» قال: قلت: «لا» قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يصل أباه فى قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده»،

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود وأحمد عن عائشة.

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧٩٣).

(٣) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٥٢٥).

وإنه كان بين أبى: (عمر)، وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك»[١].

هكذا تكون زيارتك وصلتك بأصدقاء الوالد بعد موته هى فى ذاتها صلة لأبيك فى قبره... فاستمع لنداء الحبيب ﷺ واحفظ وُدّ أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك[٢].

فرضى الله عن حارثة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رواه ابن حبان عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٠).

(٢) (وبالوالدين إحسانًا) للمصنف (ص ٣٥: ٤١) بتصرف.

الفهرس

الموضـــوع | الصفحة



